

دراسات في التاريخ والآثار الإسلامية

مجموعة بحوث مهداة إلى أ.د. أحمد عبد الرازق أحمد

تحرير

د. طارق منصور   د. محاسن الوقاد

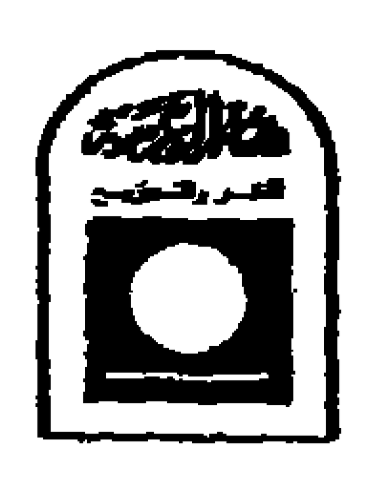


دراسات في التاريخ والآثار الإسلامية

دراسات في التاريخ و الآثار الإسلامية

تحرير

د.طارق منصور   د. محاسن الوقاد



مصر العربية للنشر والتوزيع

٢٠١٠

العنوان

دراسات في التاريخ والآثار الإسلامية

تحرير

د. طارق منصور

د. محاسن الوقاد

الطبعة

الأولى ٢٠١٠

الناشر

مصر العربية للنشر والتوزيع

١٩ ش إسلام- حمامات القبة- الزيتون- القاهرة

تليفاكس ٢٢٥٦٢٢٦٨ /ت ٢٤٥٠٥٨٦٣

رقم الإيداع

٢٠٠٩/١٧٤٢٨

I. S. B. N
977-5471-97-8

البريد الإلكتروني

masrelarabia@hotmail.com

الغلاف

وائل صلاح

تنفيذ داخلي

مها عصمت

بطاقة الفهرسة



منصور، طارق .
دراسات في التاريخ والآثار الإسلامية / تحرير طارق منصور ، محاسن الوقاد القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩
٢٩٠ ص ، ٢٤ سم
تدمك ٨ ٧٨ ٥٤٧١ ٩٧٧
١- الآثار الإسلامية ٢- التاريخ الإسلامي

٩١٥,٣

رقم الإيداع / ١٧٤٢٨ التاريخ: ٢٠٠٩/٩/١٠

المشاركون

الاسم	الصفة
د. أحمد الشوكي	مدرس الآثار الإسلامية بجامعة عين شمس
د. حسام عويس طنطاوي	مدرس الآثار الإسلامية بجامعة عين شمس
ا. سلطان بن مليح الأسمري	باحث في التاريخ الإسلامي بجامعة الطائف
د. سليمان عبد الغني المالكي	أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعتي أم القرى وطيبة، المملكة العربية السعودية.
د. سند أحمد سند	مدرس التاريخ الإسلامي بجامعة عين شمس
د. طارق منصور	أستاذ تاريخ العصور الوسطى المشارك بجامعتي عين شمس والطائف
د. محاسن محمد علي الوقاد	أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك بجامعة عين شمس
د. محمد حسام إسماعيل	أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة عين شمس
د. محمد نصر عبد الرحمن	أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك بجامعة عين شمس
د. مروة مصطفى قابيل	مدرس الدراسات القبطية، جامعة عين شمس.
د. ناجا عبد الحميد أبو النيل	مدرس بقسم الجغرافيا، جامعة عين شمس.
د. هبة يوسف	أستاذ مشارك بكلية السياحة والفنادق بجامعة حلوان

المحتويات*

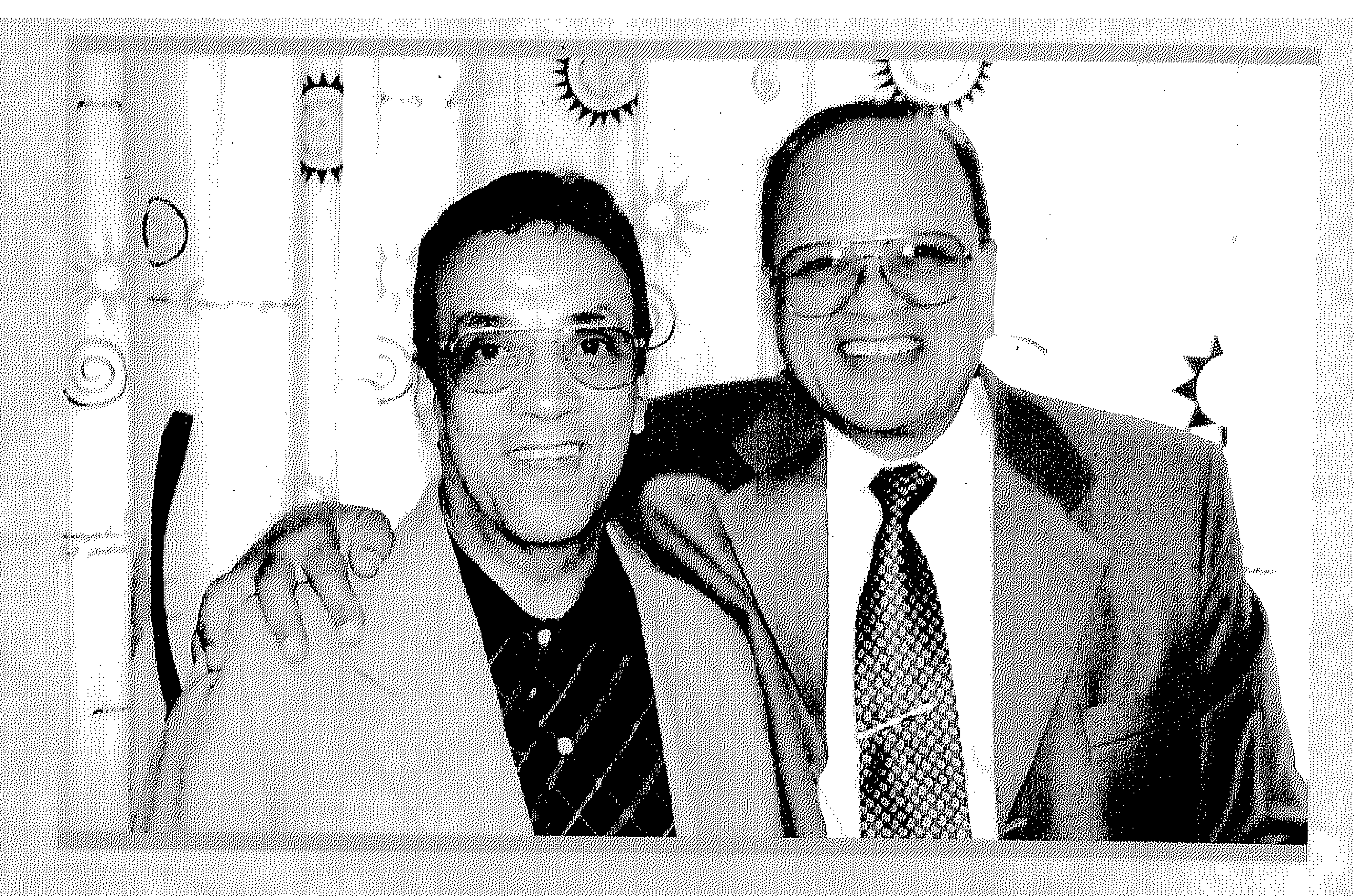
الدراسات غير العربية

---

* رتبت الأسماء والبحوث ترتيبا هجائيا.

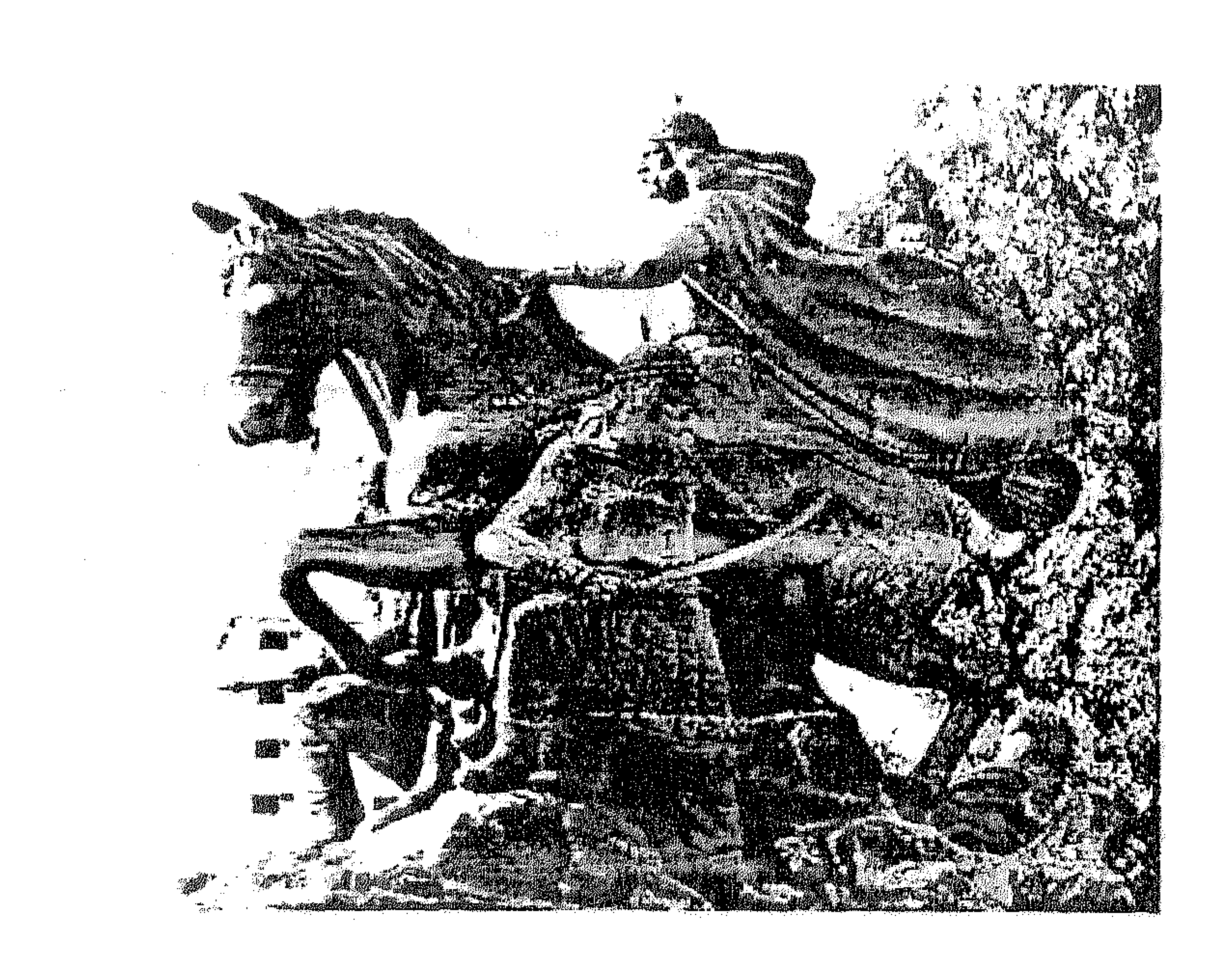


الأستاذ الدكتور/ أحمد عبد الرازق أحمد









مقدمة الكتاب

مقدمة

يعتبر ا.د. أحمد عبد الرازق واحد من صفوة المؤرخين والآثاريين المصريين، الذين تمكنوا من استثمار فرصة اللقاء مع الآخر... فعندما واتته فرصة السفر إلى فرنسا في أواخر الستينيات من القرن الماضي، لم يقطع رحلته هناك كباقي الطلاب العرب الدارسين في بـلاد الفرنجة-وحالهم معروف لنا- بل استطاع بصبره، وثقته بالله وبنفسه، وحرصه على تحصيل العلم من منابعه الأصيلة، وإجادته للغتين الفرنسية والانجليزية أن يشق طريقه بثقة وثبات بين أساتذته ممن وضعوا له اللبنات الأولى في درب العلم والمعرفة.

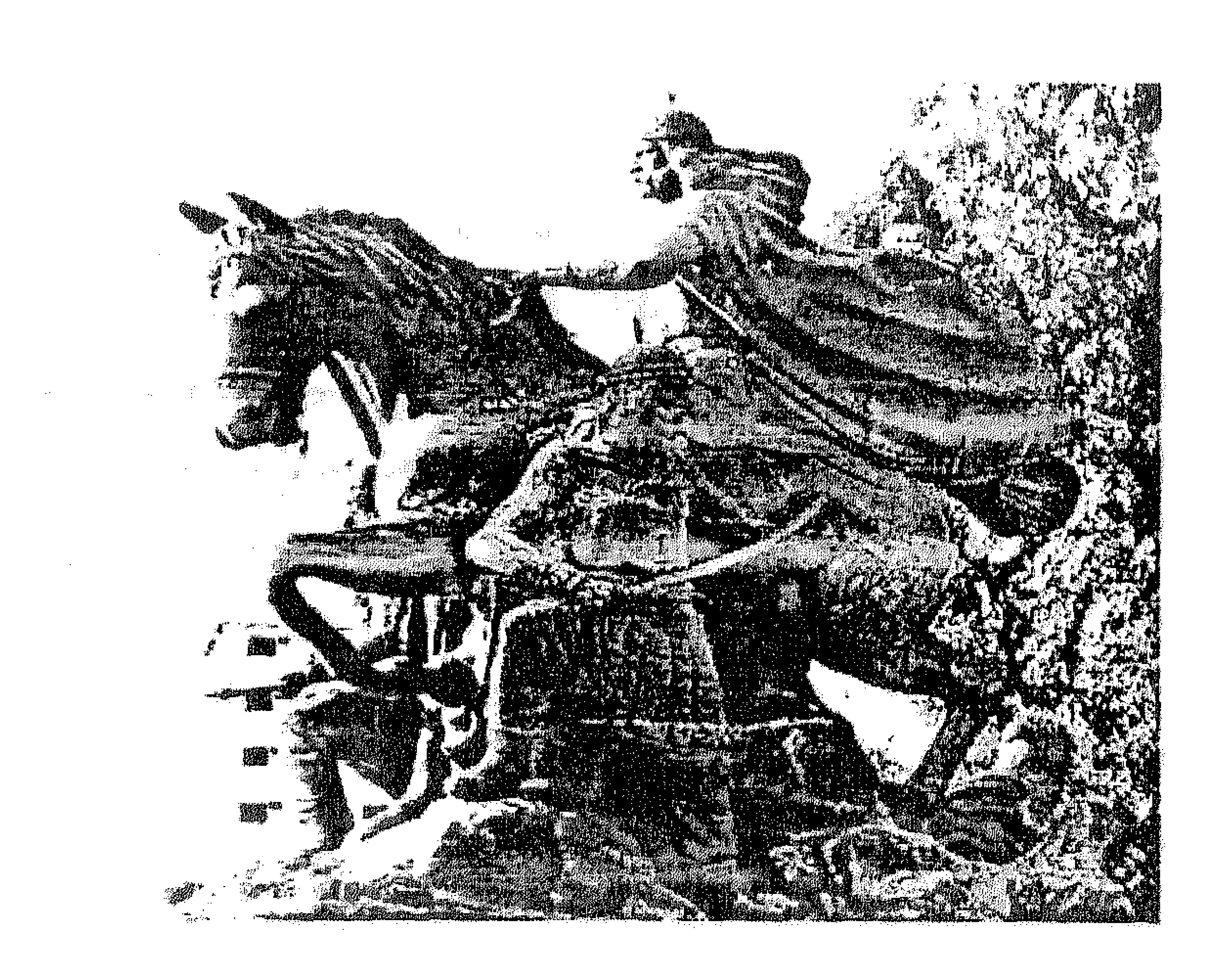
والمتصفح لأعمال عالمنا الجليل يتأكد بالدليل القاطع أنه استثمر فرصة الابتعاث إلى فرنسا جيدا، فبعد أن عاد إلى مصر بدأت ثمار دراساته بفرنسا في النضوج وتباعاً تباعاً بدأت دراساته وبحوثه ومقالاته تشق طريقها إلى المجلات العالمية، لتحمل اسم أحمد عبد الـرازق نحو دائرة العالمية-التي نرجوها الآن. وبنظرة طائر إلى سيرته الذاتية سوف يدرك المرء أن أحمد عبد الرازق أصبح عالما مرموقا بين أقرانه العرب والأوروبيين على حد سواء في زمن يسير؛ فمراراً ما ترأس مؤتمرات وندوات أوروبية وغير أوروبية تعنى إما بالتاريخ الإسلامي أو الآثار الإسلامية؛ وألَّفَ ما يعدو على المائة عمل، ما بين كتاب وبحـث ومقـال باللغـات العربية والفرنسية والانجليزية، وناقش عشرات من الرسائل الجامعية، وأشرف على عشرات وعشرات من طلاب الدراسات العليا الذين ينتشرون الآن في الجامعات المصرية والعربيـة مكونين مدرسة تاريخية-أثرية رصينة واضحة المعالم تحمل اسم أحمد عبد الرازق أحمد.

وسواء اتفق الآخرون معنا أو اختلفوا حول عالمنا فإن الثابت -وللإنصاف-أنه واحد من المؤرخين المرموقين الذين تمتعوا بالنزاهة والحيادية والهمة العالية والضمير الحي، فقـد حمل مشعل العلم على مدى ما يزيد عن أربعين عاماً متواصلة.

لقد آن الأوان أن نقول له وفي هذا اليوم الذي نجتمع فيه حول اسمه في هذا الـسفر الجليل: "كلنا حولك، نُحبك في الله، نُجلك ونُقدرك، نستظل بظلك من هجير الحاقدين وأنصاف المثقفين، نستعيد معك ذكرى الخالدين، نشد بك أزرنا في مواجهة المُدعين..نـدعو الله لـك بطول العمر ونسأله أن ينعم عليك بالصحة والعافية...آمين."

وتبقى كلمة شكر نقولها لك على رحلة عطاء أثمرت أجيالاً عـدة تخرجـت مـن مدرستك التاريخية-الأثرية، وقدمت لمصرنا الحبيبة مئـات الكتـب والبحـوث والدراسـات التاريخية والأثرية، التي حفظت لمؤرخي مصر الإسلامية مكانتهم وريادتهم بين الآخرين.

المشاركون



الدراسات العربية

أحمد عبد الرازق ... رحلة من العطاء

بقلم

د. طارق منصور- د. محاسن الوقاد

ماذا لو أمسكت بالقلم لتكتب عن والدك؟ عن صديقك؟ عن أستاذك؟ ما بالنا لو أنك ستكتب عن شخص تربطك به علاقة انصهرت فيها كل هذه الروابط الإنسانية، الأبوة مع الأستاذية مع الزمالة في آن واحد ... هذا هو أحمد عبد الرازق ليس بالنسبة لنا فقط، بل بالنسبة لكل من عرفه وتعامل معه أو اقترب منه وغاص في أعماقه أو قصده في حاجة قضاها له، أو التحق بمدرسته التاريخية-الأثرية.

لم ننس يوماً ما كلمات الأستاذ والصديق والأب ا.د. رأفت عبد الحميد-رحمه الله- عنه، يكفي قوله: "مفيش حد ذمته نظيفه زي أحمد عبد الرازق"...وتمر الأيام وهو بيننا أستاذ بقسم التاريخ بجامعة عين شمس له من الهيبة والإجلال والثقة في النفس ما يجعلنا-وكنا صغار السن آنذاك-نكتم أنفاسنا في وجوده، لا نجرؤ على أن ننبذ ببنت شفة. غير أن الأيام والأعمال جعلتنا نقترب من قمرة القيادة بقسم التاريخ لنتأكد من كلمات أستاذنا رأفت عبد الحميد عنه، تلك الكلمات التي جعلت انطباعاته عنه تشق طريقها إلى قلوبنا نحو هذا الرجل...فلم ندر كيف ومتى ولماذا أحببناه في الله.

ومع الأيام ازداد قربنا من أستاذنا الجليل أحمد عبد الرازق وصارت له مكانته الراسخة في قلوبنا، نتعامل معه وقت الصفاء فنرى فيه أباً حنوناً، ووقت العمل نرى فيه شدة وحزماً، وساعة العلم نرى فيه أستاذاً ومعلماً، وعند الخلود إلى الهدوء والانسجام نرى فيه براءة وصدقاً، وعند الحاجة نجده معيناً ونصيراً.

واليوم، حيث يجتمع عدد من أبنائه وتلامذته على محبته، كيف نقدم أحمد عبد الرازق للقارئ العربي؟ ماذا لو تركناه يقدم نفسه بنفسه للقارئ، أو لنترك أعماله تؤرخ له وتقدمه لقراء العربية...وسنترك النتائج للقارئ.

أولا: المؤهلات العلمية:

- دكتوراه الدولة في الآداب، جامعة باريس " السربون " ١٩٧٢
- دكتوراه المرحلة الثالثة، جامعة باريس " السربون " ١٩٧٠
- ماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة القاهرة ١٩٦٨
- ليسانس آداب من قسم الآثار الإسلامية، جامعة القاهرة ١٩٦٣

ثانيا : التاريخ الوظيفي:

- أستاذ بقسم الآثار بكلية الآداب، جامعة عين شمس اعتبارا مـن ٢٢ / ٩ / ١٩٩٩ حتى الآن
- مدير شعبة الدراسات العربية بمركز الدراسات البردية والنقوش بجامعة عين شمس حتى الآن
- عميد المعهد المصري العالي للسياحة والفنادق (شيراتون) ٢٠٠١ حتى سـبتمبر ٢٠٠٧
- مشرف على قسم الإرشاد السياحي بكلية الآداب، جامعة عين شمس اعتبارا من ٢٧ / ٥ / ١٩٩٦ حتى يوليو ٢٠٠٣
- المشرف على قسم الإرشاد السياحي بمعهد الدراسات النوعية من سبتمبر ٢٠٠١ حتى ٢٠٠٣.
- وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث اعتبارا من ١٦ / ١ / ١٩٩٨ حتـى يوليـو ٢٠٠١
- رئيس تحرير حوليات كلية الآداب – جامعة عين شـمس اعتبـارا مـن ١٦ / ١ / ١٩٩٨ حتى يوليو ٢٠٠١
- مدير مركز الدراسات الإنسانية والمستقبليات – كلية الآداب – جامعة عين شـمس اعتبارا من ١٦ / ١ / ١٩٩٨ حتى يوليو ٢٠٠١
- رئيس لمجلس قسم التاريخ اعتبارا من ١ / ٨ / ١٩٩٣ حتى ١٦ / ١ / ١٩٩٨
- أستاذ بقسم التاريخ والآثار بكلية الآداب – جامعة الإمارات اعتبارا مـن ١٩٨٦ – ١٩٨٩
- أستاذ بقسم التاريخ بكلية الآداب – جامعة الكويت اعتبارا من ١٩٨٤ – ١٩٨٦
- أستاذ بقسم التاريخ بكلية الآداب – جامعة عين شمس اعتبارا من ٢٩ / ٦ / ١٩٨٣
- أستاذ زائر بجامعة هولواى – جامعة لندن في ١٠ مايو – ٢٤ مايو ١٩٨٢
- أستاذ مشارك بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز شطر مكة المكرمة بقسم الحضارة والنظم الإسلامية من أكتوبر ١٩٧٦ – يونيو ١٩٨٠
- أستاذ مساعد بكلية الآداب – جامعة عين شمس بقسم التاريخ اعتبارا من ٢٩ / ٥ / ١٩٧٨
- مدرس بكلية الآداب – جامعة عين شمس بقسم التاريخ اعتبـارا مـن ٣٠ نـوفمبر ١٩٧٢

- باحث بالمركز القومي للبحوث العلمية بفرنسا في المدة من فبراير ١٩٧٢ – سبتمبر ١٩٧٢
- مفتش آثار إسلامية بالهيئة العامة للآثار المصرية من ديسمبر ١٩٦٣ – مارس ١٩٦٨

ثالثا : البعثات والأجازات الدراسية والمهمات العلمية والمؤتمرات :

- منحة من الحكومة الفرنسية لدراسة دكتوراه الدولة (١٩٦٨ – ١٩٧٢)
- الاشتراك في ندوة عبد الرحمن الجبرتي، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ابريل ١٩٧٤
- الاشتراك في العيد الذهبي لكلية الآثار – جامعة القاهرة يناير ١٩٧٦
- الاشتراك في ندوة جلال الدين السيوطي الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مارس ١٩٧٦
- الاشتراك ندوة البحر الأحمر مركز بحوث الشرق الأوسط مارس ١٩٧٨
- الاشتراك في ندوة عبد الرحمن السخاوى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فبراير ١٩٨١
- الاشتراك في ندوة الإعداد لمعرض متنقل للفن الإسلامي بمقر اليونسكو بباريس ديسمبر ١٩٨١
- الاشتراك في ندوة حفائر البهنسا بالكويت مايو ١٩٨٦
- الاشتراك في ندوة حطين الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٨٨
- الاشتراك في مؤتمر كتابة التاريخ الإسلامي في الإشكالية والمنهج ببيروت، نوفمبر ١٩٩٧
- الاشتراك في الندوة الثقافية عن العلاقات المصرية اليابانية، طوكيو، فبراير ١٩٩٨
- الاشتراك في المؤتمر الدولي عن الفن المصري الفاطمي جامعة باريس ٤ (السربون) فرنسا، مايو ١٩٩٨.
- الاشتراك في ندوة ابن الهيثم الفيلسوف المسلم ، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (اسيسكو) ، دولة الإمارات العربية المتحدة ،الشارقة ١٩٩٨
- الاشتراك في ندوة الخط العربي – هيئة تطوير المدن ، الرياض أكتوبر ١٩٩٩
- الاشتراك في ندوة الجيش المصري عبر العصور التاريخية مركز الدراسات الإستراتيجية للقوات المسلحة ، القاهرة ، أكتوبر ١٩٩٩
- الاشتراك في ندوة سيناء التي عقدت بالمجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠١

الاشتراك في الندوة العالمية للحفاظ على التراث العالمي التي عقدت بفينيسيا بايطاليا ، ١٤ – ١٦ نوفمبر ٢٠٠٢

رابعا : الجمعيات والهيئات العلمية المنتمى لها في الداخل والخارج :

- مقرر اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأستاذة و الأساتذة المساعدين في الآثار الإسلامية
- بالمجلس الأعلى للجامعات (الدورة الثامنة فبراير ١٩٩٨ – ٢٠٠١)
- عضو بمجلس إدارة مركز الدراسات البردية والنقوش – جامعة عين شمس
- عضو باللجنة الدائمة للآثار الإسلامية بالمجلس الأعلى للآثار
- عضو بمجلس إدارة متحف الفن الإسلامى
- عضو بلجنة الثقافة والاعلام بمجلس الشعب
- عضو بشعبة التراث الحضارى بالمجالس القومية المتخصصة
- عضو بالمجلس الأعلى للثقافة (لجنة التاريخ)
- عضو بالمجلس الأعلى للثقافة (لجنة الآثار)
- عضو بإتحاد المؤرخين العرب
- مستشار بالمجلس الأعلى للآثار المصرية لشئون القاهرة التاريخية
- عضو بلجنة حصر المباني التاريخية والفنية محافظة القاهرة
- عضو بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية
- عضو بمجلس إدارة إتحاد الاثريين العرب
- مستشار دار الآثار الإسلامية بمتحف الكويت الوطني

خامسا : مظاهر التقدير العلمي والقومي في الداخل والخارج:

- جائزة جامعة عين شمس التقديرية عام ٢٠٠٠
- جائزة مهرجان السينما السادس عن المادة العلمية لجزيرة الروضة ١٩٨١
- جائزة للدولة التشجيعية عام ١٩٨١
- وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى ١٩٨١
- جائزة البحوث الممتازة كلية الآداب – جامعة عين شمس – ١٩٧٣
- اشترك في حفائر بعثة متحف الكويت الوطني وجامعة لندن للحفائر في منطقة البهنسا في الفترة (١٩٨٥ – ١٩٨٧)
- أشرف على الحفائر المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة في منطقة القلايا بالبحيرة في الفترة (١٩٦٤ – ١٩٦٧)

سادسا: البحوث المنشورة والكتب والمؤلفات العلمية:

أولا: البحوث العربية:

أ – الكتب:

١ – المرأة في مصر المملوكية ،القاهرة ١٩٧٤

٢ – البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك ،الهيئة المصرية للكتاب ،القاهرة ١٩٧٩

٣ – شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٨٣

٤ – كنوز الفن الإسلامي – معرض جنيف ١٩٨٥م المراجعة العلمية للترجمة العربية ، جنيف ١٩٨٥ م

٥ – شبابيك القلل الفخارية في دار الآثار الإسلامية ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، الكويت ١٩٨٨

٦ – الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٩٠

٧ –الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، العلوم العقلية ،القاهرة ١٩٩١

٨ – تاريخ وآثار مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي ، القاهرة ١٩٩٣

٩ – الجيش المصري المملوكي ، مركز الدراسات الإستراتيجية للقوات المسلحة ، القاهرة ١٩٩٨

١٠ – الرنوك الإسلامية ، القاهرة ٢٠٠٠ ، (منشورات كلية الآداب– جامعة عين شمس)

١١ – الفنون الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي ٢٠٠١ ، (منشورات كلية الآداب – جامعة عين شمس)

١٢ – العمارة الإسلامية في العصر العباسي والفاطمي ، القاهرة ٢٠٠٢

١٣ – تحف مختارة من المتاحف الأثرية بالاشتراك مع هبة على يوسف ، القاهرة ٢٠٠٢

١٤ – الفنون الإسلامية في العصرين الأيوبي و المملوكي ، القاهرة ٢٠٠٣ (منشورات كلية الآداب – جامعة عين شمس)

١٥ – تاريخ وآثار مصر الإسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي ، القاهرة ٢٠٠٧ (منشورات كلية الآداب – جامعة عين شمس)

ب – المقالات:

١– الرنوك زمن سلاطين المماليك ،المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد ٢١ ، القاهرة ١٩٧٤ م

٢ – كشاف بالوثائق الفرنسية في مكتبة جامعة القاهرة ، كتاب عبد الرحمن الجبرتي، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦

٣ – العلاقات الأسرية في المصطلح المملوكي، المجلة المصرية التاريخية ، المجلة ٢٣،القاهرة ١٩٧٦م

٤ – المرأة في كتابات جلال الدين السيوطي ، كتاب جلال الدين السيوطي ، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٧٨م

٥ – أضواء جديدة على المسجد الأقصى و بعض الكتابات الأثرية فيه ، المجلة المصرية التاريخية المجلد ٢٧ ، القاهرة ١٩٨١

٦ – نواب الإسكندرية في كتاب الضوء اللامع ، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط ،دار المعارف ١٩٨٢ م المجلد الأول

٧ – عقد مراجعة من العصر الفاطمي ، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط ،دار المعارف ١٩٨٣م

٨ – وسائل التسلية عند المسلمين ، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط ،دار المعارف القاهرة ١٩٨٥ م

٩ – الأزهر وما حوله من آثار إسلامية ، الكتاب التذكاري بمناسبة العيد الألفي للأزهر ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٩٨٥

١٠ – أحمد بن طولون ، دائرة المعارف الأفريقية – منظمة – اليونسكو " تحت النشر "

١١ – خمارويه ، دائرة المعارف الأفريقية – منظمة – اليونسكو " تحت النشر "

١٢ – كافور الاخشيد ، دائرة المعارف الأفريقية – منظمة – اليونسكو " تحت النشر "

١٣ – الكندي المؤرخ ، دائرة المعارف الأفريقية – منظمة – اليونسكو " تحت النشر "

١٤ – النويرى ، دائرة المعارف الأفريقية – منظمة – اليونسكو " تحت النشر "

١٥ – ابن طولون الصالحى ، دائرة المعارف الأفريقية – منظمة – اليونسكو " تحت النشر "

١٦ – الادفوى ، دائرة المعارف الأفريقية – منظمة – اليونسكو " تحت النشر "

١٧ – المنصور قلاوون ، دائرة المعارف الأفريقية – منظمة – اليونسكو " تحت النشر "

١٨ – الأشرف قايتباى ،دائرة المعارف الأفريقية – منظمة – اليونسكو " تحت النشر "

١٩ – نشأة الخط العربي وتطوره على المصاحف ،مصاحف صنعاء ، الكويت ١٩٨٥م

٢٠ – عقدا نكاح من عصر المماليك البحرية ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ،العدد ٢٢ ، المجلد السادس الكويت ١٩٨٦

٢١ – من روائع العمارة الإسلامية في مصر ، مسجد أحمد بن طولون ، مجلد المهندسون العدد ١٦ ، الكويت ، يناير ١٩٨٦

٢٢ – الرنوك والشارات على التحف الإسلامية ، المتحف العربي ،العدد الرابع ،الكويت ، ابريل ١٩٨٦

٢٣ – عرض كتاب الخط العربي لحسن السعودي ،المتحف العربي ، العدد الثاني ، الكويت أكتوبر ١٩٨٦

٢٤ – الوحدة في الفنون الإسلامية ، المتحف العربي ،العدد الثالث ،الكويت ، يناير ١٩٨٧

٢٥ – من روائع التحف الإسلامية ، شبابيك القلل الفخارية ، المتحف العربي ، العدد الأول، الكويت ، يوليو ١٩٧٨

٢٦ – مشكاة مملوكية باسم الأمير حسين بن جندر بك ،مجلة المؤرخ العربي العدد الأول ، المجلد ٣٦، أبو ظبي ١٩٨٨

٢٧ – أضواء جديدة على رنك النسر بقلعة الجبل ،بحث ألقى في ندوة حطين ، التي نظمتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٨٨

٢٨ – بيوت الفساط الأثرية ، المتحف العربي ،السنة الرابعة ، العدد الأول يوليو، الكويت ،١٩٨٨

٢٩ – عقد زواج أحد مماليك دولة الكنوز الإسلامية مجلة كلية الآداب – جامعة الإمارات ، العدد الرابع، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨

٣٠ – أربعة أختام فخارية في مجموعة دار الآثار الإسلامية – بمتحف الكويت الوطني ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد الثالث و الأربعون السنة الحادية عشرة ، الكويت ، ربيع ١٩٩٣

٣١ – أضواء جديدة على صناعة النسيج في مصر الإسلامية من خلال أوراق البردي العربية ، مجلة مركز الدراسات البردية والنقوش ،العدد الحادي عشر ، ١٩٩٤

٣٢ – المساجد ،موسوعة دار الشروق ،المجلد الأول ، القاهرة ١٩٩٧

٣٣ – جامع عمرو بن العاص ،موسوعة دار الشروق ،المجلد الأول ، القاهرة ١٩٩٧

٣٤ – أهمية النقوش والكتابات الأثرية في كتابة التاريخ الإسلامي بحث ألقى في مؤتمر كتابة التاريخ الإسلامي في الإشكالية والمنهج ، الذي أقيم بالجامعة الإسلامية في لبنان في الفترة من ١٤ – ١٦ نوفمبر ١٩٩٧

٣٥ – الحسن بن الهيثم ونيل مصر بحث ألقى في ندوة " ابن الهيثم الطبيب والفيلسوف المسلم التي أقامتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (اسيسكو) بدولة الإمارات العربية بالشارقة في ٢٨ – ٣٠ سبتمبر ١٩٩٨

٣٦ – السياسة الحربية لدولة سلاطين المماليك ، بحث ألقى في ندوة الجيش المصري عبر العصور، مركز الدراسات الإستراتيجية بأكاديمية ناصر ، أكتوبر ١٩٩٩

٣٧ – أعمال أسرة سختكمان المعمارية في قلعة صدر المعروفة بقلعة الجندي بسيناء ندوة سيناء التي عقدت بالمجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠١

٣٨ – طاسة الخضة وسيلة من وسائل العلاج الشعبي ، ندوة الفنون الشعبية في مصر على مر العصور (رؤية اثرية) التي عقدت بالمجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٥

٣٩-صورة المجتمع المصري في كتاب المدخل لإبن الحاج، بحث قدم إلى المجالس القومية المتخصصة، مارس ٢٠٠٨

ثانيا : بحوث باللغتين الفرنسية والانجليزية:

1- Documents sur la poterie d'époque mamlouke, Sharaf al – Abawani: *Annales Islamologiques*, tome VII, Le Caire,1967 .

2 – Un document conernant le mariage des esclaves au temps des mamluks, *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol . XII , pt. 3/1970.

3 – La chasse au faucon d'après des céramiques du Musée du Caire, *Annales Islamologiques*, tome IX, Le Caire, 1970 .

4 - Trois fragments de céramique lustrée à représentation humaines, *Revue des Etudes Islamiques*, tome XXXVII/2, Paris, 1970 .

5 – Les peignes Egyptiens dans *l'art de l'Islam Syria*, tome XLIX , Paris, 1972

6 – La femme au temps des mamluks Egypte, Paris, 1973.

7 – La chasse au guépard d'après les sources arabes et les œuvres d'art musulman, *Aarbica*, tome XX, Paris fevrier 1973.

8 – Trois foundation féminies dans l'Egypte mamlouke, *Revue des Etudes Islamiques*, tome XLI/1, Paris 1973.

9 – Deux jeux sportifs en Egypte au temps des mamluks, *Annales Islamologiques*, tome XII, Le Caire, 1974 .

10–La hisba et le muhtsib en Egypte au temps des mamluks, *Annales Islamologiques*, tome XIII, Le Caire, 1977 .

11- Un mausolée féminin dans l'Egypte mamluke, *Journal of Faculty of Archaeology*, vol . II, Cairo, 1973

12 – La mer rouge vue par cinq voyageurs occidentaux du temps des mamluks Cirassiens , Le Caire, 1978 .

13 – Le muhtasibs de Fustat au temps des mamluks, *Annales Islamologiques*, tome XIV, Le Caire ,1978 .

14 – Un collège féminin dans l'Egypte mamluke, *The book of 50th Anniversary of Archaeological Studies in Cairo University*, pt. III, Cairo, 1978 .

15 – Le vizirat et les vizirs d'Egypte au temps des mamluks, *Annales Islamologiques*, tome XVI, Le Caire ,1980 .

16 – Les gouverneurs d'Alexandrie au temps des mamluks, *Annales Islamologiques*, tome XVIII, Le Caire ,1982.

17 – New Light on Bahnasa , *Dar al - Athar al- Islamiya, Kuwait National Museum*, vol. II, 4 Jun. 1986.

18 – Le sgraffito d' Egypte mamluke dans la collection d'al- Sabah, *Annales Islamologiques*, tome XXIV, Le Caire , 1988 .

19 – Deux cents ans d'archéologie islamique en Egypte, dans le livre: *Une Description nouvelle de l'Egypte* , Les éditions in Forma, Paris, 1998 .

20–La mosquée al – Azhar dans Trésors Fatimides du Caire, *Institut du Monde Arabe*, Paris, 1998 .

مملكة بيجابور منذ النشأة وحتى السقوط

(٨٩٥-١٠٩٨هـ/١٤٩٠-١٦٨٧م)

د. أحمد السيد محمد الشوكى

كلية الآداب-جامعة عين شمس

مملكة بيجابور أو فيجبورة[١] أو بيجافور[٢]، تقع غرب هضبة الدكن جنوب الهند، محصورة من الشمال بالضفة الغربية لنهر جات Ghats، ومن الجنوب بنهر Tungabhadra[٣]، وأراضيها قاحلة، عبارة عن هضبة بازلتية من الصخور البركانية المستوية بشكل عام، لا تؤمن الحماية الطبيعية للمدينة بشكل عام[٤].

وقد حكم مملكة بيجابور تسع ملوك من أسرة عادل شاه على رأسهم يوسف عادل شاه مؤسس هذه الأسرة ، حيث تمكن من الإستقلال ببيجابور عن سلطة البهمينيين، وأن يؤسس لنفسه وأسرته مملكة حكمت هذا الإقليم حتى إستطاع أورانكزيب أن يضمه لأملاكه فيما بعد. ويقال أن يوسف عادل شاه أول سلاطين ومؤسس أسرة عادل شاه في بيجابور(انظر شكل ٢) كان من أبناء السلطان العثماني مراد الثاني[٥]، وعندما علمت أمه ما نواه أخيه محمد الفاتح من قتل جميع إخوته[٦]، احتالت بتقديم ولد آخر بدلاً من إبنها الذي عهدت به إلي تاجر

---

(١) فيجبورة أو (مدينة النصر) ، محمد سعيد الطريحي، ملوك حيدر آباد ، دائرة المعارف الهندية، هولندا ، ٢٠٠٥، ص ٢٢٧؛ http://www.iranica.com/newsite,+searchBijapur,15/11/2008, Encyclopedia Iranica

(٢) المحبي، محمد أمين بن فضل الله، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، د.ت، جـ١ ، ص٨٢.

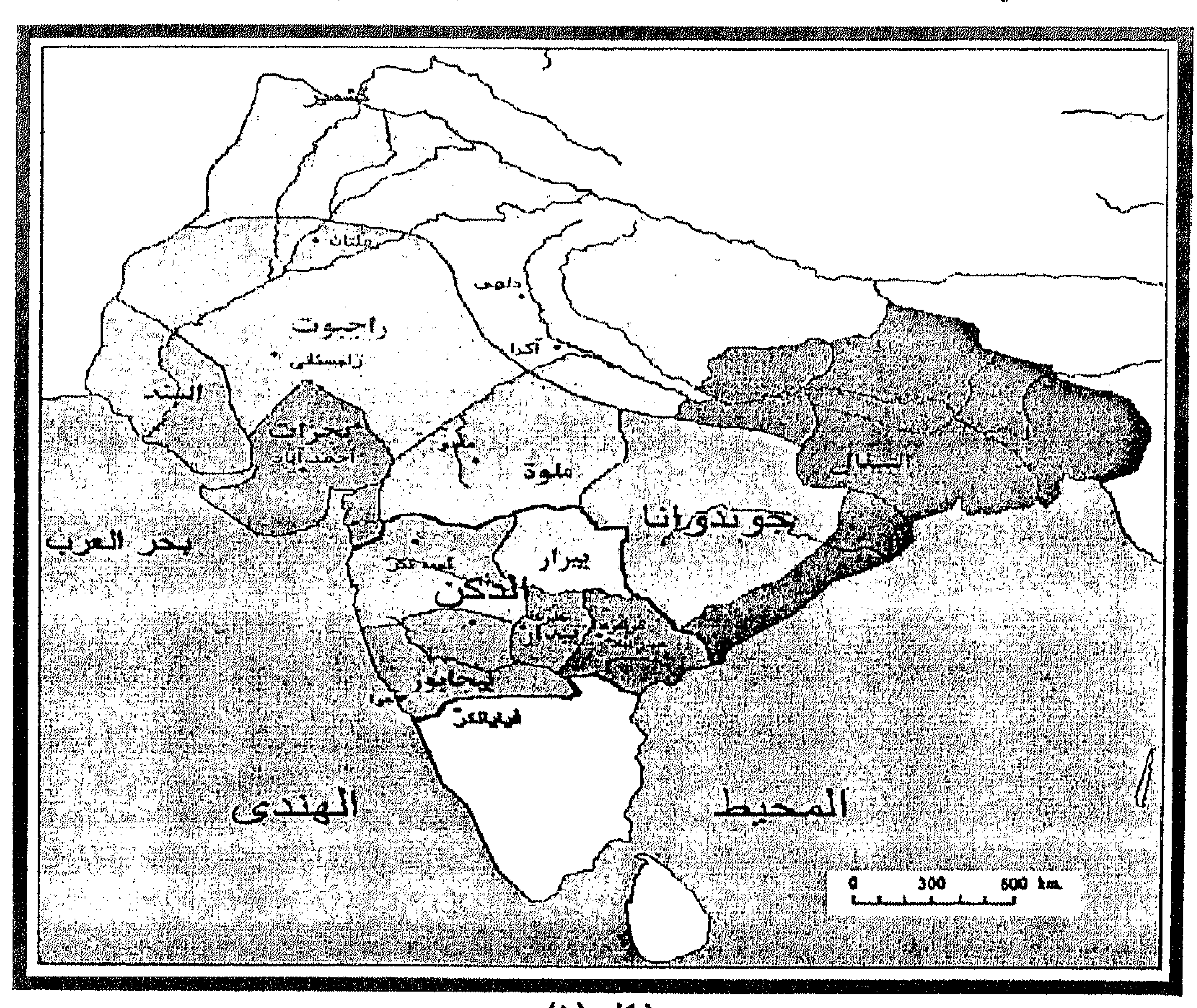
(٣) هي حالياً مدينة وإقليم في الهند تبعد حوالي ٢٠٢ كم جنوب شرق مدينة ستارا وحوالي ٥٦٣ كم إلى الجنوب الغربي من مدينة بومباي، وكانت في عهد الاحتلال الإنجليزي تابعة لإدارة بومباي أنظر:
محمد سعيد الطريحى، ملوك حيدر آباد ، ص ٢٢٧؛
Encyclopedia Iranica , http://www.iranica.com/newsite,+searchBijapur,15/11/2008

(٤) Hutton, (D.S), *The Elixir of Mirth and Pleasure the Development of Bijapuri Art,1565 – 1635,* Minnesota, 2000, p. 47.

(٥) حدث خلط لدى محمد سعيد الطريحى حيث نكر أنه أحد أبناء محمد الفاتح، أنظر: محمد سعيد الطريحى، المملكة العادل شاهية، دائرة المعرف الهندية، هولندا،٢٠٠٥، ص ٩.

(٦) على الرغم من تكرار هذه القصة إلا أنها لم تذكر أو تدعم في تاريخ العثمانيين أو أى من معاصريهم لذلك فهي محل شك إلى الآن أنظر:
Gray, (B), "Deccani Painting , The School of Bijapure," *Burlington Magazine for Connoisseurs,* Vol. 73, No. 425, Aug. 1938, p.74; Pal, (P), *Indian Painting* , A

فارسي[٧]، وقصد به إيران ثم توجه إلى الدكن مع قوافل الفرس والأتراك الذين كان يجتذبهم بلاط أسرة بهمني، فالتحق بخدمة الوزير محمود جوان الذي أنزله في نفسه منزلة ولده[٨].



شكل (١)

خريطة للممالك الإسلامية فى الدكن عقب سقوط سلطنة بهمنى وموقع مملكة بيجابور

(إعداد الباحث)

Catalogue of the Los Angeles County Museum of Art Collection, vol. I, U.S.A, 1993, p. 311; Hutton, *The Elixir of Mirth*, p. 13.

(٧) تضاربت الروايات في اسم هذا التاجر ما بين خواجة عماد الدين محمود الساوي- أنظر:

محمد سعيد الطريحي، المملكة العادلشاهية، ص ٧ ؛ أو خواجه زلينال عابدين السامانى أنظر:

Subrahmanyam, (S), "Iranians Abroad, " Intra -Asian Elite Migration and Early Modern State Formation", *J.A.S*, Vol. 51, No. 2. (May 1992), p. 343.

(٨) أحمد محمود الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضاراتهم ، جـ١ ،القاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٢٤ ؛ وهذه الرواية تنسب إلى فرشته في كتابه الفارسي تاريخ فرشته كما تذكر ذلك Hutton أنظر:

Hutton, *The Elixir of Mirth*, p. 13.

ويذكر الهروي أن عادل شاه "...كان في الأصل مملوكاً شركسياً باعه خواجه محمود كرجستان إلى محمود شاه بهمني..." أنظر: أحمد بخشي الهروي المسلمون في الهند من الفتح العربي إلى الاستعمار البريطاني، طبقات أكبري، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلي، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٥، جـ٣ ، ص ٥٤.

وترقي في خدمة محمود جوان حتى أصبح حاكماً على ولاية دولت آباد(٩)، وبعد مقتل محمود جوان عام ٨٨٦هـ / ١٤٨١م إتخذ لقب خان(١٠)، واستغل بعد ذلك فرصة ضعف البهمنيين فجمع حوله جيش من الإيرانيين والأتراك وغيرهم وأعلن نفسه ملكاً في ولاية بيجابور، بعد أن كانت تابعة للبهمنيين مدة ١٥٠عاماً(١١) م

وتميزت فترة حكم يوسف عادل شاه ٨٩٥ – ٩١٦ هـ / ١٤٨٩ – ١٥١٠م(١٢) بالصراع من أجل إبقاء مملكته وتوسيع حدودها، حيث خاض حروباً مع غولكوندة وبيدار وأحمد نكر(١٣) إلى جانب صراعه مع مملكة فيايانكر في الجنوب(١٤)والبرتغاليين الذين وصلت قواتهم إلى جوا(١٥).

---

(٩) كما وصل إلي منصب مؤتمن الأسرار لمحمود جوان أنظر:

محمد سعيد الطريحي، المملكة العادلشاهية، ص ٧؛ Hutton, *The Elixir of Mirth*, p. 13.

(١٠) Hutton, *The Elixir of Mirth*, p. 10.

(١١) أحمد محمود الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضاراتهم، جـ١ ، ص ٢٢٢.

(١٢)أحمد السعيد سليمان تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، دار المعارف ١٩٧٢، ص ٦٣٧؛ زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ت: زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود، بيروت،١٩٨٠ ، ص ٤٣٩.

(١٣) كان صراعه مع أحمد نكر على الحصن الاستراتيجي Sholapur الذى يقع إلى الشمال من بيجابور أنظر:

Encyclopedia Iranica , http://www.iranica.com/newsite,+searchADELSAHIS,15/11/200

(١٤) كان صراعه مع مملكة فيايانكر على سهل Raichur الخصب – أنظر:

Encyclopaedia Iranica http://www.iranica.com/newsite,+searchADELSAHIS,15/11/2008, ؛ وكان هجوم فيايانكر بتحريض من قاسم بريد وزير بيدار، ولكن يوسف هزمهم مما أدي إلى توطيد أقدامه وذيوع صيته أنظر: أحمد محمود الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضاراتهم، جـ١ ، ص٢٢٣.

(١٥) Hutton, *The Elixir of Mirth*, p. 9.

إتجه يوسف عادل شاه على رأس قوة استرد بها جوا من أيدي البرتغاليين ، وعقد تحالفاً مع الأساطيل المصرية وأساطيل جوجارات، لكن الأمر انتهي باستيلاء البرتغاليين على جوا بعد وفاته بأشهر قليلة ومنذ عام ٩١٧هـ/١٥١٠م أسسوا فيها قاعدة دائمة على ساحل بحر العرب – أنظر: أحمد محمود الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضاراتهم، جـ١ ، ص٢٢٣.

Michell, (G), and Zebrowski, (M), *The New Cambridge History of India, 1:7, Architecture and Art of the Deccan Sultanates*, Cambridge,1999, pp. 12-13.

وفي عام ٩٠٩هـ /١٥٠٣م [١٦] أعلن يوسف عادل شاه المذهب الشيعي كمذهب رسمي لدولته، وهو يعد بذلك أول ملك من ملوك الهند يخطب باسم الأئمة الإثني عشرية ويروج لهذا المذهب في بلاده[١٧].

وقد أدى ذلك إلى ازدياد الصراع بين الدكنيين[١٨] من جهة والأفاقي (Afaqis)[١٩] من جهة أخرى داخل بلاط عادل شاه، وهو الصراع الذي ورثته كل ممالك الدكن عن سلطنة بهمني[٢٠].

وكانت وفاة يوسف عادل شاه في عام ٩١٦هـ/١٥١٠م[٢١]، وقد أثني المؤرخون عليه حيث عرف عنه تمسكه بالفضائل وميله إلى العلماء والأدباء حيث وفد إلي بلاطه العديد منهم, من التركستان وفارس والدولة العثمانية[٢٢].

---

(١٦) يذكر Subrahmanyam أن تغيير المذهب حدث في عام ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م أنظر:

Subrahmanyam, *Iranians Abroad*, p. 343.

(١٧) أرسل بعد ذلك السيد أحمد الهروي سفيراً إلى بلاط الشاه إسماعيل الصفوي يبلغه بما أقدم عليه عادل شاه، وعاد الهروي بعد ذلك إلى الدكن وبرفقته سفراء الشاه إسماعيل أنظر:

محمد سعيد الطريحي، المملكة العادلشاهية ، ص ٩ -١٠.

كما حمل الناس بالقوة على الدخول في المذهب الجديد وأمر جميع رجال بلاطه وجنوده بارتداء غطاء رأس القزلباش الأحمر المميز للصفويين، أنظر:

أحمد محمود الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضاراتهم، جـ١ ، ص٢٢٣.

وجدير الذكر أن Eaton يذكر أن دين السكان الأساسي في كافة أنحاء المملكة ظل كما هو وكان تغيير المذهب يؤثر بصفة أساسية على البلاط . لمزيد من التفاصيل أنظر:

Eaton , (R), *Sufis of Bijapur, 1300 -1700*, Princeton, 1978, p. 90.

(١٨) يمثلهم الهنود الذين اعتنقوا الإسلام والمسلمين الذين استقرت عائلاتهم منذ عدة أجيال في الدكن ويتكلمون اللغة المحلية، وانضم لهم الأحباش لإعتناقهم المذهب السني أنظر:

Hutton, *The Elixir of Mirth*, p. 13.

(١٩) معنى كلمة الأفاقي هو الأجانب أو الأغراب، أي المسلمين القادمين من الخارج والجنود الذين يتحدثون اللغة الفارسية وموظفي البلاط القادمين من إيران والخليج العربي، وجدير بالذكر أن يوسف عادل شاه نفسه كان من الأفاقي لمزيد من التفاصيل أنظر:

Eaton, *Sufis of Bijapur* ,pp. 41- 43.

(٢٠) عرف عن محمود جوان تمييزه للأفاقي عن الدكنيين أنظر:

Michell, and Zebrowski, *The New Cambridge History of India*, p. 8.

أدت الخلافات الدينية واللغوية والثقافية بين الفريقين إلي خلق عداوة استغلها السلاطين كي يسيطروا على الأمراء وقد أدي ذلك في النهاية إلى إضعاف كافة ممالك الدكن أنظر:

Hutton, *The Elixir of Mirth*, p. 13.

(٢١) زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ص ٤٣٩ ؛ ذكر الهروي خطأ أنه حكم عام ٨٠٦هـ/١٤٠٣م حتى عام ٨١٣هـ/١٤١٠م أنظر: أحمد بخشي الهروي، المسلمون في الهند، ص٥٥.

وقد خلفه في الحكم ولده إسماعيل عادل شاه في الفترة ٩١٦- ٩٤١هـ/ ١٥١٠ - ١٥٣٤م[٢٣] (انظر شكل ٢) و الذي لقب بـ عادل خان سوائي[٢٤] ، وأمه هي Bunji - Khatun إبنة موكندراو أحد أمراء المراتها[٢٥]، وكان إسماعيل وقت توليه السلطة في الثالثة عشر من عمره، لذلك وضع تحت وصاية الأمير الدكني كمال خان، الذي أعاد المذهب السني كمذهب رسمي للمملكة وقام بتقريب الدكنيين، وحاول إسماعيل خلعه أكثر من مرة، وانتهي الأمر بإغتيال كمال خان في عام ٩١٨هـ/١٥١٢م وإنفراد إسماعيل بالحكم[٢٦].

وعلى عكس كمال خان قام إسماعيل بتشجيع الأفاقي وأعاد المذهب الشيعي مرة أخرى، ودعى بإسم الشاه الصفوي في خطبة الجمعة في جميع مساجد المملكة[٢٧]، كما اتخذ إجراءات معادية للدكنيين[٢٨]، مما كان له أبلغ الأثر على الحياة الفنية بصفة عامة والتصوير بصفة خاصة كما سنشاهد فيما بعد.

---

(٢٢) أحمد محمود الساداتي، تاريخ المسلمون في شبه القارة الهندية وحضارتهم، جـ١، ص٢٢٣؛ كما عرف عنه حبه للموسيقي وضرب العود والطنبور، وكان جيد الخط ويكتب النستعليق أنظر:

Hutton, *The Elixir of Mirth*, p. 13.

محمد سعيد الطريحي، المملكة العادلشاهية، ص١٠

(٢٣)أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ،ص٦٣٧؛ زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ص٤٣٩ .

(٢٤) أحمد بخشى الهروي، المسلمون في الهند ، ص٥٥.

(٢٥) Hutton, *The Elixir of Mirth* , p. 13.

؛ محمد سعيد الطريحي، المملكة العادلشاهية، ص١١.

(٢٦) أدت هذه الحادثة إلى ازدياد الهوة بين الدكنيين والأفاقي، وخلقت فوضي في بيجابور، أطمعت حكام البريديون بغزو لأجزاء من مملكة عادل شاه، ولكن بمساعدة جيوش جوجارات إستطاعت بيجابور أن تستعيد أغلب أملاكها أنظر:

Michell, and Zebrowski, *The New Cambridge History of India*, p. 13.

(٢٧) جدير بالذكر أن الشاه إسماعيل الصفوي قام بإرسال سفيراً لممالك الدكن فاستقبلته بيجابور استقبالاً عظيماً، ولتقديره لذلك أرسل الشاه الهدايا ومنح حاكم بيجابور لقب شاه في عام ٩٢٦هـ /١٥١٩م ومنذ تلك الحين إعتبر سلاطين بيجابور أنفسهم أرفع من باقي سلاطين الدكن أنظر:

Zebrowski, (M), *Deccani Painting*, University of California Press, 1983, p. 60; Subrahnabyam, *Iranians Abroad*, p. 343.

(٢٨)أقسم على عدم تعيين أى من الدكنيين في جيشه أو بلاطه، وحافظ على قسمه حوالي ١٢عاماً، ولم يجند سوى الأفاقي ، وبناءً على طلبهم قام بالسماح لأبناء الأفاقي المولودين في الهند بالالتحاق بالجيش ، وبعد تلك بفترة وافق على تسجيل الراجبوت الذين لم يكونوا دكنيين، وظلت هذه السياسة متبعة حتى عصر إبراهيم عادل شاه الأول أنظر:

وعرف عنه إرساله السفن سنوياً إلى هرمز للتجارة وطلب الرجال من العراف وخراسان[29]، وتوفي في عام ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م وكانت مدة حكمه ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً[30].

وخلفه ولده ملو عادل شاه الذي حكم عدة أشهر من عام ٩٤١هـ/ ١٥٣٤ - ١٥٣٥م[31]، (انظر شكل ٢) ولكنه أساء السيرة وعمل المنكرات فخلعته والدته بإتفاق الأمراء بعد ستة أشهر وأيام من توليه الملك[32].

وتولى بعده أخيه إبراهيم عادل شاه الأول وحكم في الفترة ٩٤١ - ٩٦٥هـ/ ١٥٣٥ - ١٥٥٧م[33]، (انظر شكل ٢) وساعده في الوصول للحكم أسعد خان الذي عين رئيس لوزرائه فيما بعد[34].

وقام إبراهيم عادل شاه بتغيير مذهب المملكة إلى المذهب السني، وتبعاً لذلك قام بتقريب الدكنيين على حساب الأفاقي في بلاطه، حتى أنه قام بطرد العديد من

Gray, (B), Deccani "Painting, The School of Bijapure," *Burlington Magazine for Connoisseurs*, Vol. 73, No. 425, (Aug. 1938), p. 74; Zebrowski, Deccani Painting, pp. 60-61.

(٢٩) أحمد بخشى الهروي، المسلمون في الهند ، حـ ٣ ، ص ٥٥.

حظيت بيجابور بعلاقات متعددة مع أجزاء واسعة من العالم ، بأسلوب مباشر أو غير مباشر عن طريق المهاجرين الذين هاجروا إليها من مختلف البقاع لمزيد من التفاصيل أنظر:

Nayeem, (M.A), External relations of the Bijapur Kingdom, 1489 – 1686 A.D, A Study in Diplomatic History, Hyderabad, 1974.

(٣٠) أحمد بخشى الهروي، المسلمون في الهند ،حـ٣ ، ص٥٥.

(٣١) أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ص ٦٣٧؛ زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ص٤٣٩ .

(٣٢) محمد سعيد الطريحي، المملكة العادلشاهية، ص١٤ -١٥.

جدير بالذكر أن الهروي لم يذكر هذا السلطان عند ذكره لسلاطين أسرة عادل شاه.

(٣٣) زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ص ٤٣٩؛ أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ص ٦٣٧.

(٣٤) Michell, and Zebrowski, The New Cambridge History of India, p. 13.

يذكر الهروي أن أخيه ملوخان حاول العودة مرة أخري للحكم بمساعدة أسعد خان ، وبالفعل ساعده ورفعه للحكم، وحكم يوم ونصف، ولكن إبراهيم إستطاع القبض على ملوخان، كما سمل عيني أخيه الأصغر ألغ خان انظر:

أحمد بخشي الهروي، المسلمون في الهند، حـ ٣ ، ص ٥٥.

أمرائهم[٣٥]، وجدير بالذكر أنه كان أول حاكم مسلم في الهند يلغي استخدام اللغة الفارسية كلغة أولى في البلاط[٣٦]، وكان ذلك الإجراء جزء من الإجراءات التي اتخذها إبراهيم والتي تعكس معاداته لكل ما يمت بصلة إلى الثقافة الإيرانية[٣٧]، ومع ذلك كان إبراهيم هو أول سلاطين بيجابور استخداماً للقب شاه بدلاً من خان في عام ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م وهو اللقب الذي سبق وخلعه عليهم الشاه إسماعيل الصفوى[٣٨].

ونجح إبراهيم الأول في التصدي لجيش أحمد نكر وفيايا نكر كما قاوم مكائد السلطان جمشيد قلى سلطان غولكونده، كما هاجمه البرتغاليين ولكنه إضطر إلى طلب الصلح معهم[٣٩]، وتوفى في عام ٩٦٥هـ / ١٥٧٧م بعد حكم دام حوالى خمسة وعشرون عاماً[٤٠]. وحل محله ابنه على عادل شاه الأول[٤١]، بوصية من أبيه[٤٢]، في الفترة ٩٦٥ - ٩٨٨هـ / ١٥٧٧ - ١٥٨٠م[٤٣]، (انظر شكل ٢) وتصف المصادر على عادل شاه الأول بأنه المحارب

---

(٣٥) جدير بالذكر أن الممالك الدكنية الأخرى إستقبلت هولاء الأفاقي، مثل فيايانكر وأحمد نكر وغولكوندة، مما أدي إلى اتحادهم فيما بعد ضد بيجابور أنظر:
Hutton, The Elixir of Mirth, p. 14.

(٣٦) كتبت الوثائق الحكومية في تلك الفترة باللغة الأوردية الدكنية، وخيط من المنسكريتية الهندية والفارسية أنظر: Hutton, The Elixir of Mirth, p. 14.

(٣٧) من ذلك أنه حرم غطاء الرأس الشيعي – القزلباش- ولم يسمح إلا لخمسمائة فقط من الجنود الأفاقي بالبقاء في جيشه أنظر: Gray, Deccani Painting , p. 74.
محمد سعيد الطريحى، المملكة العادلشاهية، ص ١٦.

(٣٨) Hutton, The Elixir of Mirth, p. 14.

(٣٩) Michell, and Zebrowski, The New Cambridge History of India, p. 13.

(٤٠) أحمد بخشي الهروي، المسلمون في الهند ، جـ٣ ، ص ٥٥.

(٤١) أنجبه من زوجته الوحيدة إبنة الأمير أسد خان أنظر :محمد سعيد الطريحى، المملكة العادلشاهية، ص ١٦.

(٤٢) قام بعد توليه الحكم بسحل عيني إخوته طهماسب وإسماعيل أنظر:أحمد بخشي الهروي، المسلمون في الهند ، حـ٣ ، ص ٥٥- ٥٦.

(٤٣) زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ص ٤٣٩ .
ذكر أحمد السعيد سليمان أن نهاية عهده في عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م أنظر: أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات ، ص ٦٣٧ ، والصحيح ما ذكره زامباور ويؤكده أن صاحب النور السافر ذكر وفاته في أحداث عام ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م أنظر: العيدروسي ، عبد القادر بن شيخ بن عبد الله ، تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، دار الكتب العلمية، بيروت، حـ ١ ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، ص ٣٢٥.

العظيم والسياسي الداهية، إلى جانب رعايته للكثير من الأعمال العمرانية(٤٤)، وقــام بتغييــر مذهب المملكة ليصبح المذهب الشيعي هو المذهب الرسمي لها(٤٥).

ونتيجة لذلك عاد لتفضيل الأفاقي على الدكنيين(٤٦)،وقد وصلت التأثيرات الإيرانية في عهــده إلى قمتها سواءً في البلاط أو في المجتمع ككل(٤٧)، وجدير بالذكر أنه قد عرف عنــه ميلــه للتصوف، حتى أنه كان يجب أن يذكر باسم (عادل شاه الصوفي) (٤٨).

وتذكر المصادر أنه بعد وصوله للحكم، قام بعمل تحالف مــع (رام راجــا) حــاكم فيايانكر لمحاربة النظاميون في أحمد نكر، وإستطاع فعلاً أن يضم Sholapur و Naldrug بحصونهما وتلالهما من أحمد نكر(٤٩)، وبعد ذلك بقليل نقــض تحالفــه مــع رام راجــا(٥٠)، وتحالف مع غولكوندة وأحمد نكر ضده، وهزموه فــي معركــة تــاليكوت الــشهيرة عــام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م ووزعت أرلضي فيايانكر على الممالك الإسلامية وكان النــصيب الأكبــر

---

(٤٤) Encyclopaedia Iranica ,http://www.iranica.com/newsite,+searchADELSAHIS,15/11/2008

(٤٥) كان يوصف بأنه من الشيعة المتــشددين – أنظــر: Gray, Deccani Painting , p. 74
ويذكر الطريحى أنه كان شيعياً منذ صباه وفور توليه السلطة أعلن المذهب الشيعي مذهب رسمي للدولــةأنظر: محمد سعيد الطريحى، المملكة العادلشاهية، ص ١٧. ولكن الحقيقة فيما ذكره الهروي من أنه كان ســنياً فــي بداية عهده، و"...جعل السكة والخطبة اسم السلطان أكبر.." ولكن بعد ذلك "مال لمذهب الإمامية وترك طريــق أبائه". أنظر: أحمد بخشي الهروي، المسلمون في الهند، ص ٥٦.

(٤٦) Michell, and Zebrowski, The New Cambridge History of India, p. 13.

(٤٧) Subrahmanyam, Iranians Abroad , p. 342.
يذكر أنه استقدم مير فتح الله الشيرازي من فارس وجعله وكيلاً لسلطنته أنظر:أحمد بخشي الهروي، المــسلمون في الهند ، ص ٥٥– ٥٦.

(٤٨) كما عرف عنه الميل لمصاحبة المتصوفين والتكلم بلغتهم أنظر:أحمد بخشي الهروي، المسلمون في الهند ، ص ٥٦ . وجدير بالذكر أن الحركات الصوفية لعبت دوراً كبيراً في دولة سلاطين بهمني ، وقد استمر هــذا الدور في ممالك الدكن وبقوة، وبصفة خاصة في بيجابور. لمزيد من التفاصيل أنظر:
Robinson, (F), "Sufis of Bijapur, 1300 – 1700, Social Roles of Sufis in Medieval India", *Modern Asian Studies*, vol. 14, No. 4 , (1980), p. 689.

(٤٩) Hutton , The Elixir of Mirth, p. 50

(٥٠) يذكر الساداتي أنه نفض يده من الهنادكة بعد ما رأي ما أنزلوه بإمارة أحمد نكر من مذابح شنيعة نبهتــه إلى مدى الخطر الذي يتهدد المسلمين على أيديهم أنظر: أحمد محمود الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه القــارة الهندية وحضاراتهم، جــ١ ، ص ٢٢٤.

لبيجابور[٥١] وتمكن علي عادل شاه الأول من استرداد ميناء جوا من البرتغاليين مرة أخرى، ولكنهم ما لبثوا أن إستردوه منه[٥٢].

والجدير بالذكر أن علي عادل شاه الأول إستطاع من هذه الحروب أن يضاعف مساحة مملكته، مما كان له أبلغ الأثر في أن يعم الرخاء في عهده ، وأن تصبح بيجابور من أغني ممالك الدكن[٥٣]، وقد تفرغ بعد ذلك لأعمال العمارة والتشييد ، مما جعل بيجابور من أعظم بلاد الهند في عصره[٥٤]. وكانت أولى الأعمال المعمارية بعد موقعة تاليكوت هي تشييد المسجد الجامع لمدينة بيجابور. الذي أشرف على بنائه رئيس الوزراء كشورخان[٥٥]، كما قام علي عادل شاه الأول بعد إتمام حملاته الحربية ببناء سور ضخم يضم المدن الست الكبيرة في

---

(٥١) Gray, Deccani Painting , p. 74.

(٥٢) كتب الشيخ أحمد زين الدين المصري كتاباً أهداه للسلطان علي عادل شاه يتحدث فيه عن كيفية دخول البرتغاليين إلى الساحل الغربي للهند والحروب التي خاضوها، وجهاد السلطان علي عادل شاه ضدهم وانتهى منه في عام ٩٩٣هـ/١٥٨٥م لمزيد من التفاصيل أنظر:

المصري، زين الدين عبد العزيز بن زين الدين بن علي بن أحمد ، تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتكاليين، حيدر آباد ، ١٣٠١هـ/١٨٨٣م ، ص ١١ -١٥.

(٥٣) بعد موقعة تاليكوت ضمت بيجابور منطقة Raichur - Doab الغنية بالحديد والماس، كما تتميز بأراضيها الخصبة، مما أدي إلى زيادة الدخل العام لبيجابور، كما يذكر أن القطن الذي كان ينمو في بيجابور كان يصدر إلى العديد من البلاد على بحر العرب، بواسطة ١٨٠ سفينة تجارية شيدت في عهد علي عادل شاه الأول ، مما يشير إلي أن بيجابور نعمت في عهده بثروات خيالية وشعرت بالأمن بطريقة لم تحدث من قبل، مما انعكس على أعمال العمران والفنون في تلك الفترة .أنظر:

Hutton, The Elixir of Mirth, p. 15.

ولمزيد من التفاصيل أنظر:

Cousins, (H), Bijapur and its Architecture Remains with an Historical outline of Adil Shahi Dynasty, Bombay, 1916.

(٥٤) هاجر إلى بلاطه العديد من الأشخاص من جميع أنحاء العالم ، حتى أن المؤرخين أطلقوا على بيجابور في هذه الفترة مدينة الملاذ أو المأوي Bijapur Shahar.i.pana أنظر:

Hutton, The Elixir of Mirth, p. 51.

(٥٥) قام باستبدال المسجد القديم الذي شيده إبراهيم عادل شاه الأول بمسجد أخر كبير يقع في القسم الجنوبي الشرقي للمدينة، ولم تكتمل أعمال العمران لهذا المسجد حيث توالت عليه التجديدات والتوسعات حتى عصر أورانكزيب وهو يعد أكبر مساجد الدكن حتى الأن أنظر:

Hutton, The Elixir of Mirth, p.56.

لمزيد من التفاصيل أنظر: Schohen, (E), and Warmister, (M.L), The Deccan 1347 – 1886, London, 1981.

محمد سعيد الطريحي ، المملكة العادلشاهية ، ص ١٩ – ٢٠.

مملكته[٥٦]، كما إهتم بتشييد القصور[٥٧] وتزويد المدينة بمصادر المياه[٥٨]، والحدائق[٥٩]، ونلاحظ أثر هذه الأعمال المعمارية في رسالة الرحالة البرتغالي Gomalo Rodriguez لرئيس الجزويت في جوا عام ٩٦٩هـ / ١٥٦١م[٦٠]، والتى اختلفت عن رسالته في بداية عهد على عادل شاه[٦١].

وجاءت نهاية فترة حكمه المزدهرة – على غير المتوقع – بمقتله على يد أحد غلمانه في عام ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م[٦٢].

وكان أول سلاطين أسرة عادل شاده الذين دفنوا في العاصمة[٦٣]، ونتيجة لأن على عادل شاه لم ينجب ولداً[٦٤]، فقد خلفه في الحكم بن أخيه إبراهيم الثاني (انظر شكل ٢) والذي

---

(٥٦) قام على عادل شاه الأول بتشييد هذا السور عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م واستغرق تشييده عامين ونصف، وقام على تشييده معماريين ونحاتيين جلبوا من مختلف البقاع، ويحتوى هذا السور على خمس بوابات شاهقة، ويحيط بمنطقة مساحتها حوالي ميلين ونصف مربع تقريباً، وفي مركزها قلعة بيجابور، لمزيد من التفاصيل أنظر:
Hutton, The Elixir Mirth, p. 51.
Michell, and Zebrowski, The New Cambridge History of India, pp. 86-88.

(٥٧) منها قصر Gagan Mahal وهي تعني قصر سماوي ، وقد شيده في بيجابور في ٩٦٨-٩٦٩هـ/١٥٦٠ – ١٥٦١م أنظر: Hutton, The Elixir of Mirth, p. 15.

(٥٨) محمد سعيد الطريحي، ملوك حيدر آباد، ص ٢٣٠.

(٥٩) محمد سعيد الطريحي، المملكة العادلشاهية، ص ٢٠.

(٦٠) ذكر رودريجز " .... في كافة أنحاء المدينة أبواب سكنية لبيوت عالية يتقدمها أروقة ذات أعمدة، ويتميز هذه البيوت بأنها صحية وجيدة التهوية..." وينهي وصفه بقوله "....ربما لا يوجد مكان في العالم حالياً أكثر روعة وبهجة للعين من هذا المكان...." لمزيد من التفاصيل أنظر:
Hutton, The Elixir of Mirth, p. 20.

(٦١) كان رودريجز قد أرسل رسالة في بداية عهد على عادل شاه إلى رئيس الجزويت يقول فيها "...إن المكان بصفة عامة أقل من المتوسط ،على الرغم من أنهم أغنياء ويكثرون من تشييد المباني ....ومدينة بيجابور أكبر من جوا ومع ذلك لا يمكنك أن تجد فيها عشر بيوت جيدة كما أن شوارعها ليست جيدة التخطيط..." لمزيد من التفاصيل أنظر: Hutton , The Elixir of Mirth, pp. 14 – 15.

(٦٢) العيدروسي، النور السافر، جـ١ ، ص ٣٢٥ ؛ ويذكر الهروي أن مقتله جاء تدبير من ملك بريد لمزيد من التفاصيل أنظر : أحمد بخشي الهروي، المسلمون في الهند، ص ٥٦.

(٦٣) دفن في البقعة المعروفة حالياً باسم روضة على ، وشيد قبره بإسلوب بسيط يتشابه مع قبور المتصوفين الذين دفنوا إلى جواره .لمزيد من التفاصيل أنظر: Hutton , The Elixir of Mirth, p. 67.
؛محمد سعيد الطريحي، المملكة العادلشاهية، ص ١٨.

(٦٤) تزوج من تشاند بي بي ابنة حسين نظام شاه صاحب أحمد نكر ومن أميرة برار دولت بنت داريا أنظر: محمد سعيد الطريحي، المملكة العادلشاهية، ص ٢٠.

كان يبلغ من العمر في هذا الوقت تسع سنوات(٦٥)، لهذا كان النفوذ في بداية حكمه لأمراء الجيوش والوزراء أمثال كامل خان وكشور خان ، وإستقر الأمر في النهاية لأحدهم وهو دلاور خان الحبشي ، وكان إبراهيم الثاني في أثناء هذه الفترة تحت وصاية تشاند بسي بسي زوجة عمه على عادل شاه(٦٦)، وبعد مرور تسع سنوات قضاها دولار خان مستقلاً، إستطاع إبراهيم السيطرة على البلاط وسمل عيني دلاور خان(٦٧).

وقام إبراهيم عادل شاه الثاني بتغيير مذهب المملكة للمرة السادسة إلى المذهب السني(٦٨)، وتبع ذلك إستبدال رجال البلاط الإيرانيين بالأحباش والدكنيين(٦٩)، كما ازداد أيضاً عدد الموظفين من المراتها في دولته(٧٠)، وقد إعتمد إبراهيم الثاني على اخلاص خان الحبشى الذي ارتفعت مكانته حتى تولى رئاسة وزرائه وقد انعكست هذه الأهمية في كثرة الصور الشخصية التي جمعته مع السلطان نفسه(انظر لوحة٢)(٧١).

وقد شهدت الحياة السياسية والعسكرية في عهده تطورات هامة، حيث بدأ الإمبراطور أكبر في تلك الفترة بالإتجاه بفتوحاته نحو الجنوب ، وحاول إبراهيم أن يوقف هذا

---

(٦٥) أحمد بخشي الهروي، المسلمون في الهند، جـ١، ص ٥٧. وهو آخر الحكام الذين ذكرهم الهروي .

(٦٦) حدث خلط لدى الساداتي حيث ذكر أنها زوجة إبراهيم عادل شاه الثاني أنظر: أحمد محمود الساداتي تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضاراتهم، جـ١، ص ٢٢٤.

(٦٧) أحمد بخشي الهروي، المسلمون في الهند ، ص ٥٧ ؛

Subrahmanyam, Iranians Abroad, p. 343.

(٦٨) ذكر الهروي أن ذلك التحول كان بفعل دلاور خان أنظر: أحمد بخشي الهروي، المسلمون في الهند ، جـ ١ ، ص ٥٧، ويذهب الطريحى إلي أن هذا السبب هو ما جعل إبراهيم الثاني يحاول خلعه لإضطهاده الشيعة أنظر: محمد سعيد الطريحي، المملكة العادلشاهية، ص ٢٧. والأرجح أن من قام بتغيير المذهب هو إبراهيم عادل الثاني نفسه وليس دلاور خان وإلا ما الذي منع إبراهيم من العودة للمذهب الشيعي بعد تخلصه من دلاور خان ، ويؤكد هذا الترجيح نص أورده المحبي عند ترجمته الشيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروسي اليمني حيث قال "...وقصد السلطان إبراهيم عادل شاه فأجله وعظمه وتبجح السلطان بمجيئه إليه، وكان لا يصدر أمراً إلا عن رأيه، وسبب إقباله الزائد عليه أنه وقع له حال لجتماعه به كرامة... وكان السلطان إبراهيم رافضياً فلم يزل به حتى أدخله في عداد أهل السنة..." أنظر:المحبي ، محمد أمين بن فضل الله ، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، دار صادر ، بيروت ، د.ت ، جـ٢ ، ص ٢٣٦.

(٦٩) لم يمحو ذلك سلطة الإيرانيين نتيجة لأعدادهم الكبيرة والمنظمة في بيجابور والتي قدرها البعض في عهد على عادل شاه بحوالي ٨٠ ألف فارس من أصول إيرانية أنظر :

Subrahmanyam, Iranians Abroad, p. 343.

(٧٠) Gray, Deccani Painting, p. 74.

(٧١) Michell, and Zebrowski, The New Cambridge History of India , p. 14.

الخطر بترتيب زواج سياسي بين ابنته Sultana Begum والأمير دانيال بن الإمبراطور أكبر، وبعد وفاة أكبر بدأ هذا الخطر يقل نسبياً(٧٢).

وعلى الرغم من أن إبراهيم الثاني لم يكن نشيطاً من الناحية السياسية والعسكرية كعمه إلا أنه إستطاع في عام ١٠١٨هـ / ١٦٠٩م أن يضم مملكة بيدار والتي شملت المنطقة الغنية والخصبة لبيدار، وبذلك قام بتحسين كل من دخل ومساحة بيجابور(٧٣)، وقد أدي ذلك إلي خلاف مع الملك عنبر الحبشي في أحمد نكر دبت على إثره العديد من المعارك بين المملكتين(٧٤).

أما عن الحياة الفنية والثقافية في عهده فقد ازدهرت العمارة والفنون في تلك الفترة وعرف عنه حبه للشعر(٧٥)، والموسيقي(٧٦)، بالإضافة إلي كونه خطاط ماهر وذواق لفن التصوير(انظر لوحة ١)، وذاع صيته على أنه الراعي الأعظم للفنون في الدكن(٧٧).

---

(٧٢) Hutton, The Elixir of Mirth, p. 21.

(٧٣) محمد سعيد الطريحى، المملكة العادلشاهية، ص ٧٨. إختلط الأمر على الساداتي حيث ذكر أن إبراهيم عادل شاه الثاني قضى على إمارة أحمد نكر وضمها إلى مملكته أنظر: أحمد محمود الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه الجزيرة الهندية وحضارتهم، جـ١ ، ص ٢٢٤ .

(٧٤) حدث هذا بعد اتحاد كل من المملكتين ضد قوات المغول، وقد هاجم الملك عنبر بيجابور عام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م ودمر مدينة إبراهيم الجديدة (نورس بور) أنظر:
Michell, and Zebrowski, The New Cambridge History of India, p.14.

(٧٥) كان يتحدث لغة المراتها والأوردو الدكني , ولم يتعلم اللغة الفارسية حتى وصل عمره ٢٠عاماً، وله ديوان شعري غنائي يسمي كتاب النورس Kitab –I Nauras وقد ألفه باللغة الأوردية ويحتوي على أغاني تكريماً لكل من حضرة كيسو دراز المتصوف الكبير المدفون في كلبركة, والإلهة الهندوسية سارسواتي، وهذا الديوان مطبوع حالياً تحت عنوان نورس أنظر:
Michell, and Others, The Islamic Heritage of the Deccan, p. 5.
Hutton, The Elixir of Mirth, p. 17.
مجمد سعيد الطريحى، المملكة العادلشاهية، ص ٣٥.

(٧٦) إسماعيل العربي، الإسلام والتيارات الحضارية في شبه القارة الهندية، ص ٦٥.

(٧٧) Michell and Others, The Islamic Heritage of the Deccan, pp. 5-4; Michell, and Zebrowski, The New Cambridge History of India, p. 14; Leach, Mughal and Other Indian Painting, p. 816.
ولا أدل على ذلك من أنه في عام ١١٠٢ هـ/ ١٦٠٣ -١٦٠٤م قام رسمياً بتغيير إسم بيجابور إلي فيجبورة Vijayapur بمعني مدينة النصر، أو فيدابور أى مدينة التعلم أنظر :
Hutton, The Elixir of Mirth, p. 236.

ويعد عصر إبراهيم عادل شاه الثاني هو عصر الإنجازات المعمارية الضخمة، والتي بدئها في عام ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م بمشروعه الضخم بإنشاء مدينة توأمية لبيجابور خارج السور الغربي لها بحوالي ثلاثة كيلو مترات أطلق عليها اسم نورس بور[٧٨].

ومن أكثر الأعمال روعة في عصر إبراهيم الثاني مجموعة روضة إبراهيم والتي تمثل ضريح السلطان وعائلته، والمبني خطط واكتمل تشييده في عام١٠٣٦هـ/١٦٢٦م[٧٩]، كما ينسب إلى عهده تشييد مجموعة من المساجد الهامة في تاريخ عمارة بيجابور[٨٠]مثل مسجد الملكة جيهان بيجوم[٨١]وجامع بخاري[٨٢]ومهتار محل Mehtar Mahal[٨٣]، كما

---

(٧٨) لم تكتمل هذه المدينة وتذكر المصادر أنها لو اكتملت فإنها كانت ستصبح مساحتها قدر مرة ونصف من مساحة بيجابور، وتعد هذه المدينة ذات أهمية ضخمة في مجال الفنون المعمارية حيث كانت مجالاً لدمج الفنون الهندية للفنانين الهندوس المهاجرين من فيايانكر مع الفنون الإسلامية، والتي انعكست على جدران وعمائر المدينة، والتي لم تعد أغلب الخرائط الأثرية تتضمنها نتيجة ندرة بقاياها إلى جانب أنها لم تنقب بالكامل لمزيد من التفاصيل أنظر:
Hutton, The Elixir of Mirth, p. 20, 148, 168

(٧٩) أعد هذا المبني في الأصل لتاج سلطانة زوجة إبراهيم ، وهو يتضمن قبرين ومسجد وفي منتصفه حديقة ملكية كبيرة مساحتها حولي ١٤٠ متر مربع، أشرف على تشييدها صندل مالك , وقام بتشييده ستة آلاف عامل, وهو يشتهر بقبته الشبيهة بزهرة اللوتس والخط العربي الذي يزينه، وهو يمثل الخلاصة لمزيج من التأثيرات العربية الفارسية والتركية التي صهرت في بوتقة التأثيرات الهندية الأصلية. لمزيد من التفاصيل أنظر:
Michell and Others, Islamic Heritage of the Deccan , p. 6.
؛هـ. جوتيز، فارس والهند بعد فتح محمود، بحث مستخرج من كتاب تراث فارس ، ترجمة أحمد محمود الساداتي ، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٩، ص ١٤٧.

(٨٠) شهدت العمارة في بيجابور في الربع الأول من القرن ١١هـ / ١٧م تطوراً معمارياً جديداً، تركز حول شيوع استخدام الأحجار المنحوتة والمزخرفة بدقة، وهذا التطور يعد مرحلة هامة في عمارة بيجابور والتي شكلت مع القباب البصلية ذات القاعدة على شكل أوراق اللوتس والمآذن الرفيعة التي استخدمت للزينة فقط أهم خصائص عمارة بيجابور. لمزيد من التفاصيل أنظر:
Hutton, The Elixir of Mirth, p. 167.

(٨١) شيد بأمر السلطان بإسم زوجته وتكريماً لها في عام ٩٩٥هـ/١٥٨٦م وهو يعد أول مباني بيجابور التي إستخدم فيها الأحجار المنحوتة بدلاً من الزخارف الجصية لزخرفته لمزيد من التفاصيل أنظر:
Michell, and Zebrowski, The New Cambridge History of India, p. 90.

(٨٢) شيد في الفترة ١٠٢٤ – ١٠٣٥هـ/ ١٦١٥ –١٦٢٥م ، ونسب إلى أحد العلماء الذين هاجروا من بخاري إلى بيجابور، ولكن لا يوجد أى دليل على ذلك. لمزيد من التفاصيل أنظر:
Hutton, The Elixir of Mirth, p. 41.

(٨٣) مؤرخة بعام ١٠٣٠هـ/ ١٦٢٠م لمزيد من التفاصيل أنظر:
Michell, and Zebrowski, The New Cambridge History of India, p. 90.

يرتبط به تشييد قصر سات منزل Sat Manzil [٨٤]، وعدد من الحدائق والمنتزهات الرائعة[٨٥].

وتوفى السلطان إبراهيم عادل شاه الثاني في عام ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٦م[٨٦]، وخلفه في الحكم ابنه محمد عادل شاه والذي حكم في الفترة من ١٠٣٥هـ - ١٠٧٠هـ/ ١٦٢٦ - ١٦٦٠م[٨٧]،(انظر شكل ٢) وكان في هذا الوقت في الخامسة عشر من عمره وهو مسلم سني، واصل سياسة أبيه في تفضيل الدكنيين في بلاطه، وفي عهده إزداد خطر المغول نتيجة لتقدمهم نحو الدكن، وحاول تشكيل تحالف مع أحمد نكر لكي يعيق تقدم المغول، ولكن هذا لم يمنع شاهجهان من إرسال جيش إلي بيجابور بقيادة عمه عساف خان عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣١م وقد باءت هذه الحملة بالفشل ، وبعد مرور خمس سنوات أرسل حملة أخري أكثر تنظيماً أجبرت محمد عادل شاه على توقيع معاهدة خضوع مما أدى إلى إزدياد الأثر المغولي داخل كل من مجتمع وفنون بيجابور[٨٨].

وشكل المراتها - إلى جانب المغول - خطراً متزايداً على بيجابور[٨٩] . وخاصة تحت قيادة زعيمهم شيفاجي الذي وجد الفرصة سانحة في الهجوم على مملكة بيجابور، مما سبب لها العديد من المتاعب في تلك الفترة[٩٠].

---

(٨٤) شيده لزوجته سوندار محل Soundar Mahal وبدأ في تشييده عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م وهو قصر من سبع طوابق، به العديد من النافورات والجدران المزينة بالرسوم والتصاوير. لمزيد من التفاصيل أنظر: هـ. جوتيز، فارس والهند بعد فتح محمود ، ص ١٤٨؛ Hutton,, The Elixir of Mirth, p. 20.

(٨٥) لمزيد من التفاصيل أنظر: محمد سعيد الطريحي،المملكة العادلشاهية، ص٣٤؛ محمد سعيد الطريحي،ملوك حيدر آباد،ص٢٣٠.

(٨٦) ذكر الساداتي خطأ أن إبراهيم عادل شاه الثاني هو آخر سلاطين بيجابور، أنظر : أحمد محمود الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضاراتهم، جـ١ ، ص ٢٢٤.

(٨٧) زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ص٤٣٩ ؛ أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، ص ٦٣٧، ذكر كل من Hutton وزيبراوسكي والطريحي فترة حكمه هي ١٠٣٧-١٠٦٧هـ/ ١٦٢٧ - ١٦٥٦م أنظر: Zebrowski, Deccani Painting, p.283; Hutton, The Elixir of Mirth, p. 21.

محمد سعيد الطريحي، المملكة العادلشاهية، ص ٤٣.

(٨٨) Michell, and Zebrowski, The New Cambridge History of India, pp. 14-15.

(٨٩) كون المراتها جزءاً كبيراً من الجيش لدى أسرة بهمني، وظل ذلك مستمراً لدى الولايات التي انفصلت فيما بعد ، وخاصة بيجابور وأحمد نكر، وكان الحكام يستعينون بهم في الوظائف الحكومية وخاصة جمع الضرائب، الذي كان يحتاج إلى أعداد كبيرة، ونظراً لقلة أعداد المسلمين في الدكن - بالنسبة للهنود - فقد اعتمد الحكام على البراهمن المحليين الذي أطلق عليهم اسم المراتها، والذين بدءوا في الظهور والتحول إلى قوة

وعلى الرغم من ذلك فإن محمد عادل شاه إستطاع أن يضبط الأمور في البلاد، وحققت الاتفاقية التي عقدها مع المغول الأمن لمملكته مما سمح له بأن يقوم بعدة حملات وسع خلالها أجزاء مملكته تحت قيادة رئيس وزرائه أفضل خان(٩١).

ويعد عصر محمد عادل شاه هو عصر الإنجازات المعمارية الطموحة وقمة إزدهارها كما يتضح من القبر الخاص به، والمسمي جول جمباد Gol Gumbad ، والذي يمثل القبة الأكبر في العالم بعد قبة كاتدرائية سان بيتر في روما(٩٢)، كما ينسب له أيضاً مبني أخر وهو آثار محل Asar Mahal ، وكان في الأصل أحد قصور أسرة عادل شاه(٩٣)، وأعيد استخدامه عام ١٠٥٦ هـ /١٦٤٦م لكي يحفظ فيه بعض الآثار التي تعود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم(٩٤).

وجدير بالذكر أن عصره شهد أيضاً ازدهاراً كبيراً للأدب الأوردي والكتابات التاريخية(٩٥)، بما يعكس مدى الازدهار الذي شهدته بيجابور في عهده في مختلف المجالات(٩٦) ,(أنظر لوحة٣)

مؤثرة في الفترة ٨٠٠ – ١٠٠٠هـ/ ١٤٠٠ – ١٦٠٠م ، وكانت خطورتهم على بيجابور أنهم كانوا يزيدون من النعرات المحلية، لذلك وجدت بيجابور نفسها في صراع مع نصف سكانها الذين ورثتهم عن فيايانكر، وقد كان لهم أثر كبير في فنون وحضارة بيجابور في تلك الفترة لمزيد من التفاصيل أنظر Hutton, The Elixir of Mirth ,pp.11-12

Encyclopaedia Iranica http://www.iranica.com/newsite.+searchADELSAHIS,15/11/2008,

(٩٠) Hutton, The Elixir of Mirth , p. 21.

(٩١) Hutton, The Elixir of Mirth , p. 21.

(٩٢) Michell, and Zebrowski, The New Cambridge History of India , p. 15.

وهي تحتفظ بالتصميم الأصلي المقتبس عن مقبرة إسماعيل السلماني ببخاري . ويبلغ قطرها الخارجي ٤٤م ومقامة على مكعب طول ضلعه٤٧,٥ متر . والقبة محمولة من الداخل على ثمانية عقود . وتحمل نص تأسيسي يمثل الفراغ من التشييد في عام١٠٦٧ /١٦٥٦م لمزيد من التفاصيل أنظر : هـ. جوتيز، فارس والهند بعد فتح محمـود، ص ١٤٦. Goetz, (H), Ottoman – Turkish Art in India, the Architect of Gol Gumbad at Bijapur, 1975; Michell, and Zebrowski, The New Cambridge History of India , pp. 92-93.

(٩٣) يعد من أكثر قصور أسرة عادل شاه حفظاً ، وهو مزين بالرسوم الجدارية التي تعود إلى تلك الفترة أنظر: Hutton, The Elixir of Mirth, p. 22.

(٩٤)هما شعرتان يعتقد أنهما للرسول صلى الله عليه وسلم ، جدير الذكر أن هناك العديد من المباني التي شيدت في الهند لحفظ أثار أقدام الرسول في مرشد أباد وفاتح بورسكري وجوجارات والبنغال لمزيد من التفاصيل أنظر: Hasan, (P), The Footprint of the Prophet, M, vol.10, Essays in Honor of Oleg Grabar, 1993, pp. 335-343.

(٩٥) محمد سعيد الطريحي، المملكة العادلشاهية، ص ٤٣ – ٥٠.

وقد توفى في عام ١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م بمدينة بيجابور ودفن في مقبرتـه الخاصـة وخلفه في الحكم ولده الوحيد على(٩٧), ولقب بإسم على عادل شاه الثانى .

وقد إعتلى على عادل شاه الثاني العرش وعمره لا يتجاوز التاسعة عشر(٩٨)، وحكم في الفترة ١٠٧٠ – ١٠٨٣هـ / ١٦٦٠ – ١٦٧٢م(٩٩)،(أنظر شكل ٢) وقـد قـام بتغييـر المذهب الرسمي ليعود إلى المذهب الشيعي للمرة السابعة والأخيرة(١٠٠)، وقد أدى ذلك إلـى إثارة الدولة المغولية السنية ضده مما إضطره لمحاربتهم، كما إضطر إلى محاربة المراتهـا الذين كانوا يغيرون على حدود المملكة بين الحين والأخر، وانشغل بذلك طوال فترة حكمـه، ويذكر عنه أنه كان شاعراً مرموقاً كتب باللغتين الفارسية والدكنية(١٠١)، وقد عرف عنه أنـه كان محب للمجون مما أثر على انهيار المجتمع ككل(١٠٢).

وفي عام ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م كان أورانكزيب مصراً على إسقاط ممالـك الـدكن، وعندما تولي الإمبراطورية قاد جيشه نحو بيجابور، وفي نفس الوقت كان شـيفاجي زعـيم المراتها قد وصل إلى درجة كبيرة من القوة مكنته من الهجوم علـى بيجـابور(١٠٣)، ولكـي تصبح الأمور أسوأ مات على الثاني فجأة، ولكي تزداد الأمور سوءاً خلفه ابنه إسكندر عادل شاه الذي كان عمره خمس سنوات وحكـم فـي الفتـرة ١٠٨٣ – ١٠٩٧هـــ / ١٦٧٢ – ١٦٨٦م(١٠٤)،(أنظر شكل ٢) وصار لعبة بيد الأمراء، وأخذ المغـول والمراتهـا يجـردون بيجابور من المدن والقلاع شيئاً فشيئاً(١٠٥)، مما أدي إلي فـراغ خزانـة الدولـة, وواجهـت

---

(٩٦) Gray, Deccani Painting , p. 74.

(٩٧) محمد سعيد الطريحى، المملكة العادلشاهية، ص ٤٣.

(٩٨) محمد سعيد الطريحى، المملكة العادلشاهية، ص ٥٠.

(٩٩)أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ص ٦٣٧؛ زامباور، معجم الأسـرات الحاكمة ، ص ٤٣٩ .

(١٠٠) Hutton, The Elixir of Mirth, p. 23.

(١٠١) له ديوان مطبوع تحت اسم كليات شاهي، أنظر : محمد سعيد الطريحى، المملكة العادلشاهية، ص٥٠-٥١.

(١٠٢) قام أحد الشعراء المعاصرين له بنظم عدة قصائد يذكره فيها بالآخرة وعذابها، بعـد أن إزدادت أحـوال البلاد سوءاً لمزيد من التفاصيل أنظر: محمد سعيد الطريحى، المملكة العادلشاهية، ص ٧٢.

(١٠٣) Hutton, The Elixir of Mirth, p. 23.

(١٠٤)أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسـر الحاكمـة، ص ٦٣٧؛ زامبـاور، معجـم الأسرات الحاكمة ، ص ٤٣٩ .

(١٠٥) محمد سعيد الطريحى، المملكة العادلشاهية، ص ٧٤.

بيجابور مصيرها المحتوم حينما حاصرها الإمبراطور أورانكزيب سبعة عشر شهراً[١٠٦]، سقطت بعدها بيجابور بعد أن إضطر إسكندر إلى التسليم في عام ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٦م[١٠٧]، وعامله أورانكزيب معاملة حسنة، وسمح له بالإقامة في دولت أباد، ولكنه إستدعي بعد قليل إلى معسكر الإمبراطور وأقام هناك إلى أن توفي في عام ١١١٢ هـ/١٧٠٠م عن عمر يناهز ٣٢ عاماً[١٠٨].

والجدير بالذكر أنه على الرغم من محاولات المغول المستمرة منذ عهد الإمبراطور أكبر للاستيلاء على بيجابور، فإنها لم تسقط إلا في عهد أورانكزيب[١٠٩]، ليسدل الستار نهائياً على هذه المملكة وحكامها من أسرة عادل شاه (أنظر لوحة٤).

---

(١٠٦) يذكر جمال الدين الشيال أن سبب هذا الحصار أن أورانكزيب طلب من إسكندر أن يتعاون معه للقضاء على نفوذ المراتها، ومع هذا فقد تباطأت بيجابور في ذلك، بل وكانت تعمل في السر على التآمر مع شيفاجي ضد الإمبراطور أنظر: جمال الدين الشيال، تاريخ دولة أباطرة المغول في الهند ، الإسكندرية، ١٩٦٨م ، ص ١٦١.

(١٠٧) يذكر كل من جراي وعبد المنعم النمر أن تاريخ سقوط المملكة هو ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٥ م أنظر:
Gray, Deccani Painting, p.74.

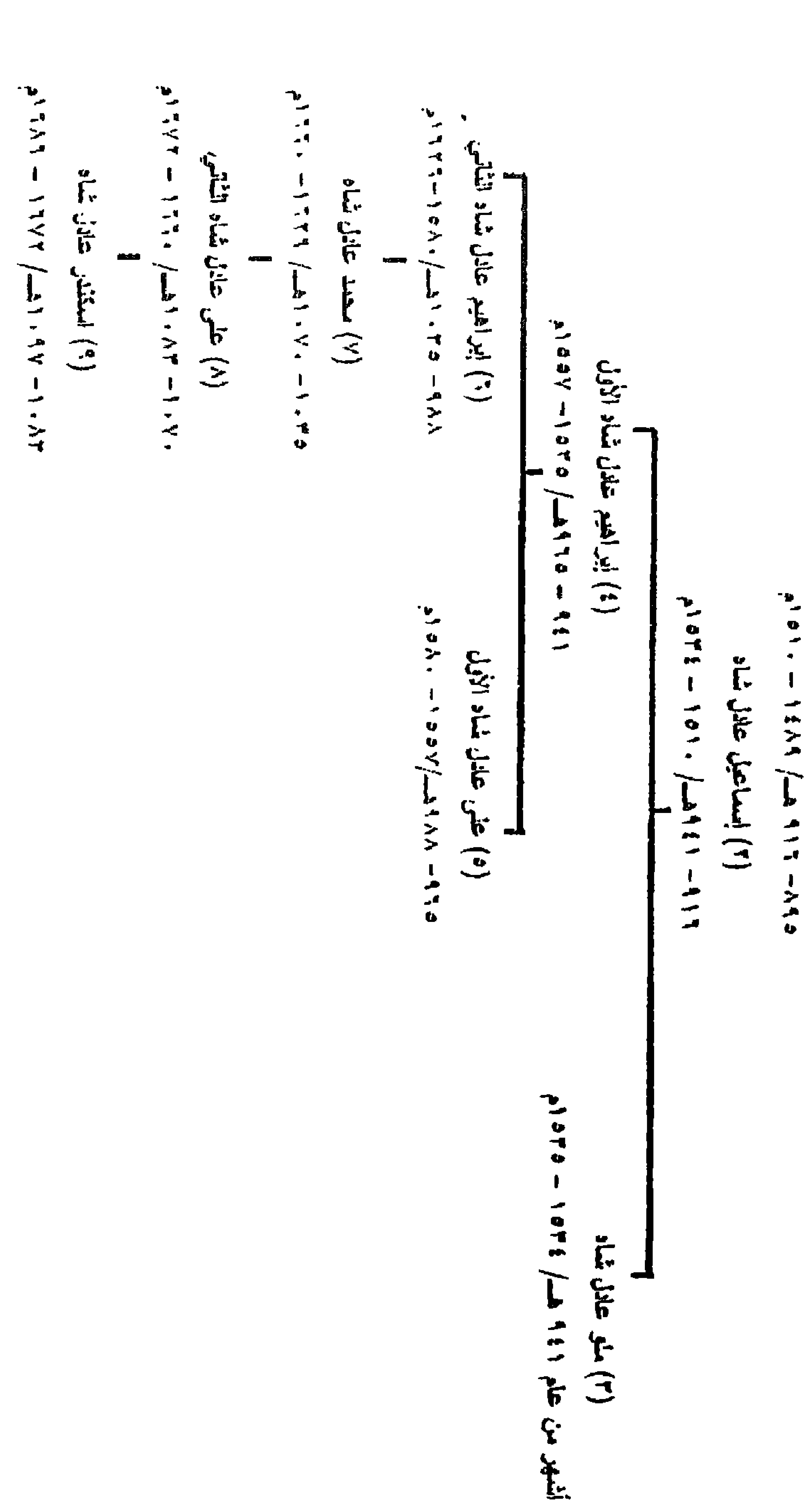
عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند ، ص ٢٧٨.

كان السبب الأساسي لسقوط بيجابور هو الضغط الخارجي من قبل المارتها والمغول والصراع الداخلي بين الأمراء الأحباش والإيرانيين أنظر:

Encyclopaedia Iranica , http://www.iranica.com/newsite,+searchADELSAHIS,15/11/2008

(١٠٨) بعد عامين من غزو المغول حلت كارثة الطاعون على المدينة مما أدي إلى مقتل نصف سكانها أنظر:
Zebrowski, Deccani Painting, p. 152.

(١٠٩) Welch, (S.C), The Metropolitan Museum of Art Islamic World, New York, 1987, p. 159.



شكل (٢) حكام أسرة عادل شاه وفترات حكمهم
(عمل الباحث)



اللوحة(١)

صورة شخصية للسلطان إبراهيم عادل شاه الثانى

نقلا عن

Pal,Indian Painting, pl.101.



اللوحة(٢)

صورة شخصية لإخلاص خان الحبشى

نقلا عن

Zebrowski, Deccani Painting, pl.96.

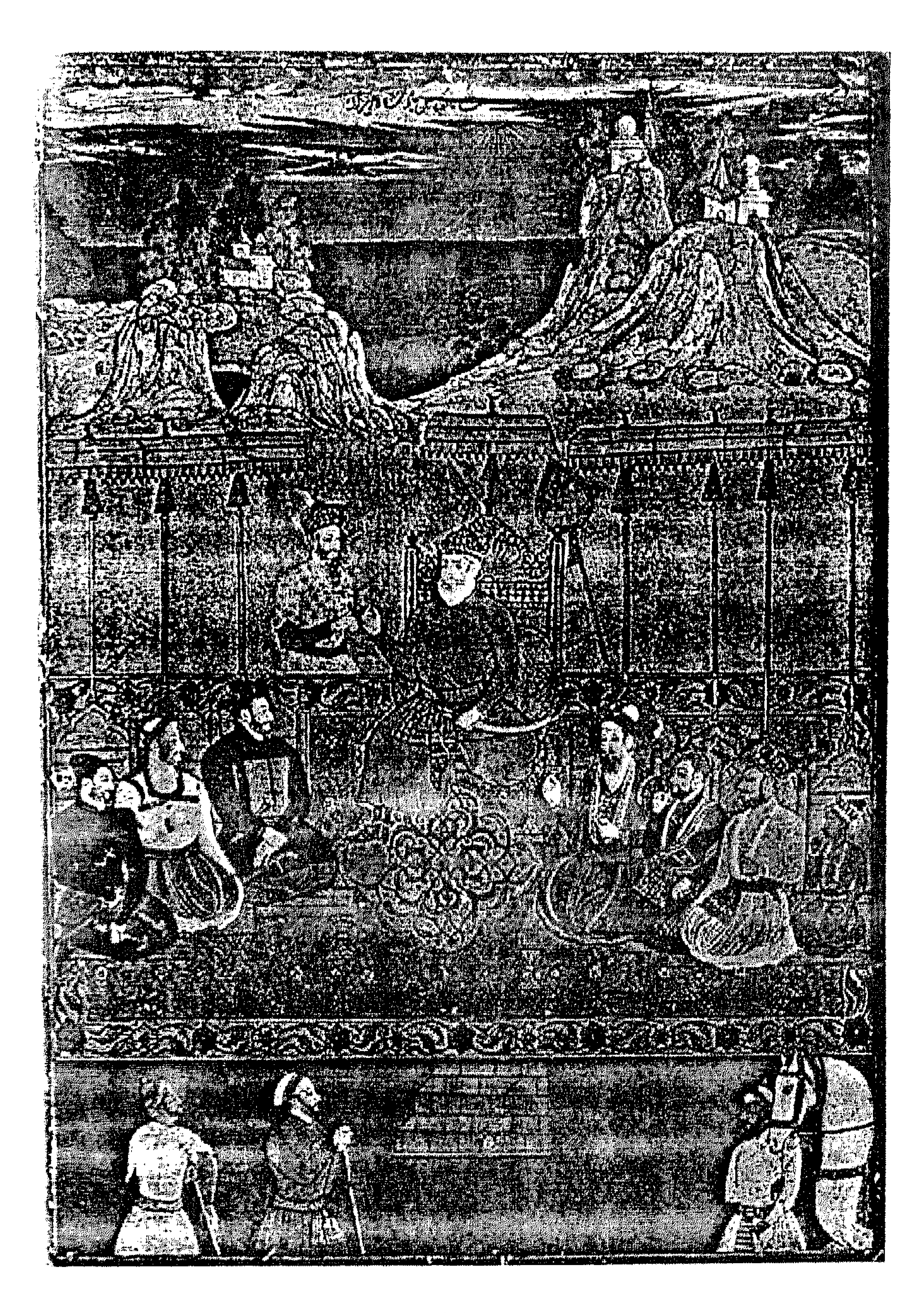


اللوحة(٣)

بلاط محمد عادل شاه

نقلا عن

http://artblog.net/publications/2006/11/domains/?page=7
15/2/2009



اللوحة(٤)

أسرة عادل شاه

نقلا عن

Zebrowski, Deccani Painting, pl.118a.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية:

- إسماعيل العربي، الإسلام والتيارات الحضارية في شبه الجُزيرة الهندية، ليبيا ، ١٩٨٥.

- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الجنحي ،ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م، تحفة النظار في غرائب الأمصار، ت طلال حرب، بيروت، د.ت.

- أبو المعالى أطهر المباركبورى ، العقد الثمين فى فتوح الهند ومن ورد بها من الصحابة والتابعين ، القاهرة ، ١٩٨٠.

- أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، دار المعارف ١٩٧٢.

- أحمد بخشي الهروي، المسلمون في الهند من الفتح العربي إلي الاستعمار البريطاني، طبقات أكبري، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلي، ٣أجزاء، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٥.

- أحمد محمود الساداتي ، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، جـ١، القاهرة، ١٩٨٠.

- أحمد مختار العبادي، دولة سلاطين المماليك في الهند أوجه الشبه بينها وبين دولة المماليك في مصر، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية، مج٩، ١٩٥٥.

- جوستاف لوبون، حضارات الهند ، ت. أحمد زعيتر، القاهرة، ١٩٤٨.

- زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي،ت: زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود، بيروت، ١٩٨٠ .

- العيدروسي، محي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله،ت١٠٣٨هـ/١٦٢٨م، النور السافرعن أخبار القرن العاشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.

- المحبي، محمد أمين بن فضل الله، خلاصة الأثر في أعيان القـرن الحـادي عـشر، ت ١١١١هـ/١٦٩٩ م، دار صادر، بيروت، د.ت.

- محمد سعيد الطريحي، ملوك حيدر آباد ، دائرة المعارف الهندية، هولندا ، ٢٠٠٥.

- محمد سعيد الطريحي، المملكة النظامية وأسرار الإسماعيلية المستترة في الهند، دائـرة المعارف الهندية ، هولندا ، ٢٠٠٦.

- محمد سعيد الطريحي، المملكة العاد لشاهية، دائرة المعارف الهندية، هولندا، ٢٠٠٧.

- المعبري، زين الدين عبد العزيز بن زين الدين بن على بن أحمد ، تحفة المجاهدين فـي بعض أخبار البرتكاليين، حيدر آباد ،١٣٠١هـ/١٨٨٣م.

- هـ. جوتيز، فارس والهند بعد فتح محمود، بحث مستخرج من كتاب تـراث فـارس ، ترجمة أحمد محمود الساداتي ، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٩.

- همايون كبير، التراث الهندي ،.نيودلهي ، الهند ، بدون.

المراجع الأجنبية:

- Atil, (E), The Brush of the Masters Drawings from Iran and India, Washington, 1978.

- Brijbhushan, (J), The World of Indian Miniatures, New York, 1979.

- Cousins, (H), Bijapur and its Architecture Remains with an Historical outline of Adil Shahi Dynasty, Bombay, 1916.

- Eaton, (R), Sufis of Bijapur, 1300 -1700, Princeton University Press, 1978.

- Goetz, (H), Ottoman – Turkish Art in India, the Architect of Gol Gumbad at Bijapur, 1975.

- Gray, (B), Deccani Painting , The School of Bijapure, Burlington Magazine for Connoisseurs, Vol. 73, No. 425, Aug. 1938.

- Gray, (B), The Arts of Indian, New York, 1981.

- Hasan, (P), The Footprint of the Prophet, Muqarnas, vol.10, Essays in Honor of Oleg Grabar, 1993.
- Hutton, (D.S), The Elixir of Mirth and Pleasure the Development of Bijapuri Art,1565 – 1635, Doctor of Philosophy, university of Minnesota, U.S.A, 2000.
- Leach, (L.Y), Mughal and Other, Indian Painting from the Chaster Beaty library, vol. II, London, 1995.
- Michell, (G), and Others, Islamic Heritage of the Deccan, Bombay, 1986.
- Michell, (G), and Eaton, (R), Firuzabad, Palace City of the Deccan, Oxford University Press, 1992.
- Michell, (G) and Zebrowski, (M), The New Cambridge History of India, 1:7,Architecture and Art of the Deccan Sultanates,Cambridge University Press,1999.
- Nayeem, (M.A), External relations of the Bijapur Kingdom , 1489 – 1686 A.D, A Study in Diplomatic History , Hyderabad, 1974.
- Pal, (P), Indian Painting, A Catalogue of the Los Angeles County Museum of Art Collection, vol. I, U.S.A, 1993.
- Robinson, (F), Sufis of Bijapur, 1300 – 1700, Social Roles of Sufis in Medieval India, Modern Asian Studies, vol. 14, No. 4 , 1980.
- Schohen, (E), and Warmister, (M.L), The Deccan 1347 – 1886, London, 1981.
- Shokoohy , (M), and Shookoohy (N.H), Tughlug Abad the Earliest Surviving Town of the Delhi Sultanate, B.S.O, 1994.
- Subrahmanyam,(S),Iranians Abroad, Intra –Asian Elite Migration and Early Modern State Formation, Journal of Asian Studies, Vol. 51, No. 2. May 1992.

- Welch , (S.C), The Metropolitan Museum of Art Islamic World, New York, 1987.

- Yasdni, (G), Bidar its History and Monuments, London, 1941.

- Zebrowski, (M), Deccani Painting, University of California Press, 1983,

- http://www.iranica.com
- http://artblog.net

مطرقة الباب في مصر المملوكية: الأسباب والأسماء والتكوين

٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م

د. حسام عويس طنطاوي
كلية الآداب-جامعة عين شمس

للبلدان أبوابها، وللمدن أبوابها، وللبيوت أبوابها، وللكتب أبوابها، وللنفوس أبوابهـا، وللشخصيات أبوابها، كما للجنة والنار أيضاً أبوابهما، وفى المحصلة لا تدخل بلداً أو مدينة أو بيتاً أو نفساً إلا من أبوابها المغلقة. فالباب الذي يطل على الخارج حارساً وحاميـاً لأسـرار البيت، ويمثل وجهاً معلناً للخارج عن كل وجوه ساكنيه، وعلامة يستدل بها مَنْ في الخـارج على بعض من هوية بداخله. ولأنه كذلك أصبحت الرسوم والنقوش التي توضع عليه لافتـة مواجهة للخارج وجزءاً معلناً من ثقافة ورغبات وتطلعات أصحابه تحمل إرثهـم وهـويتهم ورؤيتهم العقائدية[1].

واستجابة لتعاليم الدين الإسلامي اتجه المعمار الإسلامي في المنازل إلى توفير اكبر قدر ممكن من الخصوصية أولاً وقبل كل شئ؛ الأمر الذي وجد صدى في نفس العربي المسلم الذي يتسم بالخجل الطبيعي وتفادى الحظر بقدر المستطاع، فاختيرت الأبواب في البيوت بعيدة عن محور الفناء الداخلي تقطع خط النظر حتى لا ينكشف داخل المنزل بمجرد فـتح البـاب الخارجي ولا تسمح لمن بالخارج من مشاهدة مَنْ بالداخل[2].

وإيجاد مقبض على باب من الأبواب لم يكن ليفي وحده بهذه الخصوصية فـالمقبض شأنه دائماً انه يسهل للداخل ولوج الباب بلا استئذان أحياناً، لذا فقد اقتضى الأمر وجـود أداة ينبئ بها الضيف عن مقدمه[3]؛ لذلك كان فوق الأبواب في أغلب الأحـوال أداة لعبـت دوراً

---

(1) ياسين النصير، أبواب تونس www. thakafa 11.8k.com/18/page26htm .

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليـك، القـاهرة، ١٩٦٢م، ص١١٣. ؛ احمد وحيد مصطفى على صالح، الوظيفية وعلاقتها بالشكل في المقابض المعدنيـة، رسـالة ماجـستير غيـر منشورة، كلية الفنون التطبيقية، جامعة حلوان، سنة ١٩٧٨م، ص٣٧. ؛ حسن الباشا، الآثار الإسلامية، القـاهرة، ١٩٩٠م، ص١٧٢

(3) احمد وحيد مصطفى، الوظيفية وعلاقتها بالشكل في المقابض المعدنية، ص٣٩.

هاماً في إقرار آداب الاستئذان[1] وكانت من مستلزمات البيوت بصفة عامة بحيث أصبحت من المكونات[2] التي لعبت دوراً مميزاً في تصميم المساجد والمباني الدينية[3] وذلك حتى فترة قريبة جداً من تاريخ مصر وهذه الأداة هي مطرقة الباب[4] التي أدت دوراً هاماً في إقرار آداب دخول البيت التي عنى بها الإسلام عند تزاور الناس بعضهم البعض والتي تبدو في قوله تعالى:

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[5]

وهذا توجيه للمسلمين بان يأتوا البيوت من أبوابها، كما حتّم على الداخلين أن يستأذنوا قبل الدخول وإن يسلموا على أهل البيت[6] فقال سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)﴾[7].

بل إن آداب الاستئذان أيضا كانت قائمة بين أهل البيت الواحد[8] فيقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاء ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ

---

[1] الاستئذان طلب الإذن في الدخول لمحل لا يملكه المستأذن وبده يفتح أوله والهمز بمعني الابتداء أي أول ما وقع السلام مودائما ترجم السلام مع الاستئذان للإشارة إلى انه لا يؤمن لمن لم يسلم ـابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري،القاهرة، سنة ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م، المجلد ١١، ص٣.

[2] إدوارد وليم لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلي نور، جزءان، القاهرة، ١٩٩٨، ج١ ص٣٠ ؛ احمد وحيد مصطفى، الوظيفية وعلاقتها بالشكل في المقابض المعدنية، ص٣٩.

[3] Robert Hillenbrand, Islamic Architecture, Cairo 2000, p. 55.

[4] احمد وحيد مصطفى، الوظيفية وعلاقتها بالشكل في المقابض المعدنية، ص٤٠.

[5] سورة البقرة آية ١٨٩.

[6] حسن الباشا، مطرقة الباب، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، ٥ أجزاء، القاهرة، ١٩٩٩م، ج٣، ص٢١٨

[7] سورة النور آيات ٢٧ - ٢٩.

[8] يفسر ذلك وجود المطارق على الأبواب الداخلية في المنشآت وعدم اقتصارها على الباب الخارجي فقط كما في مدرسة الأشرف برسباي بشارع المعز اثر رقم ١٧٥ومدرسة قايتباي بالصحراء اثر رقم ٩٩.

الآيَاتِ واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وإذَا بَلَغَ الأطْفَالُ مِنكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٥٩))﴾[1].

كما حثت السُنّة النبوية الشريفة وأحاديث الرسول (ﷺ) على الاستئذان فعن أبي موسى الاشعرى (ﷺ) قال: قال رسول الله(ص)الاستئذان ثلاث[2] فان أذن لك والا فارجع" متفق عليه[3].

والسُنّة إذا قيل للمستأذن من أنت أن يقول:فلان فيسمي نفسه بما يعرف به من اسم أو كنيه وكراهة قوله (أنا)ونحوها. فعن جابر (ﷺ) قال: أتيت النبي (ﷺ) فدققت الباب فقال: من ذا؟ فقلت أنا فقال:أنا أنا؟! كأنه كرهها.متفق عليه[4] .وعن سهل بن سعد (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ) إنما جعل الاستئذان من اجل البصر[5] متفق عليه.

وحرّم الرسول الكريم النظر في بيت الغير فقال :من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقؤا عينه"[6] .

وفي الأثر سال أحدهم ابن عباس (ﷺ) إن كان يستأذن على أمه أجابه:أتحب أن تراها عريانة؟!"[7]

ولقد كانت هذه التعاليم الكريمة من غير شك حافزاً على العناية بمطرقة الباب باعتبارها وسيلة أساسية من وسائل الاستئذان في دخول البيوت من جهة، وباعتبارها بديلاً مهذباً عن النداء من وراء الباب من جهة اخرى[8]، فمن المعروف أن المناداة بصوت عالي على صاحب المنزل تحدث إزعاجاً كبيراً لأهل البيت أنفسهم وللجيران فربما يكون بينهم مريض أو نائم أومجنون يفزع من الأصوات أو طالب علم يستذكر دروسه أو مسجد تؤدى فيه

---

(1) سورة النور آية ٥٨، ٥٩.

(2) أين ذلك من إلحاح الشاعر إسماعيل صبري الذي يقول: طرقت الباب حتى كلّ متني.....فلما كَلّ متني كَلمتني...فهذا ليس من آداب الإسلام في شئ. حسن الباشا ،مطرقة الباب، ص٢١٩.

(3) النيسابورى (الإمام أبى الحسن مسلم بن الحجاج القشيرى) ، صحيح مسلم،تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي،٤ أجزاء،القاهرة، ١٣٧٥ هـ/١٩٥٥م،ج٣، ص١٦٩٥؛البخاري (أبى عبد الله محمد ابن إسماعيل ابن إبراهيم) صحيح البخاري، ١٣ جزء، بيروت، د ت ،المجلد الثالث، الجزء الثامن، ص٦٧.

(4) صحيح البخاري، الجزء الثامن، ص٦٨؛ النيسابورى، صحيح مسلم ، الجزء الثالث، ص١٦٩٧.

(5) صحيح البخاري، الجزء الثامن، ص٦٦ ؛النيسابورى، صحيح مسلم ، الجزء الثالث، ص ١٦٩٨.

(6) النيسابورى، صحيح مسلم،الجزء الثالث، ص١٦٩٩.

(7) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الجزء ١١، ص٢٥؛ حسن الباشا، المطرقة، ص٢١٩؛ احمد وحيد مصطفى، الوظيفية وعلاقتها بالشكل في المقابض المعدنية، ص٣٦.

(8) حسن الباشا ، مطرقة الباب، ص ٢١٩.

الصلاة[1]، لذلك استهجن القرآن الكريم[2] تصرف الذين جاءوا ينادون الرسول(ﷺ) من وراء الحجرات فقال جل شانه:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾[3]. ومن أسباب العناية بمطرقة الباب أيضاً أنها أول ما تقع عليه العين من تفاصيل أجزاء المبنى فتعطى الشعور المبدئي للرائي ودائماً ما يترك الانطباع المبدئي أثره لفترة طويلة[4]، فهي أول ما يشاهده الضيف من المبنى ومن ثم فإنها بمثابة عنوان لما يكون عليه البيت وأثاثه من حسن وجمال وما يتمتع به أهله من ذوق فني أو من ثراء ورخاء[5].

والعناية بمطرقة الباب قد ترجع إلى أسباب تتعلق بالمستأذن فقد يكون مريضاً لا يقدر على المناداة بصوت عالي أو أنثى لا يجوز شرعاً أن تجهر بصوتها[6]. كما أن بعض مطارق الأبواب – خاصة تلك التي اتخذت أشكالاً معينة- كانت تصنع لأغراض سحرية، وكانت النقوش التي تزين تلك المطارق تهدف إلى ذلك وكان هذا التزيين أو النقش السحري يأتي على صورة خدوش أو خطوط مجردة منحنية أو متشابكة أو متعرجة، والمطارق بنقوشها هذه تعد ضماناً لصاحبها تجلب له الخير وتسبب له السعادة والهناء كنوع من الدعاء المصور يهدف في مضمونه إلى إبعاد الشر والأذى كأنه رمز سحري أو طلسم[7].

ولمطرقة الباب أسماء كثيرة متعددة فهي: مطرقة[8]-سماعة[1]-مقرعة[2]-دقاقة[3]- وتعرف عند العامة في صعيد مصر باسم الطقطيقة[4]، وتعرف عند بعض الناس في مكة

---

(1) ناصر بن علي الحارثي، مطارق الأبواب بمكة المكرمة في أواخر العصر العثماني، مجلة الدارة، العدد الثاني، السنة العشرون، سنة١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص١١٩.

(2) حسن الباشا ،المطرقة، ص٢١٨.

(3) سورة الحجرات ايه ٤ ، ٥.

(4) محمد سيف النصر أبو الفتوح، مداخل العمائر المملوكية بالقاهرة الدينية والمدنية من سنة٦٤٨هـ/١٢٥٠م-٧٨٤/١٣٨٢م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥، ص١.

(5) حسن الباشا، المطرقة، ص ٢١٩.

(6) ناصر بن على الحارثي، مطارق الأبواب بمكة المكرمة ، ص ١١٩.

(7) سعد الخادم، الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ، سلسلة الألف كتاب٤٨٨ ، القاهرة ، د.ت، ص ٤١.

(8) جاء في لسان العرب لابن منظور أن النبي (ص) قال:"الطرق و العيافة من الجبت" و الطرق هو الضرب بالحصى وهو ضرب من التكهن. واصل الطرق الضرب ومنه سميت مطرقة الصائغ والحداد لأنه يطرق بها أي يضرب بها وفى الحديث "الطيرة والعيافة والطرق من الجبت" والطرق هو الضرب بالحصا الذي تفعله النساء وقيل هو الخط في الرمل. "انظر ابن منظور ،لسان العرب.الجزء الثاني عشر، القاهرة، د.ت مادة طَرَقَ ص ٨٤-٨٥. طرق المعدن طَرْقاً:ضربه ومدده وطرق الباب قرعه.والطَّرْق هو الضرب بالحصى وهو ضرب

في مكة المكــرمة باســم مطــق أو مطقــة[5] وأطلــق عليهــا البعــض خطــأ اســـم الضـــبة[6]

والسقاطة[7]. ومهما اختلفت الأسماء التي أطلقت على مطرقة الباب فإنها جميعاً تتفــق فـــي المدلول الذي تشير إليه وهو أنها أداة صغيرة من المعدن تشبك بالباب من الخـــارج بحيـــث يمكن تحريكها والقرع بها على قاعدة معدنية فيحدث صوت يسمعه من بالداخل[1].

من التكهن. والمِطرَاق آلة الطرق والجمع مطاريق. والمطرقة آلة من حديد ونحوه يطرق بها الحديد ونحوه مـــن المعادن والجمع مَطارق والمِطرقة هي المِطراق. "انظر مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، إخـــراج إبـــراهيم مصطفى، احمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد على النجار، جـــزءان، القـــاهرة، ١٣٨٠هـــ/١٩٦٠م، جزء٢، ص٥٦٢، مادة طَرَقَ".

[1] سمع الصوت سمعاً وسماعاً:أحسته أذنه والجمع سُمّاع وسَمَعه وهو سَمّاع وهي ســـامِعة وسَـــمّاعة.المعجـــم الوسيط، مادة سَمَعَ، جزء١، ص٤٥١.

[2] قَرَع الباب قَرعاً دقّه ونقر عليه ويقال "قرع رأسه بالعصا" ضربه بها والمَقرعة السَوط وكل ما قرعت بـــه. انظر سعيد الخورى الشرتونيى اللبنانى، اقرب الموارد في فصح العربية و الشوارد، جزءان، بيـــروت، ١٨٨٩م، جزء ٢، ص٩٨٧-ص٩٨٨، مادة قَرَعَ. وقَرَعَ الشيء قرعاً ضربه ويقال قرع الباب طرقه والمِقرَعـــة خـــشبه يُضرب بها وهي كل ما قَرَعتْ به وهي جريدة معقوفة الرأس وأكثر ما تكون في كُتّاب الصبيان و الجمع مَقَارِع .المعجم الوسيط، جزء٢، ص٧٣٤-٧٣٥.

[3] دَقّ الشيء دقّاً كسره أو ضَرَبَهُ بشيء فهشمه ودَقّ الباب والطَّبل ونحوهما "قَرَعَهُ" والدَّقّاق كثير الدق. والدقاقة مؤنث الدقاق وهي ما تُدَقّ به الأرز ونحوه . انظر المعجم الوسيط، مادة دق، جزء ١، ص٢٩٠.

[4] طَقّ-طقا صَوّت أو سُمع له صوت(طق) طقطق:صوت أو كثر صوته وهو تكرير طق وطقطق الشيء جعله يصَوّت أو جَعله يطقطق. انظر المعجم الوسيط، مادة طق، جزء ٢، ص٥٦٦، أي أن هذه التسمية لمطرقة الباب جاءت من الصوت الذي يصدر عند استخدامها.

[5] ناصر بن على الحارثي، مطارق الأبواب بمكة المكرمة، ص١١٨.

[6] الضبة: من المعروف أن الضبة هي ما يغلق به الباب فيقال الضبة و المفتاح و هي عبارة عن قطعة حديد أو خشب يثبت بها الباب. ولكن مطرقة الباب تعرف في الأسبانية aladabon وهي لفظة قريبة جـــدا مـــن كلمـــة الضبة العربية ولذلك استخدمت هذه الكلمة في بعض المراجع العربية للدلالة على مطرقة الباب وخاصـــة لـــدى بعض الباحثين الذين ينقلون عن الأسبانية. انظر عبد ا حيم غالب، موســـوعة العمـــارة الإســـلامية، بيـــروت، ١٩٨٨م، مادة ضبة، ص٢٥٦-ص٢٥٧. ومن المعروف أن اللغة الأسبانية بها كلمات كثيرة جـــداً ترجـــع إلـــي أصول عربية ومن القواعد المسلم بها أن كل كلمة أسبانية تبدأ" بأل" al هي عربية الأصل تبدأ بـــأداة التعريـــف العربية ومنها الضبة.محمد عبد الله عنان،الآثار الأندلـــسية الباقيـــة فـــي أســـبانيا والبرتغال،القـــاهرة، الطبعـــة الثانية،١٩٦١، ص٤٤١، ٤٤٣.

[7] السقاطة: يقصد بها في المصطلح العامي مزلاج يقفل به الباب بغير مفتاح وكان من المعتاد أن تعمـــل علـــى هيئة قطعة حديدية مستطيلة تثبت بارزة على وجه مصراع الباب المتحرك من الداخل ويمكـــن تحريكهـــا مـــن الخارج بواسطة حبل أو خيط يتم رفعه عند الفتح وإنزاله عند الغلق فيسقط الطرف البارز في قلب حديدة أخـــرى

وتتكون المطرقة من قاعدة وأداة للطرق وأداة أخرى يطرق عليها؛ والقاعدة غالباً دائرية الشكل تثبت في الأعلى بحيث تتدلى من على سطحها أداة الطرق، أما الأداة التي يطرق عليها فتثبت تحت القاعدة في موضع يقع مباشرة تحت رأس أداة الطرق من أسفل[2] ، ويتم تثبيت أداة الطرق عن طريق مقبض علي شكل مصبع يخترق القاعدة من منتصفها ثم يخترق الباب بغرض تثبيت القاعدة وتدخل في رأس هذا المصبع[3] أداة الطرق[4].

وقد ورد في الوثائق المملوكية أسماء ثلاثة[5] مصطلحات تتعلق بمطرقة الباب وهي:شمسه-حلقة-مدق، وأهم هذه الوثائق وثيقة مدرسة السلطان الأشرف قايتباى بالقدس والجامع بغزة[6]؛ فهذه الوثيقة ذات أهمية خاصة حيث إنها قد حددت بدقة أجزاء المطرقة والمصطلح الذي يطلق على كل جزء على حدة وذلك يتضح مما يلي:

١-جاء في وثيقة المدرسة بالقدس عند ذكر باب الدخول الرئيسي"...مصفح أعلاه وأسفله بالنحاس الأصفر المشرف المنقوش به أربع زوايا من النحاس الأصفر وأوسطه أترجة كبرى

ثابتة في المصراع الثابت للباب. انظر عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص١٤١. وعلى ذلك فان إطلاق لفظ السقاطة على مطرقة الباب هي تسمية خطأ ولكن يبدو أنها قد استخدمت في مصر في أوائل القرن العشرين للإشارة إلى مطرقة الباب فنجد الكاتب يوسف السباعي في روايته"السقا مات"...والتي تدور أحداثها في حي الحسينية الشعبي عام ١٩٢٠م ...كتب يقول:"...وتقدم "شوشة" إلى الباب الخشبي المغلق فدق "سقاطته" الحديدية بضع دقات متوالية...".انظر أندريه ريمون، فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب، القاهرة، ١٩٧٤م، ص١١٣، وفى الوثائق العثمانية ما يشير إلى إطلاق لفظ السقاطة على مطرقة الباب فقد جاء في وقفية مسجد سليمان باشا بالقلعة (...بصفائح وشمسات وسقاطيط نحاسا...). ربيع حامد خليفة ، فنون القاهرة في العهد العثماني، القاهرة، الطبعة الثانية،٢٠٠١م، ص٩٤، ولا تزال هذه التسمية شائعة حتى الآن بين العامة في مصر وكذلك بعض الأقطار العربية مثل سوريا .

(1) حسن الباشا، مطرقة الباب، ص ٢١٨.

(2) ناصر بن على الحارثي، مطارق الأبواب بمكة المكرمة، ص ١٣٣.

(3) أطلق البعض على هذا المصبع اسم المشبك.انظر: حسن الباشا، مطرقة الباب، ص ٢١٩.

(4) ناصر بن على الحارثي، مطارق الأبواب بمكة المكرمة، ص ١٣٤.

(5) كان الباحث طه عمارة هو أول من أشار إلي الأجزاء المختلفة للمطرقة وأسمائها في الوثائق المملوكية.

(6) وثيقة المدرسة الأشرفية بالقدس والجامع بغزة كل منهما مسجلة على ظهر الأخرى محفوظة في أرشيف وزارة الأوقاف رقم٨٨٧. انظر عبد اللطيف إبراهيم، وثيقة السلطان قايتباي" المدرسة بالقدس والجامع بغزة سلسلة الدراسات الوثائقية، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، دراسات في الآثار الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٤٨٣-٥٣٨.

من النحاس الأصفر المخرم بحلقتين من النحاس الأصفر المخرم مركبتين على شمستين من النحاس الأصفر..." [1].

٢-و جاء أيضاً في نفس الوثيقة عند الحديث عن باب المقعد من الصحن:"..بالباب المذكور شمستان مركب بهما حلقتان ثقيلتان من النحاس الأصفر المكفت..." [2].

٣-و جاء كذلك في وثيقة جامع السلطان قايتباى في غزة عند الحديث عن الباب الخارجي: "..بالبوابة باب يغلق عليه فردة باب مصفح بالنحاس بحلقتين نحاسا مخرما كل منهما بمدق نحاس... " [3].

وبالقراءة المتأنية والتحليل الدقيق للنصوص الوثائقية السابقة يمكن أن نتعرف إلى أن:

١-الشمسة[4]: يقصد بها حلية مستديرة تشبه الشمس من النحاس المخرم مثبته وسط درفة الباب وكانت تُلمّع بالذّهب وتكفت احيانا[5]، وهى القاعدة الدائرية الشكل التي تثبت في الأعلى بحيث تثبت فيها وتتدلى من على سطحها أداة الطرق، والغرض الوظيفي الأساسي من وجودها تثبيت المطرقة وتفادى تآكل الخشب بسبب حركة أداة الطرق(لوحة ١،٢).

٢-الحلقة[6]: يقصد بها حلقة من النحاس أو الحديد تركب على الباب من الخارج يطرق بها الزائر على الباب وتسمى أيضا الزرفين وهى كلمة فارسية معربة تدل عليها[7]، ولا تأخذ بالضروري شكل الحلقة فقد تأتى على شكل يد متحركة تحمل كرة صغيرة(لوحة٤) وربما

---

[1] عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في الآثار الإسلامية، ص ٥١١.

[2] عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في الآثار الإسلامية، ص ٥١٥.

[3] عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في الآثار الإسلامية، ص ٥٢٩.

[4] قد ترد كلمة شمسة في الوثائق المملوكية للدلالة على معاني أخرى منها فتحات علوية ليست مستديرة تشبه القمريات وربما أطلق عليها شمسة لأنها تدخل ضوء الشمس أو تقليدا لما هو معروف في الشام و المغرب من إطلاق لفظ شمسيات لما هو معروف في مصر بالقمريات. عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة، مادة شمس، ص١٦٥. ؛ محمد محمد أمين ، ليلى على إبراهيم ، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية ، القاهرة ،١٩٩٠م ، ص٧١.

[5] محمد محمد أمين ،ليلى على إبراهيم،المصطلحات المعمارية ص٣٦.

[6] الحلقة جمعها حلق بكسر الحاء وفتح اللام وهى كل ما استدار كحلقة الحديد والذهب والفضة وحلقة القوم دائرتهم وحلقة الباب ما تعلق عليه ليقرع بها والحلقة (بفتحتين) هي دائرة الدروس ومنها قولهم تلقى العلم في حلقة فلان أي في مجلس علمه.عاصم رزق المعجم، ص ٨٤. وقد تستخدم كلمة حلقة في الوثائق لما يحيط بالمكان فيقال مثلا:"مقعد به ستة أبواب حلقة" أو "حلقة شبابيك"محمد محمد أمين، ليلى على إبراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، مادة حلقة، ص ٣٦.

[7] محمد محمد أمين ،ليلى على إبراهيم،المصطلحات المعمارية ص ٣٦.؛ سامي نوار، الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعاجم اللغوية، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص ٨٦.

شابهت حدوة الفرس(لوحة ٥) أو اتخذت شكل الهلال، أو غير ذلك من الأشكال(لوحة ٦)، فهناك حلقات تعد آية في الصناعات المعدنية والنحاسية حيث تتداخل خطوطها ويخرم سطحها وكأنه منسوج من خيوط مطرزة(لوحة ٧) حتى أن اللمسة الجمالية كثيرا ما طغت فيها على الوظيفية[١]، وبذلك تكون الحلقة هي أداة الطرق التي تمسك باليد على اختلاف أشكالها.

٣- المدق:هو الجزء البارز الداخلي المثبت في جسم الباب اسفل ذيل أداة الطرق، أي أنه الأداة التي يطرق عليها والمثبتة في الباب تحت الحلقة[٢] (لوحة ٨).

ويمكننا أن نضيف إلى هذه الأجزاء المقبض(لوحة ٣) الذي يخترق الشمسة وتعلق فيه الحلقة كأحد المكونات الأساسية للمطرقة حتى تكتمل أجزاؤها وبذلك تصبح أربعة.

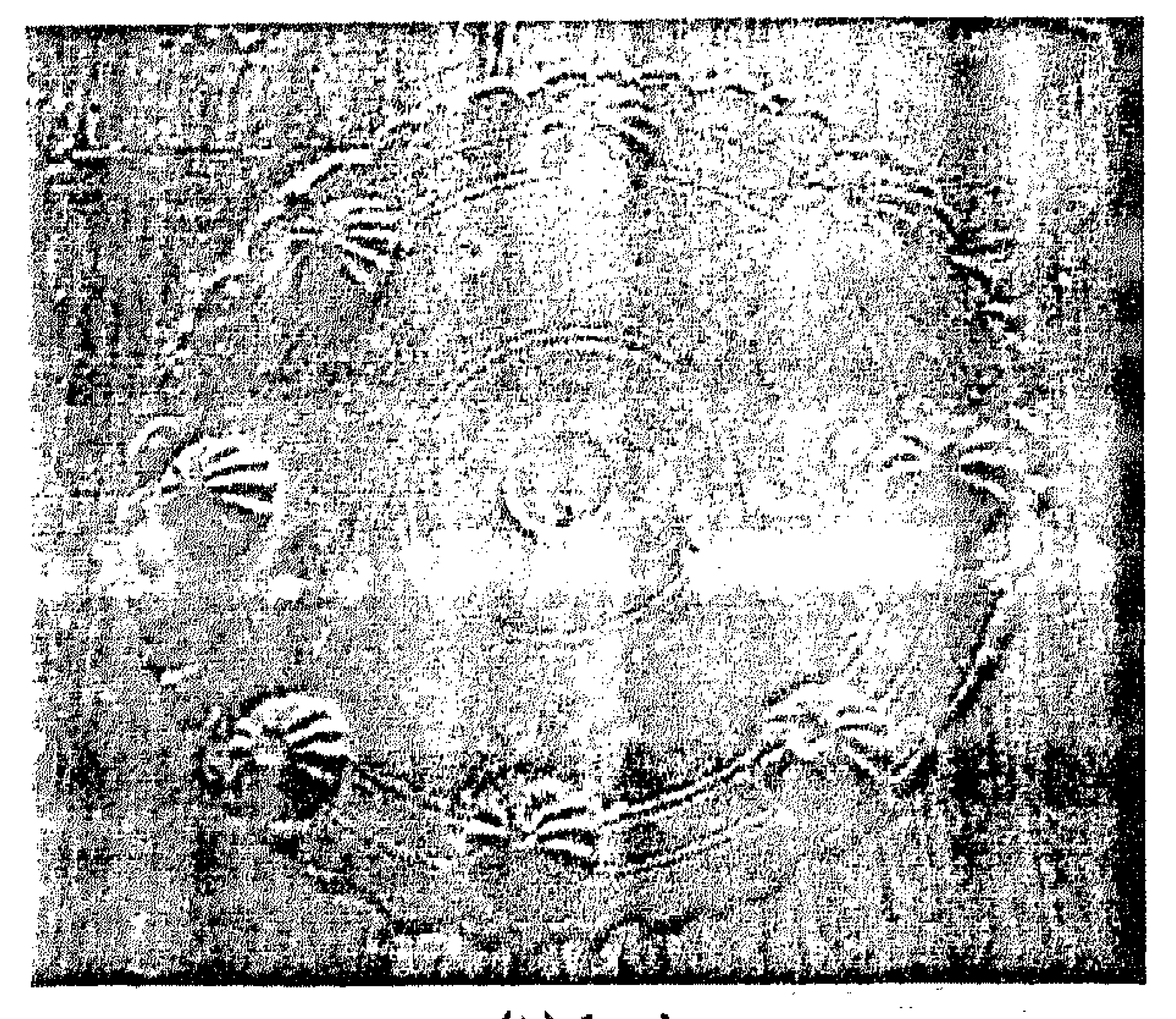
وقد لوحظ تباين هذه الأجزاء المكونة للمطرقة الواحدة واختلافها من مطرقة إلى أخرى، غير أن هذا التباين كان محدوداً في أشكال الشمسة والمدق والمقبض وكان التباين والاختلاف أكبر في أشكال الحلقة باعتبارها الجزء الرئيسي للمطرقة فهي أداة الطرق الموضوعة في مواجهة الخارج والتي يتعامل معها الطارق دون باقي أجزاء المطرقة لذا حظيت بعناية الفنانين من صناع المعادن واهتمامهم وبالتالي تنوعت أشكالها وتعددت.

---

[1] عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، ص١٣٨.

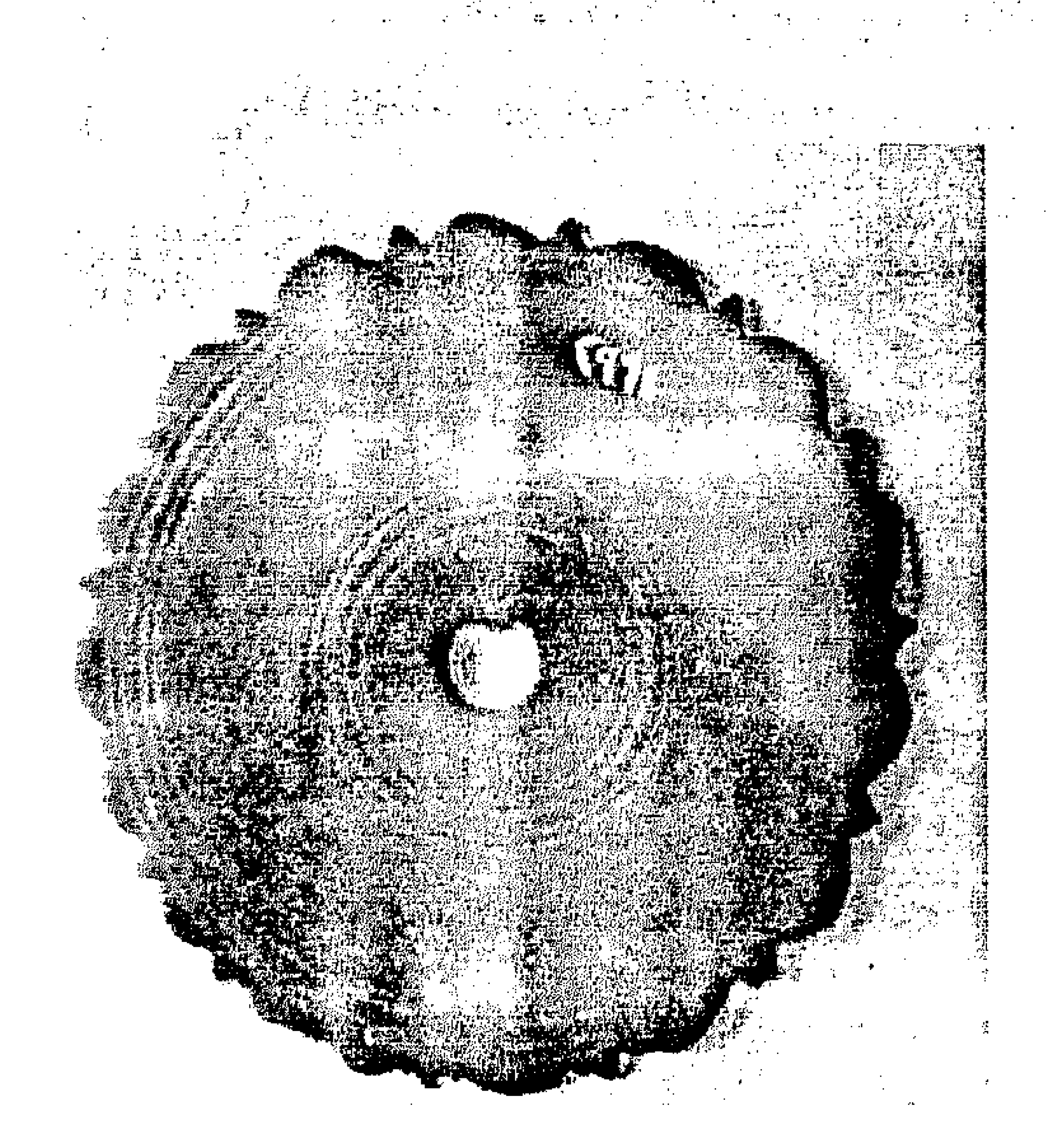
[2] طه عبد القادر يوسف عمارة، الأبواب المصفحة في عهد السلطان حسن في القاهرة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٨١م، ص٧٢، هامش ١.

اللوحات



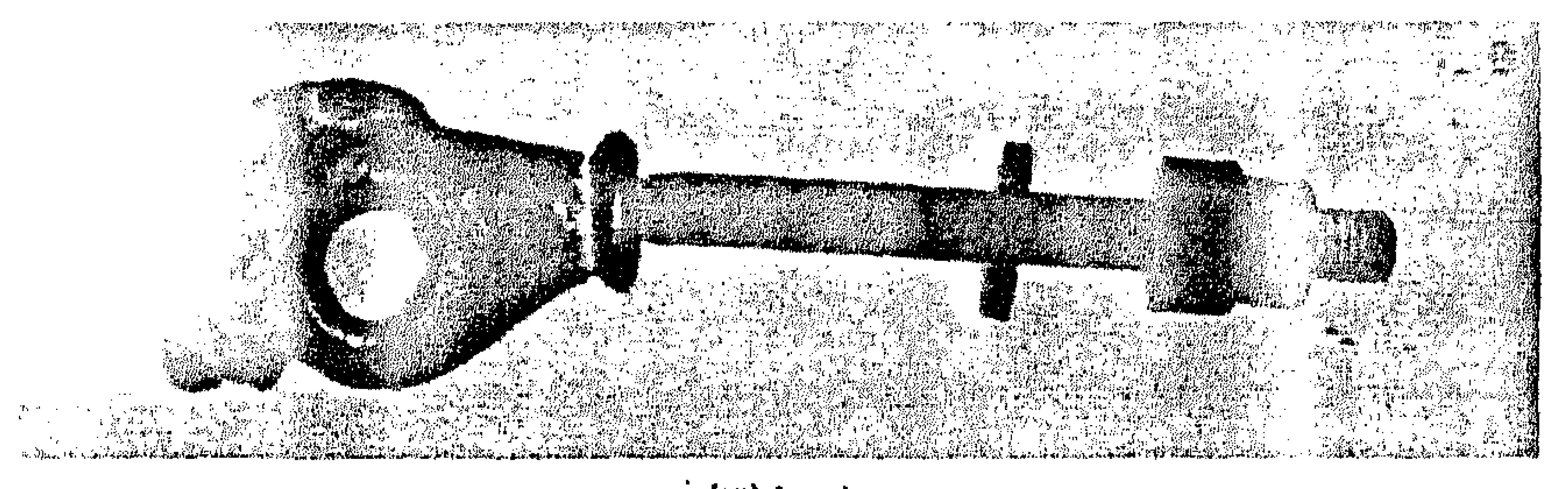
لوحة (١)

شمسة مطرقة باب جامع جانم البهلوان٨٨٣هـ/١٤٧٨م.



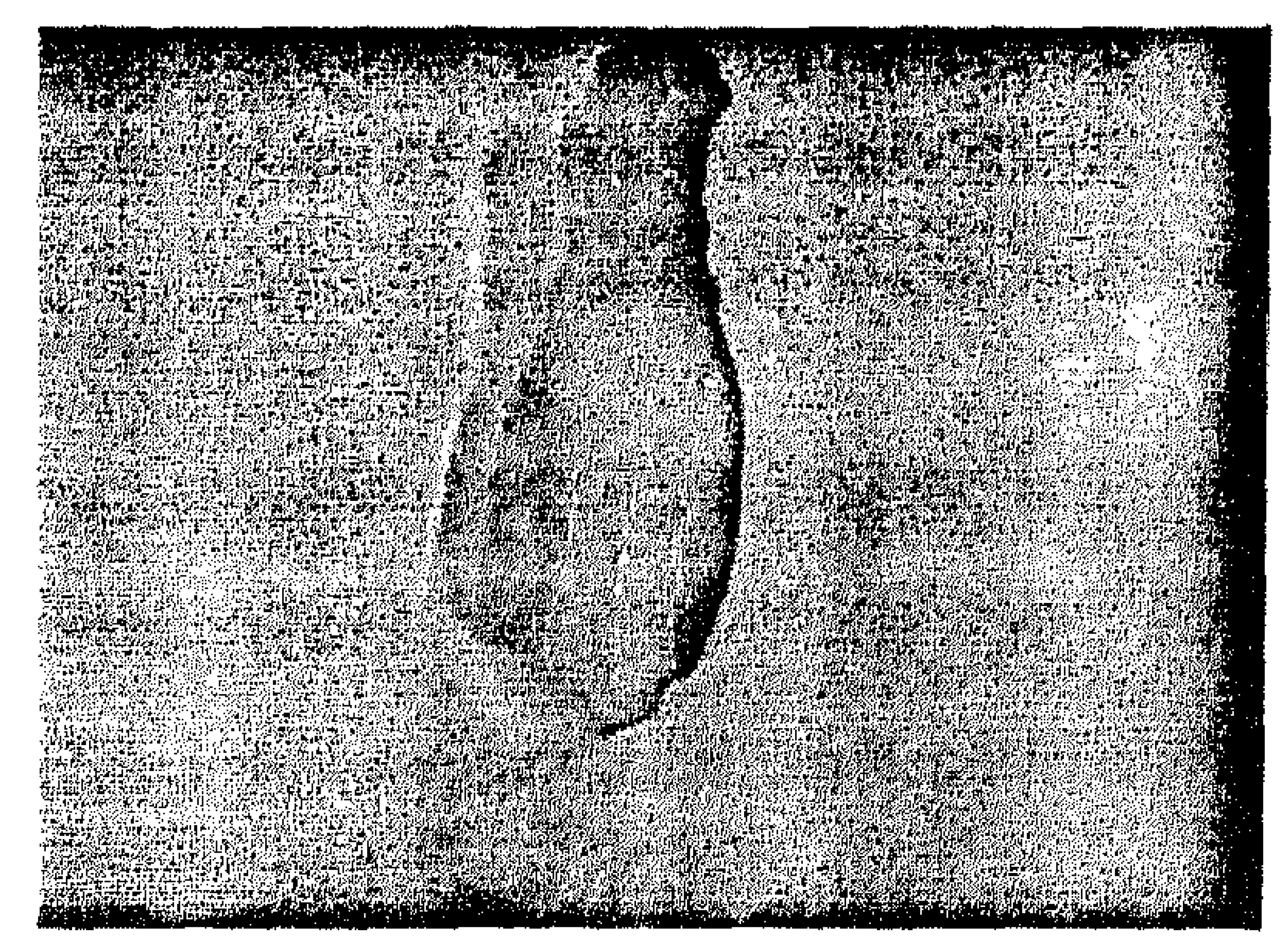
لوحة (٢)

شمسة مطرقة باب خانقاه سعيد السعداء بالجمالية القرن ١٠هـ/١٦م محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.



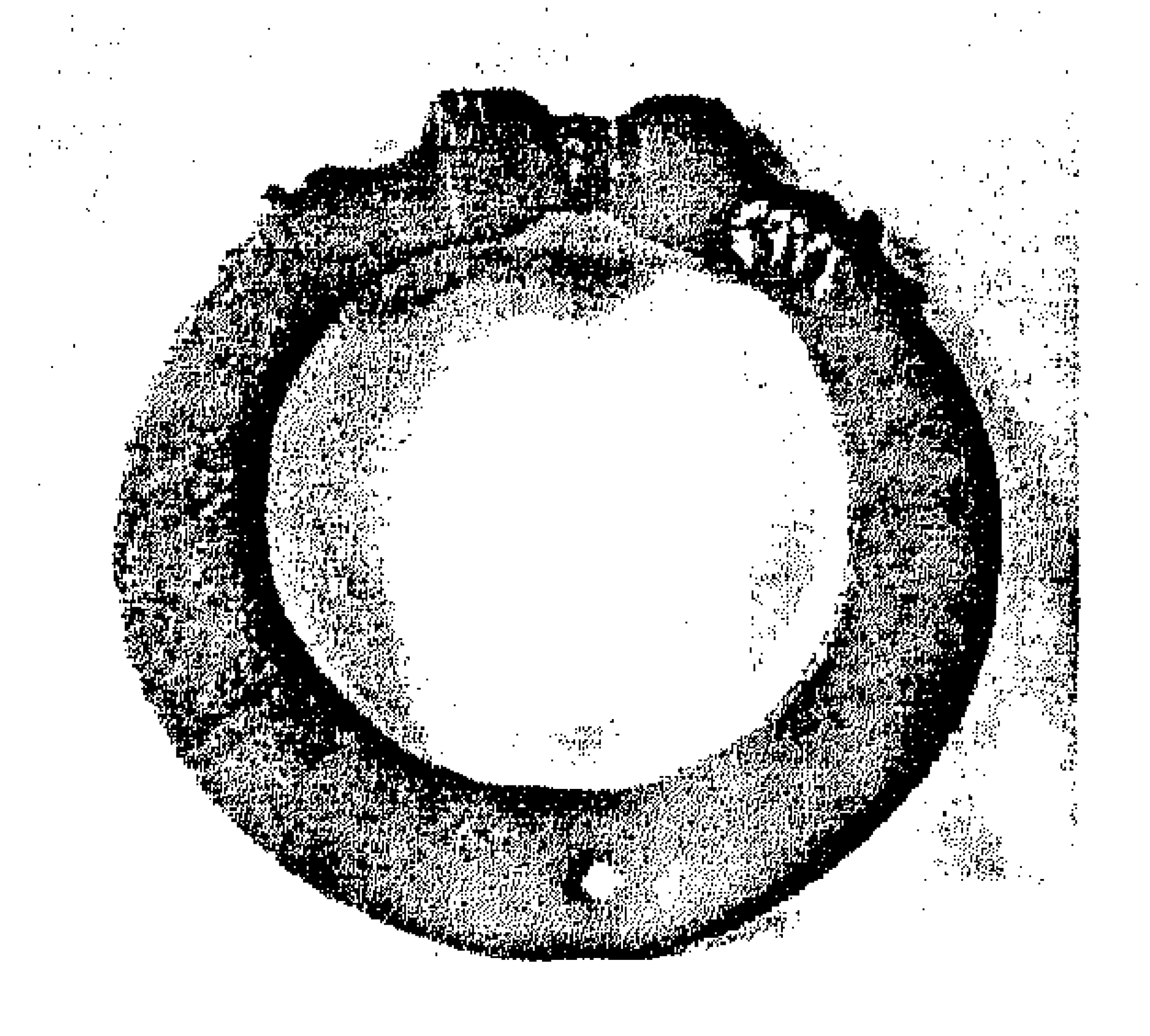
لوحة(٣)

مقبض مطرقة باب مجموعة السلطان المنصور قلاوون بشارع المعز٦٨٣-٦٨٤هـ/ ١٢٨٤- ١٢٨٥م.



لوحة(٤)

حلقة مطرقة باب علي شكل اليد



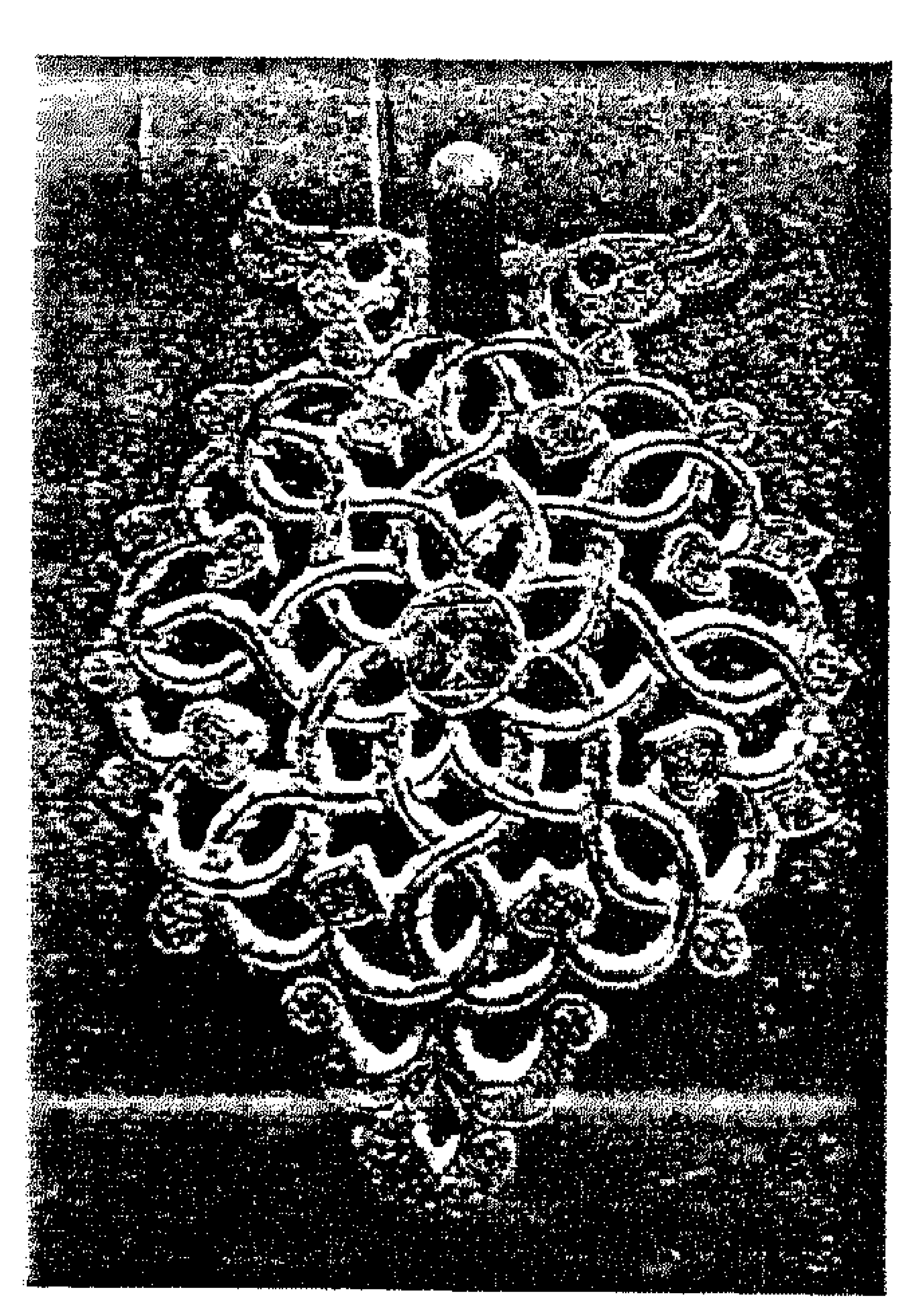
لوحة(٥)

حلقة مطرقة باب مملوكي تنسب إلي القرن ٧-٩هـ./١٣-١٥م محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة.



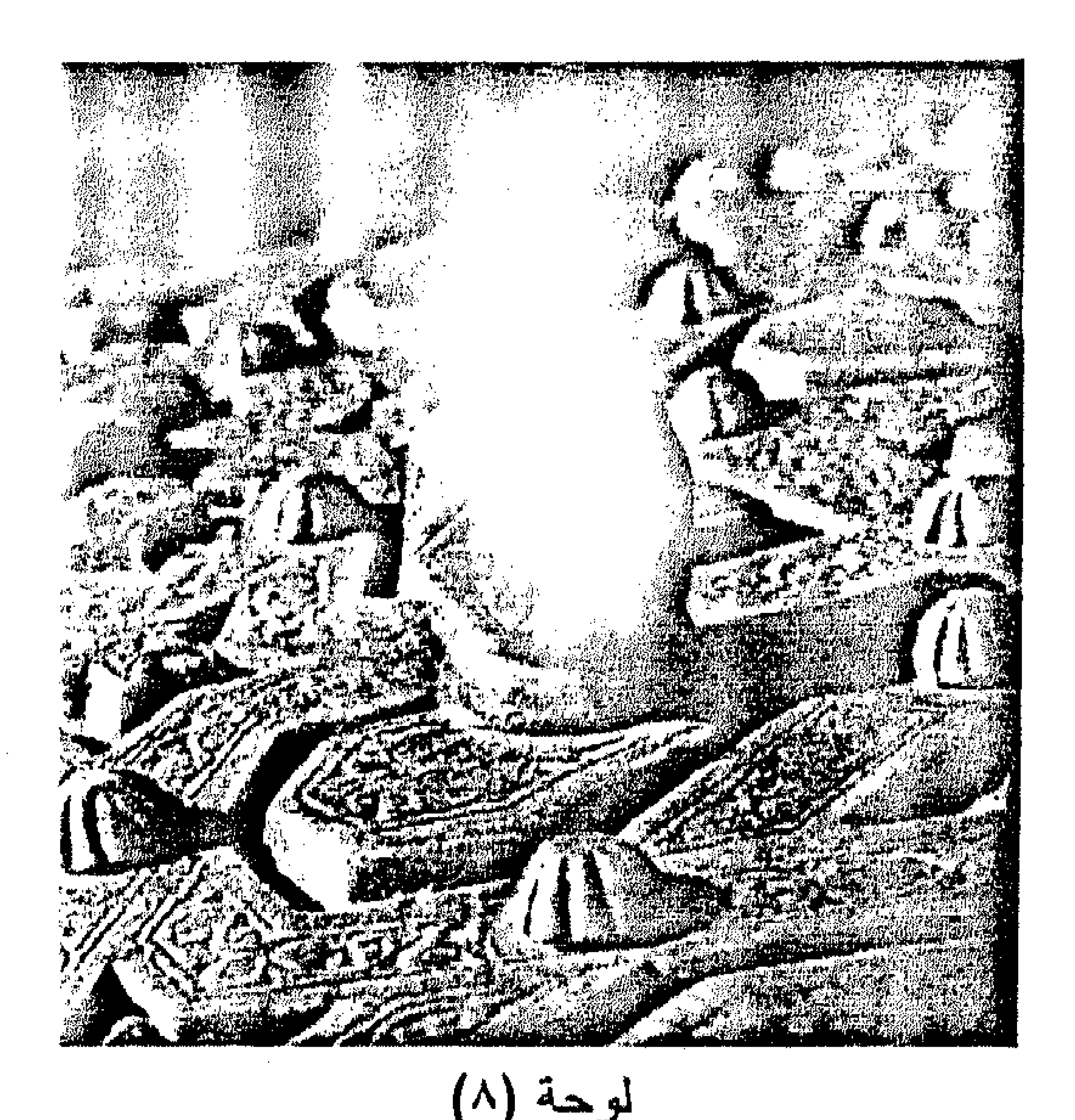
لوحة(٦)

حلقة مطرقة باب جامع ازبك اليوسفي ٩٠٠هـ/١٤٩٤-١٤٩٥ م.



لوحة(٧)

حلقة مطرقة باب مدرسة الجاى اليوسفي (السايس) ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣ م.



لوحة (٨)

مدق مطرقة الباب الخارجي لمجموعة الغورى ٩٠٩-٩١٠هـ/١٥٠٤ ١٥٠٥م

أضواء حول أسواق مكة في العصر المملوكي

(٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م)

سلطان بن مليح الأسمرى*

جامعة الطائف-المملكة العربية السعودية

أ. الحجاز لغة واصطلاحاً:

الحجاز لغة هو الحجز أي الفصل بين الشيئين، أما اصطلاحاً فإنه فصل الغور والشام والبادية، أو لأنه حجز بين تهامة ونجد، أو بين نجد والغور[١].

ب- الحدود الجغرافية للحجاز:

يحد الحجاز شمالاً الشام فيما وراء تبوك[٢]، أما الحدود الشرقية للحجاز فهي تبدأ من معدن النقرة[٣] إلى المدينة، فنصف المدينة حجازي ونصفها تهامي[٤]، أما الحدود الغربية للحجاز فإنها تسير بمحاذاة البحر الأحمر من الشمال إلى الجنوب على امتداد السهل الساحلي الذي يعرف بتهامة[٥]، أما الحدود الجنوبية للحجاز فقد حددت عند الخط الحدودي ما بين الحجاز واليمن، وإن ذات عرق فصل ما بين تهامة ونجد والحجاز[٦].

---

* باحث في التاريخ، جامعة الطائف.

(١) البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، بيروت ١٩٨٣، جـ١، ص ١٢.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت ١٩٩٥، جـ٢، ص ١٤.

(٣) معدن النقرة: تعد كل أرض منصوبة في وحدة فهي نقرة، وبها سميت النقرة في طريق مكة، انظر، ياقوت الحموي، مصدر سابق، جـ٥، ص ٢٩٨ .

(٤) نفس المصدر، جـ١، ص ٤٤٩.

(٥) تهامة: وهو من التهم، وهو شدة الحر وركود الريح، وهي الأرض المنخفضة، وسميت بذلك لشدة حرها وركود ريحها، وتعرف هذه السهول بأسماء المرتفعات المجاورة لها، انظر، ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ٦٤ .

(٦) صالح أحمد العلي، الحجاز في صدر الإسلام، "دراسات في أحوله العمرانية والإدارية" ، بيروت ١٩٩٠، ص ٧٢ .

أما فيما يتعلق بمناخ الحجاز فقد تميز موقعه ضمن النطاق الصحراوي، ولاتصال الجزيرة العربية والحجاز قارة آسيا فإن ذلك يحجبها عن أثر الرياح البحرية الغربية[٧]، ونظراً لاختلاف الارتفاع فقد كان لذلك أثره في تباين درجات الحرارة، إذ تكون الحرارة معتدلة في الجبال صيفاً، ومنخفضة شتاء، وتكون مرتفعة في البقاع المنخفضة في الصيف، ودافئة في فصل الشتاء، كما أن للارتفاع تأثيره في الرطوبة والأمطار والنسيم[٨].

أما مكة فتقع في وادي تحيط به الجبال من كل جانب[٩]، وأعلى جبل فيها جبل أبي قبيس، الذي يشرف على الصفا[١٠]. ومكة المشرفة بلدة مستطيلة كبيرة تقع في بطن واد مقدس[١١]، وقد وصفها ابن حوقل بقوله. "مكة مدينة فيما بين شعاب الجبال طولها من المعلاة إلى المسفلة نحو ميلين وهو من حد الجنوبي إلى الشمالي، ومن أسفل جياد إلى ظهر قعيقعان نحو الثلثين من هذا، وأبنيتها والمسجد من نحو وسطها، والكعبة في وسط المسجد[١٢].

ولمكة أسماء متعددة مثل. مكة، وبكة، قيل مكة الحرام كله، وبكة اسم البلد خاصة، ومباركاً، أم القرى، والبلد الأمين، وأم رحم، وصلاح، والمقدسة، والقادسية، والناسة، والنساسة والحاطمة، والرأس والعرش، والكرسي[١٣].

ومكة منطقة جافة وأمطارها قليلة لا تكفى للزراعة، لهذا اتجه أهل مكة نحو التجارة وساعدهم على ذلك وقوعها على الطريق البرى التجاري، الذي يربط اليمن من جهة والعراق

---

[٧] محمود محمد سيف، جغرافية المملكة العربية السعودية، الإسكندرية ١٩٩٦، ص ٦٠ – ٦١.

[٨] نفس المرجع، ص ٦٢.

[٩] الأزرقي، أبو الويد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت: ٢٥٠هـ/٨٦٤م)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، جزآن، رشدي الصالح ملحس، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م، ٢/٢٦٨-٢٦٩ ؛ جواد على ؛ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٠ أجزاء، ط١، بيروت ١٩٧١م، ٤/٥ .

[١٠] الجزيري، عبد القادر محمد بن عبد القادر إبراهيم الأنصاري، (توفى بحدود ٧٦هـ/١٦٨م)، الدر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المنظمة، ٧ أجزاء، أعده للنشر حمد الجاسر، ط١، ١٩٨٧م، ٢/١٤٦٩؛ جواد على، المفصل، ج ٧، ص ١٢٧.

[١١] الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن على، (ت ٨٣٢هـ/١٤١٢م)، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، جزءان، حقق أصوله وعلق على حواشيه لجنة من كبار العلماء والأدباء، بيروت، د.ت١/١٠ ؛ ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف برحلة ابن جبير، بيروت ١٩٨١م، ص ٧٧.

[١٢] الجزيري، الدرر، جـ١، ص ١٠٢.

[١٣] الفاسي، شفاء الغرام، جـ١ ، ص ٤٧؛ الجزيري، الدرر، جـ٢، ص ١٤٦٩ وما بعدها.

وبلاد الشام ومصر من جهة أخرى، وأشار القرآن الكريم إلى هذه التجارة في قولـه تعـالى ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۞ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾[١٤]، ونشأت فيها حياة اقتصادية منظمـة عمادها القوافل، لنقل التجارة بين الشرق والغرب، وشارك أهل مكة جمعياً في هذا التنظـيم التجاري (الإيلاف) الذي مثل اتجاهاً (أشـبه بـالتنظيم النقـابي) فـي العلاقـات الـسياسية والاقتصادية بين عرب الشمال والقبائل العربية الأخرى، الواقعة على طريق التجارة المكية، وهذا أدى إلى انطلاقة تجارة قريش العالمية في رحلتي الشتاء والصيف[١٥]. وترجع أهميـة مكة أيضاً إلى موقعها الجغرافي المتميز ومكانتها التجارية، فهي ملتقى القوافل التجارية، التي كانت تؤم الجزيرة العربية قبل الإسلام، ومما ساعد على ازدهار تجارة مكة الداخلية أهميتها الدينية بوجود الكعبة المشرفة وغيرها من الأماكن المقدسة كمنى وعرفات، حيث يتجمع فيها عشرات الآلاف من المسلمين من جميع أنحاء المعمورة، حيث يفدون إليها لتأدية مناسك الحج والعمرة، وبالتالي فهم يعملون على تنشيط أسواقها التجارية التي تجتمع فيها البضائع المختلفة القادمة من الهند والصين واليمن والشام ومصر والحبشة، ممـا ينـشط الحركـة التجاريـة الداخلية[١٦]، إضافة إلى قربها من البحر الأحمر وامتلاكها بعض المـوانئ التجاريـة علـى شاطئه الشرقي كجدة، فقد كانت جدة واجهة مكة البحرية، وعتبتها على البحر، تؤمها المراكب من اليمن والشرق الأقصى وشرق افريقية ومصر والشام، حيث تفرغ حمولتها فيها ومن ثـم تنقل إلى مكة.

وقد كانت تجارة مكة كثيفة في العصر المملوكي، ففي عام ٨٤٥هـ، وصلت إلـى جدة عدة مراكب تجارية وأسرعوا إلى تفريغها، فكان يدخل إلى مكة كـل يـوم خمـسمائة جمل[١٧].

وقد اعتمد أمراء مكة على متحصل ميناء جدة من الضرائب والرسوم، ومما يؤخـذ من التجار الوافدين إليها من اليمن والشام والهند وغيرها[١٨].

---

[١٤] سورة قريش، آية ١ – ٢.

[١٥] عبد المعطي محمد عبد المعطي سمسم، العلاقات بين شبه الجزيرة العربية والحبشة، القـاهرة ٢٠٠٨م، ص ٢٣٨.

[١٦] الزيلعي، أحمد عمر، مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١-٤٨٧هـ)، الرياض، ط١، ١٩٨١م، ص ١٥٦؛ جواد علي، المفصل، ٤٧/٤.

[١٧] ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، أنباء الغمر بأنباء العمر في التاريخ، ٩ أجزاء، ط٢، بيروت، ١٩٨٦م، ١٦٧/٩-١٦٨.

لقد حرص المماليك في مصر على بسط نفوذهم على الحجاز، وكانت الظروف مهيأة لهم بسبب النزاع الدائم بين الأشراف، فمنذ عهد السلطان الظاهر بيبرس بدأ اهتمام هذه الدولة بمد نفوذها إلى مكة المكرمة، فنشأت علاقة متميزة بينها وبين إمارة مكة، وتوثقت هذه العلاقة في عهد الملك المنصور قلاوون، ونظراً للأهمية الدينية والتجارية للحجاز فقد حرص المماليك على ضم هذا الإقليم ووضعه تحت السيادة المملوكية، لأن استمرار سيادة المماليك على الأراضي المقدسة في الحجاز ستزيد من هيبتهم أمام المسلمين في العالم باعتبارهم أقوى دولة إسلامية آنذاك، وسينظر المسلمون إليهم على أنهم حماة الدين، ويحققون فوائد تجارية بغرض سيطرتهم على سواحل البحر الأحمر وثغوره لتأمين استمرار التجارة المملوكية، فمكة – خلال العصور الوسطى – ظلت مركزاً هاماً للتجارة التي ترد من الشام وعدن وجدة، ولا شك أن السيادة على الحجاز تخدم التجارة المملوكية عبر الحجاز والبحر الأحمر[١٩].

أما بيت الله الحرام بمكة المكرمة مقصد الحجاج وقبلة المسلمين، فقد حظي بجانب كبير من اهتمام سلاطين المماليك، حيث بذلوا له الرعاية التامة وحرصوا أشد الحرص على صيانته لما أصابه من ضرر من الحريق أو السيول مثلما حدث سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م، فقد شب حريق عظيم بالحرم المكي أتلف ثلث الحرم، ولولا ما حدث قبل ذلك من سيل عظيم بعد مطر غزير لأتت النار على سائر الحرم. واحترق من أعمدة الرخام مائة وثلاثون عموداً، والمنطقة التي تعرضت للاحتراق امتدت من باب العمرة إلى نهايته[٢٠].

أسواق مكة المكرمة:

السوق هو المكان الذي يتم التعامل فيه، وهو موضع البيعات ويأتي إليه التجار من كل حدب، والأسواق إما ثابتة على امتداد أيام السنة وهي التي تكون داخل حرم المدينة، وإما موسمية تعقد في موسم معين مثل سوق عكاظ[٢١]، حيث كان يقصدها تجار الجزيرة العربية قاطباً وعندما ينتهي ينتقل التجار إلى سوق آخر يكون موسمه آن أوانه.

---

[١٨] نعيم زكي فهمي، طرق التجارة ومحطاتها بين الشرق والغرب، (أواخر العصور الوسطى) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣م، ص ١٣٥.

[١٩] نعيم زكي فهمي، مرجع سابق، ص ١٣٣ .

[٢٠] الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لجنة إحياء التراث العربي، جـ٧، بيروت ١٩٨٧م، ص ١٣.

[٢١] ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٤، ص ١٤٢ .

أما أسواق مكة موضوع بحثنا فهي مقامة طول العام، وتزداد حركة موسم العمرة والحج ففيه تنشط الحركة التجارية من بيع وشراء نظراً لكثرة تدفق التجار من أماكن مختلفة حاملين معهم بضائعاً وسلعاً معينة، وكان نطاق الأسواق خلال الموسم يمتد من المناطق القريبة من الحرم يشمل بعض جوانب المسجد الحرام نفسه[٢٢] مثل السوق الواقع عند باب شيبة، وهو سوق كبير أكثر المبيعات فيه تجار البزازين والعطارين[٢٣]. ولما ازداد عدد العطارين قام الأمير زين الدين بركة العثماني عام ٧٨١هـ بإنشاء دكاكين بسوق العطارين وسمي بسوق النداء[٢٤]، وأغلب مواد سوق العطارين تأتي من الشرق الأقصى[٢٥] والطائف.

ويكثر تجمع الباعة بين الصفا والمروة حيث كان يباع فيه الحبو واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه لذلك يجد الساعون صعوبة في السعي بين الصفا والمروة من كثرة الباعة[٢٦]، لذلك قام الأمير بيسق عام ٨٠٤هـ بنقل السوق من المسعى إلى سوق الليل[٢٧]، وعندما تضرر الباعة من هذا العمل قاموا إلى السيد حسن بن عجلان أمير مكة فاشتكوا له فأمر بإرجاعهم إلى ما كانوا عليه من قبل، حيث لم يمر على قرار بيسق سوى عشرة أيام[٢٨].

ومن أسواق مكة العامرة في موسم الحج سوق منى، حيث يقيم الحجاج فيها أيام التشريق الثلاثة، وسوق منى من أعظم الأسواق يباع فيها من الجواهر النفيسة إلى أدنى الخرز، وسائر سلع الدنيا لأنها مجتمع أهل الحج من جميع أنحاء الدنيا[٢٩].

كما تنتشر أسواق أخرى مثل سويقة البيض حيث تباع فيها الأشغال اليدوية المنزلية، ثم سوق الليل، فسوق الطباخين، ثم زقاق الصاغة، ثم سوق غزة حيث ينتشر على جانبيها الحرفيون من النجارين والخراطين الذين يعملون الكراسي، ثم سوق المدعى حيث يباع فيه المنسوجات القطنية، ثم سوق الحذائين حيث ينتشر الخرازين صانعي الأحذية والمصنوعات

---

(٢٢) ابن جبير، الرحلة، ص ١٦٠.

(٢٣) ابن بطوطة، الرحلة علق عليها وعمل هوامشها طلال حرب، بيروت ١٤٠٧هـ، ص ١٤٢.

(٢٤) ابن فهد، إتحاف الورى، جـ٣، ص ٦٠٩ ؛ جـ٤، ص ٢٩٧.

(٢٥) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية، ص ٢٠١.

(٢٦) ابن بطوطة، الرحلة، ص ١٦٢ – ١٦٣.

(٢٧) ابن فهد، إتحاف الورى، جـ٣، ص ٤٢٨ .

(٢٨) نفس المصدر والصفحة.

(٢٩) مورتيل، ريتشارد، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض ١٩٨٥، ص ١٧٤.

الجلدية الأخرى – التي يأتي لهم الجلد الطائفي – ثم سوق المعلا حيث بائعي الحبوب والحشيش[٣٠] والجمال والدواب لذلك وجد بجوارهم سوق الجمال[٣١] .

ولكثرة المجاورين والعلماء والمدارس بمكة المكرمة وجد لهؤلاء سوق للكتب سمى بسوق الوراقين، ولم يكن هذا الاسم لصناعة الورق ولكن لصناعة قائمة بذاتها بها بيع الورق وأدوات الكتابة والكتب ونسخها وتجليدها وتذهيبها[٣٢] وارتبط هذا السوق بازدهار الحركة العلمية وتوفير احتياجات الطلاب والعلماء لذلك انتشر بين هؤلاء دلالين لبيع الكتب مثل سعيد بن حمد بن أبى الكوراني الشهير بالكردي نزيل مكة توفي ٨٧٢هـ وثان يعرف بدلال الكتب[٣٣]. وكذلك على بن أحمد بن دحيه القاهري ممن تردد كثيراً بين مكة والقاهرة واشتغل بتجارة الكتب.[٣٤]

كما ظهر في أسواق مكة المكرمة تجار الكتب المستعملة وكانت تسمى التركات، تركها أصحابها بعد وفاة عالمهم فكانت تتم عملية البيع والشراء لهذه الكتب داخل المسجد الحرام أو في إحدى جنباته[٣٥] مثل باب السلام، فكان يحظر مزاد الكتب شيخ الكتبية وكتب المزاد بطبيعة الحال أقل قيمة من الكتب بالمكتبات وكان تضم بعض النوادر من المخطوطات[٣٦] .

الأوزان والمكاييل والمقاييس:

عرف بمكة المكرمة عدة أوزان استخدمت جميعها لأغراض التجارة الداخلية من هذه الأوزان المن[٣٧] الذي يسميه أهل مكة رطلاً[٣٨]، والذي يساوى ٢٦٠ درهماً ويساوى

---

[٣٠] عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، باب السلام، مكة المكرمة، ١٤٢٧هـ، ص ٨٨.

[٣١] ابن فهد، إتحاف الورى، جـ٤، ص ٢٤٥.

[٣٢] عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، باب السلام، ص ١٠٩.

[٣٣] عبد العزيز السنيدى، الوراقون وأثرهم في الحياة العلمية في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي، الطائف ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٥م، ص ٦٣.

[٣٤] نفس المرجع والصفحة.

[٣٥] عبد العزيز السنيدى، مرجع سابق، ص ٦٦ .

[٣٦] عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، باب السلام، ص ١٢٢.

[٣٧] المن يساوى ٢٦٠ درهماً وبالأوقية ٢٦ أوقية وأوقيته تساوى ١٠٠ درهم ويستخدم المن لوزن الطيب، زين العابدين شمس الدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، القاهرة، ص ٥١٢.

[٣٨] رطل: ١٢ أوقية = ١٤٤ درهم وهو الرطل العادي، وهناك الرطل الكبير = ١٦٨ درهم، انظر زين العابدين، مرجع سابق، ص ٢٨٧.

٨١٢,٥ كيلو جرام، وكانت معظم المبيعات تباع بالرطل، إلا أن هناك رطل ذات وزن مختلف لبيع اللحم والشحم والريسة وخلافه وكان مقداره ٤٠٠ درهم[٣٩].

أما الكيل فكان المد والصاع فكان الصاع أربع أمداد الذي يساوى ٨١٢,٥ كيلو جرام قمحاً[٤٠]، ويباع بالصاع والمد الحنطة وسائر الحبوب المجلوبة إلى سوق مكة[٤١]. أما بالنسبة للقياس فقد استخدم الذراع لقياس الأقمشة ويبلغ طوله ٥٧,٥٧سم وقيل ٥٧,٧٥سم وقيل ٥٨سم[٤٢].

السكة- التداول في الأسواق المكية:

انتشرت في أسواق مكة عدة أنواع من النقد المتداول مثل دينار الذهب ودرهم الفضة وكانا يضربان بمكة على عيار الدينار المصري واستمر ذلك إلى نهاية العصر المملوكي[٤٣].

وإلى جانب ذلك راج بمكة نوعان من الدراهم الأول. الدرهم الكاملي المنسوب إلى السلطان الملك الكامل محمد بن أبى بكر أيوب صاحب مصر ويعرف هذا الدرهم كذلك بالدرهم النقرة[٤٤]. ويتكون من ثلثي فضة وثلث نحاس[٤٥]. والثاني الدرهم المسعودي نسبة إلى الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل محمد الأيوبي صاحب اليمن[٤٦]، وهذا الدرهم ضرب بمكة وهو من فضة خالصة، مربع الشكل ويساوى في المعاملة ثلثي الدرهم الكاملي وظل التعامل بالدرهم المسعودي إلى آخر العصر المملوكي[٤٧]، وهذا راجع إلى حجاج اليمن الذين يتعاملون به.

---

[٣٩] ابن المجاور، مصدر سابق، ص ١٢.

[٤٠] زين العابدين، مرجع سابق، ص ٣٥١.

[٤١] ابن المجاور، مصدر سابق، ص ١٣.

[٤٢] زين العابدين، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

[٤٣] مورتيل، مرجع سابق، ص ١٩٣.

[٤٤] نفس المرجع والصفحة، زين العابدين شمس الدين، مرجع سابق، ص ٢٣٥.

[٤٥] زين العابدين، مرجع سابق، ص ٢٣٥.

[٤٦] مورتيل، مرجع سابق، ص ١٩٤.

[٤٧] مورتيل، مرجع سابق، ص ١٩٣.

وفي أواخر القرن الثامن الهجري ظهر الدينار الأفرنتى[٤٨] ثم سرعان ما أصبح العملة الأكثر رواجاً وكان وزنه ٨٢,٥ من وزن المثقال الإسلامي[٤٩] وفي عام ٨٢٩هـ أمر السلطان الأشرف برسباي بضرب دنانير عرفت بالأشرفية لتحل محل الدنانير الأفرانتية وظل التعامل بالدينار الأشرفي إلى نهاية العصر المملوكي[٥٠]. وفي عام ٨٨٣هـ ظهر لأول مرة بمكة نوع من النقد عرف بالمعلق وما لبث أن راج في أسواقها إلى أن أصبح النقد السائد لبيع جميع أنواع السلع وشرائها، ومع مرور الزمن ارتفع سعر صرف المعلق إلى عشرين درهماً مسعودياً عام ٩٠٩هـ واستمر سعره على هذا إلى نهاية المماليك[٥١].

عوامل ازدهار الأسواق:

اتحدت عدة عوامل أدت إلى ازدهار أسواق مكة في العصر المملوكي منها ارتباطها بعدة ممالك إسلامية كانت يفد أبنائها إلى مكة سواء للحج أو للتجارة متبعين عدة طرق تصب في المدينة المقدسة مما أدى إلى ازدهار أسواقها وخصوصاً في موسم الحج، وهذا يدفع الباحث إلى الحديث عن العلاقات التجارية بينها وبين مكة المكرمة في الفترة محل البحث.

أولاً. العلاقات التجارية:

أ- العلاقات التجارية بين الحجاز والشرق الأقصى:

استفاد التجار من انتشار الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية حيث الهند والصين وغيرها من بقية البلاد الأخرى، وبذلك صار المحيط الهندي تحت هيمنة التجار المسلمين وأصبح لهم جاليات إسلامية في كل مكان تقريباً[٥٢].

لذلك كان الحجاز ضمن مجموعة من محطات الطريق البحري القادم من الشرق الأقصى باتجاه مصر وأوروبا، وقد حصل سلاطين المماليك على أموال كثيرة من رسوم تجارة الهند في مينائي جدة وينبع، كما ارتبطت مكة بجدة في ازدهارها، بحيث أصبحت

---

[٤٨] يضرب هذا الدينار بالبندقية وسرعان ما راج بالبلاد الإسلامية، انظر مورتيل، مرجع سابق، ص ١٩٥.

[٤٩] نفس المرجع والصفحة.

[٥٠] نفس المرجع، ص ١٩٥ – ١٩٦.

[٥١] نفس المرجع، ص ١٩٦.

[٥٢] سعيد عبد الله بن بنيه القحطاني، تجارة الجزيرة العربية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، التاسع والعاشر الميلادي، الرياض ١٤٢٤هـ، ص ٧٧.

واستمرت من أهم أسواق التجارة ومراكزها بين عدن والشام وبين الشرق الأقصى وأوروبا[٥٣].

فكانت ترد مكة من الهند كميات كبيرة من الحلي وكل أنواع البهارات، وكميات كبيرة من الأقمشة القطنية والحريرية، فعبر مكة يتم مرور سلع كثيرة من المجوهرات والبهارات بأنواعها المختلفة، وكذلك من القطن والشمع والمواد العطرية بكميات كبيرة[٥٤]. أما السلع التي ترد من الشرق الأقصى إلى الحجاز عن طريق المحيط الهندي والبحر الأحمر فهي مجموعة من النمور والفيلة وجلود النمور والسيوف من الهند[٥٥]، والعطور والبخور وعود الند والمسك وهو من أغلى أنواع العطور، وجلبت أيضاً مجموعة من السلع التي استخدمت عقاراً طبياً مثل القرفة والقرنفل والزنجبيل والبلسم والكافور، وجوزة الطيب والزعفران[٥٦].

أما فيما يتعلق بالعرب فقد نقلوا إلى الشرق الأقصى الخيول والبغال والحمير[٥٧]، حيث كانت بلاد الهند تفتقر إلى بعض منتوجات بلاد العرب، فكان التجار يحملون معهم إلى بلاد الهند التمر وزيت الزيتون – القادم من الشام – والقمح والشعير من العراق، ويحملون معهم أيضاً الكتان والصوف من بلاد الشام[٥٨]، وباع العرب منتوجات مصنعة وزجاجيات، وأقمشة كتانية وعطور وفواكه – مثل التين والفستق واللوز، وكانت تجارة الخيل مزدهرة آنذاك بشكل خاص .

---

[٥٣] رجب، عمر الفاروق السيد، المدينة المنورة "اقتصاديات المكان السكان المورفولوجية"، ط١، القاهرة ١٩٧٩م، ص ٣٩.

[٥٤] فارتيما، رحلات فارتيما، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة ١٩٩٤م، ص ٥٣.

[٥٥] لطفي عبد الله رحي، العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ط١، ١٩٧٨، ص ٢٨٧.

[٥٦] ابن خرداذبة، المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩م)، ص ٧٠. وانظر أيضاً، نعيم زكي فهمي- مرجع سابق، ص ١٢٠.

[٥٧] نعيم زكي فهمي، مرجع سابق، ص ١٣٨ – ١٣٩.

[٥٨] نعيم زكي فهمي، مرجع سابق، ص ١٣٦.

ب- العلاقات التجارية بين الحجاز واليمن وبلاد عُمان:

تقع اليمن في الجزء الجنوبي الغربي من جزيرة العرب، لذلك تحكمت في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر[٥٩]، واشتهرت في عالم التجارة منذ عصور ما قبل الإسلام ممراً بحرياً للمراكب التجارية المحملة بالبخور والتوابل، وأصبحت البلد الذي يستطيع نقل تجارة الشرق إلى الغرب وبالعكس وذلك بحكم موقعها الاستراتيجي المهم، ومن خلال التجارة تعرف اليمنيون إلى حضارة الفينيقيين والبابليين واليونان والرومان[٦٠].

كانت نسبة كبيرة من احتياجات أهل مكة من المواد الغذائية في عصر المماليك تشحن إلى جدة بحراً من تهامة اليمن خاصة، ومن مناطق اليمن الواقعة تحت سيطرة الدولة الرسولية عامة، وقد اشتهرت اليمن بمحصولاتها الزراعية في مناطق كثيرة من أراضيها وخاصة إنتاج التمر والدخن والذرة التي تصدر إلى مكة المكرمة، واشتهرت اليمن أيضاً بإنتاج الورس واللبان، فوجدت جميع هذه المنتجات إلى جانب الجلود وخاصة جلود البقر. فاليمن تعد من أهم الأماكن المصدرة لجلود البقر إلى مكة بالإضافة إلى البخور والثياب والأحجار الكريمة والغار والفضة والفلفل والقرنفل، وهناك العنبر الموجود بسواحل عدن[٦١]، كل هذه السلع كانت اليمن تغذى بها أسواق الحجاز إضافة إلى بضائع الشرق الأقصى التي يُقبل على شرائها حجاج مصر والشام والعراق وتجارها وغيرهم.

وكانت عُمان الواقعة في الزاوية الجنوبية الشرقية للجزيرة العربية قد أسهمت بتجارها مع مكة المكرمة، فقد كان يصلها بمكة طريقان بريان أحدهما شرقي يمر بواحة بيرين[٦٢]، فاليمامة ثم مكة، والثاني غربي يتجه من عُمان مخترقاً بلاد حضرموت إلى عدن ثم يلتقي الطريق اليمنى الذي يتجه إلى الحجاز[٦٣]، وقد قام هذان الطريقان بدور مهم في تجارة عُمان مع مكة المكرمة، فكانت تصل إلى مكة مع القوافل العمانية العديد من السلع منها. المسك والزعفران والبقم، والساج، والساسم (شجرة تصنع السهام من غصونها) والعاج

---

[٥٩] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٧، مكتبة النهضة، بيروت، ١٩٧١، ص ٢٧٧-٢٨٠.

[٦٠] مورتيل، المرجع السابق، ص ١٨٤.

[٦١] نعيم زكي فهمي، مرجع سابق، ص ١٩٦ وما بعدها.

[٦٢] بيرين: من أصقاع البحرين تميزت بكثرة الرمال، بينها وبين الفلج ثلاث مراحل، وبينها وبين الإحساء وهجر مرحلتان، انظر ياقوت الحموي، مصدر سابق، جـ٥، ص ٤٢٧.

[٦٣] ابن خرداذبه، مصدر سابق، ص ٢٨.

والديباج، والجزع، واليواقيت والأبنوس والنارجيل والقند (هو عسل قصب السكر الجامد) والبلور والفلفل وغير ذلك[٦٤]، وكانت علاقات عُمان نشطة ترتبط بعلاقات تجارية مميزة مع الحجاز.

جـ- العلاقات التجارية بين الحجاز وشرق إفريقيا:

تعود جذور العلاقات التجارية بين مكة والحبشة إلى ما قبل الإسلام، فالمطلب بن عبد مناف عقد أحلافاً تجارية مع النجاشي ملك الحبشة، وأصبحت الحبشة سوقاً تجارياً لقريش لأنها أحد المصادر المهمة للتجارة الشرقية[٦٥].

وكثرت الرحلات العربية قبل وبعد ظهور الإسلام إلى شرق إفريقيا حيث كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة لأنها بلد آمن ومستقر.

إن علاقة مكة التجارية والسياسية مع بلدان الساحل الشرقي للقارة الإفريقية كانت على جانب كبير من القوة، فكانت نسبة كبيرة من حاجة مكة من الحبوب تأتي إليها من بلاد السودان والحبشة، وخلال القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي قام عدد كبير من تجار مكة بالسفر إلى جزيرة سواكن التجارية[٦٦]، وكانت البضائع المستوردة من إفريقيا الشرقية عبر موانئ الحجاز البخور والعطور والذهب والتبر والفضة والعاج، والعنبر الرمادي وريش النعام وخشب الأبنوس، والتوابل والفلفل والقرفة والرقيق والجواري[٦٧]، وكانت تعرض في أسواق الحجاز وخاصة في مكة في موسم الحج.

د) العلاقات التجارية بين الحجاز ومصر:

تعود جذور العلاقات التجارية بين مصر وسواحل البحر الأحمر والمناطق المطلة عليه كالحجاز واليمن والنوبة إلى أيام الفراعنة، وللحجاز علاقات تجارية مع مصر منذ أقدم العصور، وكانت تعتمد من الناحية الاقتصادية على المخصصات الثابتة التي تأتيها من مصر نظراً لندرة الزراعة فيها، وقلة مواردها، فدولة المماليك ومن سبقها من الدول الإسلامية التي ضمت الحجاز إليها عملت على رصد المخصصات وحبس الأوقاف بالديار المصرية على

---

[٦٤] المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله (ت ٣٩٠هـ/٩٩٩م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق إبراهيم خوري، ط١، بيروت، ١٩٩٣م، ص ٢٧٤ – ٢٧٥ .

[٦٥] شوقي عبد القوي، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، الكويت ١٩٩٠، ص ٩٣ – ٩٤.

[٦٦] مورتيل، مرجع سابق، ص ٢٠٤.

[٦٧] شوقي عبد القوي، تجارة المحيط الهندي، ص ١٤٥.

سكان الحرمين الشريفين، فكان الحجاز بذلك يتلقى من مصر سنوياً كل ما يحتاجه من غلال، إلى جانب مرتبات الأشراف والعاملين على خدمة الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، والتي كانت ترسل سنوياً بصحبة أمير الحج المصري[٦٨].

أما فيما يتعلق بالبضائع المجلوبة من مصر لبلاد الحجاز فهي الثياب والرقاق والقراطيس والقمح والحنطة والدقيق والسكر والأرز والصابون وزيت الزيتون والزيتون المملح، والعسل، والأسلحة والحرير. وكانوا يأتون بالبضائع الثقيلة من مصر عن طريق البحر، وعن طريق البر تجلب القوافل السلع الخفيفة[٦٩]، الطريق البرى يتجمع التجار والحجاج بالقاهرة ثم السويس فالعقبة إلى ينبع فالمدينة المنورة فمكة، وطريق البحر من موانئ السويس والطور وعيذاب إلى جدة وينبع ومنها إلى مكة والمدينة .

هـ- العلاقات التجارية بين الحجاز وبلاد الشام:

عرف العرب في مكة والمدينة والبلاد المجاورة حق المعرفة عن طريق التجارة، ففي الشام كانت لهم صلات قربى فيها مع القبائل العربية، إضافة إلى علاقات اقتصادية وتجارية وثيقة.

إن العلاقات التجارية الشامية الحجازية قديمة جداً، فقريش كانت تحتكر الطريق التجاري البرى بين الشام والجنوب العربي وتقوم برحلتي الشتاء والصيف إلى الجنوب العربي والشام، حاملة سلع المشرق والجنوب العربي والساحل الأفريقي حيث تفرغها في بُصرى أو غزة، وفي المقابل تنقل سلع الشام وبيزنطة إلى المدينة المنورة والحجاز ومنها إلى الهند والصين، وأصبحت مكة مركزاً تجارياً مهماً في وسط الحجاز، ومنطلق إشعاع حضاري في الجزيرة العربية[٧٠]. ولم يكن النشاط التجاري مقتصراً على الموسم فقط بل استمرت القوافل التجارية تنقل البضائع بين المدن الحجازية والنيابات الشامية، ومن السلع المحلية المنتجة في الحجاز. الجلود المذهبة (الأدم) والزبيب الطائفي، تحملها القوافل التجارية إلى الشام[٧١].

---

[٦٨] الجزيري، الدرر، جـ٢، ص ٧٨٦ وما بعدها.

[٦٩] مورتيل، مرجع سابق، ص ١٨٦.

[٧٠] غوانمة، يوسف حسن درويش، أيله (العقبة) والبحر الأحمر، إربد، ط١، ١٩٨٤م، ص ٧٠-٧١.

[٧١] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، جـ ٧، ٢٩٣.

أما السلع التي تعود بها القوافل المكية من الشام فأبرزها زيت الزيتون، والقمح من حوران، والبلقاء والحواري، والسكر، والطحين، والحرير، والقطن والقماش، والمواد المصنعة مثل المنسوجات والأسلحة[٧٢].

وكانت قوافل الحجاج الكبيرة تجلب معها عند عودتها من الحج في مكة عدداً كبيراً من الجمال المحملة بالتوابل، وبخاصة الأصناف الثمينة منها والأخف وزناً ولقد حرص المماليك على توفير الأمن والراحة للحجاج والتجار والمسافرين، فأقاموا الخانات لخدمة المسافرين وللتزود بالماء والغذاء وعلف الدواب، كما أرسلوا القوات العسكرية للحد من خطر قطاع الطرق الذين دأبوا على مهاجمة القوافل التجارية وقوافل الحج المتجهة إلى مكة أو العائدة منها[٧٣].

و- العلاقات التجارية بين الحجاز والعراق:

تعود العلاقات التجارية بين الحجاز ، العراق إلى ما قبل الإسلام، حيث كانت هناك علاقات تجارية كبيرة مع الحيرة، واستمرت مع امتداد الزمن وتزداد نشاطاً في موسم الحج، حيث كان أهل مكة ينتفعون كثيراً بحجاج العراق وتجارها، واتصلت الحجاز بالعراق بطريق برى، وكانت الكوفة على صلة بمكة والمدينة[٧٤]، كما تنشط التجارة بينهم خاصة في موسم الحج وتنقل من العراق توابل الهند، ومن البصرة تنقل التمور بكميات كبيرة، والخز والبز وماء الورد والحناء والبنفسج والزنجفر، والزنجار، ومن الكوفة عمائم الخز، ومن بغداد الأقمشة القطنية والمنسوجات الحريرية، والأرز، والأدوات الزجاجية والأدوية، ومن الأبلة ثياب الكتان الرفيعة والعمائم[٧٥] ويستورد العراق من بلاد العرب الخيل العراب والأدم والأحذية والنعام وجانب الإبل، والقنا[٧٦].

ثانياً. الحرف والصناعات:

لعبت الحرف والصناعات بالحجاز دوراً كبيراً في ازدهار الأسواق بمكة حيث كانت توجد عدة مدن تختص بصناعات معينة تورد إلى أسواق مكة مثل دباغة وصناعة الجلود،

---

[٧٢] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، جـ٧، ص ٢٩٣.

[٧٣] الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص ٢٥٢.

[٧٤] ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٢٩.

[٧٥] المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١١٢.

[٧٦] الجاحظ التبصر بالتجارة، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٨٦، ص ٢٧.

وهي من الحرف القديمة حيث كان أهل الحجاز يقومون بمعالجة الجلد قبل دبغه مثل تنظيفه من الصوف والشعر ثم صقله[٧٧]، واشتهرت مدينة الطائف بذلك فكان فيها الأهب[٧٨] الطائفي المعركة، ولجوء الطائف أكبر الأثر في ازدهار هذه الصنعة حيث كان لا يباع بها إلا الأدم الذي لا يصنع مثله في الأقطار[٧٩].

واستخدم الدباغون مواد مساعدة في دبغه مثل القرظ[٨٠] وهو نبات ينمو في ضواحي مكة[٨١] وكان الدباغون يبيعون هذه الجلود للتجار بأسعار مرتفعة.

واستخدم الجلد لصناعة القرب لحفظ الماء وحلمها، كما يحفظ فيه الطيب والسمن والزيوت والدهون التي يحتاج إليها الأعرابي في ترحاله والحضري في مستقره[٨٢]. كما يصنع منه الأحذية خاصة الحذاء الطائفي الذي كان يضرب به المثل[٨٣]. وإن تعذر الحصول على الجلد الطائفي كان يأتي جلد من الموصل وخراسان حيث يصنع ويعاد تصديره إلى تلك البلاد[٨٤].

كما وجدت حرف وصناعات أخرى مثل صناعة الأغذية والتي كان يكثر منها لزيادة الطلب عليها خاصة في مواسم الحج والعمرة مثل صناعة الخبز[٨٥]، كما كان يأتي لمكة التمر من المدينة[٨٦]، إلى جانب ذلك كان للطائف دور في إنتاج عسل النحل والذي كان يجلب من الجبال والكهوف ومن أعالي الأشجار المنتشرة في بساتين الطائف[٨٧]، كما

---

[٧٧] جواد على، المفصل في تاريخ العرب، جـ٧، ص ٥٣٧.

[٧٨] الأهب، الجلد من البقر والغنم، انظر ابن منظور، لسان العرب، بيروت، ١٩٦٨، جـ١، ص ٢١٧.

[٧٩] البكري، المسالك والممالك، جـ١، ليبيا وتونس، ١٩٩٢، ص ٣٦٢.

[٨٠] القرظ: شجر كبير ساقه غليظة وله ورق صغير يستخدم في الصباغة، انظر ابن منظور، لسان العرب، جـ٧، ص ٤٥٤.

[٨١] ابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر، صححه وضبطه أوسكرلو فقرين ليدن ١٩٥١، ص ٣٢ .

[٨٢] جواد على، المفصل في تاريخ العرب، جـ٧، ص ٥٨٨ .

[٨٣] سعيد عبد الله القحطاني، مرجع سابق، ص ٣٧٠.

[٨٤] ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ١، ص ١٣.

[٨٥] عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، باب السلام، مكة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص ٨٨.

[٨٦] جميل حرب حسين، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، جدة ١٩٨٥، ص ١٢٠.

[٨٧] عبد الجبار منسى العبيدي، الطائف ودور قبيلة ثقيف من العصر الجاهلي الأخير حتى قيام الدولة الأموية، الرياض، ١٩٨٢، ص ٥٣.

اشتهرت بصناعة وتجفيف العنب حتى أنها أنتجت أجود أنواع الزبيب، ويصدر معظم إنتاج الطائف إلى مكة نظراً لحاجة أهلها إليه لتحلية مياه الآبار التي ترفع فيها نسبة الملوحة[٨٨]، ويقدر ثمن مد الزبيب درهماً واحد[٨٩]. ولثراء الطائف أصبحت تُمون مكة وغيرها من الثمار والخضار والزبيب[٩٠].

كما اشتهرت الطائف بصناعة العطور ويصدر غالباً إلى مكة حيث يطيبون به الكعبة المشرفة فضلاً عن حب أثرياء مكة لاستخدام الطيب[٩١] وكانت هذه العطور تباع للحجاج في موسم الحج[٩٢]، كما كان ماء زمزم يخلط بماء ورد الطائف لغسل الكعبة[٩٣] .

كما وجدت حرفة النجارة مثل عمل الأبواب والأطباق والأقداح والأثاث المنزلي كالمناضد والكراسي، فكان النجارون يزاولون صناعتهم في حوانيتهم أو بيوتهم[٩٤]، كما كانت صنع أدوات القتال كالرماح والنبال والأقواس من الأخشاب حيث كانت توجد الأشجار التي تنمو في الحجاز والطائف وإن عجز عن سداد حاجة النجارون كان يستورد الأخشاب من الهند وإفريقيا مثل الساج والأبنوس[٩٥]. كل هذه الحرف دعمت أسواق مكة بما تحتاجه ويحتاجه الحاج ويحمله معه ذكرى من أرض الحرمين .

العوامل المؤثرة في الأسواق:

تعرضت أسواق مكة لكثير من الأزمات السياسية والبيئية مثل الحروب الدائرة بين أشراف مكة أو الأزمات البيئية مثل انحباس المطر أو نزول سيول. كل هذا كان يؤثر على الأسواق حيث يعم القحط والغلاء وبذلك يؤثر على موسم الحج، إلى جانب عسف الأشراف بفرض المكوس الباهظة على التجار فيفضل التجار ألا يأتوا إلى مكة بتجارتهم، وسوف نتناول هذه العوامل بالدراسة.

---

[٨٨] نادية حسن صقر، الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، جدة ١٩٨١، ص ٤٤.

[٨٩] السمهودي، وفا الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكة ٢٠٠٥م، جـ١، ص ٥٤١.

[٩٠] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، جـ٤، ص ١٥١.

[٩١] نادية صقر، مرجع سابق، ص ٤٥.

[٩٢] عبد الجبار منسي العبيدي، مرجع سابق، ص ٥١ – ٥٢.

[٩٣] نادية صقر، مرجع سابق، ص ٤٥.

[٩٤] عبد الوهاب إبراهيم، باب السلام، ص ٨٨.

[٩٥] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، جـ٧، ص ٥٤٧ – ٥٤٨.

دارت الصراعات بين أشراف مكة طوال فترة الحكم المملوكي وكان يحسم الأمر سلاطين مصر المملوكية مثال على ذلك كان خلال زيارة سلطان مصر الناصر محمد قلاوون عام ٧٠٣هـ عندما أقر حميضة ورميثة أبناء أبي نمي، ولكن الأمر لم تستقر ففي عام ٧٠٧هـ وقع غلاء بلغت غراره الحنطة ألف وخمسمائة درهم والذرة أكثر من سبعمائة مما أدى إلى قيام عبيد الشريف حميضة بنهب أموال التجار وتعرضهم للحجاج يوم العيد، ولما حاول أحد التجار منع العبيد من أخذ قماش له ضربوه مما أثار الفتن في الحرم[٩٦].

ولم يكن العبيد فقط هم الذين يتخطفون أموال التجار بل كان بعض الأشراف كذلك مثل الشريف رميثه بن أبي نمي عندما قدم بعض الحجاج إلى وادي نخله طلباً للماء فقدم عليهم الشريف وعسكره وقتلوا نفراً وسرقوا ونهبوا حوالي خمسمائة جمل وذلك عام ٧١٢هـ. فأرسل الناصر محمد عسكراً يتكون من مائة فارس لتعقب الشريف رميثه بقيادة الأمير علاء الدين أبو غدى شقير، وطارده إلى أن وقع القتال بين رميثه وقائد العسكر المملوكي، وأصيب رميه بسهم، فولى هارباً وحلت الهزيمة بعسكره، وقتل المماليك عدداً منهم كما وقع بعضهم أسرى في أيدي المماليك[٩٧].

ولم تمر سنة من السنوات إلا ووقع فيها اضطرابات سواء مع أمير الحاج المصري أو العراقي أو الشامي وإن لم يكن بينهم يكون بينهم وبين الأشراف أو بين الأشراف مع بعضهم البعض خصوصاً عندما يقوم إحدى الأخوة بتحصيل المكوس من السفن التجارية بجدة فيختلف الأخوة على مقدار المال مما يؤدى إلى وقوع صراع وهذا ما جرى بين الشريف عجلان وأخوه الشريف رميثه عام ٧٥٣هـ[٩٨]. كما لم يفلت المجاورين من طمع الأشراف مثلما قام الشريف حسن بن عجلان عندما علم بخبر عزل أحد القضاة اليمنيين المجاورين بمكة عام ٨٨٣هـ فسطا على أمواله، ولذلك لم يحج في هذا العام إلا حجاج قليلون خوفاً من عدم استقرار الأمن بمكة[٩٩]، والأمثلة على ذلك كثيرة[١٠٠].

---

(٩٦) ابن فهد، إتحاف الورى، جـ٣، ص ١٤٤ – ١٤٥؛ أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص ٢٦٥.

(٩٧) مورتيل، مرجع سابق، ص ٧١؛ أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص ٢٦٥ .

(٩٨) أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص ٢٧٢ – ٢٧٦.

(٩٩) ابن فهد، إتحاف الورى، جـ٣، ص ٤٧١ – ٤٧٢؛ أحمد السيلمي، مرجع سابق ص ٣٠٨.

(١٠٠) للمزيد حول هذه الاضطرابات انظر: مورتيل، مرجع سابق، ص ١١٩–١٧٢ .

وازدادت الاضطرابات خصوصاً في القرن العاشر الهجري بسبب ضعف سلطة المماليك وتهديد البرتغال للتجار المسلمين في ميناء عدن[101]، كما زاد صراع أولاد الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان حول إمارة مكة عام ٩٠٦، وعام ٩١٠هـ وكان أشد أولاده نقمة على التجار هو الشريف أحمد المعروف بجازان حيث سار واستولى على عشرة آلاف دينار من مال العشور التي جباها ناظر جدة لحساب السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦م)، كما قام جازان بالقبض على جماعة من تجار مكة واضطروا أن يبيعوا دوراً ومزارع لهم حتى يحصلوا عى المال الذي اشترطه عليهم الشريف جازان مقابل الإفراج عنهم[102].

وازدادت حالة التجارة بمكة سوءاً بعد انتصار البرتغاليون على أسطول المماليك في معركة ديو البحرية عام ٩١٤هـ، كما دخل البرتغاليون البحر الأحمر واستولوا على جزيرة كمران ذات الأهمية القصوى للسفن الداخلة للبحر الأحمر والتي تقوم بتموين السفن بالمياه العذبة[103].

ولم تكن الأسباب السياسية الماضية هي السبب الرئيسي في الأزمات الاقتصادية التي حلت بأسواق مكة بل نجد الظروف المناخية لها دور كبير في ذلك حيث كان انحباس المطر أو اندفاعه بشدة في كلتا الحالتين تؤدى إلى كارثة. فمن خلال الرصد لهذه الكوارث نجد أنه لم يمر عام وإلا وقع غلاء، ففي عام ٦٦٧هـ وقع جدب وقحط في الحجاز لقلة الأمطار فحدث غلاء بالأسعار[104]، وكذلك عام ٦٧٥هـ[105]، وفى علم ٦٩٥هـ كان الغلاء بمكة والحجاز عامة حتى بيعت الغرارة من القمح في مكة بألف ومئتي درهم[106]، كما كان في عام ٧٥٩هـ كان بمكة غلاء في جميع المأكولات[107]، وفى علم ٨٩٠هـ جاءت الأخبار من مكة بأن الأمطار كانت قليلة وأن العيون والآبار قد جفت وحصل لأهل مكة ضرر كبير

---

[101] نعيم زكى فهمي، مرجع سابق، ص ٣٧٣.

[102] مورتيل، مرجع سابق، ص ١٩١.

[103] نعيم زكى فهمي، مرجع سابق، ص ١٧٦، ٣٧٣؛ أحمد السباعي، مرجع سابق، ص ٣١٦.

[104] الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص ٢٧٢.

[105] ابن فهد، إتحاف الورى، جـ٣، ص ١٠٧

[106] ابن فهد، إتحاف الورى، جـ٣، ص ١٢٨.

[107] نفس المصدر والجزء، ص ٢٧٤.

مما أدى إلى ارتفاع الأسعار(١٠٨)، ومن خلال هذا الرصد نجد أن كل عام يقع إما قحط أو غلاء من جراء سيل أو جفاف.

وكان يصاحب حالات الغلاء موجات هجرات مذهلة، يضطر فيها الإنسان أن يأكل ما يقع تحت يده من النباتات والحيوانات وخلاف ذلك(١٠٩)، كما تهجر الأسواق مما يضطر صاحب مصر إلى إرسال الصدقات لحل هذه الأزمة(١١٠).

المكوس:

المكس في اللغة الجباية، يقال مكسه مكساً، والمكس هي الضرائب التي تؤخذ عن المبيعات والمشتريات أي عن التجار، يجبيها جباة المكس، أي العشارون من الأسواق ومن المواضع المخصصة لمرور التجارة بها(١١١).

ولقد لجأ أمراء مكة إلى فرض الضرائب والرسوم على الحجاج والتجار، وظل الأمر على ذلك حتى أسقط صلاح الدين الأيوبي مكس الحاج وعوض أمير مكة ألف دينار وألف أردب(١١٢) من القمح، إضافة إلى إقطاعات بصعيد مصر واليمن، وقيل بلغت في مجموعها ثمانية آلاف إردب قمحاً تحمل سنوياً إلى جدة(١١٣).

لكن إسقاط المكس لم يستمر طويلاً، فعاد شريف مكة نجم الدين محمد أبي نمي ٦٦٧هـ، بأخذ المكوس من الحجاج والتجار، وصادف هذه السنة هي التي حج فيها السلطان الظاهر بيبرس ورأى المظالم التي تنزل بالحجاج والتجار، فرتب لشريف مكة عشرين ألف درهم كل سنة شريطة ألا يؤخذ بمكة مكس، ولا يتعرض لتاجر(١١٤) وعندما حج الملك

---

(١٠٨) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، جـ٣، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٢١٩.

(١٠٩) ضيف الله يحيى الزهراني، أسعار المواد الغذائية بمكة المكرمة خلال الفترة (٦٤٨ – ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧م) مكة المكرمة ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص ٩٨.

(١١٠) الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص ٦٢٧.

(١١١) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، جـ٦ ، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢٢٠.

(١١٢) الأردب: مكيال مصري للحنطة يتألف من ست ويبات لكل ويبة ثمانية أقداح كبيرة، أو ستة عشر قدحاً صغيراً. انظر أحمد الشرباصي، المعجم الاقتصادي الإسلامي، بيروت ١٩٨١، ص ٦٤.

(١١٣) الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص ١٦٩؛ عائشة عبد الله باقاسي، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، مكة المكرمة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠، ص ٧١.

(١١٤) مورتيل، مرجع سابق، ص ١٧٦؛ السليمان، العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٨٧٣، ص ١٦١.

الناصر محمد بن قلاوون الحجة الثانية عام ٧١٩هـ أبطل سائر المكوس وعوض أميري مكة والمدينة عنها إقطاعات بمصر والشام(١١٥)، وفى عام ٧٢٢هـ، أسقط الناصر محمد بن قلاوون المكس المتعلق بالمأكولات وعوض أميرها عطيفة بن أبى نمى بثلثي قرية دماميل بصعيد مصر(١١٦) كل هذه القرارات التي استوجب بها إلغاء المكس كان من أكبر عوامل ازدهار الأسواق، ولكن لم يستمر الوضع طويلاً فسرعان ما عادت المكوس تفرض مرة أخرى وخاصة عندما ضعفت قبضة الدولة المملوكية على الحجاز ودخل المماليك في صراع مع العثمانيين والبرتغاليين(١١٧).

الخاتمة:

ارتبطت أسواق مكة بموسم العمرة والحج لذلك ظهرت أهمية مكة إلى جانب ذلك كان لجدة الأثر الكبير في نشاط أسواق مكة حيث التجارة والتجار القادمين من أقصى الشرق مروراً بالبحر الأحمر، كما كان للسلاطين المماليك دورهم سواء الإيجابي أو السلبي في ازدهار حركة الأسواق بمكة نتيجة، ارتباط مكة بجدة، ومن خلال البحث وجد أن أسواق مكة مزدهرة ازدهاراً كبيراً نتيجة موقعها ومكانة الكعبة المشرفة بها، كما ظهرت عدة صناعات في المدن المجاورة لمكة كانت ترسل تجارتها لبيعها في أسواق مكة الرائجة في موسم الحج.

ورغم هذا الازدهار إلا أننا وجدنا أن مكة كثيراً ما تعرضت لعدة عوامل أدت إلى خراب أسواقها حيث كانت العوامل السياسية من أكبر العوامل التي أثرت في مكة إلى جانب العوامل الطبيعية فلم تمر سنة إلا ووقع بمكة إما قحط أو سيل، كل ذلك أثر على أسواق مكة.

---

(١١٥) ابن فهد، إتحاف الورى، جـ٣، ص ١٦٥.

(١١٦) الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة، جـ١، ص ٦٢٧.

(١١٧) مورتيل، مرجع سابق، ص ١٩٠ – ١٩١.

المصادر والمراجع

أولاً. المصادر العربية:

١- القرآن كريم.

٢- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م)

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققه وكتب المقدمة محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٨٣ - ١٩٨٤.

٣- ابن بطوطة، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م).

- رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، علق عليها طلال حرب، ١٤٠٧هـ.

٤- البكري، أبو عبيد (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)، المسالك والممالك، ليبيا، تونس ١٩٩٢.

٥- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م).

- رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف برحلة ابن جبير، بيروت ١٩٨١م.

٦- الجزيري، عبد القادر محمد بن عبد القادر إبراهيم الأنصاري (توفى ٩٧٦هـ/١٥٦٨م).

- الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المنظمة، أعده للنشر محمد الجاسر، الرياض ١٩٨٣.

٧- الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م)، التبصر بالتجارة، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر ١٩٨٦.

٨- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) .

- أنباء الغمر بأبناء العمر، طبع بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالمية الهندية، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦م.

٩- الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) .

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٧م.

١٠- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) .

- المسالك والممالك، ليدن ١٨٨٩م.

١١- السمهودي، نورد الدين على بن أحمد المصري (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) .

- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، مكتبة البـار، مكة ٢٠٠٥م.
١٢- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن على (ت ٨٣٢هـ/١٤١٢م) .
- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، حققه وعلق على حواشيه لجنة مـن كبـار العلمـاء والأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت (ب.ت)
١٣- ابن فهد، محمد بن محمد بن محمد بن محمد (ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م) .
- إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهمين محمد شلتوت، مركز البحـث العلمـي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٩٨٣م.
١٤- الكتبي، محمد بن شاكر (٧٦٤هـ / ١٣٢٦م) .
- فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م.
١٥- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري (ت ٣٩٠هـ / ٩٩٩م).
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق إبـراهيم فـوزي، دار المـشرق، بيـروت ١٩٩٣م.
١٦- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) .
- لسان العرب، دار صادر، بيروت ١٩٦٨م.
١٧- ابن المجاور، جمال الدين يوسف بن يعقوب الدمشقي (ت ٦٩٠هـ/١٢٩١م) .
- صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة، تاريخ المستبصر، اعتنى بتـصحيحها وضبطها أوسكر لوفغرين، ليدن ١٩٥١ .
١٨- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) .
- معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٩٥م.

ثانياً. المراجع العربية والمعربة:

١- أحمد بن عمر الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، الرياض ١٩٨١م.
٢- أحمد السباعي، تاريخ مكة، مكة المكرمة ١٩٩٤.
٣- جميل حرب حسين، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، جدة ١٩٨٥م.
٤- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار بيروت ١٩٧١م.
٥- مورتيل، ريتشارد، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، الريـاض ١٩٨٥م.
٦- زين العابدين شـمس الـدين، معجـم الألفـاظ والمـصطلحات التاريخيـة، القـاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٧- سعيد عبد الله القحطاني، تجارة الجزيرة العربية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، التاسع والعاشر للميلادي، الرياض ١٤٢٤هـ.
٨- شوقي عبد القوي، تجارة المحيط الهندي عصر السيادة الإسلامية، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٠م.
٩- عبد الجبار العبيدي، الطائف ودور قبيلة ثقيف من العصر الجاهلي الأخير حتى قيام الدولة الأموية، دار الرفاعي، الرياض ١٩٨٢م.
١٠- عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، باب السلام في المسجد الحرام، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
١١- على حسين السليمان، العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٣م .
١٢- عبد العزيز السنيدي، الوراقون وأثرهم في الحياة العلمية في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي، مطبوعات نادي الطائف الأدبي ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
١٣- عائشة عبد الله باقاس، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، مكة المكرمة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
١٤- عبد المعطي بن محمد عبد المعطي سمسم، العلاقات بين شبه الجزيرة العربية والحبشة، دار أتراك للنشر والتوزيع، القاهرة ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م .
١٥- عمر الفاروق السيد رجب، المدينة المنورة واقتصاديات المكان السكان المورفولوجية، دار الشروق، جدة، ١٩٧٩.
١٦- فارتيما، رحلات فارتيما، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤م.
١٧- لطفي عبد الوهاب يحيى، العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٨م.
١٨- نادية حسن صقر، الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، دار الشروق، جدة ١٩٨١م.
١٩- نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، أواخر العصور الوسطى ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣.
٢٠- يوسف حسن درويش غوانيمة، آيلة (العقبة) والبحر الأحمر، دار هشام أريد الأردن، ١٩٨٤م.

الجزيري حياته وعلاقاته بأشراف الحجاز وعلمائها

٨٨٠-٩٤٤هـ/ ١٤٧٥- ١٥٢٧م

أ.د. سليمان المالكي*

جامعة أم القرى وجامعة طيبة

اولاً- أسمه ومولده :

هو عبـــد القادر بن محمـــد بن عبد القادر بـــن محمـــد بـــن إبـــراهيم الأنـــصاري الجزيري[1]، نسبة إلى الجزيرة الفراتية [2] ولم تفيدنا المصادر بترجمـــة كاملـــة عنـــه إلا بكتابه الدرر، فقـــد نص الجزيري فـــي مؤلفه هذا على مولده فقال : " ســنة إحـــدى عشرة وتسع منه : فيها كان مولدي كما رأيته بخط الوالد، في الليلة المسفر صباحها عن يوم

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.

[1] – لختلف بعض المؤرخين في نسبه ولقبه، فذكر النهرولي أن لقبه زين الدين الجزري. البرق اليماني في الفتح العثماني، أشرف على طبعه حمد الجاسر، الرياض منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة، ١٣٧٨هـ/١٩٦٧م، ص٤٠٠. كما لقبه العصامي بمحيي الدين عبد القادر محمد الشهير بالجزيري، سمط النجوم العوالي فـــي أنبـــاء الأوائل والتوالي، تحقيق عادل أحمد عبد الجواد، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٨م، ج ٤، ص٢٩٣؛ وكذلك جرجي زيدان لقبه بزين الدين عبد القادر بن البدري محمد. تاريخ آداب اللغة العربية، مـــصر ١٩٣٩م، ج٣، ص٣٢٢؛ كما نجد اختلافاً في الألقاب عند عبد الرحمن بن سليمان العثيمين فيـــذكر أن كلاهمـــا صواب إن شاء الله، فقد يكون لقبه هو زين الدين لكن لقب محي الدين من الألقاب الالية على كل من يسمى عبد القادر... وزين الدين في الألقاب الغالبة على كل من يسمى عبد الرحمن. فلم يحسن ابن العثيمين دلالة لقبه زين الدين مثلما حسم محي الدين، ابن حميد : السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة، تحقيق بكر بن عبد الله أبو زيـــد، عبد الرحمن العثيمين، مؤسسة الرسالة، سوريا ١٩٩٦،ج٢، ص٥٦٩، هامش رقم ٣٥٢؛ حمد الجاسر، مـــؤرخ مغمور، عبد القادر بن محمد الجزيري الحنبلي، مجلة العرب ج٥، ٦، ذو القعدة والحجـــة ١٤٠٦هـــ/ يوليـــو ١٩٨٦، ص٤١١.

[2] – لختلف المؤرخون في نسبته إلى الجزيرة، فقد نسبه ابن حميد إلى جزيرة الفيل من أعمال مـــصر، الـــسحب الوابلة، ج٢، ص٥٦٩، وهذا غير صحيح، والصحيح ما ذكره في ترجمة والده : أن منشأ الجدود مـــن أصـــول والده من الجزيرة بعراق العرب، بالقرب من بغداد، أما والدته التي هي جدتي فأصولها مـــن الأكـــراد، وجـــدها الأعلى من أعيان أمرائهم. الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، أعده النـــشر حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض ١٩٨٣، ١٨٧٨/٣، ١٨٧٩؛ أما تسميتها بالجزيرة لوقوعها بين نهري دجلـــة والفرات. ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت دار صادر (د. ت) ج٢، ص١٣٤، ٢٣١؛ حمد الجاسر، عرض كتب مجلة العرب ج٥، ٦ ذو القعدة، وذو القعدة والحجة ١٣٩٧هـــ- نوفمبر وديسمبر ١٩٧٧م، ص٢٣١.

الأربعاء سادس عشر شهر شعبان المحرم من السنة المذكورة "[٣] .الموافق شهر يونيه ١٥٠٥م .

١- شيوخه :

لم نستطيع أن نقدم إحصاء ً دقيقاً عن كل من أخذ منهم الجزيري، إذ ليس لدينا من المصادر التي رصدت ذلك إلا النص الذي أورده في كتابه " الدرر " حيث ذكر شيوخه الذين أخذ عنهم وتلقى منهم، واختتم الجزيري حديثه عن شيوخه بقوله : " وجماعة أخر يطول ذكر تعدادهم"[٤] ومن هؤلاء .

أ- الشيخ ابن النجار :

هو شهاب الدين أحمد بن عبد العزيز بن إبراهيم الحنبلي الفتوحي الشهير بابن النجار، ولد سنة ٨٦٢هـ /١٤٥٧م، ونشأ بالقاهرة فحفظ القرآن الكريم وكتباً كثيرة كالعمدة, والمقنع, وألفية النحو والشاطبية [٥]، ومشايخه تزيد على مائة وثلاثون شيخاً وشيخه [٦].

وانفرد الشيخ أحمد بن النجار بالإفتاء والتدريس بالأقطار المصرية، وبإيوان الحنابلة التي سكن بها، إلى جانب قيامه بالتدريس بالمدرسة الصالحية [٧]. وصاهر ابن بيبرم على ابنته[٨]، وانحدر به الحال [٩]، فاشتغل بمهنة الكتابة وتكسب بالشهادة [١٠]، ورغم ما كان

---

3 – الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص٧٨٩، رغم أن ابن حميد ذكر من قبل أن مولد والد الجزيري كان علم ٨٨٠هـ، السحب الوابلة، ج٣، ص٩٤٥،فكيف يولد في علم واحد الوالد والابن. ويحسم الجزيري هذا الخلاف فيقول : " سنة ثمانين وثمان مائة في غرتها مولد المرحوم الوالد محمد " الدرر الفرائد، ج١، ص ٧٥٤ عاتق البلادي، نشر الرياحين في تاريخ البلد الأمين، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ١٤١٥- ١٩٩٤، ج١، ص٣٧٥.

4 – الجزيري : الدرر الفرائد، ج١، ص٢٩٣.

5 – السخاوي، الضوء اللامع، القاهرة ١٩٣٤م، ج١، ص٣٤٩؛ الغزي، الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، بيروت ١٩٩٧، ج٢، ص١١٢.

6 – ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٤م، ج٨، ص٢٧٦.

7 – المدرسة الصالحية : بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب، فكان جزء من القصر الشرقي الذي كان من ممتلكات الفاطميين عام ٦٣٩هـ /١٢٤١م، ورتب فيها دروساً أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة، وفي عهد السلطان الظاهر بيبرس أوقف الصاغة وأماكن أخرى بالأقاليم لهذه المدرسة. المقريزي ،المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة ١٩٨٧، ج٢، ص ٣٧٤.

8 – السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٣٤٩.

9 – الجزيري، مصدر سابق، ١٨٥٣/٣؛ ابن حميد، السحب الوابلة، ج١، ص١٥٧.

يعانيه من التقشف إلا أنه استمر في تحصيل العلوم، فقرأ على والـده كتبـاً جليلـة عديـدة، وسمعت الجزيري أنا وإياه ... كتاب "الفروع" للعلامة ابن فلح، مع الملازمة لمنـزل والـده بحارة برجوان، بدروس المدارس، وغير ذلك من كتب الفقه والأصول، ولم يزل مكبـاً بعـد والده على تقرير مذهب الإمام أحمد (١١) إلى أن انتهت إليه الرئاسة في تحقيق أقوال مذهبـه، وفي علو السند في الفقه والحديث، وفي علم المعقولات، ولهذهالدرجة التي نالهـا صـاحب الترجمة يذكر الغزي : " أن صاحب الترجمة لم يل القضاء إلا بعد إكراه الغوري ـ السلطان ـ له المرة بعد الأخرى، ثم ترك القضاء في الدولة العثمانية، وأقبل على العبادة "(١٢) .

وكان صاحب الترجمة في أول عمره ينكر على الصوفية، ثم لما اجتمع بـسيدي علـي الخواص (١٣) وغيره أذعن لهم (١٤)، وتأسف على عدم اجتماعه بالقوم ـ المتصوفة ـ مـن أول عمره (١٥)، ثم فتح عليه في الطريق ـ الصوفية ـ وصار له كشف عظيم (١٦)، ووصل به الحال أن جاءه شخص يريد أن يقرأ عليه المنطق فقال : " يا ولدي قد صار الفقـه ثقـيلاً على قلبي، فكيف بعلم أفتى بعض العلماء بحرمة الاشتغال به، فقال الشخص له : يا مولانـا العلم عبادة، فقال : صحيح ولكن ما وجدنا به رقة القلب بخلاف الذكر مع فضل العلم علـى

---

10 – تكسب بالشهادة : أي يشهد على عقود البيع والشراء بالأسواق، ويتحصل الشاهد على أجر تلـك العمـل، ويقيم الشاهد في حانوت عاقدي الوثائق بالأسواق. السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص ٣٤٩.

11 – الجزيري، مصدر سابق، ج٣، ص١٨٥٣.

12 – العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص٢٧٧؛ الغزي، الكواكـب الـسائرة بأعيـان المائـة العاشـرة، ج٢ص١١٢– ١١٣.

13 – سيدي علي الخواص : كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ، وكان يتكلم في معاني القرآن الكريم والـسنة المـشرفة كلاماً نفيساً تحير فيه العلماء، وكان له طب يعالج به أهل الاستسقاء والجذام.. إلخ، وبـدأ حياتـه طوافـاً يبيـع الصابون والعجوة والجميز، ثم فتح دكان لبيع الزيت، ثم صار يضفر الخوص، وكان يكنس المـساجد، وينظـف البيوت. انظر عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، دار المعرفة بيروت ٢٠٠٥، ص٥١٥– ٥٤١.

14 – يرجع إقبال الشيخ أحمد الفتوحي على الصوفية وجود ضالته فيها خاصة عنـدما تعـرض للفقـر وعمـل بالشهادة، إلى جانب ما رآه من ظلم وجشع السلطان سليم الأول عندما أقدم على القبض على جماعة مـن أهـل مصر وأعيانها، والمهرة في البناء والصناعة، ويرسلهم إلى اسطنبول. ابن إياس، بـدائع الزهـور فـي وقـائع الدهور تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٥، ج٥، ص١٧٩، هذا ما جعل صاحب الترجمة يترك القضاء فـي الدولة العثمانية، وأقبل على العبادة والتصوف. الغزي، مصدر سابق، ج٢، ص١١٣.

15 – السيد أحمد الشبلي اليمني، السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر، تحقيق إبراهيم أحمد المقحفي، مكتبة الإرشاد، صنعاء اليمن ١٤٢٥هـ /٢٠٠٤م، ص٣٦١.

16 – ابن عماد الحنبلي، مصدر سابق، ج١، ص٢٧٧.

غيره مشروط بحصول الإخلاص فيه، وما أظن أن عندي إخلاصاً "[١٧]، فكيف لا يهرب صاحب الترجمة إلى الصوفية وهو يرى بملء عينه آخر كل شيء وترحيله إلى اسطنبول[١٨].

ورغم هذا التغير في حياة صاحب الترجمة إلا أن الجزيري يؤكد على أنه "لازمه إلى حين وفاته"[١٩] بمرض الزحير عام ٩٤٩هـ/١٥٤٢م.[٢٠]

ب- الشيخ الخطابي :

هو السيد شرف الدين الشريف موسى بن أحمد بن عبد الرحمن الحسني الأرجواني المالكي. بالبحث لم نجد من كتب عن هذا الشيخ الجليل سوى تلميذه الجزيري، لذلك سوف ننقل ما ذكره عنه حيث نسبه بالخطابي لإقرائه العلم في المدرسة الخطابية [٢١] التي يشد إليها الرحال في علوم عديدة، خصوصاً علم المعقودات، فإنه كان يقرئه سرداً من الرأس من غير مطالعة ولا كراس، أخذ عنه غالب فقهاء عصره مع العبادة والصلاح، وكان يختم القرآن في كل ليلة، وقد لازم الجزيري صاحب الترجمة مدة سنتين، وقرأ عليه كثيراً من النحو والصرف والمنطق والحديث وغيره، وهو أجل شيوخه في العوم العقلية .وصاحب الترجمة حج وجاور أثناء حكم دولة المماليك، وأقام برباط كاتب السر بن أجا[٢٢] .

وعن ذلك يقول الجزيري "وأخبرني صاحب الترجمة أنه اجتمع على جماعات من فحول علماء عصره بمكة، وكنت أقرأ عليه في ذلك الزمان يوماً في " شرح التوضيح " للشيخ خالد الوقاد الأزهري، ويوماً في كتاب " المغني لابن هشام "[٢٣]، وغير ذلك من كتب التصريف وخلافه ما يزيد على عشرين مؤلفا، وروي عنه " صحيح البخاري " قراءة لبعضه،

---

17 – الشبلي، السناء الباهر، ص٣٦١.

18 – ابن إياس، مصدر سابق، ج٥، ص١٧٨– ١٧٩.

19 – الجزيري، الدرر، مصدر سابق، ج١، ص٢٩٠.

20 – ابن عماد الحنبلي، مصدر سابق، ج٨، ص٢٧٧؛ الغزي، مصدر سابق، ج٢، ص١١٣؛ ابن حميد، مصدر سابق، ج١، ص١٥٦– ١٥٧.

21 – المدرسة الخطابية : نسبة إلى عثمان الخطاب صرح ببنائها السلطان قايتباي عندما تحدث مع عثمان الخطاب وأخبره أن الإيوان الذي يريد بنائه قايتباي ما هو إلا زاوية من قبل، فأصدر مرسوماً بهدم الإيوان وتمكين عثمان الخطاب من جعله زاوية، وأطلق عليه بعد ذلك جامع الشيخ خطاب، وكان يلقى فيه دروس العلم. عبد الوهاب الشعراني، مصدر سابق، ص٥٤٣؛ علي مبارك، الخطط التوفيقية , القاهرة ١٩٦٩، ج٣، ص١٨٩.

22 – ابن أجا : هو محب الدين أبو الثناء محمود بن محمد قاضي الحنفية بحلب. العز عبد العزيز بن نجم، بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق صلاح الدين بن خليل إبراهيم وزميلاه، دار القاهرة، القاهرة ٢٠٠٥، ج٢، ص٩٠٠، ٩٠٢.

23 – الجزيري، مصدر سابق، ج٣، ص١٨٢٣.

و"الشفاعة " للقاضي عياض وغير ذلك، وبالجملة فلازمته إلى حين وفاته [٢٤]، في يوم الأحد تاسع عشر شهر رجب سنة ٩٦٩هـ/ ١٥٣٢م "[٢٥] .

ج- الشيخ ابن الصائغ :

هو الشيخ أحمد بن إسماعيل بن صدقة بن داود بن محمد بن سليمان بن الشيخ إبراهيم الدميري الحنفي [٢٦] القاهري،ولد سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م [٢٧] ،وكان أحد علماء عصره، ودرس على يديه الجزيري فروى عليه " صحيح البخاري " قراءة لبعضه، وقرأ عليه " قانون شاه " في الطب وأجازه بجميع ما تجوز له عنه روايته [٢٨]، وقد حج عدة مرات منها سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م، وجاور وسكن بالمدرسة الزمامية [٢٩]، فأصابه الضرر بسبب ما قام به بنو إبراهيم [٣٠] وأعوانهم، وعندما رجع صاحب الترجمة للقاهرة عرض عليه عدة وظائف فلم يقبلها ،وكان يؤثر الخمول ويقول :" أحب شيء إلى أن ينساني الناس فلا يأتوني، وكان يدرس في تفسير البيضاوي وغيره [٣١] إلى أن توفى "[٣٢].

---

24 – الجزيري، مصدر سابق ج١، ص٢٩١.

25 – نفس المصدر، ج٣، ص١٨٢٥.

26 – نفس المصدر، ج١، ص٢٩١.

27 – نفس المصدر، ج١، ص١٧٢, ٢٩١؛ الشبلي، مصدر سابق، ص٢٩٦؛ ويقول السخاوي "ولد في سنة أربع وخمسين وثمانمائة " الضوء اللامع، ج١، ص٢٣٩.

28 – الجزيري، مصدر سابق، ج١، ص١٧٣، ٢٩١.

29 – المدرسة الزمامية : أنشئت هذه المدرسة عام ٨٣٥هـ/ ١٤٣١م، وتنسب إلى الطوشي خشقدم الزمام، وتطل هذه المدرسة على الرواق الشمالي من المسجد الحرام. ابن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى , تحقيق عبد الكريم علي، مكة المكرمة١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج٤، ص٦٤- ٦٥؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٢٣٩.

30 – بنو إبراهيم : بطن من بطون بني مالك من جهينة، كان لهم خطر كبير في القرن العاشر الميلادي. عاتق البلادي، معجم قبائل الحجاز، دار مكة المكرمة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١١، حيث قام بنو إبراهيم عام ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م بالثورة على أهل مكة وأثاروا الذعر وزعيمهم يحيى بن سبع، فضج المجاورين وأهل مكة، وقصدوا الهروب من مكة في أربعين مركباً من جدة، فمنعهم الجازاني ومن معه، وعندما علموا بمقدم الشريف بركات هرب الجازاني وقتل جماعة من بني إبراهيم، وعلم بعد ذلك بمقتل الجازاني بالحرم. الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص٧٨٦- ٧٨٧.

31 – الغزي، مصدر سابق، ج٢، ص١١٧.

32 – اختلف المؤرخون في سنة وفاة ابن الصائغ، فيذكر ابن عماد الحنبلي أن وفاته عام ٩٣٤هـ/١٥٢٧م، شذرات الذهب، ج٨، ص٢٠٠؛ ويذكر الشبلي، أن وفاة ابن الصائغ عام ٩٣٩هـ/ ١٥٣٢م، السناء الباهر، ص٢٩٥؛ أما الجزيري فلم يحدد سنة وفاته، الدرر، ج١، ص٢٩١.

د- الشيخ الدواخلي:

هو محمد بن عيسى بن أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد الشمس الدواخلي ثم القاهري المديني الشافعي، ولد عام ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م بالمحلة [٣٣]، حفظ القرآن الكريم، وأخذ العلوم على يد شيوخ جامع الغمري [٣٤]، وقدم القاهرة فدرس على يد ابن حجي، وأقرأ في بيت ابن البازري، وأخذ عن الشيخ الجوجري [٣٥]، وابن قاسم وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري [٣٦]، غيرهم من الشيوخ أبرزهم شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، وهو أنسبه من كثيرين عقلاً وفضلاً وتودداً وأدباً، حتى صار يقرأ عند البدر بن كاتب جكم ناظر الجيش [٣٧]، وكان يلقى دروسه في أحد الأماكن بجانب بيت ابن البازري[٣٨]، وكان من ضمن طلاب هذا البيت عبد القادر الجزيري، فقرأ عليه " صحيح البخاري " لحق روايته له سماعاً على الشاوي، بمقعد ابن البازري في ستة عشر مجلساً، وكتاب "المواهب" للقسطلاني لحق روايته عن المؤلف وأجازه عامة [٣٩]، واستمر يدرس للجزيري إلى أن توفى عام ٩٣٩هـ/١٥٣٢م، ودفن بتربة دجاية خارج باب النصر – أحد أبواب القاهرة – [٤٠].

هـ – الشيخ شهاب الدين الرملي:

ولد الشيخ أحمد شهاب الدين الرملي الأنصاري الشافعي عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣م [٤١] بإحدى قرى المنوفية [٤٢]، رحل للقاهرة وتتلمذ على شيوخ كثيرون منهم شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وجلال الدين السيوطي، والكمال بن أبي شريف وأخوه البرهان بن أبي

---

33 – المحلة : مدينة مشهورة بالديار المصرية، وهي عدة مواضع، منها محلة دقلا وهي أكبرها وأشهرها، وهي بين القاهرة ودمياط، ومحلة شرقيون وهي المحلة الكبرى، والتي بها جامع الغمري، فصاحب الترجمة ينسب إلى قرية الدوخل إحدى قرى المحلة الكبرى. انظر ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج٥ص٦٣؛ ابن عماد الحنبلي، مصدر سابق، ج٨، ص٢٣٥؛ السخاوي، مصدر سابق، ج٨، ص٢٨٩.

34 – الشبلي، مصدر سابق، ص٢٨٩.

35 – يذكر الشبلي أن صاحب الترجمة أخذ العلم على الشيخ الجوجري لمسجد الغمري بالمحلة، السناء الباهر، ص٢٥٩.

36 – السخاوي، مصدر سابق، ج٨، ص٢٧٥.

37 – نفس المصدر والجزء والصفحة .

38 – السخاوي، مصدر سابق، ج٨، ص٢٧٥.

39 – الجزيري، مصدر سابق، ج١، ص١٧٤، ٢٩٢.

40 – الشبلي، مصدر سابق، ص٢٩٠؛ الغزي، مصدر سابق، ج٢، ص٦٩.

41 – الجزيري، مصدر سابق، ج٣، ص١٨٣٧.

42 – قرية صغيرة قريبة من البحر بالقرب من منية العطار تجاه مسجد الخضر عليه السلام بالمنوفية. انظر الغزي، مصدر سابق، ج٢، ص١١٩.

شريف[٤٣]، وأذن له بالإفتاء والتدريس [٤٤]، فجلس عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م للإقراء والتدريس بالجامع الأزهر، فأجاد وأفاد وقصدته الطلبة من المشرق والمغرب بالفتاوى، فلم يكن بالجامع الأزهر غيره[٤٥].فكان له ذهن ثاقب وفهم صائب، وجمع بين العلم والدراية والرواية، وبلغ في الديانة إلى أقصى الغاية، وتخرج على يديه كثيرون[٤٦] ، منهم عبد القادر الجزيري [٤٧]، وفي عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م خرج مع المحمل المصري لقضاء الفريضة، فعلم به السيد الشريف أبو نمي بن بركات، فأراد منه أن يكتب له محضر بما جرى له مع أمير الحاج [٤٨]، فقال للشريف أبو نمي :" إنما قدمت إلى مكة المشرفة لأقضي فريضة الحج، ولا دخل لي في أمور المملكة، ولا ميل لي إلى ذلك ولا ملكة " .وامتنع من الكتابة عليه، ولم يعبأ بذلك السؤال، ولم يجنح إليه وعاد من الحج مكباً على الإفتاء والتدريس في علوم عديدة بأبحاث خارقة وفكرة قادحة، وتقارير سديدة، وفوائد جليلة مفيدة [٤٩]، إلى أن انقضت أيامه، فانتقل إلى جوار الرحمن، وصلى عليه يوم الجمعة في الجامع الأزهر، ودفن بتربة قريباً من جامع الميدان خارج باب القنطرة [٥٠].

---

43 – الشبلي، مصدر سابق، ص٤١٢.

44 – ابن عماد الحنبلي، مصدر سابق، ج٨، ص٣١٦.

45 – الجزيري، مصدر سابق، ج٢ص٤٤٥، ج٣، ص١٨٣٧.

46 – الشبلي، مصدر سابق، ص٤١٢.

47 – الجزيري، مصدر سابق، ج٣، ص١٨٣٦.

48 – كان أمير الحج علي باشا لا يثق بأحد ولا بولده، وقطع أمير الحج العوائد المقررة بديوان الحاج، فكان لا يتكلم مع أحد إلا بترجمان مع بخل شديد، وتضرر منه أبو نمي لكثرة الشكاوي التي وصلته من أمير الحاج علي باشا، مثل شكوى عربان الدرك وأهل الصرة، والمرتبات وكثرت الغوغاء عليه من العلماء والفقهاء والصلحاء بالحرمين الشريفين، لذلك طلب الشريف أبو نمي أن يكتب محضراً بما جرى، فرفض الشيخ الرملي. انظر الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص٩١٥.

49 – نفس المصدر، ١٨٣٨/٣.

50 – باب القنطرة : بناها جوهر الصقلي أثناء بنائه لسور القاهرة، ولما قدم القرمطي، فاحتاج جوهر الصقلي لمحاربته أن يحفر خندق فبني هذه القنطرة على خليج عند باب جنان أبي المسك كافور الأخشيدي لتوصل القنطرة بين القاهرة، وامكس وذلك عام ٣٦٢هـ/٩٧١م وبها تسمى باب القنطرة، وكانت مرتفع حيث تمر المراكب من تحتها، وفي وقت المماليك صارت قريبة من أرض الخليج ويصعب مرور المراكب من تحتها، فأغلقت بأبواب خوفاً من دخول المفسدين من عامة الشعب المصري إلى القاهرة. انظر المقريزي، الخطط، ج٢، ص ١٤٧.

و- الشيخ محمد البكري الشافعي :

هو أبو الحسن محمد بن محمد بن جلال الدين عبد الرحمن بن أحمد ...ابن الصديق الأكبر أبو بكر الصديق رضي الله عنه [٥١]، ولد عام ٨٩٩هـ/١٤٩٣م بمصر، ونشأ في ساحتها [٥٢]، أخذ الفقه والعلوم عن القاضي زكريا الشهير بشيخ الإسلام، والشيخ رضي الدين الغزي، والشيخ إبراهيم بن أبي شريف الشهير بالبرهان، وخدم الشيخ الصوفي سيدي عبد القادر الدشطوطي [٥٣] ،وغيره من علماء عصره .

وعن الشيخ محمد البكري يقول الجزيري : " وأتذكر رؤيتي له ماراً من محل سكنه بالجامع الأبيض [٥٤]، المطل على بركة القرع، سالكاً طريق الطلبة يمشون في ركابه عند ذهابه وإيابه "[٥٥] .

وكان الشيخ محمد البكري يحج عاماً، ويقيم بالقاهرة لإحياء مجالس العلم والتصوف عاماً [٥٦]. لذلك لازمه عبد القادر الجزيري مدة مديدة، أثناء إقامته وأسفاره المكية[٥٧] ،ولم يزل علي ذلك إلي أن توفي في شهر ربيع الأول عام ٩٥٢هـ/١٥٤٥م ودفن بالقرافة [٥٨] ، مجاوراً الإمام الشافعي [٥٩] .

51- للمزيد حول الاسم. انظر الجزيري، مصدر سابق، ج١، ص٢٩٢-٢٩٣؛ الشبلي، مصدر سابق، ص٣٧٤، ٣٧٥.

52 - الشبلي، مصدر سابق، ص٣٧٥؛ الجزيري، مصدر سابق، ج٣، ص١٨٢٨.

53 - ابن عماد الحنبلي، مصدر سابق ن ج١ص٢٩٢؛ الشبلي، مصدر سابق، ص٣٧٥؛ الغزي، مصدر سابق، ج٢، ص١٩٤.

54 - الجامع الأبيض : هو جامع البكرية، وكان يشرف على بركة الرطلي حتى نهايتها الشرقية. انظر علي مبارك، الخطط، ج٣، ص٢٤، ٢٦٤.

55 - للمزيد حول رؤيته الجزيري لمحمد البكري. انظر الدرر الفرائد، ج٣، ص١٨٣٠.

56 - الجزيري، مصدر سابق، ج٣، ص١٨٣١.

57 نفس المصدر، ج١، ص٢٩٣.

58 القرافة : هو المكان الذي يقبر فيه الناس موتاهم ما بين مسجد الفتح وسفح المقطم، وهذا المكان يعرف بالقرافة الكبرى، وبها دفن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب ابنه عام ٦٠٨هـ/١٢١١م بجوار قبر الإمام الشافعي، وبني القبة على قبر الشافعي وأجرى لها الماء من بركة الجيش بقناطر متصلة، نقل الناس الأبنية من القرافة الكبرى إلى ما حول قبر الإمام الشافعي، وأنشئوا هناك الترب فعرفت بالقرافة الصغرى، وأخذت عمائرها في الزيادة. انظر المقريزي، الخطط ج٢، ص٤٤٤.

59 - الجزيري، الدرر، مصدر سابق، ج٣، ص١٨٣٢؛ ابن عماد الحنبلي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٩٣؛ الغزي، مصدر سابق، ج٢، ص١٩٧.

ن- أبو العباس الحريثي :

نشأ على العبادة والاشتغال بالعلم وقراءة القرآن بالسبع [٦٠]، ثم خدم الشيخ محمد بن عنان وزوجه ابنته وقربه إليه أكثر من بقية أصحابه، ثم أخذ بعض الطريق عن سيدي الشيخ علي المرصفي، وأذن له أن يتصدر بعده لطريق الله تعالى، وبأن يلقن كلمة التوحيد ،وأذن له أن يلقن الذكر ويربي المريدين، فلقن في مصر وقراها نحو عشرة آلاف نفس [٦١]، منهم عبد القادر محمد الجزيري فيقول عنه : " لقنني الذكر وألبسني الخرقة [٦٢] ،وتسلكت في خدمته في تلك الطريقة ،في سن الحداثة وباكورة الشباب وريعانه العذب المستطاب، وانتفعت به وببركته ولزمته في غالب إقامته بالقاهرة "[٦٣]، ولهذا كان للشيخ الجزيري ووالده علاقة حميمة حتى قال عنه : " ولنا به مجاورة وصحبة رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته في الدنيا والآخرة "[٦٤]، وتوفى الشيخ الحريثي بثغر دمياط في سنة خمس وأربعين وتسعمائة وقبره بها ظاهر بزاوية شمس الدين الديروطي الواعظ [٦٥] .

ثانياً:علاقة الجزيري بأشراف الحجاز وعلمائه :

ظلت العلاقات الثقافية بين مصر والحجاز على امتداد الفترة موضع الدراسة تشكل ركناً أساسياً من أركان العلاقات بين البلدين، وقد نبعت هذه الأهمية لعدة أسباب منها :

أ- المكانة المتميزة التي حظيت بها القاهرة ومكة والمدينة المنورة باعتبارها أهم المراكز الثقافية في المشرق العربي خلال العصر العثماني، وقبله منذ التدهور الذي تعرضت له بغداد في أعقاب الغزو المغولي في منتصف القرن السابع الهجري، ودمشق بالغزو الصليبي، وأواخر القرن الخامس الهجري، وتتأكد مكانة مكة والمدينة بخاصة فيما يتصل بالعلاقات الثقافية المصرية الحجازية [٦٦]، أنه قلما يعثر الباحث على واحد من عشرات العلماء وطلاب العلم المصريين الذين رحلوا من أجل الحج إلى الحرمين دون أن يلقى ويتلقى الدرس بهما [٦٧]، أو يرتبط بصلة ببعض علماء الحرمين .

---

60 - الشعراني، الطبقات الكبرى، ص٥٤٣؛ الشبلي، مصدر سابق، ص٣٣٥.

61 - الشعراني، مصدر سابق، ص٥٤٤؛ الشبلي، مصدر سابق، ص٣٣٥.

62 - الخرقة : لباس خشن يرتديه المتصوفة.

63 - الجزيري، مصدر سابق، ج١، ص٢٩٤.

64 - نفس المصدر، ج١، ص٢٩٤.

65 - الشعراني، مصدر سابق، ص٥٤٤؛ الشبلي، مصدر سابق، ص٣٣٦.

66 - علي بركات، رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٨، القاهرة ١٩٨٧م، ص٢٣- ٢٤.

67 - الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، ج١، ص٣٦٥.

ب- رسوخ الأزهر والحرمين كمؤسستين علميتين من أهم المؤسسات الفكرية المتواجدة في المشرق، بل أهمها على الإطلاق في هذا العصر، بخاصة في ظل نظام الأوقاف الذي اتبعه العثمانيون، والذي تم في إطاره وقف مساحات شاسعة من الأراضي والعقارات على الأزهر والحرمين الشريفين [٦٨]، وكان القسم الأكبر من هذه الأراضي يوقف لأغراض التعليم، وقد تمتع الأزهر والحرمين بجانب هام من ريع تلك الأوقاف مما وفر لهما مورداً مالياً لا يتوقف [٦٩]، وجعل الطلبة من كل مكان يتفرغون للعلم فزادت شهرتهم، وكان ذلك دافعاً قوياً في ربط العلاقات بين علماء البلدين .

ج- أما الرافد الأخير في ربط علاقة الجزيري بأهل الحجاز يتمثل في خروج قافلة الحاج المصري إلى الحجاز في كل عام، حيث ساهم الحج بقوة في تعميق الصلة الثقافية بين الجزيري وأشراف الحجاز وعلمائه. ويتضح ذلك من خلال صلة الجزيري بكثير من الأشراف والعلماء مثل:

---

68 - للمزيد حول هذه الأوقاف. انظر مصطفى محمد رمضان، وثائق مخصصات الحرمين الشريفين في مصر إبان العصر العثماني، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، جامعة الملك سعود، الرياض ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م، ص٢٥٩- ٢٧٤؛ عبد اللطيف إبراهيم، وثيقة وقف مسرور بن عبد الله الشبلي الجمدار، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد الحادي والعشرون، ج٢، ديسمبر ١٩٥٩، طبع في القاهرة ١٩٦٤، ص١٥٠؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية ١٩٧٦، ص٢٣٠.

69 - كانت أوقاف الدشيشة الكبرى التي أوقفها السلطان قايتباي، وأوقاف السلطان مراد العثماني وتسمى الدشيشة المرادية وخلافها، من أضخم الأوقاف الإسلامية على الحرمين الشريفين، حيث كانت كميات هائلة من القمح ترسل سنوياً إلى الحجاز لعمل الدشيشة التي توزع على طلاب العلم وسكان الزوايا والمساجد والمدارس في مكة والمدينة، وعلى غيرهم من الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام والغرباء على أن تطبخ الدشيشة بزيت طيب أو دهن. انظر البكري، النزهة الذهبية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، مخطوط ورقة رقم ١٨؛ مصطفى محمد رمضان، وثائق مخصصات الحرمين الشريفين، ص٢٧١؛ أحمد السباعي، تاريخ مكة، دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، مطبوعات نادي مكة المكرمة الثقافي الأدبي، السعودية ١٤٠٤هـ /١٩٨٤، ص٤٦١.

أ- الشريف حسن [٧٠] بن أبي نمي محمد بن بركات بن محمد :

كان للشريف حسن علاقات ود مع الكثير من العلماء والشعراء فألفوا لـه التـصانيف اللطيفة [٧١]، فكان عبد القادر بن محمد الجزيري ضمن مخاليطه أثناء وجوده ضـمن ركـب الحج المصري بمكة عام ٩٦٩هـ/١٥٦١م، حيث كـان الشريف حسن ولياً للعهـد فيقـول الجزيري " فأخبرني السيد الشريف حسن أمير مكة شفاهاً "[٧٢] .يتـضح مـن ذلـك وجـود الجزيري ضمن مجلس السيد الشريف حسن، ومشاركته لما يدور داخل المجلس من حوارات حول مشاكل مكة وما تعانيه من قلة مصادر المياه، فاخبر الشريف حسن " أن العمل في حـد زبيدة "[٧٣] الذي وقف عنده عملهم غير ممكن، لأنه لو أمكن ذلك لأكملت ذلك العمل زبيـدة لشدة رغبتها في إسداء الخيرات إلى أهل الحرمين في زمنها، والمانع لها عن ذلك أن هنـاك صخر شديد وصعود وهبوط، فإن أخذوا العمل في طريق أخر غير هذا الحد ربما يـنجح ـ ويستمر الكلام للشريف حسن ـ ويقال أن زبيدة ... لما عرض عليها أمر عين عرفة، وأنها وصلت إلى هذا الحد قالت نتمه على كل حال، ولم تذكر مشيئة الله تعـالى، فوقـف العمـل

---

70 – ولد لسبع في شهر ربيع الأول عام ٩٣٢هـ / كانون الثاني ١٥٢٦م، نشأ في كفالة والده مـسعيداً رئيـساً، وكان الشريف حسن لا يقل كفاءة عن أبيه إلا أنه كان أكثر تسامحاً وأوسع عدلاً، واستعان به والـده فـي إدارة البلاد، حيث استصدرا أمراً من السلطان العثماني علم ٩٤٧هـ /١٥٤٠م بالموافقة عليه، فكان الخطيـب علـى المنبر يدعو للعثمانيين، ثم يدعو لأبي نمي وابنه حسن. انظر إسماعيل حقي جرشلي، أشـراف مكـة المكرمـة وأمراؤها في العهد العثماني، ترجمه عن التركية خليل علي مراد، الدار العربية للموسوعات، بيـروت ٢٠٠٣م، ص١٣٩؛ المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر بيروت، ج٢ص٢؛ أحمد الـسباعي، مرجع سابق، ص٣٤٧.

71 – المحبي، مرجع سابق، ج٢، ص٧.

72 – الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص١٠٦٣.

73 – حد زبيدة : أي عند عين زبيدة، وتنسب إلى السيدة زبيدة أم جعفر أبـي الفـضل ابـن أميـر المـؤمنين المنصور، وزوجة هارون الرشيد، لما شعرت بحاجة أهل مكة إلى المياه خصوصاً في الموسم بعرفة اشـترت أرض حنين، وكان فيها نخيل وزرع فألغته وأمرت المهندسين بعمل قنوات يصب الماء فيها إلى أطراف مكة، ثم اشترت أرضاً أخرى في وادي نعمان فوق عرفات، وبنيت قنواته ليصب في عرفة ثم إلى المزدلفة ثـم تـسير القناة حتى منى وتصب في بئر عظيمة مطوية من عمل زبيدة، ثم أصلحت البرك الموجودة فـي مكـة، وبنيـت بركة غيرها ليصب فيها الماء ويستقي الناس، وقدرت نفقات ذلك بنحو ألف وسبعمائة ألف مثقال من الذهب وهو يعادل مليون وسبعمائة ألف دينار ذهبي. انظر العز عبد العزيز بن النجم بن فهد المكي، بلوغ القرى فـي ذيـل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق صلاح الدين بن خليل إبراهيم وآخرون، دار القاهرة، القـاهرة ٢٠٠٥م، ج١، ص٣٤٩، هامش ٤؛ أحمد السباعي، مرجع سابق، ص١٥٦.

وتعطل من ذلك اليوم بهذا السبب "[٧٤]. ما يدل على ذلك مدى دراية الشريف حسن ببواطن الأمور ودرايته بالأحداث التاريخية .

لذلك نجده يخبر الجزيري بهذه الأحداث وسبب توقف العمل في هذه العين إلى جانب ذلك مدى علاقة الجزيري بأشراف الحجاز ومجالس علمهم التي كان يحضرها عندما يقدم إلى مكة في موسم الحج .

ب ـ الشريف دراج بن هجار:

كان الشريف دراج بن هجار من خيار أمراء ينبع [٧٥]، وكان مشهور بأعمال الخير من حفر للآبار وتنظيفها حتى أصبح مثلاً يحتذي به، تولى دراج بن هجار إمارة ينبع نحو عام ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م واستمر في ولايته ٣٩عاماً، وكانت ولايته عامرة بأعمال الخير، وكانت ينبع تتبع إمارة مكة حينئذ، وهي موضع اهتمام الشيخ الجزيري، لكونها محطة مهمة من محطات طريق الحج المصري، وأميرها الشريف دراج من الشخصيات المهمة التي لها دور في ذلك الطريق، لذلك لا يستغرب وجود علاقة بين الشريف دراج والشيخ الجزيري انصبت حول أهمية تنظيف آبار المياه وإصلاحها والاطمئنان منه على سلامة للطريق وتوفر المياه، كما هو الحال في علاقة الجزيري بالشخصيات المهمة في طريق الحاج المصري [٧٦] .

ج – القاضي حسين بن الشريف زين العابدين المالكي المكي :

ولد بمكة المشرفة، ونشأ بها فحفظ القرآن الكريم، وصحب الأولياء العارفين، وأخذ عن العلماء العاملين، وزاد في العلوم على كل طالب أريب، وولي الوظائف الدينية كالتدريس في المدرسة السلمانية [٧٧]، فأفاد وأجاد وانتفع به سائر العباد، وحضر درسه

---

74 الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص١٠٦٣- ١٠٦٤.

75 – ينبع : على لفظ الفعل المضارع نبع ينبع إذا بزغ الماء، وأخذت اسمها من كثرة ينابيعها ،وهو وادي محل كثير الغرس والعيون والمكان يقع غرب المدينة المنورة أعلاه وادي بواط الغوري ثم ينحدر غرب حتى يدفع في البحر الأحمر قرب مدينة ينبع البحر، وفي كتب المتقدمين يراد به الوادي لا المدينة، وسكانه اليوم حرب وجهينة. واليوم ينبع مدينة متقدمة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر تقع شمال جدة، هواءها رطب صيفاً دافئ شتاء. وبها إمارة تابعة لإمارة المدينة المنورة، وأسست هذه المدينة في القرن الرابع الهجري بعد خراب حوارء. انظر ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج٥، ص٤٤٩؛ البلادي، معجم معالم الحجاز، مكة ، دار مكة للنشر ١٩٧٨م، ج١٠، ص٣٦- ٤٠.

76 – الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص١٤٠٨.

77 – المدرسة السلمانية : هي عبارة عدة أربطة : رباط الحافظ ابن منده، استمر هذا الرباط إلى العصر العثماني، فقد أمر السلطان سليمان بن سليم باستبداله ليقيم في محله المدارس السلمانية الأربع لتدريس المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة، ثم رباط أم الخليفة استبدل هذا الرباط لصالح إقامة المدارس السلمانية الأربع، ثم رباط

جميع الأعيان وشاع اسمه في جميع البلدان، وكانت كلمته مسموعة ومقبولة عند الأشراف ملوك البلد الحرام، وعند السلاطين الأرام- الروم - [٧٨]، لذلك كانت بينه وبين الجزيري مكتبات [٧٩]، عُين الشريف القاضي حسين قاضي قضاة المالكية بالمدينة المنورة ثم صار شيخ الإسلام وولي نظرة المسجد الحرام، وخطابة الموقف بعرفة. أما عن علاقته بالشيخ الجزيري، فنجد مكاتبات بينهما لمعرفة أخبار البلاد والاطمئنان على ما يجري من حفر عيون جديدة لسقيا الحجيج، ففي ذلك يقول الجزيري : " وأما عين عرفة وأخبار المعمارية بها، فورد علي مكتوب من صاحبنا الشريف حسين بن الشريف زين العابدين المالكي المكي، وتاريخه مستهل ربيع الأول، يذكر أن إبراهيم المعمار [٨٠] في همة زائدة "[٨١] .

كما أرسل القاضي حسين المالكي رسالة للجزيري يؤكد على اهتمام أهل مكة بهذه العيون، وبناء القناطر، ففي ذلك يقول الجزيري : " شرع إبراهيم المعمار في بناء مصانع، وتكسير لبناء قناطر من غير عمل زبيدة إلى بطحاء قريش [٨٢]، ... وشرع في تنظيف العيون ... ثم إلى عين حنين التي عين مكة المعهودة "[٨٣] .

وهذه المكاتبات لتدل على مدى محاولة الشيخ الجزيري الاطمئنان على ما يجري داخل الأراضي الحجازية من حفر آبار للاطمئنان على شرب قافلة الحجاج المصريين. ويواصل

السلطان أحمد شاه (مجمع البرقية) أوقف هذا الرباط السلطان أحمد شاه حوالي عام ٨٣٠هـ/١٤٢٤م واستمر هذا الرباط قائماً إلى العصر العثماني عام ٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م حيث استبدل لصالح المدارس السليمانية الأربع. انظر حسن عبد العزيز شافعي، الأربطة بمكة المكرمة في العهد العثماني، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة والمدينة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ٢٦، ٢٧، ٣١، ٣٢.

السلطان سليمان بن سليم الأول ٩٢٧- ٩٧٤هـ/ ١٥٢٠- ١٥٦٦م تولى حكم الإمبراطورية العثمانية بعد وفاة والده السلطان سليم الأول فاتح مصر وبلاد المشرق.انظر النهروالي، كتاب الأعلام بإعلام بيت الله الحرام، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٢٩٧.

78 – الشلبي، السناء الباهر، ص ٥٧٧- ٥٧٨.

79 – الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص١٠٦٥.

80 – إبراهيم بك (باش) العماتر متولي حفر الآبار الحجازية من قبل شريف مكة وتوفي إبراهيم بك عام ٩٧٤هـ. انظر الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص١٠٦٥.

81 – الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص١٠٩٦.

82 – البطحاء : أصله المسيل الواسع فيه دقاق الحصى. انظر ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج١٠ص٤٤٦.

83 – الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص١٠٩٧.

السيد الشريف حسين بن زين العابدين المكي المالكي مراسلة الشيخ الجزيري ليطلعه على أخبار الحجاز فيقول له : " أنه لم يتجدد بأرض الحجاز سوى الستر والسلامة "[٨٤]

د- قطب الدين النهروالي :

هو قطب الدين محمد بن أحمد علاء الدين بن محمد بن محمد قاضي خان بن بهاء الدين بن يعقوب بن حسن بن حسن بن علي النهروالي [٨٥]، المكي الشهير بالقطبي، ولد عام ٩١٧هـ في مدينة لاهور[٨٦] ولا يعرف متى انتقل إلى الحجاز، ولكن يُعلم مما ذكره حمد الجاسر أن أسرته بقيت هناك، وهاجر بعض أفرادها في فترات متقطعة [٨٧]، وقد أسس ملوك الكجرات مدرسة ورباط [٨٨]، وكان لهذا العالم صلة بعلماء عصره في مكة وفي غيرها من البلدان ، ثم في عام ٩٤٣هـ /١٥٣٦م سافر لمصر وعمره ٢٦سنة لطلب العلم، فتلقى العلم هناك عن كبار العلماء.

أما عن علاقة قطب الدين النهروالي بالمؤرخ الجزيري، فنجدها متعددة حيث يقول الجزيري : " وكتبت بهذه الواقعة إلى الشيخ العلامة العمدة قطب الدين الملة والدين النهروالي مفتي السادة الحنفية وأذكره هذه الواقعة [٨٩]، وكان في تلك السنة ٩٥٤هـ توجه إلى القاهرة"[٩٠]، ولعلاقة الجزيري بقطب الدين الحنفي النهروالي أرسله إلى شريف مكة لتسكين الفتنة التي وقعت عام ٩٦٥هـ، واستجاب قطب الدين النهروالي على وعد من الجزيري برد هذا الجميل من سلطان مصر [٩١]، واستمرت العلاقة والمراسلات بينهما، ففي عام ٩٦٩هـ/

---

84 - الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص١٠٩٧.

85 - نهروالة : مدينة ضمن إقليم كجمرات من جهة الغرب مما يلي إقليم السند، وتقع نهروالة في ولاية برودة، وتسمى الآن بتن. انظر النهروالي : البرق اليماني في أخبار القطر اليماني، ص ١١-١٢.

86 - لاهور : مدينة عظيمة مشهورة في بلاد الهند. انظر ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج٥، ص٢٦، ٢٧. وشهدت هذه المدينة ولادة قطب الدين النهروالي. انظر النهروالي، البرق اليماني، ص١٦.

87 - نفس المصدر، ص١٦.

88 - عرفت بالمدرسة الكنباتية نسبة إلى قاعدة ولاية كجرات، وقرر لهذه المدرسة والرباط نفقة يبعثها كل عام مع صدقة لأهل الحرمين الشريفين، وكانت المدرسة والرباط بجوار الحرم، وقد أزيلت عام ٩٧٢هـ حيث بني موضعها المدرسة السليمانية. انظر النهروالي، البرق اليماني، ص ١٢- ١٣؛ حسين عبد العزيز شافعي، الأربطة بمكة المكرمة، ص ٣١.

89 - حول هذه الواقعة وهي صعود دخان صاعد من جانب باب الكعبة الشريفة. انظر الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص٨٩١، مصدر سابق.

90 - الجزيري، نفس المصدر والجزء والصفحة.

91 - نفس المصدر والجزء، ص ٩٠٨.

١٥٦١م يرسل قطب الدين الحنفي النهروالي رسالة ليخبر فيها الجزيري عما يجري في مكة والأوضاع الاقتصادية ليستفهم عن أحوال عيون مكة لأجل الأمان وتوفير المياه للحجاج، لذلك نجد قطب الدين الحنفي يؤكد له ويطمئنه بقوله : " وأما عين عرفة فأصلح إبراهيم المعمار ديولها[٩٢]، ووادي النعمان [٩٣] إلى أن وصلت إلى بئر زبيدة، وهي خلف مني، ومسافتها نحو الأربعين ألف ذراع بالعمل، جدد جميعه ورمم وبني ما كان يحتاج إلى البناء ... فلما أنهى الترميم إلى بئر زبيدة عمل الأمير إبراهيم سماطاً عظيماً ... وانشرح الناس وصدقوا بوصول الماء، وكان يوماً عظيماً مشهوداً، وذلك يوم الخميس ثامن عشر من شعبان "[٩٤] .

ومما سبق يتضح مدى اهتمام الجزيري بأعين المياه بمكة وما تبعه وما يجري لها، وما وصل إليه الحفر .

هـ- محب الدين بن علاء الدين النهروالي[٩٥]:

أما عن علاقة الجزيري بالشيخ محب الدين فكانت علاقة قوية فكان يزوره بمنزله الكائن بمكة، ففي ذلك يقول الجزيري: " كان مرجعاً كبيراً يعتمد على قوله ورأيه وفعله في تلك الأقطار الشريفة، ولنا به صحبة كبيرة واجتماعات بمنزله في ليالي غزيرة قل أن ترى العيون مثله "[٩٦] .

---

92 – الديول : أي القنوات أو الجداول. انظر إبراهيم أنيس، المعجم الوسيط القاهرة ١٩٧٢ ,٢٩٤.

93 – وادي نعمان : ينحدر من جبل شداد ومن كراء في طريق الطائف وما حول ذلك من الجبال، وأوصلت السيدة زبيدة ماء عين وادي النعمان إلى البئر المسمى باسمها. انظر الحربي، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج، ص٥٠٩، هامش رقم ٤؛ العز بن عبد العزيز بن النجم، بلوغ القرى، ج١، ص٣٩٢، هامش رقم ٧.

94 – الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص ١١٠٠– ١١٠١.

95 – هو محب الدين أبو محمد بن الشيخ علاء الدين أحمد بن محمد قاضي خان بهاء الدين يعقوب بن إسماعيل بن علي بن قاسم بن الفقيه محمد بن إبراهيم بن إسماعيل النهروالي ثم المكي الحنفي. ولد في شهر رجب سنة ٩٢٩هـ/١٥٢٢م، ونشأ في حجر والده، وكان شديد المحبة له، حفظ القرآن الكريم، ولما توفي والده عام ٩٤٩هـ/١٥٤٢م نشأ في كفالة أخوه قطب الدين الحنفي فاشتغل عليه وعلى الشيخ جار الله بن فهد وغيره، ثم رحل إلى مصر فأخذ عن الشيخ شهاب الدين الرملي أستاذ الجزيري، ومن المحتمل أن يكون تعرف عليه أثناء جلسات الشيخ شهاب الرملي، كما أخذ عن الشيخ ناصر الدين اللقاني، والشيخ شهاب الدين أحمد بن الشبلي، والشيخ بشر الحنفي، وطائفة أخرى من العلماء، ثم رحل إلى الشام، وأخذ علمائها، ثم رحل إلى بلاد الروم وحلب والهند واليمن. انظر الشبلي، مصدر سابق، ص ٥٣٤؛ ابن عماد الحنبلي، مصدر سابق، ج٨، ص ٤٢٠؛ العيدروسي، مصدر سابق، ص ٢٧٥– ٢٧٦.

96 – الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص ٩١٧.

وكان الحوار الدائر بينهما في هذه الاجتماعات حول وضع البلاد اقتصادياً ومعرفة ما يجري بها من حفر عيون جديدة أو إعادة حفر العيون القديمة للاطمئنان على سقي الحجاج، وإن طال البعد بينهما تصير مكاتبات بينهما، لذلك يقول الجزيري : " هذا ما نقل إلينا من أخبار مكة واليمن وأخبار عين عرفة "[97]. ولم يكن محب الدين هو الصديق الوحيد بل نجد أصدقاء آخرون .

و ـ جار الله محمد بن عبد العزيز آل فهد[98]:

أما عن علاقة جار الله بالجزيري فنجدها علاقة علم، يقول الجزيري : " قال صاحبنا المرحوم الشيخ جار الله بن فهد في ذيله على ذيل " إتحاف الورى بأخبار أم القرى "[99] من خلال ذلك نجد أن العلاقة كانت علاقة نقل من مؤلفات جار الله إلى جانب مقولة الجزيري : " صاحبنا المرحوم " وهذه المقولة عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م أي قبل أن يتولى الجزيري مسؤولية ديوان المحمل، كما نفهم أن العلاقة علاقة مصاحبة، من المحتمل أن تكون بالقاهرة أثناء زيارة جار الله للقاهرة للأخذ عن علمائها، أو أثناء مصاحبة الجزيري للمحمل، لأن ما ذكره الجزيري عبارة عن نقل من مؤلفاته وليست على طريق الأخبار، كما تعودنا عن الجزيري من قبل .

97 – نفس المصدر، ج٢، ص١١٠٢.

98 – هو جار الله محمد تقي الدين عبد العزيز بن النجم عمر بن تقي الدين محمد بن فهد المكي الهاشمي الشافعي، ولد بمكة يوم ٢٠رجب ٨٩١هـ /٢٧يوليو ١٤٨٦م ن أمه من عائلة بني فهد واسمها كمالية بنت أعجب أبي بكر أحمد بن محمد بن فهد الهاشمية المكية، اهتم به والده من عهد طفولته فوجهه نحو العلم والدرس حتى إنه كان يصطحبه لحلقات العلم بالحرم المكي والطفل لم يتجاوز الرابعة من عمره، فحفظ القرآن الكريم وكتب منها الأربعين النواوية والمنهاج الفقهي، وسمع من الشيخ شمس الدين السخاوي وغيره، وتوجه بعد ذلك إلى الرحلات العلمية خارج الحجاز فكانت رحلته إلى القاهرة عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م لطلب الحديث، ثم تعددت بعد ذلك رحلاته على القاهرة. انظر، السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٥٢؛ ابن عماد الحنبلي، مصدر سابق، ج٨ص٣٠١؛ محمد بن عمر الفقيه، تاريخ الشحر، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء ١٩٩٩، ص ٣٢٧؛ جار الله بن العز بن فهد، نيل المنى، ج١، ص٧.

99 – الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص٨٠٤.

ز- آصف خان[100] :

قدم مكة ومكث بها أكثر من عشر سنين مشتغلاً بالعبادات وأنواع الطاعات، وكان محباً لأهل العلم [101]، لذلك جعل بيته مكاناً للقاءات العلماء ومنهم الشيخ الجزيري. ففي ذلك يقول: " وكان صاحبنا ــ آصف خان ــ ولنا به اجتماعات لما كان مقيم بمكة وهو من أهل العلم، حنفي المذهب "[102]. ومن الواضح أن زيارة الجزيري لهذا الوزير استمرت كلما قدم مع المحمل المصري إلى أن انقطعت بعودة آصف خان إلى الكجرات عام ٩٥٥هـ/١٥٤٨م حتى قتل مع خدم السلطان محمود عام ٩٦١هـ/١٥٥٣م، ولما بلغ أهل مكة خبر وفاته حزنوا حزناً شديداً عليه [103] .

كما ارتبط الشيخ الجزيري بمجموعة من علماء الحجاز الأجلاء منهم الشيخ تاج الدين بن يعقوب المالكي عنه يقول : " اجتماعي به زمن الموسم ــ موسم الحج ــ بدار السويقة [104] بمكة وكان لي به اجتماعات خاصة في كل سنة وقد قمت بمصاحبته وصداقته ومسامرته إلى أن توفي عام ٩٦٧هـ/١٥٥٥م "[105] .

كما ارتبط الشيخ الجزيري بالشيخ عبد الله بن ظهيرة الحنبلي الذي صاحبه الشيخ الجزيري بمقتل آصف خان [106]، كما ارتبط الجزيري بعدة علماء أجلاء كان منهم قاضي

---

100 - هو عبد العزيز أبو القاسم الشهير بآصف خان بن محمد بن حميد الملك بن ركن الدين بن جلال الدين، ذكر أن أصله من ملوك السند، وأنه قرشي من بني مخزوم، ولد سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٢م، أخذ عن القاضي برهان الدين الأحمد أبادي والسيد أبي الفضل الكازورني، وقدم عبد العزيز آصف خان إلى كجرات زمن السلطان محمود، واستمر إلى أن أعطي الوزارة، وأطلق عليه آصف خان في زمن السلطان بهادر الذي خشي على حريمه ونفائس خزائنه من المغول، فبحث بها مع وزيره آصف خان الكجراتي، وكان رجلاً صالحاً جواداً عالي الهمة. انظر الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص١٤٠٨.

101 - العيدروسي، النور السافر(د – ت)، ص ٢٤٣، ٣٤٥؛ الشبلي، السناء الباهر، ص٤٣١؛ النهروالي، البرق اليماني، ص ١٤.

102 - الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص٩٣١.

103 - نفس المصدر والجزء والصفحة؛ النهروالي، مصدر سابق، ص١٤؛ العيدروسي، مصدر سابق، ص٢٥٢.

104 - السويقة : كانت بمحلة الشامية بين المروة وقاعة الشفاء، وكلها دكاكين للكساء وغيره، وهي من أكبر أسواق مكة، وكانت ذات مظلات للاتقاء حر الشمس وماء المطر، واليوم انتقلت إلى شرق المروة بنفس الاسم. انظر العز بن عبد العزيز بن النجم بن فهد، بلوغ القرى، ج١، ص١٠١٠، هامش رقم ١.

105 - الجزيري، عمدة الصفوة في حل القهوة، مخطوط مصور من مكتبة البلدية بالإسكندرية تحت رقم (ت ١١٢٨ب) ورقم رقم (١).

106 - الجزيري، مصدر سابق، ج٢، ص ٩٣١.

ينبع، ففي ذلك يقول : " وقاضيها الآن صاحبنا الشيخ برهان الدين إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عبد الوهاب بن شمس الدين محمد بن أحمد بن زبالة الشافعي، وليس بالقرية فيما يظهر لي شافعي من أهل السنة والجماعة غيره وذويه "[١٠٧]، كما ذكر الجزيري صاحب آخر وهو الشيخ الإمام عبد الباسط بن أبي أيوب الشافعي [١٠٨]، كما ارتبط الجزيري بشاعر مكة الشيخ أبو بكر اليتيم وعنه يقول : " كان لطيف الذات، رقيق الطبع، حسن المعاشرة، ولنا به صحبة وأنس، ومرافقة في بعض الأسفار المكية " [١٠٩]. كما كان للجزيري صلة قوية بالعلامة نجم الدين ابن الشيخ علم الدين العباسي الشافعي، شاهد الحرم الشريف المكي وعهدته في معرفة أرباب الصرر المكية[١١٠]

،على اختلاف جهاتها الواردة منها وتقسيم الصدقات [١١١]، كما كان للجزيري صلة بوالد الشيخ علم الدين العباسي عندما كان أحد موقعي الدست بالديوان السلطاني في الدولة الغورية (المماليك الجراكسة) وعنه يقول الجزيري : " ولنا به صحبة وأنس" [١١٢] .

ومن خلال رصدنا لعلاقات الشيخ الجزيري نجد أن أغلبها مرتبطة بمن له علاقة بالمحمل المصري، مثال ذلك قول الجزيري : " صاحبنا شرف الدين ابن البرجي وهو مجاور بمكة... وكاتب الكسوة

الشريفة "[١١٣]. كما كانت للجزيري علاقة مع مؤرخي مكة، فنقل عن الشيخ محمد عبد الغني الشلح ففي ذلك يقول : " كما نقلت ... من تاريخ صاحبنا الشمس الشيخ السلمي المكي"[١١٤]،

---

107 – نفس المصدر، ج٣، ص١٤١٦.

108 – نفس المصدر ،ج٢، ص٩٢١.

109 – نفس المصدر، ج٣، ص١١٥٥.

110 – الصرر : جمع صرة وهي الصدقات التي توضع في صرر من خرق وتوزع على الفقراء والمجاورين من أهل مكة والمدينة، كما توجد الميرة وهي التي توزع على الأشراف والعربان والفقراء المستحقين في المنطقة، ثم توزع أموال ريع أوقاف الحرمين، وتنقل الصرة والصدقات والأوقاف من مصر وتركيا والهند وغيرها. انظر عزة بنت عبد الرحيم بن محمد شاهين، خدمات الحج في الحجاز خلال العصر العثماني، دار القاهرة، مصر ٢٠٠٦م، ص٩٢- ٩٣؛ محمد علي فهيم بيومي، مخصصات الحرمين الشريفين في مصر إبان العصر العثماني، دار القاهرة للكتاب ٢٠٠١م، ص٥٦- ١٢٩.

111 – كان الشيخ نجم الدين يشرف بنفسه على توزيع الصدقات بانتظام نظراً لكثرتها. انظر محمد علي فهيم، مرجع سابق، ص١١٣.

112 – الجزيري، مصدر سابق، ١١٥٦/٢.

113 – نفس المصدر والجزء، ص ٩٢٣.

114 – نفس المصدر والجزء، ص ٩٢٤.

وفي مكان آخر يذكر " ورأيت في تاريخ صاحبنا الشيخ محمد الشلح السلمي "[115]. وفي رواية أخرى يقول : " قال صاحبنا شمس الدين محمد الشلح السلمي المكي في قطعة من تاريخه "[116]. ومن خلال ذلك نجد مدى علاقة الجزيري بأشراف الحجاز وعلمائها، وانصبت العلاقة لمعرفة أخبار الحجاز وما يدور فيها للاطمئنان على سلامة ركب الحج المصري عند قدومه، كما وجدت علاقة مع موظفي الحرم المكي .

---

115 – نفس المصدر ،ج۱، ص ۲۰۷.

116 – نفس المصدر والجزء، ص ۳۵– ۳٦.

المصادر والمراجع

اولاً:المصادر :

١- ابن إياس ، محمد ابن أحمد

- بدائع الزهور في وقائع الدهور،تحقيق محمد مصطفي ، القاهرة ١٩٨٥م .

٢- إسماعيل حقي جرشلي،

- أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني، ترجمه عن التركية خليل علي مراد، الدار العربية للموسوعات، بيروت ٢٠٠٣م .

٣- البكري ، محمد بن أبي سرور

- النزهة الذهبية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢٢٦٦) تاريخ.

٤- الجزيري ،عبد القادر محمد بن عبد القادر بن محمد الأنصاري.

- الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، أعده للنشر حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض ١٩٨٣ .

- عمدة الصفوة في حل القهوة، مخطوط مصور من مكتبة البلدية بالإسكندرية تحت رقم (ت ١١٢٨ب).

٥- الجبرتي ، عبد الرحمن .

- عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت .

٦- - ابن حميد :

- السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة، تحقيق بكر بن عبد الله أبو زيد، عبد الرحمن العثيمين، مؤسسة الرسالة، سوريا ١٩٩٦.

٧- السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد.

- الضوء اللامع، القاهرة ١٩٣٤م .

٨- الشيلي، السيد أحمد اليمني

- السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر ، تحقيق إبراهيم أحمد المقحفي، مكتبة الإرشاد ن صنعاء اليمن

١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
٩- الشعراني، عبد الوهاب
- الطبقات الكبرى، دار المعرفة بيروت (د -ت) .
١٠- العصامي:عبد الملك بن حسين المكي.
- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تحقيق عادل أحمد عبد الجواد، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٨م.
١١- العز عبد العزيز بن نجم ، ابن فهد
- بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق صلاح الدين بن خليل إبراهيم وزميلاه، دار القاهرة، القاهرة ٢٠٠٥ .
١٢- ابن عماد الحنبلي ،
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٤م .
١٣- علي مبارك ،
- الخطط التوفيقية , القاهرة ١٩٦٩.
١٤- عمر الفقيه، محمد اليمني.
- تاريخ الشحر، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ١٩٩٩ .
١٥- العيدروسي ، شمس الشموس محي الدين عبد القادر بن عبد الله.
- النور السافر(د - ت)
١٦- الغزي ،نجم الدين محمد بن محمد.
- الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، بيروت ١٩٩٧.
١٧- المحبي ، محمد بن فضل الله .
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر بيروت.
١٨ - المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار, القاهرة ١٩٨٧ .
١٩- النهرولي،عبد الكريم بن محب الدين.

- البرق اليماني في الفتح العثماني، أشرف على طبعه حمد الجاسر، الرياض منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة، ١٣٧٨ هـ/١٩٦٧م
- كتاب الأعلام بإعلام بيت الله الحرام، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٤م.

٢٠- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله.
- معجم البلدان، بيروت دار صادر (د- ب)

ثانياً: المراجع العربية:

١- إبراهيم أنيس،
- المعجم الوسيط، القاهرة ١٩٧٢.

٢- أحمد السباعي،
- تاريخ مكة، دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، مطبوعات نادي مكة المكرمة,١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٣- جرجي زيدان
- تاريخ آداب اللغة العربية، مصر ١٩٣٩م.

٤- حمد الجاسر،
- مؤرخ مغمور، عبد القادر بن محمد الجزيري الحنبلي، مجلة العرب ج٥، ٦، ذو القعدة والحجة ١٤٠٦هـ / يوليو ١٩٨٦.
- حمد الجاسر، عرض كتب مجلة العرب ج٥، ٦ ذو القعدة، وذو القعدة والحجة ١٣٩٧هـ ـ نوفمبر وديسمبر ١٩٧٧م.

٥- حسن عبد العزيز شافعي،
- الأربطة بمكة المكرمة في العهد العثماني، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة والمدينة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٦- سعيد عبد الفتاح عاشور،
- العصر المملوكي في مصر والشام، دار النهضة العربية ١٩٧٦ الثقافي الأدبي، السعودية ١٤٠٤هـ /١٩٨٤.

٧- عبد اللطيف إبراهيم،
- وثيقة وقف مسرور بن عبد الله الشبلي الجمدار، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد الحادي والعشرون، ج٢، ديسمبر

١٩٥٩، طبع في القاهرة ١٩٦٤.
٨- عزة بنت عبد الرحيم بن محمد شاهين،
- خدمات الحج في الحجاز خلال العصر العثماني، دار القاهرة ، مصر ٢٠٠٦م .
٩- عاتق البلادي ،
- نشر الرياحين في تاريخ البلد الأمين، دار مكة للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة، ١٤١٥- ١٩٩٤.
- معجم معالم الحجاز، مكة , دار مكة للنشر ١٩٧٨م.
١٠- علي بركات ،
- رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٨، القاهرة ١٩٨٧م.
١١- مصطفى محمد رمضان ،
- وثائق مخصصات الحرمين الشريفين في مصر إبان العصر العثماني، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، جامعة الملك سعود، الرياض ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م،
١٢- محمد علي فهيم بيومي ،
- مخصصات الحرمين الشريفين في مصر إبان العصر العثماني ، دار القاهرة للكتاب ٢٠٠١م .

فضل العرب علي أوروبا في علم الملاحة
في ضوء يوميات فاسكو داجاما

د. سند احمد عبد الفتاح*
كلية الآداب-جامعة عين شمس

تتناول تلك الورقة البحثية فضل العرب علي أوروبا في علم الملاحة أواخر العصور الوسطي في ضوء يوميات فاسكو دا جاما، وتحديداً أواخر القرن التاسع أوائل القرن العاشر الهجري/ أواخر القرن الخامس عشر أوائل القرن السادس عشر الميلادي؛ والغالب علي تلك الفترة ندرة المصادر بصفة عامة؛ فلا نكاد نعثر من بين المصادر العربية إلا علي بعض المصادر المعدودة التي تناولت التأريخ لتلك الحقبة بصفة عامة؛ شحيحة الحديث عن علم الملاحة العربي بصفة خاصة، باستثناء بعض المؤلفات مثل كتاب العالم العربي الملاح ابن ماجد " الفوائد في أصول علم البحر والقواعد "، وكتاب المهري " العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية "، بالإضافة إلى كتاب المعبري " تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين"، وكتاب النهروالي " البرق اليماني في الفتح العثماني "، وتأتي تلك الندرة في المعلومات في الوقت الذي وصلت فيه الملاحة العربية إلي أوج ازدهارها، بل واكتنفها بعض الغموض والإشكاليات خاصة فيما يتعلق بمدي استفادة البرتغاليين من الملاحة العربية في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الذي يعد نقطة فاصلة في تاريخ النهضة الأوروبية في العصر الحديث.

أما عن مؤلفات المحدثين في علم الملاحة العربي حدث ولا حرج فقد تناولته أقلام العلماء والمؤرخين المحدثين في العديد من المؤلفات نذكر منها علي سبيل المثال لا الحصر: حسن صالح شهاب " فن الملاحة عند العرب" وله أيضاً" الدليل البحري عند العرب"، وله أيضاً طرق الملاحة التقليدية في الخليج العربي، وأنور عبد العليم في كتابه" ابن ماجد الملاح العربي"، ناهيك عن كتابات المستشرق فران الذي تخصص في دراسة علم الملاحة عند العرب في العديد من مؤلفاته ومقالاته [1]، فضلاً عن عدد من الندوات والمؤتمرات الدولية التي تناولت الحديث عن هذا الموضوع.

---

* مدرس التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

[1] انظر منها علي سبيل المثال: Ferrand, La pilote arabe de Vasco de Gama auxv siecle , Annal. De Geogr. Tome 31, pp. 289-307.

و تلقي هذه الورقة البحثية الضوء علي دور علم الملاحة العربي في نهضة أوروبا من خلال يوميات فاسكو دا جاما التي كتبها أحد البحارة المرافقين له خلال رحلته التي اكتملت بالوصول للهند، مسبوقة بالحديث عن النهضة العربية في علم الملاحة في القرون الأولي للإسلام وصولاً بفترة البحث محل الدراسة؛ ثم التعريف بيوميات فاسكو دا جاما المعني بها هذا البحث، وخط سير رحلتهم وسياستهم تجاه البلدان التي مروا عليها، ودلائل استفادتهم من الملاحين العرب في رحلاتهم الكشفية بشهادتهم أنفسهم سواء قبل رحلة دا جاما أو في عهده؛ وختاماً بإشكالية إرشاد ابن ماجد البرتغاليين إلي سواحل الهند كأفضل ما أنعم عليه العرب علي أوروبا في علم الملاحة.

فمما لا شك فيه أن نجاح علم الملاحة لدي العرب عامة والمسلمين خاصة مرجعه – بعد قوة ملاحظتهم للظواهر الطبيعية المحيطة بهم – إلي طبيعة تجاربهم في مجال الجغرافيا الفلكية، كما أن حياتهم القائمة علي الترحال الدائم والاهتداء بالقمر والنجوم ليلاً شحذ أذهانهم مبكراً بمراقبة جميع التغيرات التي تطرأ علي القبة السماوية، ولم تقتصر معرفتهم علي الاهتداء بالنجوم فحسب؛ بل بفضل طلوعها ومغيبها استطاعوا توقيت ساعات الليل والنهار، وعد القمر دليلهم الأول في تلك المرحلة [٢]، ناهيك عن تنبؤهم بأحوال الطقس وتحديد فصول السنة الزراعية الملائمة، ومعرفة حركة الكواكب والنجوم وغيرها.

ولعل ميل الإنسان إلي الاستطلاع ورغبته في أكتشاف العوالم الخارجية رغبة في ثرواتها بغية تحقيق التكامل الغذائي؛ دفعه منذ أقدم العصور إلي التنقل والرحلات الملاحية؛ فاندفع من إقليمه الذي يقطن به إلي الأقاليم المجاورة ليكتشف آفاقها ويرتاد مجاهلها [٣]، ولنا في آثار ومخلفات القدماء ما يدل علي ذلك.

غير أن الملاحة شهدت تطوراً جذرياً عند عرب الجاهلية؛ الذين جابوا البحار من أجل التجارة وطلب العلم؛ ويبدو أن سكان شبه الجزيرة العربية وحواضرها لعبوا دور البطولة آنذاك؛ فجابت سفنهم البحر الأحمر ووصلوا إلي سواحل الهند ومالبار رغبة في نيل الأخشاب للتي تبني منها سفنهم، كما ركبوا البحر علي طول سواحل أفريقيا الشرقية حتي

Arabic Texts on Navigation by Ahmed Ibn Majid , In: Collaboration with Mazen Amawi وانظر له أيضاً مجموعة الدراسات التي خصصت في علم الملاحة والتي صدرت في عدة أجزاء وعنوانها: Studies by Gabriel Ferrand on Arabic Muslim Geography , Catography and Navigation, collected by: Fuat sezgin.

[2] محمد مصطفي، المجال الجغرافي للرحالة والجغرافيين العرب فيما بين القرنين الثالث ونهاية القرن الخامس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة بآداب عين شمس، القاهرة ١٩٧٥، ص١٨، ١٩.

[3] كارادفو، الفلك والرياضيات، ت: جرجيس فتح الله، بيروت ١٩٧٢، ص ٢٥.

زنجبار وأمدوا تلك البلاد بالذهب والنحاس والأحجار الكريمة، فضلاً عن العطور والمراهم وبخور المعابد [4]؛ ومما يؤكد مدي الثراء الذي عاشته منطقة الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية أن تجار مكة علي سبيل المثال كانت لهم رحلتين في الصيف والشتاء، واحدة إلي بلاد الشام وعالم البحر المتوسط، والأخري إلي جنوبي شبه الجزيرة العربية وحواضرها، وقد أشار الله سبحانه وتعالي لهاتين الرحلتين في القرآن الكريم [5].

وحينما دخلنا معترك التاريخ الإسلامي المبكر، اهتم المسلمون بالملاحة لخدمة شعائر الدين الإسلامي؛ فكما هو معلوم أن الحج فرض من فروض الإسلام لمن استطاع إليه سبيلاً؛ فباتت الحاجة ملحة إلي معرفة طرق الملاحة البحرية؛ خاصة إذا ما كانت طرق الحج البرية غير مسلوكة لأسباب طبيعية مثل: انتشار الحيوانات المفترسة أحياناً علي تلك الطرق، أو بشرية من قبيل: تسلط قطاع الطرق علي وفود الحجيج خلال سفرهم.

فكثير من الحجاج عقب تأديتهم شعائر الحج وزيارة قبر الرسول صلي الله عليه وسلم؛ يقفلون عائدون إلي ديارهم مخبرين ذويهم عن الطرق التي سلكوها -برية كانت أم بحرية- هذا فضلاً عن فريضة الصوم التي تطلبت اهتماماً خاصاً بالملاحة الفلكية؛ فتحديد بداية الصوم ونهايته ومواقيت الصلوات الخمس استدعي معرفة بالفلك والرياضيات؛ لذا صنعت الساعات الشمسية البسيطة التي استلزم تخطيطها معرفة دقيقة بخطوط الطول والعرض [6].

ناهيك عن مساهمة حركة التجارة بين الشرق الأقصي وغرب أوروبا في تنشيط حركة الملاحة؛ وكان من جراءها أن تم ربط أقاصي أراضي الخلافة بعضها ببعض، بل أن التجارة تجاوزت تلك الحدود؛ فجذبت في فلكها أواسط أفريقيا وشمال شرق أوروبا وجنوب شرقي آسيا.

وبفضل علم الملاحة تعاظم دور التجار المسلمين إلي حد تجاوز حدود فتوحاتهم؛ فرأينا التجار يجوبون أطراف الأرض ينقلون البضائع ويشترون السلع؛ وقد بلغوا في ذلك أقصي بحار الصين وصحاري أفريقيا الداخلية وبلاد الأندلس والمحيطين الأطلسي والهندي، ومن تلك السلع: الفراء والجلود والشمع والنشاب والقلانس والعسل والسيوف والدروع

---

[4] أحمد أبو سعد، أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي، بيروت ١٩٦١،، ص٥ وما بعدها.

[5] القرآن الكريم، سورة قريش.

[6] محمد مصطفي، المجال الجغرافي، ص٢٣.

والأغنام والبقر والرقيق [٧] وخلفوا في هذه الممالك نقوداً وآثاراً يكتشفها الباحثون الأثريون يوماً بعد يوم.

وبالإضافة إلي عاملي الدين والتجارة؛ ساهم التعليم أيضاً في ازدهار الملاحة؛ فقد جاء في الحديث الشريف " **اطلبوا العلم ولو بالصين**"، فأصبح الارتحال في طلب العلم منذ القرن الأول للهجرة أشبه بالضرورة اللازمة لتكملة دورة الدراسة؛ فنري أناس رحلوا من الأندلس إلي بخاري، ومن بغداد إلي قرطبة؛ مما أتاح لبعضهم أن يحوز قصب السبق في ميدان الرحلات والاكتشافات الجغرافية، وقد أفادت أوروبا مما كان عند المسلمين من معرفة بأجزاء العالم المعروفة في العصور الوسطي، وهو ما كان مضبباً لديهم حتي ذلك الوقت.

والحق أن ازدهار الحضارة الإسلامية وسيادة المسلمين في البر والبحر وطبيعة الدين الإسلامي؛ كل ذلك كان من شأنه أن يشجع الأسفار والرحلات؛ فالجزء الأكبر من العالم المعروف في فجر الإسلام كانت تزدهر فيه مدنية الإسلام، وتدير دفته حكومة إسلامية، ورغم فقدان الدولة الإسلامية وحدتها السياسية أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، إلا أن روابط الدين واللغة والثقافة ظلت تجمع بين سكانها.

وبناءً علي ما سبق رأينا المسلمين يضربون بسهم وافر في علم الملاحة الذي كان يخدم بدرجة كبيرة الحج والتجارة والعلم؛ فسافر كثير من علماء المسلمين لدراسة أقاصي البلاد وطرقها وتعيين مسافاتها؛ وهو ما وصل بعلم الملاحة الجغرافية والفلكية إلي الازدهار في القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين ثم إلي أوج الازدهار والتطور طوال القرون الخمسة التالية علي يد فريق من الجغرافيين والرحالة؛ فقبل القرن الثالث الهجري لم تكن هناك مصنفات جغرافية قائمة بذاتها؛ بل معلومات جغرافية متناثرة .

ومن نافلة القول أن ما كتبه الرحالة المسلمون في العصور الوسطي فيما بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين/ التاسع والخامس عشر الميلادي عن الرحلات جد كثير؛ بيد أن أنهم لم يكتبوا أخبار رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادراً [٨]؛ بل أدمجوها فيما ألفوه من كتب التاريخ أو تقويم البلدان.

وإذا ما تطرقنا إلي معرفة العرب بالملاحة البحرية فهذا يجرنا إلي قضية شغلت أذهان المؤرخين وبخاصة المستشرقين الذين دأبوا دائماً علي التشكيك في منجزات علماء

---

[7] المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦، ص ٨٧؛ زكي حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطي، دار المعارف القاهرة ١٩٤٥، ص٨.

[8] زكي حسن، الرحالة المسلمون، ص١٣، ١٤.

المسلمين في شتي المجالات؛ فزعموا في تلك الناحية بأن العرب لم يكن لهم دراية بعلم الملاحة البحرية لكونهم خائفين من ولوج البحر من الأساس، بل وعمدوا إلي التشكيك في الخليفة عمر بن الخطاب في تلك الناحية وهذا ما يجعلنا نرد علي تلك المزاعم من خلال المصادر التاريخية لإماطة اللثام عن تلك القضية من ناحية، ولإبراز بداية المعرفة الملاحية للمسلمين من ناحية أخري؛ والتي أكسبتهم خبرة طويلة أفادت الغرب الأوروبي في نهايات العصر الوسيط.

فبعد أن خرجت الفتوحات الإسلامية خارج نطاق شبه الجزيرة العربية؛ وجد المسلمون أنفسهم مطلين علي سواحل بحرية عريضة طويلة؛ وبدافع من ارتيادهم أماكن بحرية جديدة لنشر الدين الإسلامي؛ بعث معاوية بن أبي سفيان والي الشام إلي الخليفة عمر بن الخطاب يطلب منه الإذن بركوب البحر قائلاً له: " **إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص** "[9]، وقبل أن يبعث له الرد، أرسل إلي عمرو بن العاص واليه علي مصر يطلب منه أن يصف له ركوب البحر، فأرسل إليه عمرو قائلاً " **يا أمير المؤمنين إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة، إن ركد خرق القلوب وإن تحرك أزاغ العقول، الناس فيه كدود علي عود؛ إن مال غرق، وإن نجا برق** "، فلما سمع عمر هذا الوصف المريع أرسل إلي معاوية يحذره من مغبة ركوب البحر مبيناً له " **أن دم المسلم أحب إليّ مما حوت بلاد الروم** "[10]؛ ومن هنا تمسك المستشرقون بتلك القصة ليطعنوا في سيادة المسلمين البحرية بزعم أن عمر بن الخطاب والمسلمين كانوا يخافون من البحر[11]؛ بيد أنه مما لاشك فيه أن عمر كان فطناً بدرجة كبيرة جداً بحيث أدرك عدم مجاراة قوة المسلمين البحرية العسكرية في مهدها مع قوة الإمبراطورية البيزنطية آنذاك فاتخذ سياسة دفاعية بتحصين كافة السواحل الإسلامية بإقامة المناظر والأربطة والمناور علي امتدادها[12]؛ وليس

---

[9] الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، تحقيق: محمد أبو الفضل، القاهرة ١٩٦٩، ص٢٥٨، ٢٥٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٣، تصحيح: عبد الوهاب النجار، القاهرة ١٣٤٨هـ، ص٤٨.

[10] البلاذري، فتوح البلدان، جـ١، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦، ص١٥٢؛ ابن خلدون، المقدمة، بيروت (ب.ت)، ص٢٥٣.

[11] السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، جـ٢، الإسكندرية (ب.ت)، ص٢٦٥؛
Aly Fahmy, *Muslim Sea Power in Eastern Mediterranean* ,Cairo 1966, p. 78; Chira, *La Lutte entre Arabes et Byzantins* , Alexandrie 1947, p. 88.

[12] ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأفريقيا والأندلس، تحقيق: عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦١، ص ١٩٢؛ البلاذري، فتوح البلدان، جـ١، ص ١٥٢، ١٧١؛ حسين مؤنس، أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية

أدل علي ذلك من أن المسلمين بقيادة معاوية بن أبي سفيان عاودوا ركوب البحر مرة أخـري في عهد عثمان بن عفان بحيث شهدت البحرية في عهده أزهي عصورها [١٣]. وبذا لـم يكـن ركوب المسلمين للبحر خطوة فجائية بل دلت علي معرفة ودراية به؛ كان ينقصها الخبـرة الكافية وهو ما تأتي لهم طوال القرون التالية بحيث حالما وصلنا إلي القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي شهد أوج الملاحة البحرية لإمبراطورية إسلامية مترامية الأطـراف؛ وهو ما أدركه البرتغاليون الذين دأبوا علي الاستفادة من العلوم الإسـلامية وبخاصـة علـم الملاحة؛الذي ساعدهم علي طرق أماكن لم تكن أبداً لتصلها أقدامهم إلا بمـساعدة الملاحـين المسلمين وهو ما سنعرض له في الصفحات التالية.

والحقيقة أن الحضارة الإسلامية استفادت سلفاً من الحضارات السابقة عليها بـصفة عامة؛ ففي علم الملاحة نهلت من حضارة الفرس كيفية العناية بمراكبهم وإخراجها إلي البـر من أن لآخر لصيانتها وإزالة الأعشاب العالقة بقاعها وسد ما تفتق مـن خرزهـا، وكـانوا يستخدمون الزيت المستخرج من حيتان البحر في طلاء المراكب؛ بل أن" **الربابـنة العرب في بحر الصين كانوا يحملون دفاتر يـستعينون بـها علي الملاحة ومعرفة الطريـق**"[١٤]، وهو ما يؤكد أنهم عرفوا المرشدات الملاحية والخارطات البحرية منذ القرن العاشر الميلادي.

وأغلب الظن أن علوم البحر وفنون الملاحة ازدهرت بصفة خاصة بعد أن ترجمت الآثار اليونانية والفارسية والهندية في العصر العباسي في الجغرافيا الفلكية والرياضية إلـي اللغة العربية ومنها كتاب المجسطي لبطليموس [١٥] الذي استفادوا كثيراً من معارفه وأفكـاره وعرضوا كثيراً من آرائه ونظرياته علي محك النظر والتجربة فقد كان بطليموس ينقل عـن أسلافه في غير تمحيص ومع ذلك كان بالغ التأثير في خلفائه من الغربيين إلي حد أنه جمـد البحوث الجغرافية في أوروبا وحال دون تقدمها زمناً طويلاً، لكن العرب كانوا أول من نبـه إلي أخطائه في ظل المعاينة التي كانت أساس بحوثهم الجغرافية؛فبدأت الجغرافية العلمية فـي

والاقتصادية والاجتماعية في البحر المتوسط، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلـد الرابـع، العدد الأول، ١٩٥١، ص٨٨-٨٩

[13] السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي، تـاريخ البحريـة الإسـلامية فـي حـوض البحـر الأبـيض المتوسط،جـ١، الإسكندرية ١٩٨١، ص١٨.

[14] المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢١٦؛ محمد مصطفي، المجال الجغرافي، ص٣٦.

[15] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر،جـ١، نشر: دي مينار، باريس ١٨٦٤، ص٢٩١؛ ابـن النـديم، الفهرست، تحقيق: فلوجل، القاهرة ١٨٧١، ٢٦٧، ٢٦٨؛ ابن القفطـي، تـاريخ الحكمـاء، ليبـزج ١٩٠٣، ص٩٧،٩٥؛ فيليب حتي، تاريخ العرب، بيروت ١٩٨٦، ص ٣٧٩.

عهد المأمون الذي أنشأ بيت الحكمة الذي زوده بمكتبة ومرصد فلكي وحث الفلكيين علي القيام بأرصاد جديدة وطلب إليهم أن يرسموا خريطة كبيرة [16].

وكما دعا المأمون فلكيين إلي القيام بأرصاد جديدة تأدت بهم إلي تصحيح الكثير من الأزياج؛ طلب إلي جغرافييه أن يعيدوا النظر فيما تلقوه من معارف جغرافية، وكانت الحقائق التي توصلوا إليها تقارب ما نعرفه اليوم منها، وبرغم أنهم لم يعرفوا مقياس الزمن "كرونومتر" وتقاويم القمر المضبوطة، فلم تزد أخطاؤهم في تحديد خطوط الطول والعرض ومواقع المدن وغيرها عن درجتين [17].

وعقب تمثل العرب المسلمون المعلومات والأفكار والنظريات الأجنبية من فارسية ويونانية وهندية وزادوا عليها من تجربتهم وأرصادهم واكتشافاتهم ظهرت لهم الكثير من المؤلفات المتصلة بتلك العلوم كمؤلفات ابن خرداذبة والخوارزمي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي من جغرافي القرن التاسع والعاشر الميلاديين.والإدريسي والبيروني والقزويني وياقوت والنابلسي من جغرافي القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلادي، وغيرهم ممن ألفوا في الجغرافية الوصفية والفلكية والرياضية كأبي الفدا وابن بطوطة [18]، والمسلمون بهذه الأعمال السابقة يعتبرون أنفسهم بأنهم تحرروا من النظريات التقليدية التي ترجع أساسا للجغرافيا اليونانية التي كانت سائدة، واتخذوا من تجربتهم الواقعية وممارستهم البحرية أساساً جديداً للجغرافيا الملاحية؛ نقضوا بها كثيراً من التصورات الجغرافية القديمة؛ ونص المقدسي– سابق الذكر– أبرز شاهد علي أن الربابنة العرب كانت معلوماتهم عن المحيط تعتمد علي الخبرة العلمية لا علي نظريات بطليموس القديمة، كما أن خرائطهم كانت واقعية غير محشوة بصور لا معني لها مثل الطيلسان وصور الطير التي كانت تتمثل في الخارطات الجغرافية منذ عهد بطليموس، حيث كان اعتقاد النظريين يتمثل في أن الأرض علي شكل طائر، وظلت صور الحيوانات والطيور ممثلة في خرائط العصور الوسطي الأوروبية.

ويدلل المسعودي [19] أن أحد العرب من مدينة جبلة من ساحل حمص من أرض الشام في سنة ٣٣٢هـ كان أبصر منه بالبحر الرومي، زد علي تلك براعة العرب في صنع

---

[16] المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص٢٣٦.

[17] توفيق الطويل، العرب والعلم في عصر الإسلام الذهبي، القاهرة ١٩٦٨، ص٩٢.

[18] انظر الدراسة التي أعدها محمد مؤنس عن الجغرافيين والرحالة المسلمين في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي والتي تناول بالتفصيل جهودهم ومؤلفاتهم تصنيفاً ومحتوي وعنوانها "الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٩٥".

[19] مروج الذهب، جـ١، ص٣٨٧.

الخارطات البحرية الممتازة والدقيقة للإرشاد الملاحي بدليل أن الأميرال البرتغالي ألفونسو البوكيرك أرفق في تقرير له لملك البرتغال عام ١٥١٢م خارطة بحرية كبيرة لملاح من جاوة موضح عليها رأس الرجاء الصالح والبرتغال والبحر الأحمر والخليج الفارسي وجزائر الملوك ومسالك ملاحيه إلي الصين وجزيرة فرموزا.كما أن فاسكو دا جاما نفسه يقرر أنه وجد الملاحين العرب علي الساحل الأفريقي يستخدمون البوصلة وآلات دقيقة ملاحية وخارطات بحرية [20].

ناهيك عن أن العرب المسلمين أدخلوا تعديلات علي آلات الملاحة والرصد المستخدمة فيما سبق ومنها الإسطرلاب[21] وهو آلة قياس ارتفاع الشمس والنجوم، ولم يصنع أحسن مما صنع العرب بشهادة الأوربيين أنفسهم وتصادفنا أنواع كثيرة موصوفة في مؤلفات الجغرافيين المسلمين[22]؛ ولدينا نموذج لواحد منه في متحف باريس من صنع أحمد بن خلف في منتصف القرن العاشر للميلاد يفوق في صناعته وتدريجه ما صنع من هذه الآلة في أوروبا في القرن الثامن عشر الميلادي.

كما عرف العرب المسلمون " ربع الدائرة " وهي آلة تمثل قوساً قدرة ٩٠ درجة من الإسطرلاب وتقيس ارتفاع الأجرام فوق الأفق عن طريق قياس زاوية الظل أيضاً[23]، ومن ربع الدائرة عرف الأوربيون فيما بعد سدس الدائرة أو آلة السدس المعروفة حالياً (sextant) المعروفة حالياً في الملاحة ويعزي ابتكارها لإسحق نيوتن.

أما عن الجداول الفلكية والأزياج فقد بلغت حداً من الإتقان والدقة عند المسلمين لم تبلغه جداول الهند وفارس وغيرهم، وذلك من قبل أن تعرف أوربا هذه الجداول؛ غير أنه من الثابت أن تلك الآلات الملاحية كانت تستخدم بدرجة كبيرة في البر عنها في البحر، لذا عرج

---

[20] بركات محمد، ابن ماجد والملاحة العربية، القاهرة ١٩٩٠، ص ٩٩.

[21] حصة الصباح، العلوم عند المسلمين، الكويت ١٩٨٥، ص١٤؛ حسن الباشا، الإسطرلاب، كتاب القاهرة تاريخها، فنونها، آثارها، القاهرة ١٩٧٠، ص ٥٧٨.

[22] الخوارزمي، مفاتيح العلوم، القاهرة ١٣٤٢هـ، ص ١٣٥-١٣٦؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، القاهرة ١٢٧٥هـ، ص ١٨٥؛ الدوميلي، العلم عند العرب، ت: عبد الحليم النجار، محمد يوسف مرسي، القاهرة ١٩٦٢، ص ٣٥٩-٣٦٠؛ قدري حافظ طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، القاهرة ١٩٥٤، ص١٠٤؛ إبراهيم إمام، تاريخ الفلك عند العرب، القاهرة ١٩٦٠، ص٤٦.

[23] حكمت نجيب عبد الرحمن، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، الموصل ١٩٧٧، ص ١٩٨؛ زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع علي الغرب، ت: فاروق بيضون، كمال الدسوقي، بيروت ١٩٨١، ص ١٤١؛ حصة الصباح، تاريخ العلوم عند المسلمين، الكويت ١٩٨٥، ص ٢١.

عنها الملاحون العرب ومن بينهم ابن ماجد إلي أدوات أخري أكثر ملائمة للملاحة البحرية وكانوا في ذلك أكثر تفوقاً من غير شك علي الأوربيين [٢٤].

ورغم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي إلا أن المراكب العربية كانت تجوب مياه الخليج العربي والمحيط الهندي طولا وعرضاً من سواحل شرق أفريقية غرباً إلي ساحل سيام وملقة وجزر سومطرة وجاوة شرقاً ومن جزيرة هرموز في فم الخليج العربي إلي ساحل سفالة بموزبيق وجزر تيمور جنوباً.كان الملاحون المسلمون يهتدون خلالها في ظلمات الليل بالنجوم وحركاتها، وفي النهار بمعالم البر وإشاراته وبالبحر ولون مائه وأعماقه وبطيوره وصخوره وشعابه [٢٥]، كما كانوا أيضاً يعتمدون في تمييز الجهات علي حجر المغناطيس، وفي ضبط مجاريهم علي النظر في أجزاء دائرة بيت الإبرة أو الأخنان، وفي تحديد المسافات علي حساب ترفات الأخنان والقياس ويقيدون أسفارهم بمواسم الرياح.

وبهذه الوسائل البسيطة والأدوات الدقيقة، والطرائق العلمية والعملية التي توصلوا إليها بملاحظاتهم، كانت الملاحة تجري في المحيط الهندي والخليج العربي قبل أن تعرفه سفن أوروبا وأساطيلها، وفي القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين بدا الأدب الجغرافي أكثر ثراء.وهو ما يكشف عن حب العرب للسفر والترحال وحرصهم علي معرفة البلاد التي دخلت في حوزة الإسلام أو كانت ضرورية لرحلاتهم التجارية [٢٦].لذا نجد أن حركة الكشوف الجغرافية التي تمت في عصر النهضة الأوربية تدين بالفضل للجغرافيين المسلمين؛ فما اكتشفوه من أرجاء الأرض في رحلاتهم البرية وملاحتهم البحرية هدي رواد الكشف الجغرافي البرتغالي من الأوربيين أمثال " ماركو بولو وهنري الملاح وفاسكو دا جاما وغيرهم كثير [٢٧]".

وعندما توصل فاسكو دا جاما إلي اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح كانت الوسائل البحرية والأدوات الملاحية الهامة قد هذبت علي يد الربابنة والملاحين العرب المسلمين كابن ماجد وسليمان المهري وأمثالهم من معالمة المحيط الهندي، ووصلت إلي درجة عالية من الكفاءة والدقة مما ساعدهم علي اكتشاف كثير من السواحل والمعالم البحرية البعيدة، بل وشاركوا في اكتشافات بحرية هامة جديرة بالاعتبار، مما دفع المسعودي إلي القول بأن

---

[24] أنور عبد العليم، ابن ماجد الملاح، سلسلة أعلام العرب القاهرة ١٩٦٧، ص ٣٥.

[25] محمد مصطفي، المجال الجغرافي، ص ٣٦.

[26] الدوميلي، العلم عند العرب، ص ٣٥.

[27] توفيق الطويل، العرب والعلم، ص٥٤.

هناك احتمالا كبيراً في أن يكون عرب الأندلس قد داروا حول أفريقية ووصلوا إلي المحيط الهندي من الغرب قبل البرتغال.وبالرغم من أن ابن ماجد لم يتعرض لوصف الساحل الغربي لأفريقيا ببلدانه وموانيه إلا أنه يقرر أن هذا الطريق كان في الزمن القديم طريق الفلفل "التوابل"، وذلك قبل أن يكتشفه البرتغال بزمن طويل.

ولا شك أن هناك من المستشرقين المعتدلين من أنصف علم الملاحة العربية فذكر أحدهم أن " الملاحين العرب قد داروا حول أفريقيا سواء من الغرب إلي الشرق أو بالعكس، وأن أحدهم قد أبحر في عام ١٤٢٠م من المحيط الهندي حول القارة الأفريقية فظهر بالمحيط الأطلنطي "[28].

بل أن المصادر العربية ذاتها تعرضت لذلك التطور في الملاحة العربية فذكر ابن سعيد الأندلسي أن ملاحاً عربياً يدعي ابن فاطمة دار حول أفريقيا من الغرب إلي الشرق ووصف سواحل السنغال ومدغشقر "[29].

ويحدثنا المتخصصون في الجغرافيا الوصفية بأن سواحل المحيط الهندي وجزره كانت معروفه جيداً للعرب وبتفصيل كبير، بينما هي مجهولة تماماً بالنسبة للبرتغاليين وذلك حتي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي تقريباً، ولقد عرف أهل اليمن وعدن بخاصة فيما عرف الساحل الشرقي كله، وصف الرحالة والمؤلفون العرب بعد ذلك الساحل ورسموه بدقة فالمسعودي وصف ساحل الزنج حتي مدينة سفالة، ووصف ابن الوردي الساحل الأفريقي حتي مدينة موزمبيق وكان سكانه من المسلمين.

صفوة القول بأنه إذا كان هذا شأن العرب المسلمين في علم الملاحة حتي أواخر القرن الخامس عشر؛ وسمعتهم تطبق الآفاق عن طريق تجار التوابل والعاج ومنتجات الهند من الحرير والمنسوجات وغيرها؛التي كانت تنقلها مراكبهم إلي القلزم " البحر الأحمر " ثم إلي عالم البحر المتوسط والغرب الأوروبي؛ ولا شك أن أنبائهم قد تركت أثراً لدي الأوربيين عامة والبرتغاليين خاصة؛الذين تطلعوا إلي القيام بمغامرة كبري بالوصول إلي الهند عن طريق الدوران حول أفريقيا – أي غير طريق البحر الأحمر- الذي كان العرب لا يزالون يسيطرون عليه في المشرق، وما من شك في أن البرتغاليين قد أجهدوا أنفسهم في التعرف علي علوم الملاحة العربية، والإفادة من خبراتهم الملاحية العملية قبل أن يقدموا علي

---

[28] بركات محمد، ابن ماجد، ص ٢٠.

[29] جغرافيا الأقاليم السبعة، مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٧٦٠جغرافيا، ورقة ٧٣.

مغامراتهم الملاحية الكبري ويتوجوا انتصاراتهم باكتشاف رأس الرجاء الصالح والطريق إلي الهند [30].

يوميات فاسكو داجاما:

نحن الآن في نهاية القرن التاسع الهجري –أوائل العاشر الهجري / الخامس عشر الميلادي – السادس عشر الميلادي؛ والخريطة الجغرافية الملاحية للعرب المسلمين تحمل صورة ولا أروع للنهضة في هذا العلم بشهادة المستشرقين المحدثين، بقي من روعة الصورة أن نعثر علي مؤلف معاصر لتلك الفترة يؤكد الازدهار في هذا العلم وبلسان الأوربيين أنفسهم، وهو ما تسني بعد أن عثر علي نص معاصر لرحلة فاسكو دا جاما كتبه أحد البحارة المرافقين في تلك الرحلة؛ ورغم أننا لم نجد اسم هذا البحار الذي دونها إلي أن الباحثين الأوربيين رجحوا أن يكون كاتبها هو ألفارو فلهو Alvaro Velho وهو مواطن برتغالي من مدينة باريرو barreiro وكان مرافقاً لفاسكو في سفينته المسماة سانت رافائيل S. Rafael [31]، ومما يؤسف له أن هذا النص لا يكتمل بوصول فاسكو إلي الهند وإلا قد كشف لنا عن ملابسات بعض الإشكاليات الهامة التي أثارت جدلاً بين الباحثين من قبيل مسألة إرشاد الملاح العربي ابن ماجد للبرتغاليين في وصولهم للهند، إلا أن تلك اليوميات الموجزة كشفت لنا في ثناياها عن بعض الجوانب الهامة التي توضح بجلاء مدي ازدهار علم الملاحة العربية الإسلامية وفضلها علي أوروبا آنذاك؛ نعرض له في تلك الصفحات.

ويتسم هذا النص بالإيجاز الشديد؛إما لأن كاتبه ليس له في حرفة الكتابة باع طويل، وإما لأن الظروف كانت تقضي ذلك مخافة وقوع النص أثناء الرحلة في أيدي أطراف معادية،خاصة أن المعلومات عن الطرق البحرية وخرائطها كانت من الأمور المحظور تداولها علناً، بل لقد أصدر الملك البرتغالي في وقت لاحق قراراً بفرض السرية الشديدة علي

---

[30] عن بعض الكشوف الجغرافية التي تسنت للبرتغاليين قبل دا جاما انظر بالتفصيل. شوقي الجمل، تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، القاهرة ١٩٥٩،ص ١٦٥-١٦٦؛ مقدمة يوميات فاسكو دا جاما، ت: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٥ ١٩ ص١٣؛ غرانج، موسوعة تاريخ العلوم العربية، جـ١، بيروت ١٩٩٧، ص٢٩٦.

[31] Eric Axilon , South African explorers , selected and introduced by Eric Axilon , London 1854.

وذكر مؤلف هذا الكتاب أن نص اليوميات استعان به من مصدر بعنوان:

Diario da Viagem de Vasco da Gama , Fascimile do codic original ,vol. 1 , Livararia Civilizacao 1945.

وتم ترجمة نص محتوي اليوميات إلي العربية بواسطة عبد الرحمن عبد الله الشيخ في طبعة صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٥.

المعلومات المتعلقة بالطرق البحرية وأمر بإحراق الخرائط التي يتداولها الناس، والاكتفاء بما هو موجود بأرشيفات الدولة [٣٢].

يبدو واضحاً أن رحلة فاسكو دا جاما كانت موجهة للدوران حول أفريقيا من أجل هدفين أساسيين؛الأول الوصول لبلاد البهار والتوابل (الهند) وهو الهدف الاقتصادي الأول؛ الذي يتيح لأوروبا توفير سلع الشرق بين أسواقها، أما الهدف الثاني فهو التحالف مع " برستر جون" وهو الهدف الديني المبني علي خرافات انتشرت في أوروبا في العصر الوسيط.

وبرستر جون في الفكر الأوروبي هو الأمير الشرقي المخلص الذي سيمد يد العون إلي الأوربيين القادمين من الغرب للقضاء علي الحضارة العربية الإسلامية نهائياً بحيث لا تقوم لها قائمة بعد ذلك؛ ففي خلال فترة الحروب الصليبية وجد باباوات ورهبان ورجال الدين في أوروبا أنه من المفيد لبث العزم في المحاربين إخبارهم عن أمير شرقي سيمد لهم يد العون بمجرد وصولهم للشرق؛ لذا عقب انسياح المغول في قلب العالم الإسلامي ساعد ذلك علي رواج أسطورة برستر جون بالرغم من أن المغول اعتنقوا الإسلام بأعداد هائلة "**بعد أن خضعوا في النهاية لدين ضحاياهم وثقافتهم** " علي حد قول أحد المستشرقين [٣٣].

ورويدا رويداً اعتقد فاسكو دا جاما بناء علي معلومات سابقيه من البحارة البرتغاليين الذين وصلوا باكتشافاتهم عن طريق البحر الأحمر أن برستر جون المنقذ موجود في بلاد الحبشة، لذا يصف لنا كاتب اليوميات أنهم بمجرد أن سمعوا وهم بالساحل الموزمبيقي من العرب عن وجود مملكة الحبشة قائلاً: "**لقد أخبرونا أن برستر جون يقع إلي الداخل بعيداً عن الساحل ولا يمكن الوصول إليه إلا بركوب الجمال...وقد جعلنا هذا في غاية السعادة ورحنا نصيح صيحات البهجة ودعونا الرب أن يهبنا الصحة حتي نري ما نرغب فيه جميعاً** " [٣٤].ويبدو هنا مدي توجيه الحركات المثيولوجية في توجيه التاريخ وهو ما تعمد إليه بعض المؤسسات أحياناً إخفاءاً للهدف الرئيسي لمهماتهم، وهذا ليس يخاف علينا فالصليبيون أتوا إلي الشرق في حملات صليبية بحثاً عن اللبن والعسل وتخليص الصليب

---

[32] عبد الملك عودة، السياسة والحكم في أفريقيا، القاهرة ١٩٥٩،ص ٧١؛ شوقي الجمل، تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، القاهرة ١٩٨٠، ص١٧٦ حيث صدرت عدت قوانين منها قانون سنة ١٥٠٤ الذي حرم حمل أو اقتناء الخرائط التي تشير إلي طريق الملاحة جنوبي الكونغو إلي الهند.

[33] روم لاندو، الإسلام والعرب، ت: منير البعلبكي، دار العلم بيروت ١٩٧٧، ص ١٢٦.

[34] مجهول، يوميات فاسكو دا جاما، ت: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة ١٩٩٥،ص٤٤.

المقدس من أيدي المسلمين؛ بيد أن السبب الأساسي كان استعماراً واستنزافاً لثروات الشرق وهو ما اتضح بجلاء بعد ذلك.

علي أية حال يبدو من النص المختصر لليوميات بعض الأمور التي تشير إلي العديد من الدلالات الهامة لعلم الملاحة العربية؛ يأتي علي رأسها مدي اعتماد البرتغاليين علي الملاحين العرب في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح؛ وهي المسألة التي شغل الباحثون أنفسهم بها وقتاً طويلاً؛ وقد وقع العبء علي الملاح العربي ابن ماجد الذي أرشد فاسكو دا جاما إلي الهند علي حسب أقوال معظم المؤرخين القدامي والمحدثين؛ علي حين تصدي آخرون ناسبين عملية الإرشاد إلي مسلم آخر وهو المعلم كاناكا من كجرات بالهند .

بيد أنه من الثابت لدينا من خلال اليوميات التي كتبها الرحالة المرافق لفاسكو دا جاما أن فاسكو اصطحب معه منذ بداية الرحلة – أي منذ خروجه من البرتغال- بحاراً أو رباناً مسلماً؛ يشهد بذلك قوله:" **وكان القائد العام قد حمل هذا البحار معه وكان أسيراً من المسلمين... ولهذا السبب فقد فقه ما قاله أولئك البشر الذين قابلناهم هنا، وأكثر من هذا فقد قال هؤلاء المسلمون "السود" أننا سنواجه كثيراً من العقبات المائية** "[35].

ويبدو بجلاء من النص أن الأوربيين- ممثلاً في البرتغاليين- قد اعتمدوا علي الربابنة العرب المسلمين ليس في البلاد التي مروا عليها؛بل منذ قيام رحلتهم للاستفادة من خبرتهم البحرية في علم الملاحة من ناحية، وللاستفادة منهم أيضاً كمترجمين إيماناً منهم بأن أغلب المدن الساحلية التي سيمرون عليها كانت خاضعة للإمبراطورية الإسلامية مترامية الأطراف. زد علي ذلك أيضاً أن سكان تلك المدن الساحلية الإسلامية دأبوا علي استقبال البرتغاليين بترحاب وقدموا لهم المعلومات الملاحية تطوعاً أو مقابل بعض الهدايا، نظراً لطبيعة الدين الإسلامي القائم علي التسامح مع الغرباء بصرف النظر عن جهلهم بالأهداف الأساسية من رحلاتهم.

وحقيقة كان للبرتغاليين سياستين متنوعتين قبل وبعد الوصول للهند؛ فقبل الوصول للهند دأبوا – من خلال اليوميات- علي إغداق الهدايا والمنح علي زعماء المدن التي كانوا يركنون إليها للاستراحة والتزود بالمعلومات التي تعينهم علي إكمال رحلتهم؛ كما كان فاسكو

---

[35] مجهول، يوميات فاسكو دا جاما، ص ٤٤.

يدعوهم إلي ولائم ضخمة من الطعام وكان لا يلجأ إلي استخدام السلاح إلا حينما يلقي مقاومة من زعماء تلك المدن [36].

أما حين تم وصولهم للهند فقد اتخذت سياساتهم شكلاً عدائياً تجاه سكان تلك المدن الساحلية الإسلامية؛فعاثوا فيها قتلاً وأسراً وسلباً؛ لاسيما وقد وصولوا إلي غاياتهم الاستعمارية بالوصول إلي الهند؛ يشهد بذلك كتابات المعبري الذي كان معاصراً لتلك الفترة والتي ضمنها كتابه عن أفعال البرتغاليين الوحشية في السواحل الإسلامية [37].

وبالإضافة إلي الربان المسلم الذي استعان به فاسكو من بداية رحلته؛ فقد دأب منذ ارتياده للسواحل الشرقية لأفريقيا أن يطلب من الحكام المسلمين لها صراحة بعض الربابنة المسلمين لإرشاده فر طرقات البحر؛ وهذا اعتراف منه بالسيادة البحرية للربابنة المسلمين؛ فيذكر صاحب اليوميات أنه عقب احدي ولائم فاسكو مع أحد الحكام المسلمين **"وجاه أن يزوده باثنين من المرشدين البحريين ليذهبوا معنا، وقد وافق الحاكم علي ذلك شريطة أن نكافئهم،فقدم القائد العام لكل منهما ثلاثين مثقالاً من الذهب ومعطفين ذوي زوائد لتغطية الرأس بشرط أنه ابتداء من اليوم الذي تلقيا فيه هذه المكافأة لا يغادران سفننا معاً وإنما إذا غادر أحدهما تحتم علي الآخر البقاء "** [38]، وهو ما يعكس مدي إصرار فاسكو علي وجود الربابنة العرب المسلمين في كل مرحلة من مراحل رحلته التي لم يعلم عنها شيئاً؛ ويزيد اعتراف كاتب تلك اليوميات بفضل العرب علي أوروبا في علم الملاحة بقوله: **أن الربابنة المسلمين قد نبوهم إلي كثير من الأخطار؛ وأنهم لولاهم لتعرضوا للقتل علي ساحل شرق أفريقيا ".**

وتذكر اليوميات أن السياسة الودية التي دأب عليها حكام المسلمين في شرق أفريقيا في مقابلة البرتغاليين مرجعه هو اعتقادهم بأن سفن دا جاما إنما هم أتراك موفودون من قبل السلطان العثماني.

---

[36] انظر عن مظاهر تلك السياسة في اليوميات في صفحات: ٣١، ٣٣-٣٤، ٣٦، ٤١، ٤٣، ٤٦- ٤٧، ٤٨، ٥١.

[37] انظر بالتفصيل عن أفعال البرتغاليين المشينة في السواحل الإسلامية في: المعبري، تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين، تحقيق: أمين توفيق الطيبي، طرابلس ١٩٨٧، ص٧٧- ٩٠ وهو مؤرخ معاصر لتلك الفترة من الأحداث ويوضح مدي استخدام البرتغاليين لقوة المدافع النارية في البطش بالمسلمين والعيث في بلادهم قتلاً وأسراً وسلباً.

[38] مجهول، يوميات فاسكو دا جاما، ص ٤٧.

فضلاً عن ذلك يحدثنا كاتب اليوميات عن أن فاسكو دا جاما اصطحب أيضاً رجلا وابنه في سفنه قد عزما علي الذهاب إلي مكة؛ وكانا قد أتيا إلي تلك السواحل الشرقية لأفريقيا كدليلين بحريين لاحدي السفن؛ ولا ريب أن فاسكو قد استفاد من خبرتهما الملاحية في إمداده بالمعلومات التي يريدها؛ بل ربما أن فاسكو بما لديه من قدرة علي الإقناع أقنعه علي الذهاب معه في رحلته وإرشاده إلي الهند [39].

وهكذا يتضح لنا أن ابن ماجد لم يكن الملاح العربي المسلم الوحيد الذي ساعد دا جاما في رحلته؛ وإنما كان هناك مسلمون كثيرون آخرون ساعدوه منذ انطلاق رحلته؛ كما يبدو واضحاً أنه تلاعب ببعض الحكام المسلمين في شرق أفريقيا موهماً إياهم بأنه حاكم تركي موفد من قبل السلطان العثماني؛وبناءاً عليه كان يطلب الإمدادات دائما بالملاحين المسلمين نظراً لجهله بتلك المنطقة في سبيل تحقيق الهدف الأكبر وهو الوصول إلي سواحل الهند.

أيضاً من الدلائل الهامة التي أوردتها اليوميات عن ازدهار علم الملاحة الإسلامية هو نشاط حركة التجارة الإسلامية والتي انعكست علي ملابسهم حيث وصفت اليوميات ملابس المسلمين بأنها " **ملابس فاخرة ومشغولة محلاة بالذهب والفضة** "؛ حيث كانت حركة التجارة مع بلاد المغرب الإسلامي مزدهرة جداً علي حسب وصف اليوميات لذلك [40].

زد علي ذلك أن كاتب اليوميات أقر بوجود أربع سفن ضخمة محملة بالذهب والفضة والملابس والقرنفل والفلفل والزنجبيل وأطواق فضية محلاة بكثير من اللآلئ واليواقيت وغيرها [41]؛ موضحاً بأن سكان تلك المدن الساحلية من المسلمين الأثرياء، ويستخدمون كل هذه البضائع؛ بل زادت حماسة البرتغاليين عندما علموا أن بعضاً من تلك البضائع من إنتاج البلاد التي يقصدونها (الهند)؛ بل أصابهم العجب عندما علموا أن معظم تلك البضائع لا يتاجرون فيها فحسب، بل يملأون منها السلال لفرط توفرها لديهم [42]؛ وأقر كاتب اليوميات أن كل تلك المعلومات كانت بفضل ترجمة البحار المسلم الذي صاحبهم؛ والذي كان واقعاً في أسرهم ويبدو أنه صاحبهم كربان بحري في مقابل إطلاق سراحه فيما بعد.

---

[39] مجهول، يوميات فاسكو دا جاما، ص ٤٩-٥٠.

[40] مجهول، يوميات فاسكو دا جاما، ص ٤٥.

[41] مجهول، يوميات، ص ٤٥.

[42] مجهول، يوميات، ص ٤٦.

هذا وزود كاتب اليوميات بوصف لمراكب المسلمين الضخمة بأنها سفن ضخمة بلا سطح وهي بدون مسامير وإنما مربوطة بالجبال، وأشرعتها مصنوعة من الحصير وسعف النخيل [43].

ومن أبرز الدلائل علي ازدهار علم الملاحة العربية الإسلامية هو استخدامهم للآلات الملاحية والتي أقر صاحب اليوميات بوجودها علي متن السفن الإسلامية الضخمة، وعبر عن ذلك قائلاً أن:" **لدي بحارتهم إبر مغناطيسية يوجهون بها سفنهم ولديهم ربعيات وخرائط بحرية** "، وهذا النص بشهادة كاتب اليوميات يعكس مدي التقدم الملاحي عند المسلمين بشهادة الغرب الأوروبي بوجود الآلات الملاحية والخرائط البحرية لدي الربابنة المسلمين [44].

هذا وشغل الباحثون المحدثون أنفسهم بقضية هامة، ولو قدر لليوميات أن تكتمل بوصول دا جاما للهند لأماطت اللثام عن ذلك الموضوع؛ ألا وهو إرشاد الملاح العربي ابن ماجد لفاسكو دا جاما للهند مما أكسب البرتغاليين حدثاً فريداً قلب موازين التجارة العالمية آنذاك وتسبب في سقوط دول كانت مزدهرة يوما ما؛ كالدولة المملوكية التي تلقت ضربة قاصمة باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح.

والمطلع علي نص اليوميات يتضح له أن دا جاما اعتاد علي الاستعانة بالملاحين المسلمين في رحلته حول أفريقيا؛ خاصة وأن سواحل المحيط الهندي وجزره وسواحل أفريقيا كانت معروفة جيداً للعرب وبتفصيل كبير بينما كانت مجهولة تماماً بالنسبة للأوربيين عامة والبرتغاليين خاصة حتي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي؛ بدليل ما ورد في كتابات المسعودي وابن الوردي؛ ناهيك عن أن العرب كانت لهم خارطات ومرشدات ملاحية تفوق في وقتها ما كان مستعملاً عند الأوربيين كما سبق ذكره.

---

[43] مجهول، يوميات، ص ٤٨. وقد أوردت المصادر الإسلامية أن عدم استعمال المسامير الحديدية في صناعة السفن مرجعه إلي أسطورة تقضي بأن الجبال المحيطة بالبحار تحتوي علي معدن المغناطيس الذي يجذب تلك السفن إلي الشواطئ فتتحطم، بيد أن تلك الآراء ذات مسحة خرافية ولعل استخدام الحبال والألياف في صناعة السفن حتي ترسو تلك السفن الضخمة بكل سهولة ويسر علي الشواطئ ولا تتعرض للكسر؛ كون الألياف والحبال تتميز بالمرونة وتحمل الصدمات، انظر من خلال المصادر عن تلك السفن والأساطير المحيطة بها في: ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق: وليم رايت، ليدن ١٩٠٧، ص٧٠؛ المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص١٥٣؛ أنور الرفاعي، النظم الإسلامية، دمشق ١٩٧٣، ص١٦٠؛ سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون، دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الكويت ١٩٨٥، ص١٩٢.

[44] مجهول، يوميات، ص ٤٤٨ بركات محمد، ابن ماجد والملاحة العربية، ص ١٥.

ويبدو واضحاً أن البرتغاليين قد بذلوا جهوداً مضنية في سبيل التعرف علي علـوم العرب الملاحية والإفادة منها، قبل أن يقدموا علي اكتشافهم الهام،وكانوا يـسعون للحـصول علي هذه المعلومات والإرشادات بكل الطرق المشروعة وغيـر المـشروعة، خاصـة وأن الصراع كان علي أشده في هذا القرن بين الأسبان والعرب. ،

ومن نافلة القول أن اليهود لعبوا دوراً خطيراً في نقل أفكار ومعلومات العرب إلـي الأوربيين،خاصة وأنهم كانوا يعيشون في الأندلس ويتحدثون بالعربية والفارسية والأندلـسية، وكانوا يعملون بالتجارة جالبين من المغرب الجواري والغلمان والديباج والسيوف ويتحركون بتجارتهم عبر البحر المتوسط حتي يمضون إلي السند والهند، وكثيـر مـنهم كـانوا عيونـاً وجواسيساً للبرتغاليين فمكنوهم من الحـصول علـي الرهمانجـات والخارطـات العربيـة والمعلومات الملاحية التي مكنت الأوربيين من تحقيق اكتشافاتهم البحرية الهامة [٤٥].

بيد أن بعض المستشرقين دأبوا غالباً علي إثارة بعض الأمور التي من شأنها طمس دور العرب المسلمين وفضلهم علي الغرب الأوروبي في شتي المجالات؛ ففي علم الملاحـة نجد *جواو دي بروش* مختلفاً عن أقرانه يسعي إلي إثبات أن الربابنة المسلمين لم يكن لهم دور في إرشاد البرتغاليين إلي الهند بل الفضل برمته يرجع إلي الهنود [٤٦].

علي أية حال ظل فضل العرب علي أوروبا لا ينكر فـي علـم الملاحـة بـشهادة اليوميات التي كتبها البحار المرافق لرحلة دا جاما والتي اسـتعان كمـا ذكرنـا بـالملاحين المسلمين خلالها؛ حتى وصل إلي مالندي وتصادق مع ملكهـا بالهـدايا – كالعـادة- بغيـة الحصول علي معلومات توصله إلي سواحل الهند، وطلب منه -كعادته أيضاً- أن يدله علـيّ مرشد يصحبه إلي الهند فأرسل إليه "رباناً مسلماً " [٤٧]؛ ويذكر المستشرقين كيف أن دا جامـا أصابته الدهشة لمعلومات الربان العربي وخاصة بعد أن أطلعه علي خـرائط وآلات عربيـة تستعمل في رصد النجوم، والطريف أن دا جاما أراد أن يتباهي بنفسه أمام ابن ماجد فأطلعـه علي إسطرلاب خشبي قطره نحو ٦٠سم كان يأخذ به أرصاده وعلي بوصلة ملاحية وربعية، إلا أن ابن ماجد لم يبد أي دهشة؛ بل أن دا جاما فغر فاه حينما أطلعـه ابـن ماجـد علـي إسطرلاب عربي من المعدن وعلي آلات مربعة وأخري مثلثة من الخشب كـان يأخـذ بهـا أرصاده وكذلك على خارطات ملاحية عربية ممتازة موضح عليها خطوط الطول والعرض؛

---

[45] كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، جـ٢، ت: صلاح الدين عثمان، موسكو ١٩٥٧، ص٥٦٣.

[46] عادل يوسف سيد، العرب والملاحة في شبه الجزيرة الأيبيرية، أعمـال المـؤتمر الحـادي عـشر للاتحـاد الأوروبي للمتخصصين في الدراسات العربية والإسلامية، يابرة ١٩٨٦، ص٢٤-٢٥.

[47] أنور عبد العليم، ابن ماجد، ص ٥٢.

مما دفع دا جاما بأن يسرع في الإبحار بهذا الربان الماهر الذي وجده متفوقاً في معارفه ومعلوماته معتمداً في إبحاره علي وسائل وأدوات أكثر تقدماً مما يعتمد عليه الأوربيين، فوصل إلي الهند بنجاح ورسى بسفنه في كلكتا بعد مرور ٢٢ يوماً في يسر وسهولة [48].

وهنا صب المؤرخون المسلمون المعاصرون لتلك الفترة جام غضبهم علي ابن ماجد نظير قيامه بتلك المهمة التي أرشد خلالها أحد الأوربيين إلي ثروات الهند؛ فهاهو النهروالي يذكر النص الفريد بتلك الوقعة بقوله: " **وقع في أول القرن العاشر الهجري من الحوادث الفوادح دخول الفرتقال -يقصد البرتغال- اللعين من طائفة الإفرنج الملاعين إلي ديار الهند، وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبتة في البحر ويلجون في الظلمات ويمرون بموضع قريب من جبال القمر، وهي مادة أصل بحر النيل ويصلون إلي المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق احد جانبيه جبل والجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الأمواج لا تستقر فيه سفنهم وتنكسر ولا ينجو أحد، واستمروا علي ذلك مدة وهم يهلكون في ذلك المكان ولا يخلص من طائفتهم أحد إلي بحر الهند إلي أن خلص منهم غراب إلي الهند، فلا زالوا يتوصلون إلي معرفة هذا البحر إلي أن دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد؛ صاحبه كبير الفرنج وعاشره في السكر فعلمه الطريق في حال سكره، وقال لهم: لا تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا في البحر ثم عودوا إلي فلا تنالكم الأمواج، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم، فكثروا في بحر الهند** " [49].

ويبدو أن الشكوك أحاطت برواية النهروالي الفريدة ما بين معارض لها باعتبار أن تلك الحادثة لم يرد لها ذكر في مؤلفات ابن ماجد التي صنفها بعد تلك الحادثة [50] بل يري أحد الباحثين أن النهروالي قد افتري قصة إرشاد ابن ماجد لدا جاما، وأنه أراد أن يبعد عن بلاده عار إرشاد ملاح منها وهو المعلم كان أو كاناكا لدا جاما؛ مستدلاً علي ذلك بأن ابن ماجد لا يمكن أن يشرب الخمر [51].

---

[48] غرانج، موسوعة تاريخ العلوم، جـ١، ص ٢٩٦؛ بركات محمد، ابن ماجد والملاحة العربية، ص ١٠٣-١٠٤.

[49] النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، الرياض ١٤٢١هـ، ص١٦٥؛ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، جـ٢، ص٥٧٠ -٥٧١.

[50] عادل يوسف سيد، العرب والملاحة، ص٢٤-٢٥.

[51] محمد محمود، المؤرخ النهروالي وابن ماجد الملاح العربي، حوليات كلية الآداب جامعة الملك آل سعود، مجـ٦، ١٩٧٩، ص ٥٥- ٦٧، ويبدو أن هذا الباحث قد استند إلي تبريرات كراتشكوفسكي فيما يتعلق بشرب الربان المسلم ابن ماجد للخمر كونه أرشد البرتغاليين إلي الهند دون وعي منه انظر بالتفصيل: تاريخ

بيد أنه من المثير للعجب أن الذين اعترفوا بفضل العرب ممثلاً في ابن ماجد وإرشاده لدا جاما هم البرتغاليون أنفسهم الذين دأبوا علي الإشارة إلي استعانتهم بملاحين مسلمين في رحلاتهم إلي سواحل الهند حتي وإن لم يذكروا أسمائهم صراحة مقرين بذلك في مؤلفاتهم [٥٢]؛ ناهيك عن أن أحد المستشرقين المحدثين أوضح أن المعلم كاناكا ما هو إلا لقب يطلق علي المعلم الأول في البحار أو المتمكن في علوم البحار ويقصد به الملاح العربي ابن ماجد [٥٣].

وإذا جاز لنا أن نذكر الجانب المضيء في قصة ابن ماجد فلم لا نعتبر البحار المسلم بما بثه الإسلام وتعاليمه من روح التسامح إزاء الطوائف الأجنبية الأخرى صورة مضيئة نقلت للغرب الأوربي حدثاً فريداً كان علامة بارزة آنذاك – رغم ما ترتب علي ذلك من سياسات مشينة من قبل البرتغاليين فيما بعد–، وكيف لنا أن نتنصل من ابن ماجد ونلقي باللوم عليه في تلك المهمة، فالأولي أن نلقي باللوم علي الغرب –الآخر– الذي دأب علي سياسة الخداع حتي إذا ما تمكن من الوصول لهدفه انقلب علي من عاونه من المسلمين فحدثت من البرتغاليين فظائع عقب وصولهم للهند من أعمال القتل والأسر والسلب في المدن الساحلية ما يندي لها الجبين .

صفوة القول أنه مهما حدث من عواقب وخيمة من الغرب الأوروبي ممثلاً في البرتغاليين في حق بلدان السواحل الإسلامية؛ فالفضل كل الفضل للعرب المسلمين وعلم الملاحة العربية فيما وصل إليه البرتغاليون، وإذا كان قد نسب إليهم ذلك الحدث الفريد الذي يعد نقطة فارقة في النهضة الأوروبية الحديثة؛ وهو اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح بالوصول للهند بالدوران حول أفريقيا؛ فيكفي العرب فخراً – من خلال مؤلفات الغرب الأوروبي المعاصرة والمحدثة– أنهم كانوا أصحاب الفضل في توصيلهم إلي الهند بدءاً من البرتغال ووصولاً إلي الهند؛ وهو ما فتح عليهم أبواب التجارة علي مصراعيها للتنعم بسلع الشرق الأقصى – التي كانوا لا يعرفون عن أكثرها سوي الاسم فقط– وإغراق الأسواق الأوربية بها؛ وليس أدل علي الذين زعموا أن اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء

الأدب الجغرافي، جـ٢، ص٥٧١. وحقيقة أن مسألة شرب الخمر في التاريخ الإسلامي من المسائل المعقدة حيث عرف عن كثير من الخلفاء والوزراء والكتاب شرب الخمر، بل إن المؤرخ النواجي حاول حصر أسمائهم إلا أنه لم يستطع إلي ذلك سبيلاً لكثرة أعدادهم انظر بالتفصيل عن هذا الأمر: النواجي، حلية الكميت، القاهرة ١٢٢٩هـ، ص٢٦ وما بعدها.

[52] Barros, JOAO DE Decadas da Asia , Vol.8 , Lisbon 1777-8, p. 96.

[53] كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، جـ٢، ص٥٦٩–٥٧٠.

الصالح قد سحب البساط من تحت أقدام العرب المسلمين وآذن بشمس مغيبهم من أن الملاحة العربية لا تزال سائرة علي قدم وساق إلي الآن في ربوع البحار والمحيطات بين أفريقيا الشرقية والصومال وشبه الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية وجزر المالديف.

الطائف والإسلام زمن الرسول ﷺ

د. طارق منصور*
جامعة[1] عين شمس، جامعة الطائف

مقدمة:

عندما يتجول المرء للوهلة الأولى بين ربوع الطائف وأوديته، أو عندما يصعد إلى هداه أو شفاه للمرة الأولى، تدور به عجلة الزمان ولا يدري بنفسه إلا وقد عاد إلى قرونه الأولى ليجد الطبيعة وقد كشفت نقابها، ورفعت أستارها لتكشف عن المكنون بين سهولها وأوديتها وأحجارها وجبالها، فيقرأ الإنسان حروفاً وكلمات تناثرت هنا وهناك تحكي لنا علاقة المكان بالإنسان، الذي سجل شهادته على عبقرية المكان، على أحجار أبت أن تحتضر عبر الزمان...وكانت البداية...قام العشاق المتيمون بقراءة شهادات التاريخ بسرد قصة الطائف المأنوس؛ غير أنهم وقفوا حائرين أمام تاريخ هذا البلد في عصوره الأولى...لقد ظُلم المكان بقربه من أم القرى، التي خطفت الأضواء منه بقدسيتها وقبلتها وكعبتها، فانبرى المؤرخون واحد تلو الآخر ليؤرخ لها متناسياً مدينة الورد ببساتينها الغناء، وعيون الماء، وأوديتها الخضراء، وجبالها الملتحفة بالسماء. وباستثناء الميورقي الذي عاش في العصر المملوكي وكتب عن مدينة الورد تعود معظم الكتابات التي كرست لها إلى العصر العثماني وعصر الدولة-السعودية. ونكاد نجزم أن جل هذه الكتابات انطلقت من زاوية فضل حبر الأمة عبد الله ابن عباس ثم اتبعوها بالحديث عن فضائل الطائف وآثاره ومساجده الحديثة وغير ذلك.

لقد عُنيت كتب السير بتدوين قصة محمد ﷺ والطائف، وما دون ذلك كان شذرات متناثرة هنا أو هناك عن تاريخ هذا البلد بين ثنايا الكتب والمدونات أو على النقوش والمنحوتات. ومن ثم أخفق المؤرخون الحديثون في استقراء ما تبقى من آثار هذه الفترة غير البعيدة، وتوارت معالم المكان خلف قضبان النسيان، فلم نعد نعرف أكان الطائف المأنوس سعيداً في تلك الأيام أم حزيناً يعاني الأسقام؟ وهنا يطفو سؤال على السطح: أين كان الطائف عبر تلك الفترة؟ لماذا لم يشحذ مؤرخوه الهمم ويكرسون أقلامهم للكتابة عنه في تلك الفترة؟

وفي هذه الأوراق التي نخطها عن طائف ذلك الزمان نحاول أن نميط اللثام عن تاريخ المكان خلال عصر النبوة، وذلك من خلال الشذرات المتناثرة في بطون المصادر المختلفة.

---

* أستاذ تاريخ العصور الوسطى المشارك، بجامعتي عين شمس والطائف.

يعتبر أهل الطائف إحدى الأمم التي تعتز بإرثها التاريخي وهي تحتضن النبي ﷺ في رحلته الأولى مروراً بأرضها إلى قرية بني سعد إحدى ضواحي الطائف، تستقبل الطفل الرضيع (النبي) الذي ترعرع في صباه في كنف مرضعته حليمة السعدية. ولا غرو أن الطائف كانت في ذاكرته الكريمة أرضاً مترعة بالخير فأتاها مرتين الأولى في نشر الدعوة إلى الله عز وجل والثانية فاتحاً أرض الطائف من براثن الشرك وعبادة الأوثان والأصنام ودخولها في دين الإسلام.[1]

لقد ذهب النبي ﷺ إلى الطائف مرتين: الأولى في ليال بقين من شوال سنة عشرة من النبوة ومعه زيد بن حارثة فأقام بها شهراً يدعو إلى الله تعالى،[2] بعد اشتداد الأذى عليه من قريش. لقد اتجه نحو الطائف في سبيل نشر دين الله، وعرض عليهم الإسلام طالباً منهم المؤازرة والاستجابة لكنه لم يلق قبولاً لدعوته في أول الأمر، ورجع إلى مكة حزيناً بعد أن آذوه من بعض صبية ثقيف وعبيدهم، وهذا مما يؤكد جهالتهم وقُصر نظرهم والغشاوة التي حجبت عنهم نور هذه الدعوة السماوية.

إن مشروع الاتجاه بالدعوة الإسلامية نحو الطائف كان له عدة أسباب منها: تعرض الرسول ﷺ للإيذاء الشديد بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة في عام واحد سمي عام الحزن، وكذلك اختيار الرسول ﷺ الطائف دون غيرها من مدن الحجاز ليتخذها مركزاً جديداً للدعوة الإسلامية لأن أخواله من ثقيف؛[3] ولأنه كان يأمل النصرة منهم؛[4] ولأن الطائف كانت مصيف أهل مكة وتطؤها أقدامهم طوال العام لأجل بساتينهم وتجاراتهم بها، فعمه العباس بن عبد المطلب ﷺ كانت له بعض البساتين والعقارات هناك؛ كما أن عمه الزبير بن عبد المطلب كان يتولى تجارة قريش إلى

---

[1] للتفاصيل حول هذه الفترة انظر نادية حسني صقر، الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام (جدة ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص ٧٣-١١٢؛ عبد الجبار منسي العبيدي، الطائف ودور قبيلة ثقيف (الرياض ١٤٣٠هـ/١٩٨٣م)، ص ١١١-١٨٠.

[2] العجيمي، حسن بن علي بن يحيى، إهداء اللطائف من أخبار الطائف، تحقيق يحيى محمود الساعاتي (الطائف ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص ٤٩.

[3] نادية صقر، الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ص ٨٠-٨١ .

[4] الميورقي، أحمد بن علي بن زياد العبدري، بهجة المهج في بعض فضائل الطائف ووج، تحقيق إبراهيم محمد الزيد (الطائف ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص ٤١؛ الكناني، علي بن محمد بن عراق، نشر اللطائف في قطر الطائف، تحقيق عثمان محمود الصيني (الطائف ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص ٤٤.

الطائف؛ كما أن الطائف كانت ملتقى للحجاج وهم في طريقهم إلى مكة؛ بالإضافة إلى أن سوق عكاظ القريب منها كان ملتقى لكافة العرب،[5] حيث كان العرب يفدون إليه في الأشهر الحرم،[6] فتقوم أسواقهم ويتناشدون الأشعار ويتحاجون،[7] ومن له أسير سعى في فدائه، ومن له حكومة ارتفع إلى من له الحكومة.[8]

ولعلّ قرب الطائف من مكة ومعرفة أهل الطائف لقدره ونسبه حافز آخر فهو حفيد عبد المطلب بن هاشم الذي ارتفع ذكره بين العرب جميعاً بعد إخفاق حملة الفيل والغزو الحبشي من أبرهة لمكة، ويعرف أهل الطائف عمه العباس بن عبد المطلب فهو يمتلك البساتين والعقارات في الطائف، كما كان عمه الزبير بن عبد المطلب يخرج دائماً بتجارة قريش إلى الطائف.[9] ولعبد المطلب ماء بالطائف يقال له ذو الهرم، وكانت في أيدي ثقيف زمناً ثم طلبه عبد المطلب منهم فأبوا وكان صاحب أمر ثقيف جندب بن الحارثة فأبى إعطاءه.[10]

---

[5] صالح بن غازي الجودي، الطائف بين الموروثات والمستجدات (الطائف ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ص ١٠٤. يقع موقع السوق حاليا، بعد تحديده حديثا، على بعد ٤٠ كيلاً من مدينة الطائف. انظر دليل الخدمات السياحية، إصدار محافظة الطائف (الطائف ١٤٢٩هـ)، ص ٣٤. تجدر الإشارة إلى أن النبي ﷺ كان قد ذهب إلى سوق عكاظ ليدعو رواده من العرب إلى دخول الإسلام. ففي صحيح البخاري، في كتاب الصلاة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه، عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فانصرفوا أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة، عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك، حين رجعوا إلى قومهم، وقالوا: يا قومنا ﴿إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾. فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿قل أوحي إلي﴾، وإنما أوحي إليه قول الجن." انتهى. انظر محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، تحقيق عبد الملك بن دهيش، مج ٤، ج٦ (مكة المكرمة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م)، ص ٢٢٥.

[6] يقول المؤرخ جريين خطأً أنه كان يستمر شهراً. انظر
S. Green, *The Life of Mahomet* (London 1840), 32.

[7] عن عكاظ في الشعر العربي انظر حماد بن حامد السالمي، ديوان عكاظ (الطائف ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م).

[8] شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، تعليق عبد الرزاق كمال (الطائف ١٣٩٧هـ)، ص ١٥٤.

[9] الأزرقي، أخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح محلس، ج ١ (بيروت د.ت.)، ص ٦٥ .

[10] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤ (بيروت ١٩٨٠)، ص ٧٨ – ٧٩ .

لقد خرج النبي ﷺ إلى الطائف وهو مستاء مما لاقاه من الجحود والأذى من قريش وخصوصاً من أبي لهب وزوجته أم جميل.[11] فقد كانت الطائف أنسب مدن الحجاز للدعوة في تلك المرحلة، ولإقامة دولة إسلامية بها في مجتمع قريب من مكة. ولكن ثقيفًا خشيت على كيانها السياسي والديني من الإسلام، وكان قيام دولة إسلامية بزعامة النبي ﷺ يقضي على سيادة ثقيف خاصة، وأن الإسلام يضع حداً لهذه الوثنية العمياء التي أصبحت مورداً اقتصادياً مهماً لثقيف. وتقول المصادر الصينية أن أبا لهب عندما علم بنية الرسول ﷺ التوجه إلى الطائف سبقه سريعاً إلى هناك حيث قام بتحريض ثقيف ضده زاعماً لهم أنه قادم لينال من أصنامهم ومن عباداتهم.[12] ولعل هذا يفسر لنا لماذا وقفت ثقيف ضد الرسول ﷺ.

خرج النبي ﷺ من مكة متجهاً إلى الطائف في شهر شوال في السنة العاشرة بعد البعثة الشريفة للقاء مع زعماء ثقيف وهم سادة الطائف آنذاك. فقد سلك رسول الله ﷺ في رحلته الأولى إلى الطائف من حنين، ثم نخلة اليمانية، ثم على دحنا فالطائف (حوايا وشهار) متجهاً ناحية المثناة.

قال ابن إسحاق: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير ومسعود بن عمرو وحبيب بن عمرو بن عمير، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جُمع، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، فقال أحدهم وهو يمرط ثياب الكعبة: إن كان الله قد أرسلك، ويقول الأخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك، وقال ثالث : والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك، فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني. وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه ذلك. فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبّونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط

---

[11] الحضراوي، كتاب اللطائف في تاريخ الطائف، منشور في: المرجع في تاريخ الطائف، إعداد محمد الزايدي (القاهرة ٢٠٠٨)، ص ٩ .

[12] Liu Chai-Lien, *The Arabia Prophet: The Life of Mohammed from the Chinese Sources*, Eng. trans. Isaac Mason (London 1921), 121.

لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه سفهاء ثقيف، فعمد إلى ظل حلبة من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من الصبية. وقد لقي رسول الله ﷺ المرأة التي من بني جُمح فقال لها: ماذا لقينا من أحمائك، أي أقارب الزوج. لقد جعلوا يرمونه بالحجارة حتى دُميت قدماه، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه.[١٣]

فلما رآه ابنا ربيعة ــ عتبة وشيبة ــ ما لقي تحركت له رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس، فقالا له خذ قطفاً من هذا العنب وضعه في هذا الطبق ثم اذهب إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه. ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له: كُل. فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه قال بسم الله ثم أكل. فنظر عداس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له رسول الله ﷺ: ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس وما دينك؟ قال: نصراني من أهل نينوى. فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى. فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي. فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.[١٤]

قال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك يا عداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه. قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي. فقالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه، وعندئذ أسلم عداس.[١٥]

ثم انصرف رسول الله ﷺ عنهم وبات ببطن نخلة اليمانية فقرأ تلك الليلة من القرآن وقام في الليل يصلي، فاستمع إليه سبعة نفرٍ من جن أهل نصيبين، فاستمعوا له فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا له، فقص

---

[13] ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢ (بيروت د.ت.)، ص ٥٩ –٦١؛ ابن فهد، جار الله بن عبد العزيز، تحفة اللطائف في فضائل الحبر ابن عباس ووج والطائف، تحقيق محمد سعيد كمال و محمد منصور الشقحاء (الطائف د.ت.)، ص ٦٣؛ الكناني، نشر اللطائف، ص ٤٤–٤٥.

[14] الميورقي، بهجة المهج، ص ٤٤–٤٥؛ العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٤٩–٥٠؛ ابن فهد، محمد بن محمد بن محمد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ج ١ (القاهرة/مكة المكرمة ١٩٨٣م)، ص ٣١١.

[15] ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٦١؛ الميورقي، بهجة المهج، ص ٤٥؛ ابن فهد، تحفة اللطائف، ص ٦٤؛ ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٤ (بيروت د.ت.)، ص ٤٦٧.

الله خبرهم عليه ﷺ،[16] قال تعالى: ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ إلى قوله: ﴿ويجركم من عذاب أليم ﴾.[17] وقال تعالى:﴿ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرءاناً عجبا ﴾.[18]

وكان ممن دعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام بني عامر بن صعصعة، فلم يستجيبوا لدعوته. ثم دخل رسول الله ﷺ مكة راجعاً من الطائف ومعه زيد بن حارثه مولاه في جوار المعتصم بن عدي وبنيه وبني أخيه. وعند عودته إلى مكة دعا ﷺ بهذا الدعاء: "اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، وأنت ربي، إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله."[19] وهذا الدعاء معروف باسم دعاء الطائف.[20] فأرسل الله ﷻ ملك الجبال يقول له: "يا محمد إن ربك يقرئك السلام وقد سمع قول قومك لك، وإن شئت أطبق عليهم الأخشبين" (وهما من جبال مكة)، فقال له رسول الله ﷺ: "بل استأن بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده وحده ولا يشرك به شيئاً".[21]

وهذا يدل على أن قريشاً كانت قد أجمعت على عدم دخوله ﷺ مكة بسبب ذهابه إلى الطائف ودعائه لهم. ولا نغالي إذا قلنا أنه لو كانت زيارته للطائف قد نجحت وتفهمت ثقيف الدعوة لربما كانت الطائف هي مدينة الرسول ﷺ لا يثرب.[22]

---

16 العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٥٠. Liu Chai-Lien, *The Arabia Prophet*, 122.

17 القرآن الكريم، سورة الأحقاف، آيات ٢٩ ـــ ٣١ .

18 القرآن الكريم، سورة الجن، آية رقم ١ .

19 ابن فهد، تحفة اللطائف، ص ٦٣؛ الكناني، نشر اللطائف، ص ٤٥-٤٦؛ العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٤٩.

20 محمد الزايدي، المرجع في تاريخ الطائف (القاهرة ٢٠٠٨)، ص ١٦٨.

21 ابن القيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر الدمشقي، زاد المعاد في هدي العباد، ج ٣، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٢٨ – ٢٩؛ الندوي، أبي الحسن علي، السيرة النبوية، تحقيق سيد عبد الماجد الغوري، ج ٤ (دمشق لعام ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م)، ص ٢١٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢ (بيروت د.ت.)، ص ٥٠٩؛ العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٥٢-٥٣.

22 القسطلاني، المواهب اللدنية، تحقيق منيع عبد الحليم محمود ج ١ (القاهرة د.ت.)، ص ١٥٨– ١٥٩.

لقد كانت رغبته عليه الصلاة والسلام في ضم الطائف إلى جانبه كمدينة منافسه لقريش في رحلته هذه، لما كان يدركه في أهمية المدينة في الناحية التجارية والاقتصادية والسياسية في الحجاز بعد مكة، ومناصرته من زعماء ثقيف، لكنهم خيبوا رجاءه وأمله في ذلك.[٢٣]

عاد النبي ﷺ للمرة الثانية إلى الطائف بعد فتح مكة في شوال حينما فرغ من غزوة حنين، فسلك منها مشى على نخلة اليمانية، ثم على قرن، فبحرة الرغاء من لية، ثم سلك من لية على نخب، حتى مر في طريق سماها اليسرى، ثم خرج منها إلى الصادرة حتى انتهى إلى حصن الطائف.[٢٤] ويذهب بعضهم إلى أن وادي حُنَين حيث وقعت غزوة حنين بين المسلمين وبين هوازن وثقيف في أعقاب فتح مكة، إنما تقع بين الشرائع والزيمة، وأن جيوش المسلمين قضت الليل على أبواب الوادي، وهو بين هاتين المحلتين، والذي كان يسمى يومئذ وادي حنين.[٢٥] ولما انهزمت هوازن يوم حنين وقتل دريد بن الصمة، أتى فلهم أوطاس فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعري فقتل؛ فقام يأمر الناس أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري وأقبل المسلمون إلى أوطاس وكان مالك بن عوف بن سعد بن بكر بن هوازن، وكان زعيم هوازن يومئذ قد هرب إلى الطائف فوجد أهلها مستعدين للحصار، وقد دخلوا حصنهم واجتمعوا فيه فأقاموا بها.

وهكذا، على أثر هذه الهزيمة التي حلت بجموع المشركين من هوازن وثقيف وحلفائها في وادي حنين انهزمت هذه الفلول باتجاهات مختلفة، فمنهم من عسكر بأوطاس، ومنهم من رجع إلى حصن الطائف، وأغلب هؤلاء من هوازن وثقيف وحلفائها من بني نصر وبني رئاب، وبهذا الانتصار الذي حققه الرسول ﷺ آن الأوان للطائف وهي آخر قلاع المشركين في الحجاز أن تدخل في الإسلام طوعاً، ولم يشهد

---

[23] عبد الجبار السبيدي، الطائف ودور قبيلة ثقيف، ص ١١٣ .

[24] العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٥٠-٥١.

[25] محمد حسين هيكل، في منزل الوحي (القاهرة ١٩٧٩)، ص ٢٩٨، ٣١٣.

حنيناً ولا حصار الطائف عروة بن مسعود الثقفي ولا غيلان بن سلمه الثقفي، كانا يتعلمان صنعة الدبابات والمنجنيق والضبور[٢٦] في جرش.[٢٧]

ثم إن رسول الله ﷺ سلك إلى الطائف من حنين على نخلة اليمانية ثم على قرن ثم على المليح ثم على بحرة الرغاء من لية فابتنى بها مسجداً فصلى فيه، فأقاد يومئذ ببحرة الرغاء حين نزلها بدم، وهو أول دم أقيد به في الإسلام، رجلاً من بني ليث قتل رجلاً من بني هذيل فقتله رسول الله ﷺ وأمر رسول الله وهو بلية بحصن مالك بن عوف فهدم، ثم سلك في طريق يقال له الضيقة، فلما توجه فيها سأل على اسمها، فقال: ما اسم هذه الطريق؟ فقيل له: الضيقة، فقال: بل هي اليسرى، ثم خرج رسول الله ﷺ على نخب حتى نزل تحت سدرة يقال لها الصادرة قريباً من مال رجل من ثقيف بعد رفضه أوامره بالخروج من الحائط، فأرسل إليه رسول الله ﷺ إما أن تخرج وإما نخرب عليك حائطك، فأبى أن يخرج، فأمر رسول الله بتخريبه.[٢٨]

سار رسول الله ﷺ بالمسلمين حتى نزل الطائف فرمتهم ثقيف بالحجارة والنبل، ونصب رسول الله ﷺ منجنيقاً على حصنهم، على أثر نصيحة سلمان الفارسي له بقوله "يا رسول الله أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم، فإنا كنا بأرض فارس ننصب المنجنيقات على الحصون وتنصب علينا، فنصيب من عدونا ويصيب منا بالمنجنيق، وإن لم يكن المنجنيق طال البقاء. فأمره الرسول فعمل المنجنيق بيده"،[٢٩] وكانت مع المسلمين دبابتين من خشب مغطاة بجلود البقر فألقت عليهما ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فأحرقتها فأصيب من تحتها من المسلمين.[٣٠] وكان حصار رسول

---

[26] آلات حرب تستخدم في الحروب. انظر ابن هشام، السيرة، ج ٤، ص ١٠٣؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٢ (بيروت د.ت.)، ص ٤٥٣ .

[27] جرش: هي كورة نجد العليا، وهي من ديار عنز ويسكنها ويترأس فيها العواسج من أشراف حمير، وهو من ولد يريم ذي مقار القيل ولهم سؤود عود وجابة اليمانية في أرض نجد إليهم. لمزيد من التفاصيل عنها انظر الهمداني، الحسين بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع (الرياض ١٩٧٤م)، ص ٢٥٥-٢٥٨.

[28] العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٥١.

[29] عبد العزيز بن إبراهيم العمري، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ (الرياض ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ص ٢٣٠.

[30] ابن فهد، تحفة اللطائف، ص ٦٥.

الله ﷺ للطائف خمسة عشر ليلة وقيل بضعاً وعشرين ليلة وقيل ثمانية عشر يوماً، وكان غزوه إياها في شوال سنة ثمان من الهجرة.[31]

مضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريباً من الطائف مروراً على حوايا ثم شهار فضُرب عسكره فقتل أناس من أصحابه بالنبل، وذلك أن العسكر اقترب من حائط الطائف فكانت النبل تنالهم، ولم يقدر المسلمون أن يدخلوا حائطهم، أغلقوه دونهم، فلما أصيب أولئك النفر من أصحابه بالنبل ارتفع فوضع عسكره عند مسجده الذي بالطائف اليوم،[32] فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة ومعه امرأتان من نسائه، هما أم سلمة بنت أبي أمية وزينب بنت جحش فضرب لهما قبتين فصلى بين القبتين ما أقام.[33] فحاصرهم رسول الله ﷺ وقاتلهم قتالاً شديداً وتراموا بالنبل حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف، دخل نفر من أصحابه تحت دبابة[34] ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فخرجوا من تحتها فرمتهم ثقيف بالنبل وقتلوا رجالاً،[35] فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف فوقع فيها الناس يقطعونها، وتخريب بساتينها، أحد مواردهم الاقتصادية المهمة، فالأعناب غلتهم الرئيسية ومصدر الثروة لمدينتهم. لكنها لما رأت ما عزم عليه المسلمون من القطع طلبوا من الرسول الكف عن قطع الأعناب وتركها لله وللرحم،[36] فوافق على طلبهم.[37]

ونادى منادي رسول الله أيما عبد ينزل من الحصن ويخرج إلينا فهو حر. فخرج بضعة عشر رجلاً منهم أبو بكرة، والمنبعث، والأزرق (أبو عبيدة بن الأزرق)،

---

[31] البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان (بيروت ١٤٠٣هـ)، ص ٦٧؛ العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٥٥ ؛ صالح الجودي، الطائف بين الموروثات والمستجدات، ص ١٠٥-١٠٧.

[32] وقد حدده أحد المؤرخين بعد ظهور مسجد عبد الله بن عباس بأنه في أحد مسجد عبد الله بن عباس تجاه القبلة (القبة)، حماد السالمي، المعجم الجغرافي لمحافظة الطائف، ج ٣ (الطائف ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ص ١٢٨٧- ١٢٨٨.

[33] ابن هشام، السيرة، ج ٤، ص ١٠٥-١٠٦؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ١٤٤٥ العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٥١.

[34] الدبابة آلة حربية يدخل فيها الرجال فيدبون إلى الأسوار ينقبونها وهم بداخلها. انظر، محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة، مج ٢ ، ج ٣، ص ١٥٥

[35] Liu Chai-Lien, *The Arabia Prophet*, 223.

[36] عبد الجبار العبيدي، الطائف ودور قبيلة ثقيف، ص ١٥٠.

[37] ابن فهد، تحفة اللطائف، ص ٦٥-٦٦.

ووردان، ومحنس النبال، وإبراهيم بن جابر، وسيار، ونافه بن السائب، ومرزوق، فأعتقهم جميعا وقال: "هؤلاء هم عتقاء الله عز وجل". ودفع كل منهم إلى نفر من المسلمين يؤمنه ويحمله، وأمرهم أن يقرؤهم القرآن، ويعلموهم السنن.[٣٨]

قال ابن إسحاق: قد بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر بن أبي قحافة وهو محاصر ثقيفاً بالطائف: "يا أبا بكر إني رأيت أنه أهديت لي قبعة مملوءة زبداً فنقرها ديك فاهراق ما فيها. فقال أبو بكر: ما أضن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد يا رسول الله. فقال رسول الله: وأنا لا أرى ذلك".[٣٩] وقال عمر بن الخطاب ﷺ: يا نبي الله أدع عليهم ــ وفي رواية أدع على ثقيف ــ فقال رسول الله ﷺ: إن الله لم يأذن لي في ثقيف. فقال: فكيف نقاتل في قوم لم يؤذن الله فيهم؟ فارتحلوا.[٤٠]

هذه الطائف التي مرّ بها النبي ﷺ والتي تقع على ظهر جبل غزوان وعلى سهل فسيح من الأرض ومعه جيش المسلمين، أتاها فاتحاً بعد الانتصار الكبير الذي حققه في غزوة حُنين. ثم إن خولة بنت حكيم السُلمية وهي امرأة عثمان بن مظعون قالت: يا رسول الله أعطني إن فتح الله عليك حُلي بادية بنت غيلان أو حُلي الفارعة بنت عقيل، وكانتا من أكثر النساء حُلياً. فقال لها رسول الله ﷺ: أرأيت إن كان لم يؤذن لي في ثقيف يا خولة؟ فخرجت فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب ﷺ، فدخل عمر وقال: يا رسول الله ما حديث حدثتنيه خولة أنك قد قلته. قال أفلا أؤذن بالرحيل يا رسول الله؟ قال: بلى. فأذن عمر بالرحيل، وقيل أن رسول الله استشار نوفل بن معاوية الدئلي في المقام عليهم، فقال: يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك، فأذن بالرحيل. فلما رجع الناس قال رجل: يا رسول الله أدعُ على ثقيف، فقال: "اللهم أهدِ ثقيفاً وآتِ بهم".[٤١]

---

[38] ابن فهد، تحفة اللطائف، ص ٦٦.

[39] الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ١٧٢– ١٧٣.

[40] الحضرلوي، اللطائف في أخبار الطائف، ص ١٥.

[41] الميورقي، بهجة المهج، ص ٣٦؛ ابن فهد، تحفة اللطائف، ص ٦٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله القاضي، ج ١ (بيروت ١٤١٥هـ)، ص ٢٦٢؛ العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٥٢. انظر أيضاً صالح الجودي، الطائف بين الموروثات والمستجدات، ص ١٠٧–١٠٨.

ونزل على رسول الله ﷺ في إقامته عندما كان محاصراً بالطائف بعض عبيد ثقيف، فأسلموا فأعتقهم رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق: لما أسلم أهل الطائف تكلم نفر عنهم في أولئك العبيد، فقال رسول الله ﷺ: لا أولئك عتقاء الله، وكان ممن تكلم فيهم الحارث بن كلدة، وممن استشهد من المسلمين مع رسول الله ﷺ يوم الطائف من أصحاب رسول الله، اثنا عشر رجلاً، سبعة من قريش، وأربعة من الأنصار، ورجل من بني ليث، وهؤلاء الصحابة رضوان الله عنهم دفنوا في مقبرة الشهداء بجوار مسجد عبد الله بن عباس.[42] ثم خرج رسول الله ﷺ حين انصرف عن الطائف على دحنا حتى نزل الجعرانة فيمن معه من الناس، ومعه من هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء ومن الإبل والشاة مالا يدري ما عدته.[43] فلما رجع النبي ﷺ إلى الجعرانة قدمت إليه وفود هوازن مسلمين فأعتق أبناءهم ونساءهم كلهم، ثم سلك ﷺ منها على قرن المنازل ثم على نخلة اليمانية حتى خرج إلى الجعرانة ونزلها وقسم غنائم حنين، ومنها أحرم لعمرته ودخل مكة لأداء نسكها لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة، ثم رجع إلى الجعرانة وأصبح بها كبائت ورجع إلى المدينة ثم قدم عليه وفد من ثقيف فأسلموا، ثم فشي الإسلام فيهم وثبتوا عليه حينما ارتد غيرهم من العرب، وقتلوا من ارتد منهم إجابة لدعائه ﷺ بقوله: "اللهم أهد ثقيفاً وآتِ بهم".[44]

قال اليافعي رحمه الله تعالى: فإن قيل ما الحكمة في تأخير فتح الطائف عن عامئذ؟ قيل اقتضت الحكمة الإلهية أن يؤخر لئلا يستأصلوا قتلا، وذلك لما تقدم من خروجه ﷺ إلى الطائف يدعوهم إلى الله تعالى فكذبوه، فناسب قوله ﷺ بل أستأني بهم لعلّ الله يخرج من أصلابهم من يعبده ولا يشرك به شيئاً، وقوله بل أستأني بهم أن لا يفتح حصنهم لئلا يقتلوا عن آخرهم، وأن يؤخر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين، فقدموا

---

[42] تم بناء مسجد عبد الله بن عباس عام ٥٩٢ هـ في خلافة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء العباسي (٥٧٥-٦٢٣ هـ). وقد جددت عمارة هذا المسجد عدة مرات بعد ذلك. عنه انظر: صالح الجودي، الطائف بين الموروثات والمستجدات، ص ١١٥-١١٧؛ سليمان بن صالح بن سليمان آل كمال، مساجد الطائف داخل السور، تاريخ عمارتها ودورها العلمي (الطائف ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ص ١٤-٢٦.

[43] ابن هشام، السيرة، ج ٤، ص ١٠٨-١١١.

[44] الميورقي، بهجة المهج، ص ٣٦.

في سنة تسع من رمضان من العام المقبل.[45] ومنها استجابة الله لرسول ﷺ دعاؤه لثقيف أن يهديهم ويأتي بهم وهم قد حاربوه وقتلوا جماعة من أصحابه وقاتلوا رسول الله الذي أرسله الله إليهم يدعوهم إلى عبادة الله،ومع هذا كُله فدعا لهم ولم يدع عليهم وهذا من كمال رأفته ورحمته ونصيحته ﷺ.[46]

وعن ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر قال: ثم خرج رسول الله ﷺ ومعه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكة، فكانوا اثني عشرة ألفاً، واستعمل رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أميه بن عبد شمس على مكة أميراً على من غاب عنه من الناس، ثم مضى على وجهه يريد لقاء هوازن، إلا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، وممن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وابنه الفضل، وأبو سفيان بن الحارث وربيعة بن الحارث وأيمن بن عبيد ــ وهو أيمن ابن أم أيمن ــ وأسامة بن زيد بن حارثة، وممن كان من أصحابه أيضاً مع رسول الله ﷺ عند حصار الطائف عبد الله بن أبي بكر الصديق حيث رمي بسهم رضوان الله عليهم.[47]

وهذه الكوكبة من صحابة رسول الله رضوان الله عليهم أتوا إلى الطائف بعد غزوة هوازن وثقيف بحنين مع جيش المسلمين فكان يوماً مجيداً فاخر به الأهالي وسجله التاريخ بمداد من النور لأنه كان بداية لعهد جديد يرسم صولات وجولات للطائف ورجالاته بعد دخول هذه المدينة وأهلها إلى الإسلام .

وتجدر الإشارة هنا إلى من استشهدوا في الطائف من أصحابه رضوان الله عليهم في غزوة النبي ﷺ لثقيف، وهم اثنا عشر رجلاً ويضيف بعضهم عبد الله بن أبي بكر الصديق، لأنه جرح في غزوة الطائف وتوفي متأثراً من جراحه بعد وفاة الرسول ﷺ، فقد أصابه بالطائف سهم مع رسول الله ﷺ رماه أبو محجن الثقفي، وتوفي رضي الله عنه في شهر شوال في السنة الحادية عشر من الهجرة، فيكونون

---

[45] العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٥٢ -٥٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٣، ص ٥٦٢.

[46] ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج ٣ (القاهرة ١٩٧٠)، ص ٤٣٣ -٤٣٤، ٤٤١ -٤٤٢.

[47] الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ٤٤٢.

ثلاثة عشر سبعة من قريش وأربعة من الأنصار وواحد من بني ليث وآخر من ثقيف وهم:[48]

١. عبد الله بن أبي بكر الصديق، لم يمت بالطائف وإنما جرح في غزوة الطائف وتوفي بالمدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ .
٢. سعيد بن سعد بن العاص[49] بن أميه بن عبد شمس القرشي الأموي أسلم قبل الفتح بيسير وقتل شهيداً يوم الطائف .
٣. عرفطة بن حباب بن عبد الله بن أميه توفي شهيداً في هذه الغزوة .
٤. السائب بن الحارث بن قيس أحد المهاجرين إلى الحبشة قتل في هذه الغزوة
٥. عبد الله بن الحارث بن قيس أحد المهاجرين إلى الحبشة أيضاً وهو أخو السائب قتل في هذه الغزوة .
٦. طلحة بن عبد الله بن ربيعة قتل في غزوة الطائف بسهم من أحد أهلها.
٧. ثابت بن الجذع ويسمى ثعلبة الأنصاري السلمي شهد العقبة وبدراً وقتل بالطائف شهيداً .
٨. الحارث بن سهيل بن أبي صعصعة الأنصاري قتل في هذه الغزوة .
٩. المنذر بن عبد الله الأنصاري من الخزرج من شهدائها .
١٠. رقيم بن ثابت بن ثعلبة بن زيد الأنصاري من شهدائها .
١١. رجل من ليث : جليحة بن عبد الله من شهدائها .
١٢. عروة بن مسعود الثقفي من شهدائها.[50]
١٣. عبد الله بن عامر بن ربيعة من شهدائها.

وقد دفن هؤلاء الشهداء في مقبرة الشهداء الواقعة بجانب مسجد عبد الله بن عباس ﷺ من الجهة الشرقية من المسجد جنوبي مدينة الطائف القديمة القائمة آنذاك،

---

[48] ابن هشام، السيرة، ج ٤، ص ١٠٩-١١٠؛ ابن فهد، تحفة اللطائف، ص ١٤٢؛ الكناني، نشر اللطائف، ص ٨٤-٨٥؛ العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٧١. انظر أيضاً: خير الدين الزركلي، ما رأيت وما سمعت (الطائف ١٣٩٨هـ)، ص ١٠٢- ١٠٣.

[49] يذكر الحضرمي اسمه على النحو التالي سعد بن سعيد بن العاص. انظر العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٧١.

[50] عن قصة استشهاده على أيدي ثقيف انظر شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف، ص ٢١٠-٢١١.

وبجانب سوره القديم وحوله قبور الشهداء من الصحابة الذين استشهدوا في حصار الطائف رضي الله عنهم أجمعين .

وكما ذكر لم يدم مكوث الرسول ﷺ بالجعرانة بعد فك الحصار عن الطائف طويلاً، فقد بقي ثلاث عشرة ليلة فقط، بعدها انتقل إلى مكة لتأدية العمرة والعودة إلى المدينة بعد أن رتب أمور مكة، وعين عليها عتاب ابن أسيد وهو من بني أمية بن عبد شمس.[٥١]

وقد انصرف رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ليقسم سبي أهل حنين وغنائمهم، فخافت ثقيف أن يعود إليهم فبعثوا إليه وفدهم فصالحهم على أن يسلموا ويقرهم على ما في أيديهم من أموالهم وركائزهم، واشترط عليهم أن لا يربوا ولا يشربوا الخمر وكانوا أصحاب ربا أيام الجاهلية وكتب لهم كتاب، وكانت الطائف تسمى وجاً فلما حصنت وبني سورها سميت الطائف.[٥٢] وكان وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ بضعة عشر رجلاً فيهم كنانة بن عبد ياليل وعثمان بن أبي العاص وأسلموا جميعاً وكانوا من سادات ثقيف .

وسأل رسول الله ﷺ عن مالك بن عوف. فقيل: إنه بالطائف. فقال: أخبروه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة بعير، فأخبر مالك بذلك فخرج من الطائف سراً ولحق برسول الله ﷺ فأسلم وحَسُنَ إسلامه، واستعمله رسول الله على قومه وعلى من أسلم من تلك القبائل التي حول الطائف، فأعطاه أهله وماله ومائة بعير، وكان يقاتل بمن أسلم معه من ثمالة وفهم وسلمة وثقيفاً لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم.[٥٣]

وفيها قدم عُروة بن مسعود الثقفي على النبي ﷺ مسلماً، وقيل بل أدركه في الطريق مرجعه من الطائف، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام فقال رسول الله ﷺ: إنهم قاتلوك. فقال: أنا أحب إليهم من أبكارهم، ورجا أن يوفقوه لمنزلته فيهم، فلما رجع إلى الطائف صعد إلى عِلية له وأشرف منها عليهم وأظهر الإسلام ودعاهم إليه،[٥٤]

---

[51] عبد الجبار العبيدي، الطائف ودور قبيلة ثقيف، ص ١٦٥– ١٦٦ .

[52] البلاذري، فتوح البلدان، ص ٦٧.

[53] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٢٦٣، ٢٦٦ .

[54] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ٢٦٦ .

فرموه بالنبل فأصابه سهم فقيل له: ما ترى في دمك ؟ فقال: كرامة أكرمني الله بهسا وشهادة ساقها إليّ، ليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مــع رســول الله فــادفنوني معهم، فلما مات دفنوه معهم، وقال رسول الله ﷺ فيه: إن مثله في قومه كمثل صاحبه ياسين في قومه، وأن غيلان بن سلمه الثقفي أنه أسلم بعد الفتح ولم يهاجر وهــو أحــد وجوه ثقيف، مات في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ.

وفي السنة التاسعة من الهجرة في رمضان قدم وفد من ثقيف على رســول الله ﷺ وسبب ذلك أنهم رأوا أن من يحيط بهم من العرب قد نصبوا لهم القتال وشــنوا الغارات عليهم بعد أن أسلموا، وكان أشهرهم في ذلك مالك بن عوف النــصري فــلا يخرج منهم مال إلا نهب ولا إنسان إلا أخذ، فلما رأوا عجزهم اجتمعوا وأرسلوا سفيان ابن عبد الله، عبد ياليل بن عمرو بن عمير، والحكم بن عمرو بن وهب، وشرحبيل بن غيلان، وهو من الأحلاف، وأرسلوا من بني مالك عثمان بن أبي العاص، وأوس بــن عوف، ونمير بن خرشة؛ فخرجوا حتى قدموا على رسول الله ﷺ في المدينة فــأنزلهم في قبة في المسجد. فكان خالد بن سعيد بن العاص يمشي بينهم وبين النبي ﷺ، وكــان رسول الله ﷺ يرسل إليهم ما يأكلونه مع خالد، وكانوا لا يأكلون طعاماً حتى يأكل خالد منه، حتى أسلموا. ولكن في جاهلية طلبوا من الرسول ﷺ أن يبقــي الــلات ثــلاث سنوات، فرفض؛ فطلبوا سنتين، فرفض؛ فطلبوا سنة فرفض أيضاً؛ فطلبوا شهراً فأبى، وكيف يقرهم على الوثنية ساعة زمن.[55]

وقد سألوا النبي ﷺ ألا يكسروا أصنامهم بأيديهم، فأجابهم وأرسل المغيرة بــن شعبة وأبا سفيان بن حرب ليهدماها. كما طلبوا من النبي ﷺ أن يعفيهم مــن الــصلاة فقال لهم: "لا خير في دين لا صلاة فيه". وقد كان النبي قد أقامهم في خباء في المسجد ليروا الناس، إذا صلوا فيستأنسوا بالصلاة. وقد أخذا الوفد يسأل النبي عن عدة أمــور في الدين كالزنا وشرب الخمر والربا، والنبي يجيب على أسئلتهم. وقد انتهــى الأمــر بإسلام وفد ثقيف، وقام النبي بتأمير عثمان بن أبي العاص عليهم، وكان أصغرهم سناً وأنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن. فقال أبو بكر لرسول الله ﷺ: "يا رسول الله إني قد رأيت هذا الغلام فيهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم

---

[55] الكناني، نشر اللطائف، ص ٤٨-٥٠؛ صالح الجودي، الطائف بين الموروثات والمستجدات، ص ١٠٩.

القرآن". ثم رجعوا إلى بلادهم وأرسل رسول الله ﷺ معهم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان بن حرب ليهدموا صنم اللات، فتقدم المغيرة فهدمها. وقام قومه من بني شُعيب دونه خوفاً أن يُرمى بسهم، وخرجت نساء ثقيف حسراً يبكين عليها، وقد أخذ حليها ومالها.[٥٦] وكان هذا أول أمير على الطائف في عهد النبي ﷺ في العهد الإسلامي فلم يزل عليه مدة حياته ﷺ وخلافة أبي بكر الصديق ﷺ وخلافة عمر بن الخطاب ﷺ فيها سنتين، ثم عزله وولاه عُمان والبحرين. وعندما بدأ وفد ثقيف رحلته راجعا إلى الطائف توجه الرسول عليه الصلاة والسلام بالنصيحة لأمير الطائف عثمان بن أبي العاص فقال له: يا عثمان تجاوز في الصلاة، وأقدر الناس بأضعفهم، فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة، وصاحبهم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم اللات في الطائف، وأمر الرسول بأن يقضى من مال اللات دين عروة والأسود ابني مسعود.[٥٧]

وكتب الرسول ﷺ لوفد ثقيف كتاباً هذا نصه:[٥٨] **"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المؤمنين، إن عضاة وَجّ وصيده لا يعضد من وجه، من يفعل من ذلك شيئاً فإنه يجلد وينزع ثيابه، وإن تعدى بعد ذلك فإنه يؤخذ ويبلغ النبي محمد، فإن هذا أمر النبي محمد رسول الله. وكتبه خالد بن سعيد بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم".[٥٩]**

وكتب خالد بن سعيد: بأمر الرسول محمد بن عبد الله فلا يتعدّه أحد فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله ﷺ. وذكر في بعض الأقوال: فقد حرُمَ في وقت

---

[56] ابن هشام، السيرة، ج ٤، ص ١٥٥؛ ابن فهد، تحفة اللطائف، ص ابن فهد، تحفة اللطائف، ص ٤٧٦؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ٤٥٠-٤٥١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٢٦٦. انظر أيضا: صالح الجودي، الطائف بين الموروثات والمستجدات، ص ١٠٩-١١٢؛ محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ق٢ (بيروت د.ت.)، ص ١٣٣٣-١٣٣٧.

[57] ابن فهد، تحفة اللطائف، ص ٧١-٧٢. انظر أيضاً نادية صقر، الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ص ١٠٩.

[58] ظل شيوخ ثقيف يتوارثون هذا الكتاب جيلاً بعد جيل حتى فُقد أثناء إغارة الشريف قتادة عليهم. انظر الميورقي، بهجة المهج، ص ٣٨؛ ابن فهد، تحفة اللطائف، ص ١٤٣-١٤٤.

[59] الميورقي، بهجة المهج، ص ٤٢؛ ابن فهد، تحفة اللطائف، ص ٧٧؛ ابن علان، طيف الطائف في فضل الطائف، مخطوط بمكتبة الحرم المكي، رقم ٣٥١٠، ورقة ١٢؛ العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٤٥-٤٦.

معلوم. قيل في لسان العرب: ويحتمل أن يكون حرّمته في وقت معلـوم. ثـم نـسخ. ورغم المقاومة التي قاومتها ثقيف للإسلام وللرسول فقد أخلصت للإسـلام إخلاصـاً دائماً، وفي ذلك يقول المغيرة بن شعبة: فدخلوا في الإسلام فلا أعلم قوماً من العـرب بني أب ولا قبيلة كانوا أصح إسلاماً ولا أبعد فيهم غِشاً لله ولكتابه.[60]

وكان النبي ﷺ قبل وفاته قد نصب عاملاً على الطائف وأرضها، حيث تولى إمارة الطائف عثمان بن أبي العاص الثقفي، وتولى مالك بن عوف النصري على ثمالة وسلمة وفهم، واستعمل رسول الله على حمى وج سعد بن أبي وقاص، ومالك بن عوف على أهل الوبر أعجاز هوازن.[61] وكان اعتناق قبيلة ثقيف للإسلام في السنة التاسـعة من الهجرة، نهاية لهذا التنافس التقليدي القديم فيما بينهـا وبـين قـريش وأصـبحت المدينتان جزءاً من الدولة الإسلامية.[62]

وبدخول ثقيف في الإسلام انتهت أسطورة الأصـنام، وأصـبح الرسـول ﷺ زعيماً دينياً وسياسياً في شبه الجزيرة العربية كلهـا. واهـتم الرسـول ﷺ وخلفـاؤه الراشدون ــ رضوان الله عليهم ــ بتنظيم الحياة السياسية والاقتصادية في الطائف من خلال تنظيم الزكاة المفروضة على الإنتاج الزراعي. فيروي البلاذري: "أن رسول الله ﷺ **أمر أن تخرص أعناب ثقيف كخرص النخل، بأخذ زكاتهم زبيباً كما تـؤدى زكـاة النخل وكذلك في خلايا العسل، وهو كل عشرة زقاق (زق عسل أي رطل عـسل)**".[63] فقد كانت الطائف من أشهر مدن الحجاز إنتاجاً في شتى المحاصيل الزراعيـة وهـي تنتج أنواع كثيرة من الفواكه والحبوب والأعناب بصفة خاصة والزبيب بصفة عامـة، بجانب الحبوب والتمر الذي يتمتع بشهرة كبيرة وواسعة، أما تربية النحـل واسـتخرج

---

[60] ابن هشام، السيرة، ج ٤، ص ١٥٨؛ ابن سعد، أبو عبد الله محمد بـ سعد الطبقات الكبـرى، ج ٢ (بيـروت ١٩٦٠)، ص ٢٨؛ نادية صقر، الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ص ١٠٩-١١٠ ، ١٣٢ .

[61] ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٨١؛ الطبري، تاريخ الأمـم والملـوك، ج ١، ص ٥٢٤؛ الـصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى،ج ١ (بيروت ٢٠٠٠)، ص ٨١.

[62] تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص ٥٢٤؛ جواد علي، تاريخ العرب قبـل الإسـلام، ج ٤، ص ١٩٢؛ نادية صقر، الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ص ١٣٢.

[63] فتوح البلدان، البلاذري، ص ٦٨.

العسل فكانت من الأعمال الهامة التي اشتهر بها أهل الطائف، وهو أحد مصادر ثروة أهل الطائف سواء في العهد الجاهلي أو عهد الرسول ﷺ.[٦٤]

جدير بالذكر أن الرسول ﷺ وضع سنة حميدة في حُكْم الطائف، فقد رأى أن يرضي مشاعر أهل الطائف فيولي أحد أبنائها الحُكْم، وقد اختار عثمان بن أبي العاص أميراً على الطائف إذ كان متفقهاً في الدين والعلم.[٦٥] وقد مكث أعضاء وفد ثقيف أياماً يغدون على النبي ﷺ ويخلفونه على رحالهم وكان أصغرهم سناً، فكان إذا رجعوا وناموا بالهجرة خرج فعمد إلى النبي ﷺ فسأله عن الدين، فاستقرأه القرآن وأسلم سراً وفقّه في الدين وقرأ في القرآن سوراً[٦٦]، فكان أول أمير في الإسلام وهو أحد الوافدين على النبي ﷺ، فلم يزل عليها مدة حياته ﷺ وخلافة أبي بكر الصديق وخلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنتين، ثم عزله وولاه عُمان والبحرين، وهو أصغرهم سناً له سبعة وعشرون عاماً، وقال للنبي ﷺ يا رسول الله اجعلني إمام قومي، قال: أنت إمامهم، مات بالبصرة سنة إحدى وخمسين.[٦٧]

نسرد في هذه الدراسة ما ورد من أقوال من أهل الرواة في الحديث أو التاريخ من أقوال مأثورة في أمر الطائف في عهد النبي ﷺ، وهذه بعض الروايات التي قيلت عن الطائف:

- عن عبد الملك بن عباد بن جعفر قال: أنه سمع أن رسول الله ﷺ قال: أول من أشفع لهم أهل المدينة وأهل مكة وأهل الطائف، وقد روى هذا الحديث حَرمي بن أبي عمارة، وقال فيه إنه سمع النبي ﷺ يقوله.[٦٨]

---

64 عبد الجبار السبيدي، الطائف ودور قبيلة ثقيف، ص ٥١، ١٥٣؛ نادية صقر، الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ص ١٣٢- ١٣٣ .

65 البلاذري، فتوح البلدان، ص ٧٠.

66 نادية صقر، الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ص ١٣٢-١٣٣ .

67 الحضراوي، اللطائف في تاريخ الطائف، ص ٢٢.

68 الفاكهي، أخبار مكة، تحقيق عبد الملك عبد الله دهيش ج ٣ (بيروت ١٤٠٤هـ)، ص ٧١-٧٢؛ العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٤٦ - ٤٧ ؛ الكناني، نشر اللطائف، ص ٥٥، ٦٠.

- عن أبي نُجيح السلمي قال: حاصرنا مع رسول الله ﷺ قصر الطائف، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: من بلغ بسهمٍ فهو له درجة في الجنة، فبلغت يومئذٍ ستة عشر سهماً.[٦٩]
- ومنها حديث محمد بن أبي عمر، عن خولة بنت حُكيم امرأة عثمان بن مظعون قوله ﷺ إن آخر وطأة وطائها الله تعالى بوج، قال سفيان تفسيره آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ أهل الطائف، قال المنذري، آخر غزوة وطئ الله بها أهل الشرك غزوة الطائف.[٧٠]
- ومنها عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال:لما كان يوم الطائف دعا رسول الله ﷺ علياً ﷺ فانتجاه، فقال بعض الناس: لقد طول نجواه مع ابن عمه. قال رسول الله ﷺ: ما أنا انتجيته لكن الله عز وجل انتجاه.[٧١]
- ومنها عن حبيب بن عبد الرحمن بن سلمان الطائفي ،أنه سمع محمد بن هشام ابن إسماعيل يقول: إن رسول الله ﷺ قال: الطائف بستان مكة.[٧٢]

حيث أن الطائف تقع على جبل وتضم أكبر الحيازات الزراعية وبها أودية جارية وعيون تتضح بالمياه العذبة وتشتهر بفاكهتها الغضة وهوائها العليل وجبالها الشاهقة وإنتاجها من العسل والسمن وأريافها الوادعة. ومنها أن الله تعالى جعلها كالحرمين حرمة وشرف، فنهى عن تنفير صيّدها وعضد شجرها فيما أُخبر عنه ﷺ من قوله: وج حرم الله عز وجل. رواه البغوي في المصابيح، وقوله ﷺ أن وجاً مقدس رواه المحب الطبري، وقوله ﷺ أن الله أمرني أن أقدس وجاً فقدسوها ألا يختلي خلاها ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها، أخرجه النجم بن فهد وغيره، وقوله ﷺ ألا أن صيد وج وعضاضه حرام محرم، رواه البيهقي عن الزبير بن العوام ﷺ.[٧٣] وقد حُرِّم في

---

[69] الفاكهي، أخبار مكة، ج ٣ ص ١٩٢ .

[70] الفاكهي، أخبار مكة، ج ٣، ص ١٩٣؛ العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٤٦ -٤٧

[71] الفاكهي، أخبار مكة، ج ٣، ص ١٩٥ .

[72] الفاكهي، أخبار مكة، ج ٣، ص ٢٠٦ .

[73] الميورقي، بهجة المهج، ص ٣٢؛ الحضرواي، اللطائف في تاريخ الطائف، ص ٤٦ العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٤٥، ٤٧؛ الكناني، نشر اللطائف في قطر الطائف، ص ٥١-٥٢.

وقت معلوم، ثم نسخ؛ وقوله ﷺ : وج على ترعة من ترعة الجنة، رواه الميـورقي.[٧٤] والترعة بالضم كما في القاموس الروضة على المكان المرتفع خاصة، وقيل الدرجـة، كذا في النهاية.

وأما عن فضائل الطائف: فيروى الزبير بن العوام ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: صيد وجّ وعِضاهَه حرمٌ مُحرم. أخرجه أحمد وأبو داود وإسناده ضعيف على ما قـال النووي، ونقل عن الحازمي أن وجاً اسم لحصون الطائف، وقيل لواحد منها حـصن. ومذهب الشافعي رحمه الله تعالى: تحريم صيد وجّ ونفي الضمان فيه ولا أعلـم مـن تحريمه نصاً في المذهب، وقد حُرِّمَ في وقت معلوم ثم نسخ.[٧٥]

ونقل البكري أن صحابة رسول الله ﷺ تواتروا الحديث التـالي عنـه حيث يقولون: "أقبلنا مع رسول الله ﷺ من لية فلما صرنا عند السدرة وقف رسول الله في طرف عند القرن الأسود واستقبل نخبا ببصره ووقف حتى اتفق الناس كلهم وقال إن صيد وج وعضاهها حرم محرم لله وذلك قبل نزوله الطائف وحصاره ثقيفا."[٧٦]

ومنها أن الدين يأزر إليه والخيرات تتوفر لديه، فقد قال رسول الله ﷺ وقـد رأى عبد الله بن العباس ﷺ: لو كان بعدي نبي مرسل لكان عبد الله بن العباس، اللهم فقـه في الدين، وانشر منه وعلمه التأويل وبارك فيه، أنه سيدفن فـي الطـائف فمـن زاره فكأنما زار قبري في طيبة، مكة مِن الطائف والطائف من مكة، قالها ثلاثاً، والمجـاور بالطائف كالمجاور بمكة، غير أن المجار بالطائف لا تتضاعف عليـه الـسيئات كمـا تتضاعف على المجاور بمكة.[٧٧]

---

[74] الميورقي، بهجة المهج، ص ٣٣؛ العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٤٧. الميورقي العبدري (ت ٦٧٨هـ) ولـد في ميورقة في المغرب، ثم أتى إلى الجزيرة العربية ليسكن بوج الطائف. وهو واحد من أقدم مـن كتبـوا عـن الطائف من خلال كتابه مهجة المهج في بعض فضائل الطائف ووج. عنه انظر: محمد سعيد كمال، الطائف فـي كتب المؤرخين (الطائف ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ص ٤٠-٥٨؛ الميورقي، بهجة المهج، ص ٥-١٥ (المقدمة).

[75] الفاسي، تقي الدين محمد المكي، الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، تحقيق علي عمر (القاهرة د.ت.)، ص ١٣، ٥٤-٥٥.

[76] معجم ما استعجم، ج ٤، ص ١٣٠٢.

[77] الميورقي، بهجة المهج، ص ٣٣؛ الحضراوي، اللطائف في تـاريخ الطـائف، ص ٤٨؛ العجيمـي، إهـداء اللطائف، ص ٤٧- ٤٨.

ومن المواضع التي مرّ بها ﷺ حين خرج إلى الطائف، نخلة اليمانية، نزلها رسول الله ﷺ وهو ذاهب يريد الطائف وبها أتاه الجن يستمعون القرآن، ومنها مر الظهران وهما وادي فاطمة والجموم، ومنها لية جنوب الطائف،[78] ومنها عن ابن الزبير بن العوام ﷺ قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من لية حتى إذا كنا عند السدرة وقف النبي ﷺ في طرف القرن الأسود حذوها، واستقبل الناس ببصره، ووقف حتى اتفق الناس كلهم ثم قال: إن صيد وج وعضاه حرام محرّم، وذلك قبل نزوله ﷺ الطائف لحصاره وحِصَارَه لثقيف،[79] ومنها إن رسول الله ﷺ حين أقبل من الطائف أهل من قرن وأحرم منها[80] (أي ميقات السيل الكبير)؛ ومنها أن الله تعالى قرنها بمكة في امتنانه على نبيه ﷺ ومنها مهبط الوحي عليه ﷺ مرتين الأولى عندما غادرها متوجهاً إلى مكة بعد أن دعا ثقيف للإسلام، وبات تلك الليلة ببطن نخلة اليمانية وقرأ القرآن حينما قام في الليل يصلي، فأخبره الله عز وجل حينما استمع إليه نفر من الجن، قال تعالى : ﴿وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾، والثانية عندما شاهد المسلمون الأشجار اليانعة بالثمار على امتداد وج فقد نقل الميورقي عن أبي العالية والضحاك قالا: نظر المسلمون إلى وج وهو وادٍ مخصب بالطائف، فأعجبهم سدره، وقالوا:يا ليت لنا مثل هذا، وقالوا يا رسول الله : أفي الجنة سدر كسدر وج، فأنزل الله تعالى ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ۞ في سدر مخضود﴾[81] أي لا شوك فيه؛[82] ومنها أن الله تعالى جعلها متنفساً لأهل الإسلام خصوصاً لأهل البلد الحرام، كما يشير إليه قوله ﷺ في الحديث المار لما وضع الله الحرم نقل لها الطائف من الشام.[83]

---

[78] الفاكهي، أخبار مكة، ج ٥، ص ٩٨ .

[79] الفاكهي، أخبار مكة، ج ٥، ص ٩٩-١٠٠ .

[80] الفاكهي، أخبار مكة، ج ٥، ص ١٠١.

[81] سورة الواقعة، آيات رقم ٢٧ - ٢٨؛ العجيمي، إهداء اللطائف ص ٤٤ -٤٥، ٤٧.

[82] العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٤٧.

[83] العجيمي، إهداء اللطائف، ص ٥٣؛ حمد بن علي العبدري، بهجة المهج في فضائل الطائف ووج، تحقيق إبراهيم محمد الزيد (الطائف ١٤٠٤هـ)، ص ٤١ .

وفي ختام حديثنا عن الطائف في العصر النبوي تنبغي الإشارة إلى أنه بعد انتشار الإسلام في مكة تفرقت قبيلة قريش في نجد والحجاز، فإضافة إلى إقامتهم في مكة المكرمة، تشير المصادر إلى استيطانهم في الطائف. نظراً لأن الطائف كان مصيف أهل مكة، ومرتاد ذوي الغنى واليسار منهم، يتخذون فيها الضياع ويعمرون الحدائق، ويبنون القصور، لذلك استوطن عدد غير قليل من القرشيين الطائف.[٨٤] فيذكر الهمداني أن آل عمرو بن العاص سكنوا شرقي الطائف.[٨٥] ولا تزال أفخاذ من قبيلة قريش تسكن الجهة القبلية من الطائف وقراه حتى عصرنا الحالي.[٨٦]

---

84 عبد الله بن محمد السيف، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي (بيروت ١٩٨٣م)، ص ٢٢٣.

85 الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٦٠

86 عبد الله السيف، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص ٢٢٣.

أضواء حول مصادر تاريخ دولة المماليك الأولى

دراسة نقدية تحليلية*

د. محاسن الوقاد*

كلية الآداب-جامعة عين شمس

تقدم هذه الدراسة تحليلاً نقدياً لأهم المصادر التاريخية التي أرخت لدولة المماليك البحرية في الفترة من عام ٦٤٨ – ٧٨٤هـ / ١٢٥٠ – ١٣٨٢م، حيث إن هذه الفترة شهدت العديد من الكتابات والمؤلفات التاريخية، وتميزت بكثرة المؤرخين وغزارة إنتاجهم، فقد كانت الحركة العلمية أبان العصر المملوكي مزدهرة ازدهاراً كبيراً، وأصبحت مصر مركزاً علمياً فقصدها العلماء وطلاب العلم من جميع أنحاء العالم الإسلامي لتلقى العلم على يد أكابر مشاهير العلماء الذين ذاعت شهرتهم، وخير دليل على هذا النشاط ما خلفه علماء ذلك العصر من تراث ضخم في مختلف العلوم والفنون.(١)

والحقيقة أنه كانت هناك مجموعة من الأسباب وراء تمركز هذا العدد الهائل من العلماء والمفكرين المسلمين في رحاب دولة سلاطين المماليك في مصر، ذلك أن الكوارث التي أصابت المسلمين في المشرق والمغرب كانت من أهم أسباب هجرة العلماء إلى مصر، فقد شهدت خمسينيات القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي اجتياح المغول لبلدان الشرق الإسلامي والقضاء على الخلافة العباسية في بغداد عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م؛ وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى انهيار الدور الثقافي الذي كانت بغداد تقوم به في الحياة الثقافية العربية الإسلامية، وهاجر الناجون من علمائها إلى مصر. أما في الغرب، فقد كانت الحرب التي شنها الكاثوليك الأسبان ضد المسلمين تؤتى ثمارها، وبدأت المساحة الإسلامية على خريطة شبه الجزيرة الأيبيرية تتراجع أمام زحف المساحة المسيحية، وبالتالي هاجر عدد كبير من علماء تلك البلاد إلى القاهرة.(٢)

---

* سوف نكتفي بذكر المصادر والمراجع كاملة في الهوامش تخفيفا لصفحات البحث.

* أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ط٢، القاهرة ١٩٧٦م، ص٣٤١ وما بعدها؛ لمزيد من التفاصيل انظر محمد كمال الدين عز الدين – الحركة العلمية في مصر عصر المماليك الجراكسة، رسالة دكتوراه غير منشورة بكلية البنات جامعة عين شمس، ١٩٨٩م.

(2) سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط١، ١٩٦٢م، ص١٤١؛ قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية للتاريخ قراءة في التراث التاريخي العربي، ط٢، القاهرة ١٩٨٥م، ص١١٥ – ١١٦؛ مصر

ولقد أهتم سلاطين المماليك برعاية العلم والعلماء، بل لقد اشتغل بعضهم بدراسة الفقة والتاريخ والجغرافيا والحديث واللغة العربية.(٣)

يضاف إلى ذلك اهتمام سلاطين المماليك بالمنشآت العلمية كالمدارس والمكتبات، ولا أدل على رعاية سلاطين المماليك للنشاط العلمي من حرصهم على إنشاء كثير من المدارس والمكتبات، فالنشاط العلمي في أي زمان ومكان هو الكتب والمكتبات فبدونهما لا تستطيع المدارس أن تؤدى مهمتها، ولا يستطيع المتعلمون والمعلمون أن يواصلوا رسالتهم، ولذلك فقد شهد عصر المماليك نشاطاً منقطع النظير في التأليف من ناحية وفي جمع الكتب وإنشاء المكتبات والعناية بها من ناحية ثانية.(٤)

وهناك المكاتب التي ألحقت بالجوامع والمدارس والغرض الأساسي منها في عصر المماليك كان تعليم أيتام المسلمين.(٥)

ويلاحظ أن الدراسة في هذا الموضوع تجعل الباحثة أمام عدة صعوبات يمكن إيرادها فيما يلى :

الأولى: تعدد وتنوع المصادر التاريخية المخطوطة والمطبوعة، بالإضافة إلى كثرتها، وتأتى المصادر في المرتبة الأولى بين مصادر التاريخ الإسلامي لأي عصر من العصور لما تحتويه من مادة تاريخية أصيلة غير قابلة للتحريف.

والثانية: عدم توازن التأليف التاريخي، فهناك مراحل استأثرت باهتمام المؤرخين لاسيما ما اتصل بفترة الملك الظاهر بيبرس ٦٥٩ – ٦٧٦هـ / ١٢٦٠ – ١٢٧٧م، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة المماليك، والذي فتح أبواب مصر أمام الفقهاء والعلماء الذين فروا أمام جحافل الغزو المغولي القادم من الشرق، والاجتياح الصليبي من الغرب ؛ أو فترة الملك الناصر محمد بن قلاوون ٦٩٣ – ٧٤١هـ / ١٢٩٣ – ١٣٤١م ؛ ولا تزال بعض هذه

في رحلة ابن بطوطة "صور من الحياة الاجتماعية في عهد الناصر محمد بن قلاوون، سعيد عاشور إليه في عيد ميلاده بأقلام نخبة من تلاميذه ومريديه، مركز النشر لجامعة القاهرة، ١٩٩٢م، ص٢١٤، ٢١٥؛ في تطور الفكر التاريخي، القاهرة، ٢٠٠٤م، ١٢٩ – ١٣٠؛ السيد السيد النشار، المكتبات في مصر العصر المملوكي ط١، بيروت، ١٩٩٣، ص٥٦.

(3) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة محمد عطا، الرياض ١٩٨٩م، ص١٧؛ سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص١٤١.

(4) سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص٣٤٥؛ السيد النشار، المكتبات في مصر، ص٥٩، ص٦٤.

(5) سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص١٥٠، السيد النشار؛ تاريخ المكتبات في مصر، ص٨٠ وما بعدها.

المصادر تحت التحقيق والبحث، وما زالت أقلام المحققين في الطريق لنشر العديد من المخطوطات.

أما الثالثة: لا نغفل أن القيام بعمل دراسة تحليلية نقدية لهذه المصادر الخاصة بدولة سلاطين المماليك الأولى، يعد أمراً بالغ الصعوبة أمام كافة الاعتبارات السابقة، ولذلك فإن النقد والتحليل يتجه نحو الاتجاهات التأليفية للمؤرخ ولن يتعرض بالضرورة لكل ما كتب، وسوف نقتصر هنا على تناول أهم المصادر التاريخية نظراً لضيق المساحة المحددة للبحث.

يدخل تحت هذا العنوان المصادر التالية :

- المصادر التاريخية.

أولاً: المخطوطة.

ثانياً: المطبوعة.

- كتب الطبقات والتراجم.

- كتب الرحالة والجغرافيين.
- كتب الفقه.
- كتب الأدب.
- كتب الحسبة.
- كتب التراث الشعبي.

تتمثل أهم المصادر التاريخية في التالي:

أولاً: المصادر المخطوطة:

هناك العديد من المخطوطات الهامة التي تتعلق بفترة دولة المماليك البحرية، سوف نعرضها ونختار نموذجاً واحداً للتحليل والدراسة والنقد. وقد اقتصرت الباحثة على المخطوطات الموجودة بدار الكتب المصرية ومعهد المخطوطات العربية ومنها:-

- مخطوط "تاريخ الواصلين في أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين"[6] لابن واصل ٦٠٤ - ١٢٠٧هـ/٦٩٧ - ١٢٩٧م.

---

[6] مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٣١٩.

- مخطوط "الذيل والتكملة في التاريخ"[٧] أبو عبد الله محمد بن عبد الملك ٦٣٤ - ٧٤٣هـ / ١٢٣٦ - ١٣٤٢م.

- مخطوط "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام"[٨] للذهبي ٦٧٣ - ٧٤٨هـ / ١٢٧٤ - ١٣٤٧م، ولهذا التاريخ الضخم، الذي يعتبر أهم ما كتبه الذهبي، نسخ شتى في مختلف مكتبات العالم وكلها ناقصة أكثر من مجلد[٩].

- ومخطوط "درة الأسلاك في دولة الأتراك"[١٠] لابن حبيب ٧١٠ - ٧٧٩هـ/١٣١٠ - ١٣٧٧م.

- مخطوط "نثر الجمان في تراجم الأعيان" للفيومي (ولد حوالي عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م وتوفي بعد عام ٧٧٠هـ/١٣٦٩م. وهو في عدة مجلدات.[١١] وهو تاريخ شامل يحتوى على تراجم مفصلة لبعض كبار السلاطين والأمراء والأعيان.

- مخطوط النور اللائح والدر الصادح في اصطفاء مولانا الملك الصالح"[١٢] للقيسرانى الخالدى - ٧٥٣هـ / - ١٣٥٢م.

- مخطوط "التعريف بما أسست الهجرة من معالم دار الهجرة"[١٣] لمحمد بن أحمد بن محمد بن خلف الأنصاري السعدي المدني ٦٧١ - ٧٤١هـ / ١٢٧٢ - ١٣٤٠م[١٤]

---

(7) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم٦١ تاريخ ؛ لمزيد من التفاصيل انظر كحالة، معجم المؤلفين، جـ١١، ص ٢٤١.

(8) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢ تاريخ.

(9) لمزيد من التفاصيل انظر شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٤، ص ٥٧ وما بعدها.

(10) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٧٧ تاريخ وهناك نسخ أخرى بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم ٢٣٥، ٦٥٩ تاريخ.

(11) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٧٤٦ تاريخ، ولمزيد من التفاصيل انظر شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٣، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(12) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٢٣ تاريخ تيمور، ولمزيد من التفاصيل انظر الزركلى، الأعلام، جـ١، ص ٤٦؛ كحالة، معجم المؤلفين، جـ١، ص ٤٥.

(13) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١٥٧ تاريخ تيمور.

(14) الزركلى، الأعلام، جـ٥ ص ٣٢٥، كحالة، معجم المؤلفين، جـ٨، ص ٢٥٧ ؛ بروكلمان الأصل، جـ٢، ص ١٧١ ؛ بروكلمان الملحق، جـ٢، ص ٢٢٠ ؛ البغدادي، إيضاح المكنون، جـ١، ص ٢٩٦.

- مخطوط "جامع التواريخ المصرية في ذكر الملوك والخلفاء والسلاطين الإسلامية"[١٥] لحسن بن إبراهيم بن محمد اليافعي ت ٦٧٨هـ/١٢٧٩م. جمعه للمنصور قلاوون مبتدئاً بحوادث عام ٦٢١هـ/١٢٢٤م وانتهى إلى عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م أى سنة وفاته ورتبه على الحوادث والوفيات[١٦].

- "ذيل العقود الدرية في الأمراء المصرية" لأبى الحسن الجزار ت ٦٦٩هـ - ١٢٧٠م. ومنه مخطوطات عديدة في برلين رقم ٩٨١٤ و ٢/٩٨٢٤: (II). ومخطوط ليدن ٩٦٩ ومخطوط الاسكوريال ثان ٤٧٠: ١٠[١٧].

-مخطوط "مختصر النوادر مما جرى للأوائل والأواخر" لمجهول من أواخر القرن ٧هـ/١٣م[١٨].

درة الأسلاك في دولة الأتراك لابن حبيب للدمشقي الحلبي ٧١٠ - ٧٧٩هـ / ١٣١٠ - ١٣٧٧م، هو الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب القاضي بدر الدين ابن الشيخ زين الدين الدمشقى الأصل الحلبي، كان أبوه محتسبا بحلب، نشأ ابن حبيب محبا للآداب، وقد باشر نيابة القضاء، وكتابة الإنشاء وغير ذلك من الوظائف الدينية وذلك في كل من دمشق، وطرابلس، وحلب، وأفاد من ذلك كثيراً في ثقافته، كذلك باشر دار الضرب بحلب، وارتبط ابن حبيب فترة من حياته بالأمير سيف الدين منجك الناصري نائب السلطنة في كل من طرابلس وحلب ودمشق، ثم تخلى ابن حبيب عن الوظائف العامة ولزم داره بحلب وعكف على التأليف[١٩].

---

[15] مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٥٤٣ A.

[16] لمزيد من التفاصيل انظر شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخين، جـ٣، ص ٢٠٥.

[17] بروكلمان، جـ٦، ص ٩٠. الترجمة العربية

[18] انظر شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٣، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

[19] ابن حبيب، تذكرة البنية في أيام المنصور وبنيه، تحقيق نحمد محمد أمين، مراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٦م، جـ١، ص ٧ وما بعدها ؛ ابن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر، جـ١، ص ١٦٢، ترجمة ١٦ ؛ الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة طبعة حيدر آباد، الهند، ١٣٤٨ - ١٣٥٠ هـ، جـ٢، ص ١١٣ ترجمة ١٥٤٣ ؛ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص ١٨٩ ؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ٢٩٧ ؛ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة، ١٣٥١هـ، جـ٦، ص ٢٦٢، الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، القاهرة ١٣٤٨هـ، جـ١، ص ٢٠٥، كحالة، معجم المؤلفين، جـ٣، ص ٢٦٦، بروكلمان، بيروت بدون تاريخ، جـ٦، ص ٥٣، الزركلي، الأعلام، جـ٢، ص ٢٠٨ ؛

Northrup, L., *From Slave to Sultan* (Stuttgart، 1998), p. 50.

مؤلفات ابن حبيب

ترك ابن حبيب ثروة كبيرة، إذ ألف العديد من الكتب في التاريخ والعلوم الدينية والأدب، بعضها غير موجود ولا نعرف عنه أكثر من عنوانه والبعض الآخر يتطلب التحقيق والنشر ومن هذه الكتب ما يلي:

- أخبار الدول وتذكر الأول في التاريخ.
- إرشاد السامع والقارئ المنتقي من صحيح البخاري.
- تحية المسلم من شعر ابن المعلم.
- التوشيح في شرح الحاوي.
- جهينة الأخبار في ملوك الأمصار.
- درة الأسلاك في دولة الأتراك.
- دليل المجتاز بأرض الحجاز في المناسك.
- ديوان المقطعات.
- الشذور.
- نسيم الصبا (فصول الربيع في أصول البديع).
- كشف المروط عن محاسن الشروط.
- الكوكب الوقاد من كتاب الاعتقاد.
- المختار.
- معاني أهل البيان من وفيات الأعيان.
- النجم الثاقب في أشرف المناقب.
- تذكرة البنية في أيام المنصور وبنيه.
- المقتفي في ذكر فضائل المصطفي (ﷺ) وغيرها من المؤلفات. [٢٠]

نموذج من مؤلفات ابن حبيب "درة الأسلاك في دولة الأتراك" عبارة عن تاريخ لدولة سلاطين المماليك الأولى في مصر، يبدأ ابن حبيب أحداثها من عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، وينتهي عند عام ٧٧٨هـ/١٣م وفي هذا المخطوط يستعرض ابن حبيب أسماء سلاطين دولة المماليك البحرية مع ذكر الحوادث بصورة سريعة مختصرة، وفي نهاية كل سنة يذكر الوفيات

---

[20] ابن حبيب، تذكرة البنية، جـ١، ص ١٨ وما بعدها ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة جـ١١، ص ١٨٩ وما بعدها ؛ المنهل الصافي، جـ٥، ص ١١٥ ترجمة رقم ٩٢٢.

مختصرة أيضاً. ويبدأ المخطوط بـــ أولها: الحمد لله المبيد الوارث.. وبعد، فهذا كتاب يشتمل على دولة الأتراك وأولادهم وصولة نوابهم وأمرائهم وأخبارهم، وذكر الحوادث الكائنة فـــي عصرهم.. وجمعته تذكرة لأهل المعرفة والخبرة.. والله يجعلنا ممن نظر واعتبر.. سنة ثمان وأربعين وست مئة فيها ولي السلطان الملك المعز أيبك الصالحي أمر الملك بالديار المصرية، وهو أول من ملكها من الأتراك.. لما خلا دست سلطنتها مـــن بنـــي أيـــوب ورمـــى بـــسهم الخطوب.. وكان معروفاً بنصرة أهل الجهاد.. فاتفق أرباب الدولة على ولايته.. وذلك بعد أن قتل الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح أيوب..

وآخرها: من سنة ٧٦١هـــ، قوله: وفيها توفي الشيخ تقي الدين أبو إسحاق إبـــراهيم بن الشيخ بدر الدين أبي عبد الله محمد بن ناهض بن سالم بن نصر الله بـــن الـــشهير بـــابن الضرير الحلبي، فاضل.. لقيته واجتمعت به كثيراً، وسمعت من فوائده.. وكانت وفاته بحلب عن بضع وستين سنة.. نجز الجزء الثاني من.. بحمد الله..[٢١]

المرجعية التاريخية عند ابن حبيب يمكن تقسيم المصادر التي اعتمد عليها ابن حبيب في جمع معلوماته ومادته العلمية إلى مصادر شفهية ومشاهدات عينية استمدها مـــن خـــلال تعلمه على يد كبار المشايخ وعلماء عصره والسماع لهم أو رحلاته التي أكسبته خبرة كبيـــرة وجعلته يسجل الأحداث والوقائع بدقة أكثر لو قام بنقلها، بالإضافة إلى وظيفتـــه فـــي كتابـــة الإنشاء ساعدته في الإطلاع على الوثائق والمكاتبات والمراسلات بين الـــسلاطين والأمـــراء وأخيراً علاقاته بمؤرخي عصر والنقل من المصادر المكتوبة أو مؤلفات السابقين.

١- المشاهدة العينية والمشافهة :

نشأ ابن حبيب في بيئة علمية دينية فوالده هو الإمام العالم الحافظ عمر بن الحسن بن حبيب زين الدين الشافعي العالم الكبير، وقد حضر ابن حبيب مجالس العلم بحلـــب منذ طفولته وسمع من كبار المشايخ مثل البانياسي الذي ذكره ابن حبيب بقولـــه "وهـــو أول مشايخي الذين أرجو بركة كل منهم وخبره.."، سمع ذلك من الشيخ عز الدين أبـــو الحـــسن إبراهيم بن صالح بن العجمي جزءا فيها أحاديث من عشرة مشايخ وهو في الثالث من عمره، وتردد على علماء حلب بصحبة والده أو بقراءته فتتلمذ على يد كثير من علماء الحديث، وفي الخامسة سمع مسند أبي داود الطيالسي وغيره من الحديث النبوي، وجزء الحاوي من شـــيخ

---

[21] ابن حبيب، درة الأسلاك، ورقة ٤ – ٥، ١٨٩ – ١٩٠ ؛ لمزيـــد مـــن التفاصـــيل انظـــر فهـــرس معهـــد المخطوطات العربية، جـــ٢، ق ٦ ، ص ١٠٠ وما بعدها.

الإسلام جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن القضاعي، بالإضافة إلى سمعه مشيخه ابن كليب على الشيخ شمس الدين بن محمد الجعفري الحلبي.(٢٢)

وقد انتهز ابن حبيب فرصة قدوم الكثير من العلماء والأدباء إلى حلب للتردد على مجالسهم العلمية والإفادة مما يرونه من أحاديث مثل الشيخ بهاء الدين محمد بن على الأنصاري الشافعي والشيخ الإمام جمال الدين بن محمد بن نباته المصري كذلك أخذ ابن حبيب عن قاضى القضاة فخر الدين أبو عمر وعثمان بن على الشافعي.

يضاف إلى ذلك رحلات ابن حبيب المتعددة والكثيرة التي أكسبته خبرة ذاتية واضحة وقد تراوحت أشكالها بين أن تكون الخبرة في صورة معلومات يكون ابن حبيب صاحبها ومبدعها، وبين أن تكون الخبرة في رصد المتغيرات، وكانت أولى رحلاته خارج حلب إلى دمشق، ثم توجه ابن حبيب إلى الحجاز من أجل الحج والزيارة وطلب العلم وقد ذهب مرتين وكان في كل مرة يلتقي بالعديد من الشيوخ ويتعلم ويكتسب الكثير منهم. (٢٣)

رحل ابن حبيب إلى القاهرة ومكث بها عدة أشهر اجتمع خلالها "بطائفة من أهل العلم والحديث وسمع منهم، والتقى بالشيخ المسند أمين أبو الفضل عبد المحسن بن محمد الصابوني المصري وسمع عليه جزء ابن عرفة، والشيخ الفقيه شرف الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن الأنصاري القمنى الشافعي فسمع عليه بالإسكندرية نبذة مما يرويه عن النجيب الحرانى، وفي القاهرة اجتمع عدة مرات مع الشيخ عز الدين أبو محمد عبد المؤمن العجمي الحلبي الشافعي، فيقول عنه "رأيته بحلب واجتمعت بها فيها، وفي القاهرة المحروسة مرات، وسمعت من فوائده". (٢٤)

٢- الوثائق

باشر ابن حبيب كتابة الحكم العزيز، وكتابة الإنشاء والتوقيع الحكمي وغيرها من الأوقاف والوظائف الدينية وذلك في كل من دمشق، وطرابلس، وحلب، وأفاد من ذلك الكثير في ثقافته، ولا شك أن كل ذلك مكنه من الاطلاع على بعض الوثائق والمراسلات والمكاتبات(٢٥) وساعده على ذلك أيضاً عمله بالإنشاء، بحكم أنه كلما كان المؤرخ أقرب إلى

---

(22) ابن حبيب، تذكرة النبية، جـ١، ص ١٠ – ١١.

(23) ابن حبيب، تذكرة النبية، جـ١، ص ١٢.

(24) ابن حبيب، تذكرة النبية، جـ١، ص ١٢ – ١٣.

(25) ابن حبيب، تذكرة النبية، جـ١، ص ١٤.

عمله كلما أتيحت له فرصة الإطلاع على العديد من الوثائق الرسمية متعددة الأغراض والأنواع المحفوظة به.[٢٦]

٣- النقل من المصادر المكتوبة

كانت ظاهرة النقل والاقتباس طوال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي منتشرة لدى المؤرخين من قبل أسلافهم من خلال الإطلاع على مؤلفاتهم السابقة، فبعد أن كانت الروايات تنقل شفاهاً وسماعاً من جيل إلى جيل عن طريق سلسلة الرواة في العصور الإسلامية المبكرة، تم تدوينها في وثائق ورسائل وكتب ومجلدات بعد ازدهار صناعة الورق والوراقة، وشيوع حركة النسخ والتدوين، ومنذ ذلك أصبح النقل هو السمة الأساسية لمن يتعرض لتأريخ أحداث ووقائع العصور السابقة، بيد أن ذلك لم يحل دون ظهور بعض المؤلفات التي تميزت بالأصالة والتفرد في معلوماتها، مما جعلها أشبه بالمصادر الأمهات التي لا يستغنى عنها مؤلف بعدها، ولكونها تغذى المؤلفات التالية لها. [٢٧]

وقد قام ابن حبيب بالنقل والاقتباس من مؤلفات سابقيه بالإشارة إليهم في الكثير من المواضع، وأحياناً كان يغفل عن ذكرهم فقد نقل من النويري وقد ذكر ذلك صراحة في ترجمته للنويري: "جمع كتابا في الأدب والتاريخ يشتمل على ثلاثين مجلداً سماه منتهى الأرب في علم الأدب، وقفت عليه ونقلت وانتفعت به"، و "أخذت عنه" كما نقل ابن حبيب من المؤرخ البرزالي.[٢٨]

وقد عاصر ابن حبيب عدداً كبيراً من مؤرخي مصر والشام والعراق، قد تفاوتت علاقاته بكل منهم، فمنهم من ترجم ابن حبيب له ولم يشر إلى أية علاقة تربطه بهم مثل بيبرس الدوادار وأبو الفدا، كذلك لم يذكر ابن حبيب أية علاقة تربطه بابن شاكر الكتبي وابن كثير على الرغم من معاصرته لهما، أما المؤرخين الذين ارتبط بهم بعلاقات طيبة فهم ابن فضل الله العمري، وابن الوردي وابن ايبك الصفدي، وتاج الدين السبكي. [٢٩]

---

[26] شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٣، ص ٥٤ ؛ حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، القاهرة ١٩٨٤م، ص ٥١.

[27] شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٣، ص ٣٤، سند أحمد سند، عز الدين بن شداد مؤرخاً، ص ١٧١.

[28] ابن حبيب، تذكرة النبية، جـ١، ص ١٦.

[29] ابن حبيب، تذكرة النبية، جـ١، ص ١٥ وما بعدها.

منهج الكتابة التاريخية عند ابن حبيب:

اتبع ابن حبيب "النظام الحولي" بترتيب الوقائع والأحداث على حسب السنين ثم يختم كل سنة بذكر تراجم لأعيان من توفوا فيها، فقد بدأ ابن حبيب تاريخه "درة الأسلاك" بسنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م وعرض أحداثها بصورة سريعة ولم يسهب في التفاصيل والأحداث. ونظراً لكون "المنهج الحولي" يمزق الواقعة التاريخية الطويلة التي قد تمتد إلى سنوات طوال فلا يذكر المؤرخ منها إلا حوادث السنة التي يتناولها بالحديث، دون النظر إلى باقي أحداثها في السنة التالية، لذا عول بعض المؤرخين على استخدام منهج جديد يهدف إلى "التأريخ حسب الموضوعات" وكان قوامه التأريخ للدول والخلفاء والحكام والطبقات والأنساب، وتجلى ذلك واضحاً في كتابي ابن شداد وابن عبد الظاهر عن سيرة الملك الظاهر. (٣٠)

أما عن أسلوب ابن حبيب في مخطوطه "درة الأسلاك" فقد غلب عليه السجع المتكلف والتنميق المتعمد والكتابة المنثورة وجدير بالملاحظة أن هناك أوجه شبه كثيرة بين المادة العلمية الواردة في كل من "درة الأسلاك" و "تذكرة النبيه" حتى أنه لا يجانبنا الصواب إذا قلنا أن "تذكرة النبيه" هى مسودة ابن حبيب في كتابه "درة الأسلاك"، فـ "درة الأسلاك" و "تذكرة النبيه" متشابهان إلى حد كبير في الفترة من عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م إلى عام ٧٧٠هـ/١٣٦٨م، وأوجه الخلاف بالزيادة أو النقصان بين المادة العلمية في كل منهما ضئيلة. (٣١)

والواقع أن مقارنة أسلوب الكتابة في "درة الأسلاك" بين الجزء المنسوب لابن حبيب وبين الجزء المذيل عليه، والذي يتناول أحداث الفترة من عام ٨٨٧هـ/١٣٧٦م إلى عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م والمنسوب إلى ابن طاهر تجعلنا في حيرة، فالكتاب كله يسير على نسق واحد وبأسلوب واحد وطريقة واحدة حتى أننا نجد صعوبة في التفرقة بين الكتاب الأصلي والذيل مما يجعلنا نشك في أن واضع كتاب "درة الأسلاك" بأكمله من عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م إلى عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م هو طاهر بن الحسن بن عمر بن حبيب وأن طاهر اعتمد اعتماداً كبيراً على مسودة والده وهى كتاب "تذكرة النبيه" في أحداث الفترة من عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م إلى عام ٧٧٠هـ/١٣٦٨م وتراجمها. (٣٢)

---

(30) محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر، مجلد ٩، ص ٣١٦ ؛ سند أحمد، عز الدين بن شداد مؤرخاً، ص ٢١١.

(31) ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ١، ص ٢٨

(32) ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ١، ص ٢٨، وما بعدها.

وقد ذكر شاكر مصطفى(٣٣) أيضاً أن هناك تشابه بين مادة "تـذكرة النبيـه" و "درة الأسلاك" ولعل التذكرة "هي مسودة الدرة وخاصة في الفترة ما بين سنتي ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م وعام ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م.

جدير بالذكر أن ابن حبيب تعرض للنقد الجارح من قبل المؤرخ ابن تغرى بـردى بقوله "انتهى فشار ابن حبيب وركيك ألفاظه، وربما كان إذا ضاقت عليه القافية يذم المشكور، ويشكر المذموم، لما ألزم به نفسه في جميع تاريخه بهذا النوع السافل في فن التاريخ". (٣٤)

مجمل القول أن مخطوطة "درة الأسلاك في دولة الأتراك" هي عبارة عـن سـجل لأسماء سلاطين دولة المماليك البحرية، جاء على هيئة قصيدة مقفاة كله سـجع، قليلـة فـي التفاصيل التاريخية، بل تكاد تكون مختصرة بشكل واضح، الأمر الذي يقلل من أهميتها، ولكن قيمتها التاريخية ترجع إلى أن الباحث رجع إلى النسخة الموجودة بمعهد المخطوطات العربية وهى بخط المؤلف ونعتقد أن "تذكرة التنبيه" لابن حبيب كانت أساس وضـع مخطوطـة "درة الأسلاك".

ثانيا: المصادر المطبوعة:

كتب الطبقات والتراجم:

تعتبر من المصادر الأساسية والضرورية التي لا غنى للباحث في الاسـتعانة بهـا، فهي تضم كثير من المعلومات عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية فـي المجتمع الإسلامي إبان العصور الوسطى، وهى تتألف من سير مجموعـة مـن السـلاطين والأمراء والفقهاء والعلماء والأدباء أو أصحاب المهن(٣٥).

أمثلة لكتب التراجم والطبقات المعاصر لدولة المماليك الأولى نذكر منها:

- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان(٣٧).
- الصقاعي: تالي كتاب وفيات الأعيان(٣٩).

---

(33) التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٤، ص ٩١.

(34) أبو تغرى بردى، المنهل الصافي، جـ٦ ص ٥٥، ترجمة ١٠٩٩ ؛ شـاكر مـصطفى، التـاريخ العربـي والمؤرخون جـ٤، ص ٩١.

(35) سيده إسماعيل كاشف، مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٦٥ وما بعـدها؛ السيد عبد العزيز سالم التاريخ والمؤرخون العرب، الإسكندرية ١٩٨٧، ص١٧٧.

(36) تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٨م.

- الذهبي: سير أعلام النبلاء[٤٠].
- الأدفوي: الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد[٤٢].
- الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها[٤٤].

كتب الجغرافيا والرحلات:

تعتبر كتب الجغرافيا والرحلات نوعاً من المصادر[٤٥] ومن ثم يمكن أن نستخدم بعض ما وصلنا منها كمصادر مباشرة.

وتبدو أهمية كتب الجغرافيين والرحالة المسلمين في أن كتاباتهم تسد جانباً له شأن في تلك الفجوة المصدرية لاحتوائها على إشارات قيمة على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية وغيرها، خاصة وان أولئك الجغرافيين والرحالة قدموا لنا رؤية مهمة من خلال عيون غريبة وافدة على المنطقة، ولذلك نجد في نصوص مؤلفاتهم زوايا ندرا أن تتردد في كتب المصادر التاريخية، وتعليل ذلك أن الجغرافي والرحالة عندما تطأ أقدامه أرض مجتمع آخر يحرص على إيراد كل ما تقع عليه عيناه من مظاهر حياتية متعددة ومختلفة، ولذلك قدم أولئك الجغرافيون والرحالة نصوصاً تمتاز بالحيوية، وكأننا نعيش فعلاً في ذلك المجتمع الذي وفدوا عليه[٤٦].

وجدير بالذكر أن كتب الجغرافيا والرحالة لا تتناول التاريخ الرسمي بمعنى أنها لا تهتم بسير الملوك والحكام وإنما تعنى بالمجتمع وتقدم صورة حية لحياة الناس ولذلك فهي

---

[38] تحقيق جاكلين سوبلة، دمشق ١٩٧٤م

[40] ثلاث وعشرون جزءاً، تحقيق بشار عواد، بيروت ١٩٨٥؛ جـ١٧ تحقيق عبد السلام محمد عمر، بيروت ١٩٨٧م.

[41] طبعة ١٩١٤

[43] تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥١م.

[٤٤] جان سوفاجيه، كلود كاين، مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، القاهرة ١٩٩٨م، ص ٦٩؛ ولمزيد من التفاصيل انظر عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ١٩٨٦م، ص ٢٤٠ وما بعدها؛ عبد العزيز سالم التاريخ والمؤرخون ص١٨٣.

[٤٥] محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٩٤م، ص ٥ وما بعدها.

أكثر صدقاً وموضوعية من كتب التاريخ التي تحفل بقيام الدول وسقوطها والفتن والثورات[٤٧].

ومن المعروف أن الجغرافية وثيقة الصلة بالتاريخ، يضاف إلى ذلك أن المؤلفات الجغرافية العربية تضم حقائق كثيرة يجب الإفادة منها في البُحوث التاريخية، ولاسيما أن كثيراً منها يهتم بوصف البلاد وبيان المسافات بينها وحاصلات كل منها وما يؤلف شهرتها وعادات أهلها، فضلاً عن أن هذه الكتب تعطينا معلومات تاريخية على جانب كبير من الأهمية، وجدير بالذكر أن حركة التأليف في الجغرافية بدأت في نفس الوقت الذي بدأت فيه الكتابة التاريخية[٤٨].

أما عن كتب الرحلات فقد حاز المسلمون في العصور الوسطى قصب السبق في ميدان الرحلات والاستكشافات والدراسات الجغرافية، وكان ازدهار الحضارة الإسلامية واتساع الفتوحات وسيادة المسلمين في البر والبحر، وروابط الدين واللغة والثقافة التي كانت تجمع المسلمين في أطراف إمبراطوريتهم، والرحلة في طلب العلم أو لتأدية فريضة الحج واتساع نطاق التجارة، وانتشار قوافل التجار المسلمين، كل هذا كان باعثاً عظيماً على القيام بالرحلات الطويلة[٤٩].

فالرحالة سفينة تقطع الفيافي والبحار وتتسنم قمم الجبال لتجمع كل ما هو مرتخص وغال، وتروى ما هو تالد وطريف، ليشيد به صرح الحضارة، ويسجل تراثها وبصماتها في كل زمن ومكان[٥٠].

وفيما يتعلق بالمراجع الجغرافية الغنية بالبيانات التاريخية نذكر منها على سبيل المثال :

- ياقوت الحموي: معجم البلدان[٥٢].

---

(47) انظر محمود إسماعيل، منهج البحث التاريخي والمكتبة التاريخية الإسلامي والوسيط، القاهرة ١٩٨٦م، ص ٥٩ وما بعدها.

(48) سيدة كاشف، مصادر التاريخ الإسلامي، ص ٦٧ – ٦٨؛ عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون، ص١٨٣.

(49) سيدة كاشف، مصادر التاريخ الإسلامي، ص ٧٠ وما بعدها؛ عبد العزيز سالم التاريخ والمؤرخون، ص٢١١.

(50) أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، جدة، (د.ت)، ص ٥.

(51) طبعة بيروت ١٩٥٥.

أما بالنسبة لأهم كتب الرحلات في عصر دولة المماليك نذكر على سبيل المثال :

- ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.
- ابن خلدون المؤرخ الرحالة فقد نوه بأهمية الرحلات، فأورد ذكرها في مقدمته الشهيرة، إذا قال: (والرحلة لابد منها في طلب العلم، ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال) [53].

ويعتبر ابن بطوطة[55] من أشهر وأعظم الرحالة المسلمين، ومن أكثرهم طوافاً في الآفاق وأوفرهم نشاطاً واستيعاباً للأخبار، وأشدهم عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية في البلاد التي تجول فيها وقد خلق لنا صورة صادقة للعصر الذي كان يعيش فيه[56].

السير الشعبية:

من المصادر الأساسية والهامة التي لا غنى للمؤرخ عن الرجوع إليها السير الشعبية، ولكن تناول الحقائق التاريخية منها يجب أن يكون بحذر كبير وذلك لأنها اعتمدت في البداية على الرواية الشفهية فحسب ولم تسجل إلا في عصور متأخرة، فضلاً عن أن هدف هذه السير كانت المفاخر وتسلية السامعين وكسب إعجابهم بمواقف الأبطال وسائر المواقف المثيرة في السير، فلا عجب أن عمد الرواة إلى خيالهم في خلق مثل هذه المواقف ونسج كثير

---

[53] حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرفة رقم ١٣٨، الكويت ١٩٨٩م، ص ٨٩ وما بعده

[54] هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، ولد في مدينة طنجة المغربية في عام ٧٠٣هـ/ ١٣٠٤، ونشأ في أسرة ميسورة الحال وهام حباً بعالم الرحلة والارتحال فطاق في العديد من الأقطار الأفريقية والأسيوية على نحو خاص، ودام ترحاله ثمانية وعشرين عاماً، لمزيد من التفاصيل انظر نقولا زيادة، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، بيروت ١٩٨٦م، ص٩٢ وما بعدها؛ قاسم عبده قاسم، مصر في رحلة ابن بطوطة "صور من الحياة الاجتماعية" ص٢٠٩ وما بعدها؛ كامل جميل العسيلي، بيت المقدس في كتب الرحلات عند المسلمين، عمان ١٩٩٢، ص٦٧ – ٦٨، محمد مؤنس أحمد عوض، الرؤية المغربية في مصر المملوكية، دراسة لرحلة ابن بطوطة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٧م، جامعة الحسن الثاني – المحمدية منشور كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة الندوات رقم ٩ بعنوان "التواصل الصوفي بين مصر والمغرب تنسيق عبد الجواد السقاط، أحمد السليماني، ٢٠٠٠م، ص٤٩ وما بعدها؛ ولمزيد من التفاصيل انظر www. Lib. Uchicago. Edu / mamluk / Ibn + Battutah. Html.

[56] سيدة كاشف، مصادر التاريخ الإسلامي، ص ٧٢؛ عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون، ص٢٣٢، لمزيد من التفاصيل انظر أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ٣٦٩ وما بعدها.

من الأحداث غير التاريخية حول مجموعة من المشاهير وأبطال التاريخ الإسلامي على سبيل المثال قصة الظاهر بيبرس.[٥٧]

كتب الأدب:

تمثل الكتب الأدبية مورد لا ينضب للمعلومات والحقائق التاريخية المختلفة عن أحوال المجتمع في العصور الوسطى وخاصة فيما يتعلق بالعادات والتقاليد، والمقاييس الخلقية، ومستوى المعيشة والأعياد وأساليب التسلية، وأحوال المدن وغير ذلك من النواحي الاجتماعية، فضلاً عن أننا نظفر فيها ببعض الحقائق عن التاريخ السياسي[٥٨].

وعلى المؤرخ أن يهتم بالمصادر الأدبية، لأننا غالباً ما نجد فيها جانباً من المعلومات يعوض النقص الموجود في غيرها، ولهذا يجب أن يدخل ضمن مصادر المعلومات بالنسبة للمؤرخ.[٥٩]

أمثلة على بعض الكتب الأدبية التي يفيد منها الباحث في التاريخ الإسلامي بصفة عامة والمملوكي بصفة خاصة.

- النويري: "نهاية الأرب في فنون الأدب"[٦١].
- القلقشندى: "صبح الأعشى في صناعة الأنشا"[٦٣]. هذه الكتب الأدبية لا تخلو من روايات تاريخية وهى لهذا السبب تعتبر مصادر رئيسية للتاريخ.[٦٤]

---

(٥٧) سيدة كاشف، مصادر التاريخ الإسلامي، ص ٧٤-٧٥ ؛
Sauvaget, *Introduction à l'histoire de l'Orient musulman*, pp. 26-28.
لمزيد من التفاصيل انظر أيضاً عبد العزيز سالم التاريخ والمؤرخون العرب، ص٢٣٧.

(٥٨) سيدة كاشف، مصادر التاريخ الإسلامي، ص ٧٥، وما بعدها.

(59) سوفاجيه، مصادر دراسة التاريخ، ص ٨١.

(60) طبعة دار الكتب بالقاهرة.

(61) طبعة دار الكتب بالقاهرة.

(62) طبعة دار الكتب بالقاهرة.

(63) سيدة كاشف، مصادر التاريخ الإسلامي، ص ٧٨.

كتب الفقه:

من المصادر الأساسية التي لا غنى للباحث عن استخدامها في الأبحاث، فالفقه هو استنباط الأحكام الشرعية من القرآن الكريم والسنة النبوية، والقياس والإجماع والاجتهاد، وكلمة "الفقه" تعنى لغة الفهم أو المعرفة[٦٥].

وطبيعي أن يجد المؤرخ في كتب الفقه بيانات ومعلومات كثيرة عن أحوال الشعوب الإسلامية ونظمها في العصور الوسطى، ولاسيما أن الفقهاء يتجهون في بحوثهم إلى كافة طبقات الشعب وإلى الجوانب المختلفة من حياة المسلمين، فلا عجب إذا كانت مؤلفاتهم غنية بالإشارات إلى مستوى المعيشة والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والمالية، إلى جانب العادات والتقاليد والأخلاق، وإلى البدع المنتشرة بين طبقات الشعب[٦٦]. أمثلة على كتب الفقه:

- ابن تيمية، القواعد النورانية الفقيهة.
- مجموعة فتاوى شيخ الإسلام[٦٧].
- القياس في الشرع الإسلامي[٦٨].

كتب الحسبة :

من المؤلفات الغنية بالمعلومات المختلفة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الإسلامي كتب الحسبة، والمعروف أن المحتسب كان يسهر على مراقبة المجتمع وحماية الناس من غش التجار والصناع، كما كان يشرف على نظام الأسواق والطرقات والعمال والباعة ويعمل على حسن السلوك ومراعاة أحكام الشرع[٦٩] ، والرأفة بالحيوان، ومنع معلمي الصبيان من ضرب الأطفال ضرباً شديداً، ومنع الناس من شرب الخمر، ثم

---

(65) سيدة كاشف. مصادر التاريخ الإسلامي، ص ٧٨؛ لمزيد من التفاصيل انظر، سوفاجيه، مصادر دراسة التاريخ، ص ٧٤-٧٩؛عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط٥، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٨١ وما بعدها؛ محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠، ج٢، ص ٨٠.

66 تحقيق محمد حامد الفقي، القاهرة، ١٩٥١.

(67) طبعة القاهرة، ١٣٢٨هـ.

(68) الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٥.

(69) سيدة اسماعيل، مصادر التاريخ الإسلامي، ص ٧٩ - ٨٠، ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر ابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة.

تطور عمل المحتسب، فأصبح عمله الأساسي اقتصادياً يقوم على منع الغش في الصناعة والمعاملات وخاصة الإشراف على الموازين والمكاييل وصحتها.

أمثلة على كتب الحسبة :

- ابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة[٧١].
- الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبه[٧٣].
- ابن تيمية، الحسبة في الإسلام[٧٥].

على أية حال، ينبغي على المؤرخ أن ينوع مصادره وألا يعتمد على مصدر واحد من المصادر اعتماداً كلياً مهما كانت صلتها بموضوع الدراسة، فمثل هذا التنوع هو الذي يتيح له المقارنة بين وجهات النظر المختلفة واستكمال النقص الذي قد يصادفه في معلومات نوع من المصادر بالرجوع إلى الأنواع الأخرى[٧٦].

ثانياً: المصادر المطبوعة:

- ابن شداد (عز الدين ٦١٣-٦٨٤هـ / ١٢١٧ – ١٢٨٥م).
- ابن عبد الظاهر (محيى الدين بن عبد الظاهر)

  ٦٢٠ – ٦٩٢هـ / ١٢١٧ – ١٢٩٢م.
- اليونيني (قطب الدين أبو الفتح بن محمد أحمد(٦٤٠ – ٧٢٦هـ / ١٢٤٢ – ١٣٢٥م)
- شافع بن على (٦٤٩ – ٧٣٠هـ / ١٢٥٢ – ١٣٢٩م)
- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) (٦٧٧ – ٧٣٣هـ / ١٢٧٨ – ١٣٣٢م)
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين تراجم ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م)
- ابن أبى الفضائل (مفضل بن أبى الفضائل ت ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م)
- أبن أيبك الدواداري (أبو بكر عبد الله بن أيبك ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)

---

[71] تحقيق محمد محمود شعبان، هيئة الكتاب، ١٩٧٦

[73] نشره الباز العرينى، القاهرة ١٩٤٦.

[75] طبعة القاهرة ١٣١٨هـ.

[76] سوفاجيه، مصادر دراسة التاريخ، ص ٨٣.

- بيبرس المنصوري الدوادار نائب السلطنة (٧٢٥هـ / ١٣٢٤م)

- شمس الدين الشجاعي.

- الصقاعي (فضل الله بن أبى الفخر الصقاعي ت ٧٢٥ / ١٣٢٤م)

- العمري (شهاب الدين أحمد بن فضل الله ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م)

- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م)

- الذهبي (الحافظ شمس الدين ت ٧٤٨هـ / ١١٣٤٧م)

- أبي كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)

- الكتبي (محمد بن شاكر أحمد ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م)

- ابن حبيب (الحسن بن عمر بن حبيب ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)

- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)

- مجهول ٦٩٠ – ٧٠٩.

- البررالي ٦٦٥ – ٧٣٨هـ

الجزري ٦٥٦ – ٧٣٨هـ

اليوسفي ٦٨٣ – ٧٥٥هـ

تعتبر المصادر السابق عرضها أهم مصادر دولة المماليك الأولى، وسوف تتخير الباحثة منها النماذج المهمة التي لا يمكن إغفال أهميتها لمعاصرتها لأحداث تلك الدولة، وهى على النحو التالي :

١- ابن عبد الظاهر ٦٢٠ – ٦٩٢هـ / ١٢٢٣- ١٢٩٢م

هو المؤرخ محيى الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين محمد بن عبد الظاهر بن نشوان، الكاتب الشاعر، ولد بالقاهرة عام ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م، وتوفي بها سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م،[(٧٧)] وكان بارعاً في النحو والعربية، وقد تولى رئاسة ديوان الإنشاء لكل من السلطان الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون وابنه الملك الأشرف خليل، وكان يقرأ جميع

[(77)] Pedersen, J., *Ibn Abd Al-Zahir*, *EI*, (Leiden, London, 1986), III, p. 679; www. Lib. Uchicago. Edu / mamluk / Ibn + Abd + al-Zahir.html.

الرسائل الواردة للسلطنة وينشئ جميع الرسائل والوثائق الهامة وكان لتلك الوظيفة أثرها الكبير الذي انعكس على كتاباته، حيث وضعت وثائق الدولة الرسمية تحت تصرفه يأخذ منها ما يريد. [٧٨]

والسيرة التي كتبها تزخر بما اقتبسه المؤلف من الوثائق كاملاً أو مقتضباً، وبعضها كان من إنشائه والبعض الآخر كان متعلقاً بسياسة الدولة الخارجية كخطابات العداء أو الصداقة، أو الأمور الداخلية كالحفلات بأنواعها. [٧٩]

مؤلفاته: أرخ ابن عبد الظاهر لكل من السلطان الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل، ويعتبر تاريخه على جانب كبير من الأهمية لأنه عاصر هؤلاء السلاطين، وكان كاتب السر عندهم، ولأنه دون النصوص الأصلية للمراسلات والمعاهدات، وأخذ عن ابن عبد الظاهر كل من أرخ لهؤلاء السلاطين من بعده. [٨٠]

١- "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر"

٢- "تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور قلاوون" يتناول فيه ابن عبد الظاهر سيرة قلاوون من خلال عام ٦٨٩هـ حتى آخر عصره ووفاته، وتعتبر من المصادر الهامة التي تتناول تاريخ السلطان المنصور قلاوون خاصة وأنه تولى في بداية عهد المنصور قلاوون رئاسة ديوان الإنشاء، وأصبح مطلعا على كل أسرار السلطنة، ولذلك يعتبر مؤلفه مصدر ثقة يعتمد عليه.

٣- "الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية وهى في سيرة الملك الأشرف خليل (٦٨٩-٦٩٣هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٣م).

---

[78] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦م، مقدمة المحقق، ص ٩؛ تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، مراجعة محمد على النجار، ط.١، ١٩٦١م، مقدمة المؤلف ؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، عدة أجزاء، تحقيق أبو هاجر محمد و السعيد بن بسيوني، بيروت، د.ت.، ج ٥، بيروت، د.ت.، ص ٣٧٦ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، عدة أجزاء، القاهرة، ١٣٥٨ه ،ج ١٣، ص ٣٣٤ ؛ محمد محمود النشار، علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، ٦٥٨-٧٤١هـ ١٢٦٠-١٣٤١م، القاهرة ١٩٩٧م، ص١٤-١٥
Strauss, "Muhyiddin b. Abdazzahır *WZKM* 45(1938), pp. 191-202; Pedersen, *Ibn Abd Al-Zahir*, p. 679.

[79] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص

[80] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ١٢.

٤- "الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة" وقد استعان به المقريزي كثيراً في خططه وبخاصة ما يتعلق بالآثار.

٥- النجوم الدرية في الشعراء المصرية "في شعراء عصره".

٦- "تحرى الصواب في تهذيب الكتاب" وهو في التعليم الديواني.

٧- مختصرة سيرة ابن المأمون البطائحى.

٨- كتاب "تمائم الحمائم" تناول فيه الحمام الزاجل واستخدامه وأنسابه.

٩- سيرة القاضي الفاضل. [٨١]

ويعد كتاب "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" من الكتب الهامة عن فترة حكم الظاهر بيبرس، فقد أورد معلومات على جانب كبير من الأهمية، فقد جمع المؤلف سيرة مطولة. [٨٢]

ويلاحظ أن ابن عبد الظاهر قد أنهى مؤلفه بوثائق البلاط الرسمية مثل: نص خطبة التقليد بالبيعة لبيبرس من قبل الخليفة العباسي، إلى جانب الرسائل الصادرة والواردة إلى السلطان بيبرس بخصوص فتح القلاع والحصون، وبنود اتفاقيات الهدنة التي عقدت مع الصليبيين وغيرها من الوثائق التي ألحقها ابن عبد الظاهر في سيرته لظاهر بيبرس. [٨٣]

منهج الكتابة التاريخية عند ابن عبد الظاهر

اتبع المؤلف في كتابه النظام الحولي، أي جعل الحوادث مرتبة حسب السنوات فكل سنة يدون حوادثها تحتها[٨٤] ويقسم المؤلف المعلومات التاريخية إلى أقسام ويضعها تحت عناوين تشير إلى طبيعتها، وأحياناً يدخل تحت العنوان ما ليس منه، أو يذكر معلومات لا تبين قيمتها ذكرها لضعفها[٨٥].

---

(81) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون (عدة أجزاء، بيروت ١٩٩٠م، جـ٣، ص ١١٣-١١٤).

(82) الذهبي، دول الإسلام (جزءان)، تحقيق حسن إسماعيل، تقديم محمود الأرناؤوط، بيروت ١٩٩٩م، جـ٢، ص ١٩٦ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ٢٧٦.

(83) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٠٠ وما بعدها، ٣٩٨-٤٠٠، ٤١١، ٤١٤.

(84) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٢، ١٢٧، ٢٤٩؛ فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٠١-١٠٢؛ إبراهيم فرغلي، الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٤٦.

(85) انظر مقدمة المحقق، ص ٢٢.

أما فيما يتعلق بأسلوب المؤلف في كتابه السيرة عرف ابن عبد الظاهر بين معاصريه بأنه كاتب له أسلوب عال ومتميز، والكتاب الذين جاءوا بعده مباشرة لم يبلغوا في الكتابة مكانته. (٨٦) وقد أدخل المؤلف على الوثائق الرسمية تغيير عباراتها إلى الأسهل عندما أراد اقتباسها للسيرة، فجردها من بعض المحسنات اللفظية، لأنه كان يدرك أن كتابة التاريخ تختلف عن الكتابة الأدبية، أو الكتابة الرسمية. (٨٧)

نستطيع القول أن أسلوب المؤلف اتصف أحياناً بالسجع خاصة عندما يكون الموضوع من النوع الذي يطرب له، كأن يكون الحديث مثلاً عن أعمال السلطان الباهرة. (٨٨) كما يلاحظ على المؤلف كثرة استشهاده بالقرآن الكريم، فمثلاً عند ورود كلمة تذكره بآية في القرآن نراه يسارع إلى الاقتباس من الآية. (٨٩) ولا يكتفي أحياناً بآية واحدة من القرآن الكريم، وإنما يعمد إلى اقتباس آيات متعددة لعرض فكرته، وهذه الطريقة تؤدى إلى إدخال أفكار لا صلة لها بالموضوع. (٩٠)

ويؤخذ على أسلوب المؤلف عدم إتقانه لاستخدام الضمائر وحروف الجر، مما أدى إلى اختلال المعنى، يضاف إلى ذلك عدم ترابط الجمل، أحياناً مما يجعل القارئ لا يجد صلة بين الجمل وبعضها بسهولة.(٩١) لاشك أن عيوب المؤلف السابقة إلى جانب تأثره وصلته بالظاهر بيبرس أثناء كتابة السيرة يفقده جزءاً من قيمته التاريخية.

ورغم ذلك فإن شأن ابن عبد الظاهر في التاريخ يتجلى في أنه سجل تاريخ عصره، وحفظ لنا الكثير من وثائق العصر في صورتها الأصلية، وكان المصدر الأساسي عن العصر لجميع المؤرخين الذين جاءوا من بعده فكل من أرخ للسلاطين المماليك الأوائل (بيبرس – قلاوون – الأشرف) أخذوا عنه سيرة بيبرس(٩٢) .

---

(86) الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها (عدة أجزاء)، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥١م ؛ انظر الروض الزاهر، مقدمة المحقق، ص ٢٦ – ٢٧.

(87) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦.

(88) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٧.

(89) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٠٦، ١٨٠، ١٨٧، ١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٠٠.

(90) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٨ – ٢٩.

(91) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٨.

(92) انظر شافع بن علي، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م ؛ شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٣، ص ١١٤.

المرجعية التاريخية لابن عبد الظاهر (مصادر المؤلف)

أولاً: المصادر الشفهية :

والتي تمثلت لابن عبد الظاهر في أشخاص على درجة كبيرة من الأهمية مثل السلطان الظاهر بيبرس، وقد ذكر المؤلف في إحدى المرات أن السلطان أملى عليه أخباراً عن رحلات سابقة له. [٩٣] كما شملت مصادره أيضاً القضاة، إلى جانب بعض الأشخاص ممن لعبوا دوراً مهماً فيما سجله المؤلف في تاريخه، أمثلة ذلك قوله: "قال لي السلطان"[٩٤] و "هو ما خبرني به مولانا السلطان"[٩٥] و "هذا ما أخبرني به الأتابك"[٩٦] نستطيع القول أن المؤلف كان بمثابة شاهد عيان للأحداث التي رآها وسجلها.

ثانياً: المصادر الكتابية :

اقتبس المؤلف من المؤلفات السابقة، فكان أحياناً يذكر اسم المؤلف والكتاب، كما كان يذكر المعلومات التي أخذها مثل: "وقال البلاذري في كتابه "فتوح البلدان"[٩٧].

و "حكى ابن الأثير في تاريخه"[٩٨] و "قال ابن السمعاني في تاريخه"[٩٩] وأحياناً كان يحذف اسم المؤلف كما في قوله: "قال مؤلف السيرة: رأيت في سيرة الحاكم، مكتوباً يقول، [١٠٠] وأحياناً كان ابن عبد الظاهر يحذف اسم الكتاب، كما في قوله: "نقل حديث الفقهاء ابن زولاق"[١٠١] وكما في قوله "قال كاتب السيرة"[١٠٢].

---

(93) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، مقدمة المحقق، ص ٢٤.

(94) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١١٢.

(95) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٤.

(96) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٦٩.

(97) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣١٥.

(98) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥.

(99) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٦٨.

(100) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٧٩.

(101) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٧٨.

(102) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٧٨.

على كل حال، يمكن القول أن ابن عبد الظاهر يمثل قيمة تاريخية وأدبيـة عاليـة، كواحد من أشهر مؤرخي الظاهر بيبرس بصفة خاصة، والعـصر المملـوكي الأول بـصفة عامة.

٢- شافع بن على ٦٤٩ - ٧٣٠ هـ / ١٢٥٢ - ١٣٣٠م

هو ناصر الدين شافع بن على بن عباس الكناني العسقلاني المـصري، ولـد عـام ٦٤٩هـ/١٢٥٢م ومات عام ٧٣٠هـ/١٣٣٠م. [١٠٣] وصف بالقاضي، الإمام العالم الفاضل، الأديب، ذو النظم الكثير، والنثر الوفير، باشر الكتابة في ديوان الإنشاء بمصر، واهتم بأخبار الناس والتأريخ وفن الأدب والنحو، أصيب في معركة حمص الكبرى عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م بسهم نشاب فقد على أثره بصره، اعتكف في منزله على تأليف الكتب، وخلف خزانة مـلأى بالكتب الأدبية النفيسة. [١٠٤]

كانت له مجالس مع بعض المؤرخين مثل شمس الدين محمد بن عبد الله الجـزري، الذي زاره بالقاهرة عام ٧١٣هـ/١٣٢٧م والصفدي الذي زاره عام ٧٢٨هـ/١٣٢٧م. [١٠٥]

مؤلفاته :

١- "حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية".

٢- "الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور".

يكتسب كتابه الفضل المأثور أهمية من كونه مصدر أساسياً لحقبة من أهـم الحقـب التاريخية في صراع الشرق والغرب، إذ تؤرخ لفترة من الحروب الصليبية، والعلاقـة بـين المماليك والفرنج والتتار والأرمن وغيرهم، وذلك خلال التاريخ لسيرة الـسلطان المنـصور قلاوون مؤسس الأسرة التي حكمت دولة المماليك أكثر من مائة عام، لم يؤرخ شـافع للمـدة التي قضاها قلاوون في الحكم (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) بل يؤرخ لقلاوون منـذ أن

---

(103) الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، (عدة أجزاء)، تحقيق على أبو زيد وآخـرون، بيـروت ١٩٩٨م، جـ٢، ص ٥٠١ ؛ ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، عدة أجزاء، حيدر آباد، الهنـد ١٣٤٨-١٣٥٠، جـ٢، ص ٣٣٤-٣٣٦ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٩، ص ٢٨٤

(104) الكتبي، فوات الوفيات، جـ١، ص ٢٣٤.

(105) شافع بن على، الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، طـ١، بيـروت ١٩٩٨م، ص ٥ وما بعدها ؛ الصفدي، أعيان العصر، جـ٢، ص ٥٠١ ؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جــ٢، ص ٣٣٤-٣٣٦ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ٢٨٤.

كان في الرابعة عشرة من عمره حين اختصه لنفسه السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب، كما يوضح لسيرته في عهد السلطان الظاهر بيبرس، مروراً بعهد شجر الدر، والملك عز الدين أيبك، وزواج الملك السعيد ابن الظاهر بيبرس من ابنته، وسلطنة الملك السعيد بعد وفاة ابيه الظاهر، ثم سلطنة أخيه بدر الدين سلامش حتى تولى هو السلطنة أي أنـــه يــؤرخ لفترة خمس وستين عاماً. (١٠٦)

لم يقف المؤلف بكتابه عند وفاة قلاوون عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، بل زاد على ذلــك حتى عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م وهى الفترة التي تم فيها فتح عكــا وصــور وصــيدا وبيــروت وتحريرها من الصليبيين، على يد السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون(١٠٧).

قيمة الكتاب التاريخية :

ترجع أهمية الكتاب إلى أنه يحتوى على مجموعة مــن النــصوص والمعاهــدات والمراسلات السلطانية والمكاتبات التي تعتبر من وثائق عصر الحروب الــصليبية، بعــضها انفرد به المؤلف ولا توجد في أي مصدر آخر، وبذلك تتوفر لدى المهتمين بدراسة الوثــائق مادة جديدة، كما يجد المعتنون بالآداب نثراً ونظماً وشعراً معلومات تضاف إلى المتوفر مــن أدبيات عصر المماليك، ومن ذلك ما كتب المؤلف من إنشائه يبشر بالنصر على التتــار فــي معركة حمص عام ٦٨٠هـ / ١٢٨١. (١٠٨)

وما أنشده ممتدحاً السلطان قلاوون بنصره في المعركة رغم إصــابته بــسهم فــي المعركة بقصيدة مطلعها :

نجحت مساعي سيفك البتار بالحد في دم أرمن وتتار(١٠٩)

ومن الأخبار التي انفرد بها المؤلف في الكتاب خبر وجود مكاتبين نصحاء للسلطان قلاوون داخل طرابلس الشام وهى تحت حكم الفرنجة الصليبيين، ومحاولة الفرنج التنكر بزى التتار لإيهام المسلمين وخداعهم ؛(١١٠) ووصفه لحصن المرقب، (١١١) ما يعنى أنه رآه قبل أن

---

(106) شافع بن على، الفضل المأثور، مقدمة المحقق، ص ١١.

(107) شافع بن على، الفضل المأثور، ص ١١ – ١٢.

(108) شافع بن على، الفضل المأثور، ص ٧٦ – ٧٧.

(109) شافع بن على، الفضل المأثور، ص ٨٣.

(110) شافع بن على، الفضل المأثور، ص ٧٣ – ٧٤.

(111) شافع بن على، الفضل المأثور، ص ١٤٣ وما بعدها.

يفقد بصره في عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م. وفتواه للسلطان الأشرف خليل بفسخ الهدنة مع الفرنج في عكا. (١١٢)

أما كتابه "حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية" فيعتبر مختصراً لكتاب خاله ابن عبد الظاهر "الروض الزاهر"، والذي طلب منه أن يختصرها في حياته، بيد أنه لم يشرع في ذلك العمل إلا بعد وفاته، ولذلك لم يجد حرجاً أن ينتقد بعض الأمور التي أوردها خاله ابن عبد الظاهر من قبل الحشو الذي كانت عليه السيرة من جراء إثبات "الغث والثمين" وكثرة مديح السلطان، بالإضافة إلى محاولته تصحيح الحقائق التي اعتقد أن خاله قام بتزويرها عمداً. (١١٣)

وتبدو أصالة هذا الكتاب في محاولة مؤلفه تصحيح ما أورده ابن عبد الظاهر، أحياناً كان يتعجل فيسجل الأحداث في وقتها كما تبدو له، في حين أن أمراً ما يغيرها بعد التدوين، فتبقى كما سجلت على سبيل المثال الوعد الذي قطعه حاكم الروم للظاهر بيبرس بأن يهبه نصف أملاكه، ليقطعه ما يشاء، ويعلق صاحب المناقب السرية (شافع) على هذا بأن حاكم الروم لم يبر بوعده، وأن بيبرس أنفق من أجل ذلك أموالاً ضائعة. (١١٤)

والجدير بالملاحظة أن المعلومات التي أضافها شافع محدودة، إلا أنها إذا أضيف إليها التفسيرات التي أوردها والتصحيحات التي أدخلها، تجعل قيمة هذا الكتاب كبيرة، فهي تأتي بمثابة أضواء سلطت على ما كتبه محيي الدين بن عبد الظاهر فأبانت ما كمن من حقائق، وبدون هذا الضوء تصبح غير مؤكدة (١١٥)

ترجع أهمية وقيمة هذا الكتاب أيضاً إلى أن الروح التي كتب بها شافع تختلف عن تلك التي كان يكتب بها ابن عبد الظاهر، فهذا كان يدين بكامل الولاء لبيبرس، وكتب ما كتب في حياة ولي نعمته وبعد موافقته على ما يكتب في بعض الأحيان، أما شافع فالأمر معه يختلف، إذا لم يكن واقعاً تحت تأثير بيبرس المباشر، ولم يكتب مختصره إلا بعد وفاة الظاهر بيبرس، بل إنه امتنع عن كتابته في حياة ابن عبد الظاهر بعيداً عن التأثير والمجاملة، وإذا

---

(112) شافع بن علي، الفضل المأثور، ص ١٢٨ – ١٢٩

(113) شافع بن علي، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦م، مقدمة المحقق، ص ١٥ ؛ شاكر مصطفى ،ج٣، ص ١١٧-١١٨ ؛ أنظر أيضاً:
Holt, "Some Observations on Shfi B. Alis Biography of Baybars," *JSS*, 29 (1984), pp. 123 – 130.

(114) شافع بن علي. حسن المناقب، ص ٤٩.

(115) شافع بن علي، حسن المناقب، مقدمة المحقق، ص ١٩.

كان كتاب ابن عبد الظاهر من المصادر الأولى في تاريخ بيبرس، فيعتبر كتاب شافع مكملاً هاماً لا غنى عنه، وبدونه فكتاب ابن عبد الظاهر لا يخلو من خلل. (١١٦)

ويحتل كتاب "حسن المناقب" مكانة كبيرة بين جميع المصادر التاريخية لقيام مؤلفه بتصحيح بعض الأحداث وإيراد الأمور الحرجة التي لم يدونها خاله ابن عبد الظاهر، يضاف إلى ذلك ذكر بعض الأمور السلبية وأوجه القصور في عصر الظاهر بيبرس والتي لم يذكره خاله، والتي تتعارض مع الغرض من الكتابة التاريخية لسير السلاطين والحكام في ذلك العصر متمثلة في التغاضي عن مفاسد الطبقة الحاكمة.

أسلوب الكتابة:

كتب شافع مؤلفة بأسلوب عادى يماثل اللغة التي كتب بها ابن عبد الظاهر مؤلفه، وقد استخدم السجع والتكلف والمحسنات البديعية، ويبدو أنه مثل ابن عبد الظاهر، كان يتعمد ذلك في الأحداث التي يشعر بأهميتها، وأن عليه أن يميزها بأسلوب غير عادى. (١١٧)

على سبيل المثال جاءت العبارات في المقدمة مسجوعة، وبدا التكلف ظاهراً فيها، ومن سجعه فيها قوله: "وقضى المراد من كل مراد، وبلغ المراد الجميل من راد". (١١٨) وقوله: "فدوخ البلاد، وسلب الطارف والتلاد" وقوله: "وهاجم وتجهم، وحكم وتحكم وعلم وتعلم، وهزم الجيوش، وأوحش حتى الوحوش". (١١٩)

ويؤخذ على شافع في مؤلفه بعض الأخطاء في الأسلوب واللغة والنحو ولكنها قليلة ولا تؤثر على قيمة الكتابة التاريخية عنده، مما يجعله مصدراً أساسياً لعصر دولة المماليك الأولى.

٣- بيبرس المنصوري الدوادار ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م

هو الأمير ركن الدين بيبرس الخطائي المنصوري الدوادار، مملوك السلطان المنصور قلاوون الألفى، والخطائى إشارة إلى جنسه إذ يبدو أنه من الخطا وهم قبائل عاشت على حدود الصين الشمالية وصل بيبرس المنصوري إلى مصر عام ٦٥٩هـ / ١٢٦١م، فاشتراه الأمير سيف الدين قلاوون، وكان عمر بيبرس يتراوح بين العاشرة والثانية عشر، ثم

---

(116) شافع بن علي، حسن المناقب السرية، مقدمة المحقق، ص ١٩.

(117) شافع بن علي، حسن المناقب، مقدمة المحقق، ص ١٩-٢٠.

(118) شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٢٥.

(119) شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٢٥ -٢٦.

تعلم بيبرس وفقاً للعادات المملوكية القرآن والفقه، وفي عام ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م ذكر بيبرس الدوادار أسماء المماليك القدامى الذين كانوا في خدمة قلاوون وذكر اسمه بينهم، وفي عام ٦٧٩هـ / ١٢م أنعم السلطان قلاوون عليه بعدة خمسة عشر طواشيا، ثم يعود ويذكر أنه صار جملة أمرائه. [١٢٠]

أنعم قلاوون على بيبرس بعدة ثمانين فارساً وإقطاع، ثم ولاه نيابة الكرك، وكتب له منشوراً أمره بذلك أورده بيبرس الدوادار في مؤلفه وخوطب فيه "المجلس الأعلى الأمير الأجل الأوحد المجاهد العضد الدوادار الملكي المنصوري وذلك في عام ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م. [١٢١]

توفي المنصور قلاوون وخلفه ابنه الأشرف خليل ٦٨٩ – ٦٩٣هـ / ١٢٩٠ – ١٢٩٣م الذي أعد العدة لإتمام ما بدأه والده من استعدادات لفتح عكا آخر معاقل الصليبيين في الشرق الإسلامي، فقرر الأشرف خليل إتمام ما بدأه والده وأرسل إلى أمراء الشام يأمرهم بالاستعداد وكذلك أرسل لبيبرس الدوادار الذي رد بدوره على السلطان يطلب الاشتراك في القتال، ويورد بيبرس تفاصيل دقيقة عن تلك الحملة ويفرد لها صفحات عديدة، وفي عام ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م آلت السلطنة إلى الناصر محمد بن قلاوون بعد قتل الأشرف خليل على يد الأمير بيدرا ومجموعة من الأمراء، وكان بيبرس قد عاد من حملته الحربية ضد حمص، فرقاه السلطان الناصر محمد إلى أمير مائة مقدم ألف ثم قلده منصب صاحب ديوان الإنشاء شأنه في ذلك شأن ابن عبد الظاهر. [١٢٢]

وعلى الرغم من أن منصب صاحب ديوان الإنشاء كان يتطلب من صاحبه أن يقرأ جميع الرسائل الواردة وأن ينشئ جميع الرسائل والوثائق السلطانية الهامة، فإن عمل بيبرس اقتصر على القيام بالمهمات الخاصة فمثلاً في بداية عام ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م نجده قد كلف

---

[120] بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، جـ٩، تحقيق زبيدة عطا، الرياض ١٩٨٩م، ص ٢٢ ؛ التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة ١٩٨٧م، ص ٦ وما بعدها ؛ أنظر أيضاً،

E. Ashtor, *Some Unpublished Sources for the Bahri Period Studies in Islamic History and Civilization*,(1961)، p. 12 ; idem, *Baibars al-Mansuri, EI*, I, pp. 1127 – 1128.

[121] بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، جـ٩، ص ٢٢-٢٣ ؛ التحفة الملوكية، ص ٧-٨ ؛
Ashtor, *Baibars al-Mansouri*, p. 1128.

[122] Ashtor, *Baibars , al-Mansuri*, p. 1127.

بالسفر إلى الإسكندرية ليضع حداً لقرصنة مراكب الأفرنج، [١٢٣] كما كلف بتوزيع الأموال التي تم جبايتها من الأغنياء على الفقراء بغرض إطعامهم أثناء تلك المجاعة التي اجتاحت البلاد.[١٢٤] ثم ما لبث أن فقد بيبرس مكانته في البلاط المملوكي عقب تولى لاجين السلطنة عام ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م وإن كان قد استعادها من جديد في عام ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م بعد عودة السلطان الناصر محمد إلى الحكم. [١٢٥]

اشترك بيبرس مرتين في الحرب ضد المغول بالشام الأولى عام ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م، والثانية عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م الأمر الذي ساعد على إعطائنا وصفاً دقيقاً مفصلاً للمعارك التي خاضها، [١٢٦] كذلك عهد إليه الملك الناصر محمد في عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م بالسفر إلى الإسكندرية على رأس حملة للقيام بتقوية تحصيناتها الحربية بسبب الزلازل. [١٢٧]

فقد بيبرس الدوادار وظيفته في ديوان الإنشاء وعهد إليه في العام التالي بالاشتراك في التجريدة التي خرجت لمحاربة الأرمن حيث عمل نائباً لأحد قواد هذه الحملة، ومن ثم مكنه ذلك للمرة الثانية أن يعطينا وصفاً دقيقاً لأحداث هذه التجريدة عام ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م. [١٢٨]

وفي عام ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م كافأه السلطان الناصر محمد على ولائه، فعينه نائب السلطنة، وأعاد إليه وظيفة الدوادارية، وأضاف إليه نظر الأحباس ونيابة دار العدل، وأقام نائب سلطنة أكثر من عام، [١٢٩]، ثم غضب عليه السلطان وسجن بالإسكندرية لمدة خمس سنوات، حتى شفع فيه الأمير أرغون النائب، فأحضر إلى القاهرة في عام ٧١٧هـ / ١٣١٧م فخلع عليه وأعطى تقدمه، وكان يجلس رأس الميسرة ثم مات في عام ٧٢٥هـ / ١٣٢٥ وهو في عمر الثمانين. [١٣٠]

---

(123) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، جـ٩، ص ٢٨٦ وما بعدها ؛ التحفة المملوكية، ص١٤٢ وما بعدها.

(124) Ashtor, *Baibars, I*, p. 1128.

(125) أحمد عبد الرازق، دراسات في المصادر المملوكية المبكرة، القاهرة، ١٩٨١م، ص ١٤-١٥.

(126) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، جـ٩، ص ٣٣٣ وما بعدها.

(127) بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٨ ؛ أحمد عبد الرازق، دراسات في المصادر المملوكية، ص ١٥.

(128) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، جـ٩، ص ٣٦٣ ؛ التحفة المملوكية، ص٨.

(129) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، جـ٩، ص ٢٤.

(130) ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص ٥١ ؛ أحمد عبد الرازق، دراسات في المصادر، ص ١٧.

مؤلفاته :

١- "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة "يعتبر تاريخ إسلامي عام ينتهي عند سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م. [١٣١] ويؤكد بيبرس الدوادار في "زبدة الفكرة" في أغلب الفقرات أنه شاهد عيان للأحداث، خاصة في التجريدة التي أرسلها السلطان الأشرف خليل لمواجهة النجدة التترية. ورغم أنه كان شاهد عيان إلا أنه أغفل الحديث عن الجهود التي قام بها الجيش المملوكي في بداية الأمر في سبيل الاستيلاء على قلعة الروم. هذا إلى جانب أن إشرافه على ديوان الإنشاء مكنه من الإطلاع على كثير من الوثائق المتبادلة بين السلطان وبقية الحكام المعاصرين، ونصوص المعاهدات مع الفرنج، وسفارات الصداقة مع ملوك الدول المختلفة بالمغرب واليمن والحجاز وغيرها، ونصوص مراسلات السلطان مع التتار سواء مع خلفاء هولاكو أو مع حكام القبيلة الذهبية فأورد العديد منها في مؤلفاته. [١٣٢]

٢- "التحفة الملوكية في الدولة التركية". تبدأ الأحداث من عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م إلى عام ٧١١هـ/١٣١١م أى أن "التحفة الملوكية" تزيد على "زبدة الفكرة" بـ ثلاث سنوات، أعطاها المؤلف اهتمام في التفاصيل والأحداث، بعد أن وصل إلى أعلى الوظائف في البلاد المملوكي ويكشف لنا كتاب "التحفة" عن حب المؤلف وشغفه بالتاريخ واعتنائه بسرد الأحداث والوقائع لما لها من قيمة تاريخية كبيرة، [١٣٣] وقد اقتصر بيبرس المنصوري في كتابه "التحفة" على ذكر الأحداث مرتبة وفق السنين الهجرية، دون ذكر من توفي من مشاهير الأعلام أو الرجال، فالأحداث من عام ٦٤٧ هـ إلى عام ٦٨٥هـ يسرد فيها المؤلف الأحداث والوقائع المأخوذة ممن سبقه من المؤرخين، [١٣٤] أو سمعه من النقلة الذين عاصروا الأحداث على سبيل المثال معلومات بيبرس عن المغول تتميز بالدقة والصدق وسبب ذلك أن بيبرس قد استقاها مباشرة من سيف الدين جنكلي بن البابا، وهو من كبار الشخصيات المغولية التي وفدت على مصر عام ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م. [١٣٥]

---

(131) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٣، ص ١٥

(132) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ٢٦؛ روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٦٧.

(133) Ashtor, E., "Some Unpublished Sources for the Bahari Period", *Studies in Islamic Scripta Hierosolymitana*, vol. IX (1961), p. 12.

(134) بيبرس الدوادار، التحفة الملوكية، ص ١٥.

(135) بيبرس الدوادار، التحفة الملوكية، ص ١٥ – ١٦.

وفيما يتعلق بالأحداث من عام ٦٨٥ هـ إلى عام ٧١١هـ فالمرجعية التاريخية هنا هو بيبرس المنصوري نفسه، فقد كان شاهد عيان بفضل تقلده وظيفة رسمية في البلاط المملوكي ساعدته على القرب من السلطان ودواوينه، إلى جانب التجريدات الحربية التي خاضها، واستطاع أن يكتب عنها بصدق وصوره مباشرة.(١٣٦)

ويحدثنا بيبرس في "التحفة" عن المفاوضات والمساومات الدبلوماسية بين مصر وجيرانها المطلين على حوض البحر الأبيض المتوسط وعن اتصالاتهما بالمغرب وعن علاقاتها بأرمينية، وإغارات سفن الفرنج على المراكب الإسلامية. (١٣٧)

وجدير بالملاحظة أن بيبرس المنصوري لم يحاول تمجيد السلطان الناصر محمد على حساب الأحداث التاريخية بل على العكس، فإن حبه واحترامه للسلطان لم يمنعه من ذكر انهزامه في معركته مع الفرنج عند خروجه لقتالهم، وأرجع ذلك إلى النحس الذي يقع يوم الأربعاء، واستشهد على ذلك بالقرآن الكريم وبما ثبت لدى المسلمين.(١٣٨)

وعليه فكتاب "التحفة الملوكية" يعتبر مصدراً من المصادر الأساسية لعصر الناصر محمد بن قلاوون الذي كتب من أجله، ولذلك فهو حافل بالتفاصيل التاريخية التي لا مثيل لها في "الزبدة" في كثير من الأحيان في وضوحها ودقتها. (١٣٩)

كما تعتبر "التحفة الملوكية" توضيح لبعض موضوعات "زبدة الفكرة" الموجزة والدليل على ذلك ثورة المماليك الأشرفية عام ٦٩٤هـ/١٢٩٢م، فقد جاءت بإيجاز شديد في "الزبدة" على حين نجدها غاية في الإسهاب والتفاصيل في التحفة الملوكية.(١٤٠)

منهج الكتابة التاريخية عند بيبرس :

اتبع بيبرس المنصوري في الكتابة التاريخية "النظام الحولي" أي ترتيب الوقائع والأحداث على حساب السنين والشهور والأيام، على أن يقوم بتجميع مختلف الحوادث في كل

---

(136) بيبرس الدوادار، التحفة الملوكية، ص ١٦.

(137) بيبرس الدوادار، التحفة الملوكية، ص ١٦ – ١٧.

(138) بيبرس الدوادار، التحفة الملوكية، ص ١٥٧.

(139) بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ١٣ ؛ قاسم عبده قاسم، في تطور الفكر التاريخي، ص ١٣٢؛
Donald-Little, *An Introduction to Mamluk Historiography* (Wiesbaden، 1970), p. 6.

(140) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، جـ٩، ص ٢٨٥ ؛ التحفة الملوكية، ص ١٤٢ ؛ أحمد عبد الرازق، دراسات، ص ١٨ ؛
Little, *An Introduction to Mamluk*, p. 5.

سنة مراعياً الربط فيما بينها بكلمة و "فيها" فإذا ما انتهت حوادث تلك السنة انتقل إلــى التــي تليها. (١٤١) ونجد المنهج الحولي واضحاً في كتابة "زبدة الفكرة" و "التحفة الملوكية" فالأحداث التي أرخ لها مرتبة حسب السنوات، (١٤٢) وهذه الطريقة تتيح القارئ الرجوع إلــى بعــض الأحداث في عام معين عن طريق تتبع هذه الأحداث والترتيب الزمني لها، خاصة وقد وضع بيبرس عناوين تشير إلى حوادث كل سنة وتعلن عن مضمونها في نفس الوقت. (١٤٣)

وعن أسلوب الكتابة التاريخية عند بيبرس، فقد تعمق في اللغة العربيــة، بــل ودأب على القراءة والاطلاع والبحث في العلوم الدينية، وساعده على ذلــك اســتعداده الشخــصي وانشراح صدره للإسلام وعكوفه على الصلاة، ويظهر ذلك بوضوح في كتاباته التي رصعت بآيات من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والأقوال المأثورة عن السلف وهو ما يكشف عن ثقافته الدينية كما سبق القول. (١٤٤)

وقد استشهد بالقرآن الكريم في كتابه "التحفة" عندما عزم السلطان على غزو عكا في عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م ووافته المنية بقوله "قال الله عز وجل "ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت، فقد وقع أجره على الله، وكان الله غفوراً رحيماً". (١٤٥) كمــا استشهد بالأحاديث الشريفة. (١٤٦)

أما فيما يتعلق بالاستشهاد بالشعر، فقد حفلت "الزبدة" و "التحفة" بالاقتباسات الشعرية من شعراء عصره وسابقيه، والتي أخذت حيزاً كبيراً من مساحتها ووصلت لدرجة الإســراف بذكر "قصائد مطولة داخل السياق التاريخي". (١٤٧)

---

(141) سند أحمد سند، عز الدين بن شداد مؤرخاً، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب، جامعة عين شــمس، ٢٠٠٤، ص ٢١٠، ٢١٣.

(142) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ٩٤، ١٠٤، ١١٥، ١٣٥، ٢١٦، ٢٣٥، ٢٥١؛ التحفة الملوكيــة، ص ٤٧، ٩٣، ٧٠٩، ٧١٠؛ روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٠١-١٠٢.

(143) لمزيد من التفاصيل انظر: بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ٥٥، ٥٧، ٦٩ ؛ التحفــة الملوكيــة، ص ٤٧، ٩١، ٢٠١، ٢٠٩.

(144) بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ١١.

(145) بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ١٢٢.

(146) انظر بيبرس المنصوري، التحفة، ص ١٢٣.

(147) لمزيد من التفاصيل انظر بيبرس المنصوري، زبــدة الفكــرة ص ٧٠، ٧٥، ١٠٣، ١٠٤، ١٤٢؛ التحفــة الملوكية، ١٢١، ١٢٣، ٢١١.

مجمل القول: أن كتابات بيبرس المنصوري تميزت بتداعي الأفكار في أسلوب فصيح، رغم ما يقدمه من أعذار عن التقصير في العبارة والجمل، ويشدد بنفسه على ولعه بالتأريخ فيقول في مقدمة "التحفة الملوكية": "إني صرفت الهمة إلى تدوين التواريخ والسير وتلخيص ما فيها من خبر مختبر، وإيداعها صدور الطروس لتكون عبرة لمن اعتبر". (١٤٨)

وكغيره من المؤرخين السابقين استخدم بيبرس أسلوب يعتمد على السجع والمحسنات اللفظية، دون الإخلال بسياق الوقائع التاريخية التي أوردها معتمداً على المصادر الموثوق بها إلى جانب معايشته للأحداث.

المرجعية التاريخية لبيبرس :

يمكن تقسيم المصادر التي اعتمد عليها بيبرس في جمع مادته العلمية إلى مصادر شفهية ومشاهدات عينية استمدها من خلال مشاركته في الأحداث، أو من خلال جمع المعلومات التاريخية من أشخاص كانوا مشاركين في تلك الأحداث عن طريق السماع، بالإضافة إلى الوثائق كالمراسلات بين السلاطين ونوابهم في سائر الأقاليم إلى جانب النقل والاقتباس من المؤلفات السابقة.

١- المشافهة والمشاهدة :

أن معاصرة المؤرخ لأحداث عصره تغلف روايته التاريخية بطابع الصدق والدقة، ويصبح معها أقدر من غيره من المؤرخين اللاحقين على تصويرها بألوانها الحقيقية، على اعتبار أن المعاصرة تمكن المؤرخ من الاستفادة بما لديه من الوثائق والرسائل والمعاينة والتحقيق بما يجنب الوقوع في الأخطاء التي وقع فيها من لم يحز حزوه واعتمد على النقل والاقتباس. (١٤٩)

أما المشاهدة فيمثلها قوله في معرض الحديث عن وصوله للقلعة "ووصلت أنا وسيف الدين بهادر إلى القلعة في الخامس وعشرين من الشهر ...". (١٥٠)

ونتيجة لتولي بيبرس وظيفة ديوان الإنشاء مكنه ذلك من جمع الكثير من المعلومات اللازمة لكتابة مؤلفه "زبدة الفكرة" و "التحفة الملوكية" يضاف إلى ذلك مقابلة بيبرس للسلاطين

---

(148) لمزيد من التفاصيل انظر بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ١٥، ٢٣.

(149) السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ١٢٤ ؛ شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمورخون، جـ٣، ص ٤٦، ٤٩.

(150) بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٢٠٣.

والأمراء والقضاة والفقهاء والعلماء وكبار موظفي الدولة واحتكاكه الدائم بهم مكنــه مــن أن يصبح شاهد عيان للأحداث الجارية في عصره بل مشاركة في صنع الأحداث التي أرخ لها، كما يتضح من تأريخه للخلاف الذي حدث بين السلطان الناصــر محمــد والأميــر بيبــرس الجاشنكير. (١٥١)

الوثائــــق :

استخدم بيبرس المنصوري الوثائق في مؤلفاته التاريخية، مثلما هو الحال في معظم كتابــات من سبقه من المؤرخين، وساعده على ذلك وظيفته بديوان الإنشاء التي أتيحت لــه فرصــة الإطلاع على الكثير من الوثائق الرسمية متعددة الأغراض والأنــواع المحفوظة به(١٥٢) مثل المناشير السلطانية وعهود الأمان ووثائق هدنة أو صلح، وكتب متبادلة بين الملوك إلى غيــر ذلك من الوثائق ذات الأهمية البالغة.

أمثلة للوثائق سابقة الذكر "نسخة التقليد المكتوب عن الخليفة للــسلطان والتــي أوردهــا بيبرس في كتابه زبدة الفكرة". (١٥٣)

وذكر نسخة خطبة المنشور الشريف(١٥٤)

وذكر خطبة منشور الطلخانة(١٥٥)

وذكر تفويض نيابة السلطنة إلى الأمير بدر الدين بيدرا(١٥٦)

ونسخة فرمان الأمير سيف الدين قفجاق(١٥٧)

والفرمان الذي سطره قازان(١٥٨)

وتفويض الوزارة إلى القاضي سعد الدين بن عطايا(١٥٩)

---

[151] عن الخلاف انظر بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ١٨١ وما بعدها.

[152] شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٣، ص ٥٤ ؛ حــسين مــؤنس، التــاريخ والمؤرخــون، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٥١ ؛ روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٦٧

[153] بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، جـ ٩، ص ٧٩.

[154] بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، جـ٩، ص ٢٣٠.

[155] بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، جـ٩، ص ٢٣١.

[156] بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، جـ٩، ص ٢٥٥.

[157] بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، جـ٩، ص ٣٢٤، ٣٢٦.

[158] بيبرس المنصوري، زبدة الفكــرة، جـــ٩، ص ٣٥٢؛ www.Lib.uchicago.edu/mamluk/Ibn+al-Dawadari

[159] بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، جـ٩، ص ٣٦١.

من الأشياء التي تؤخذ على بيبرس المنصوري تحيزه الواضح لأسرة قلاوون، فتعمد إلى عدم ذكر الأشياء المميزة لما خالف أسرة قلاوون أو مغتصبي حقهم وعرشهم من مميزات وما أتوه من حسنات(١٦٠).

٤- ابن ايبك الدواداري:

هو سيف الدين أبو بكر بن أيبك الدواداري، ضنت علينا المصادر المملوكية بـذكر ترجمة له، الأمر الذي ترتب عليه أن أصبحنا نجهل الكثير عن حياته كمؤرخ معاصر لعصر الناصر محمد بن قلاوون، ويعتقد أنه شغل بعض المناصب الهامة على عهد السلطان الناصر محمد، ولا نعرف متى ولد ولا أين توفي ومتى. كل ما نعرف عنـه أنـه كـان حياً عـام ٧٣٦هـ/١٣٣٦م وقد توفي بعد ذلك، وقد كتب تاريخه عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، وانتهى منـه عام ٧٣٦هـ/١٣٣٦م. (١٦١)

أمدنا هو في مؤلفه بمعلومات وفيرة عن والده الذي ارتبط به ارتباطاً وثيقـاً ،(١٦٢) كان والده حاكم صرخد (بإقليم حوران، جنوب دمشق) ثم عهد إليه السلطان الناصـر محمـد بتولي أعمال الشرقية للإشراف على شئون قبائل العربان وقد رافق ابن أيبك والده أثناء إقامته بالشرقية، مما ساعده على إمداده بالكثير من المعلومات لكتابة تاريخه الكبير(١٦٣) "كنز الدرر وجامع الغرر" وهو عبارة عن تاريخ عام يقع في عدة أجزاء، قسمه المؤلف درراً متفرقـة، وكل درة لمرحلة تاريخية معينة جعل لها عنواناً خاصة بها، وأضاف بعده عنواناً آخر يتصل بأفلاك السماء وهكذا فهناك :-

(أ) الدرة العليا في أخبار بدو الدنيا وهى من فلك القمر، في تقسيم المؤلف.

(ب) والدرة اليتمة في أخبار الأمم القديمة وهى من فلك عطارة.

(ج) والدر الثمين في أخبار سيد المرسلين وهى من فلك الزهرة.

(د) والدرة السمية في أخبار الدولة الأموية وهى من فلك الشمس.

---

(160) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، جـ٩، ص ٢٦

(161) أحمد عبد الرازق، دراسات في المصادر الملوكية، ص ١٨ ؛ شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون ،ج٣، ص ١٢٢.

(162) Little, *An Introduction to Mamluk*, p. 10; Ayman Fuad Sayyid, "L'évolution de la composition du Geure de Khitat en Égypte musulmane", in *the Historiography of Islamic Egypt*, pp. 83-84-85, Lindus, *From Slave to Sultan*, pp. 47-48.

(163) أحمد عبد الرازق، دراسات في المصادر الملوكية، ص ١٨ وما بعدها.

(ه) والدرة السنية في أخبار الدولة العباسية وهى من فلك المريخ.

(و) والدرة المعنية في أخبار الدولة الفاطمية وهي من فلك المشترى.

(ز) والدر المطلوب في أخبار دولة بني أيوب وهى من فلك زحل.

(ح) والدرة الزكية في أخبار الدولة المملوك التركية (المماليك) وهى من فلك البروج.

(ط) والدر الفاخر في سيرة الملك الناصر (سلطان مصر) وهى من الفلك الأطلس.[١٦٤]

ويشتمل الجزء التاسع على سلطنة الناصر محمد بن قلاوون من عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م إلى عام ٧٣٦هـ/١٣٣٦م ويطلق عليه أيضاً "سيرة الملك الناصر"، وموضوعات هذا الجزء تتشابه إلى حد كبير من حيث الجوهر مع موضوعات مؤلفي بيبرس الدوادار "زبدة الفكرة" و"التحفة الملوكية" مع بعض الاختلافات الثانوية التي تتمثل في بعض الاستطرادات كما حالة ذكر زلزال عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، [١٦٥]وفي ذكر نواب الديار المصرية ونواب الممالك الإسلامية وملوك الأقطار بالأقاليم والأمصار التي يبدأ بها مؤرخنا أحداث كل عام وبوجه خاص أحداث عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م[١٦٦] على الرغم من أنه قد اعتاد أن يبدأ حوادث كل سنة بذكر قائمة موجزة لأهم التغيرات التي طرأت على الوظائف في بداية هذه السنة بيد أنه في عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م قد تعمد إلى حشو ثلاث صفحات بأسماء النواب والملوك.[١٦٧]

وتتجلى عناية ابن أيبك بالقوائم في نهاية تاريخه عند ذكره لأسماء المساجد التي شيدت والتي رممت في عهد السلطان الناصر محمد، [١٦٨] كذلك حرصه على ذكر أسماء جميع الأمراء الذين رافقوا السلطان الناصر محمد في حجته الثالثة إلى مكة عام

---

[164] شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون ،ج٣، ص ١٢٤.

[165] ابن أيبك الدوادارى، كنز الدرر وجامع الغرر الجزء التاسع وهو الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت، القاهرة ١٩٦٠م، جـ٩، ص ١٠٤، ١٠٧ ؛

Little, *An Introduction to Mamluk*, pp. 12-13.

[166] ابن أيبك الدوادارى، كنز الدرر، جـ٩، ص ٤١-٤٣ ؛ أحمد عبد الرازق، دراسات في المصادر المملوكية، ص ٢٤.

[167] ابن أيبك الدوادارى، كنز الدرر، جـ٩، ص ٤١-٤٤.

[168] ابن أيبك الدوادارى، كنز الدرر، جـ٩، ص ٣٨٨ - ٣٩١ ؛ لمزيد من التفاصيل عن عصر الناصر محمد بن قلاوون انظر

Levanoni, A., *A Turning Point in Mamluk History the third Reign of al-Nasir Muhammad Ibn Qalawun (1310-1341)* (Leiden, 1995).

٧٣٢هـ/١٣٣٢م، وعنايته بالإشارة إلى أسماء جميع الأمراء الذين بقوا بالديار المصرية ومقدار ما قرر على كل منهم من البسط لقدوم الركاب الشريف. (١٦٩)

يتضح أن ابن أيبك أراد من تاريخه هذا أن يكون مصدراً علمياً صادقاً في روايته وقد نجح إلى حد ما، وبمقارنة تاريخ ابن أيبك بتاريخ بيبرس الدوادار يتضح أن هناك شبهاً كبيراً بينهما وأن أحدهما قد تأثر بالآخر، على سبيل المثال أحداث عام ٦٩٤هـ/١٢٩٤م الواردة في تاريخ ابن أيبك ومقارنتها بأحداث نفس العام التي ذكرها بيبرس الدوادار في كل من زبدة الفكرة و "التحفة الملوكية" نلاحظ الآتي :

- هناك موضوعات وردت فقط في تاريخ ابن أيبك.
- هناك موضوعات وردت فقط في تاريخ بيبرس الدوادار.
- هناك موضوعات وردت مشتركة وردت في كل من ابن ايبك وفي بيبرس الدوادار، ولكن كل منهما أشار إليها وعرضها بطريقته الخاصة وبأسلوبه المميز. (١٧٠)

نستطيع القول أن ابن أيبك في تاريخه "الدر الفاخر" لم يتضمن فقط المعلومات التي سبق ورودها عند بيبرس الدوادار في تاريخه "زبدة الفكرة" أو "التحفة الملوكية" وإنما تتضمن وأضاف معلومات كثيرة بصدد هذه الفترة المملوكية المبكرة مما يجعله مصدر أساس لأي باحث يريد معلومات عن تاريخ دولة المماليك البحرية.

منهج الكتابة التاريخية عند ابن أيبك

يلاحظ أن ابن أيبك أضاف في كتابه "الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر" معلوماته الشخصية التي توفرت له عن أبيه ومعاصريه وتجاربه وحياته، بالإضافة إلى العديد من الإشارات والمعلومات التي ينفرد بها عن غيره. وعلى الرغم من الذوق الأدبي الجميل عند ابن أيبك بالإضافة إلى أسلوبه الجيد، إلا أنه كثير ما يهبط إلى مستوى اللغة الدارجة والخطأ النحوي. (١٧١)

---

(169) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، جـ٩، ص ٣٦٩.

(170) أحمد عبد الرازق، دراسات في المصادر، ص ٢٦.

(171) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٣، ص ١٢٤ – ١٢٥.

اعتمد ابن أيبك في جمع مادته العلمية إلى مصادر شفهية ومشاهدات عينية استمدها من خلال مشاركته بنفسه في أحداث عصره، أو من أشخاص آخرين كانوا مشاركين في تلك الأحداث عن طريق السماع والمساءلة، بالإضافة إلى النقل من المصادر المكتوبة أو المؤلفات السابقة :

استقى ابن أيبك معلوماته عن طريق أبيه ومعاصـــريه، ومـــن مـــصادر مجهولـــة ومفقودة، وفي هذه الناحية يقدم لنا ابن أيبك خدمة تاريخية وثقافية كبرى لأنه حفظ في كتابــه بعض النصوص والمعلومات التي لا توجد عند غيره، والتي استقاها من مصادر لم تكن لولاه نعرف عنها ولا عن مؤلفيها شيئاً، ومن مثل ذلك: تاريخ الشام للسميساطي الذي لم يذكره ولم يذكر مؤلفه أحد، ومثله الكتاب القبطي الذي وجده ابن أيبك بالدير الأبيض واستنـــسخ منــــه، وكتاب تاريخ الأتراك القديم (وأي أطام بتكى / أو كتاب الأب الكبير) الذي نسخ منه عشرين صفحة، وكتاب "جني النحل" لمحمد البلخي وغيرها كتب عديدة. [(١٧٢)]

٥– مفضل بن أبي الفضائل:

ضنت علينا المصادر التاريخية بذكر ترجمة له، الأمر الذي يرجع بأنه لم يكن مـــن ذوى الشخصيات الهامة في المجتمع المملوكي، ومن ثم لم يشر إليه أحد من كتاب هذا العصر من قريب أو بعيد، ومفضل هو صاحب كتاب "النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابـــن العميد"[(١٧٣)] وكما هو واضح من العنوان أنه أراد أن يكمل به تاريخ ابـــن العميـــد، ويـــشير بلوشيه الذي قام بنشر بعض أجزاء هذا التاريخ إلى أن هذه المخطوطة ما هي إلا اختـــصار متقن للجزء الأخير من كتاب "نهاية الأرب" للنويري، وإن كان هذا الرأي يبدو مهزوزاً بعض الشئ، ولا ينطبق تماماً على مفضل بن أبي الفضائل، لأن النويري يمتاز بأسـلوبه الواضـــح المحدد، ومن ثم فقد كان مؤرخاً ناجحاً، أما فيما يتعلق بمفضل فقد دون كتابه بأسلوب ركيـــك وبطريقة خشنة، ومن ثم فقد اعتبر بمثابة مؤرخ هزيل لاسيما وأنه كان قبطياً والأقباط علـــى حد تعبير المستشرق بلوشيه لم يكن بقدرتهم التمكن من اللغة العربية والإلمام بها. [(١٧٤)]

---

(172) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون ،ج٣، ص ١٢٤ – ١٢٥.

(173) Little, *An Introduction to Mamluk*, p. 32, Linds, *From Slave to Sultan*, p. 49.

(174) أحمد عبد الرازق، دراسات في المصادر المملوكية، ص ٣٨ ؛
Blochet, *Histoire des Sultans mamlouks, by Mufaddal Ibn Abi al Fadail, Patrologia Orientalis,*XII, XIV, XXII (Paris,1919-1928), pp. 9-10, 188.

ولا يختلف تاريخ بن أبي الفضائل كثيراً في معلوماته التاريخية عن مؤلفات المؤرخين المسلمين من ذوى الكفاءات المختلفة والخبرات المتعددة على الرغم من أن مفضل كان قبطياً. (١٧٥)

يبدأ تاريخ مفضل بذكر سلطنة الظاهر بيبرس في عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وينتهي بوفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٤١هـ/١٣٤١م. (١٧٦)

وبدراسة تاريخ مفضل ابن أبي الفضائل المعروف بـ "النهج السديد" نلاحظ أنه لم ينقل من تاريخ النويري "نهاية الأرب" كما زعم المستشرق بلوشيه، وإنما أضاف مادة تاريخية جديدة لا توجد في أي مصدر آخر، ومن ثم فيعتبر تاريخ مفضل من المصادر الأساسية والهامة لعصر دولة المماليك الأولى، ولا غنى لأي باحث في التاريخ المملوكي في الرجوع إليه عند دراسة هذه الفترة المبكرة من تاريخ دولة المماليك. (١٧٧)

ويلاحظ أن أسلوب مفضل يشبه إلى حد كبير أسلوب المخطوطة التي نشرها زتيرشتين عند وصفه لمعركة وادي الخازندار عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، الأمر الذي يشير إلى زمالة ما بين مؤلف هذا المخطوطة المجهول وبين كل من مفضل وابن الدواداري، ويؤكد هذه الصلة عند دراسة وصف مفضل لاحتلال المغول لدمشق واستردادها بواسطة القوات المملوكية، الأمر الذي يدحض الزعم بأن "النهج السديد" ما هو إلا موجز لتاريخ النويري، والمقارنة السطحية تشير إلى أن هذا المؤرخ قد استخدم مؤلفات كل من ابن الدوادارى ومخطوطة المؤلف المجهول كمصدر له، بالإضافة إلى استعانته بأحد المصادر الشامية، وذلك فيما يتعلق بالأحداث التي وقعت في الشام في عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م. (١٧٨)

منهج الكتابة التاريخية عند مفضل

---

(175) أحمد عبد الرازق، دراسات في المصادر المملوكية، ص ٣٦؛
Little, *An Introduction to Mamluk*, pp. 32 – 33.

(176) Little, *An Introduction to Mamluk*, p. 33.

(177) Little, *An Introduction to Mamluk*, p. 33.

(178) مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد، أحداث عام ٦٩٩هـ، ص ٤٧٠-٤٧١ ؛ أحمد عبد الرازق، دراسات في المصادر المملوكية ؛
Donald, *An Introduction to Mamluk*, pp. 35-36, 43.

اتبع مفضل في كتابه تاريخ "النظام الحولي" بترتيب الوقائع والأحداث على حسب السنين والشهور والأيام، أما أسلوبه فكان ركيك وكتب بطريقة خشنة، لاسيما وأنه كان قبطياً والأقباط على حد تعبير المستشرق بلوشيه لم يكن بقدرتهم التمكن من اللغة العربية والإلمام بها كما سبق وأن ذكرنا.

المرجعية التاريخية عند مفضل

جمع مفضل مادته العلمية في سبيل إتمام كتابه تاريخه عن طريق المشافهة والمشاهدة العينية، فقد كان شاهد عيان لبعض الأحداث التي عاصرها وسمعها أو اطلع عليها أو تلقاها من معاصريه، يضاف إلى ذلك نقل مفضل من المؤرخين السابقين شأنه في ذلك شأن الكثيرين، فقد اعتمد أساساً على نص بيبرس الدوادار وأضاف إليه بعض المعلومات الجديدة التي لا توجد في أي مصدر آخر والتي رتبها ونسقها بطريقة مبدعة.

ويؤخذ على مفضل إغفاله لبعض التفاصيل المتعلقة بالتغيرات الوظائفية ومشاكل العملة وذكر أغلب وفيات كل سنة وإن كان كل هذا لا يقلل من نجاح مفضل في ترتيب مادته التاريخية وتنسيقها بطريقة تجعل منه مؤرخاً جديراً بالدراسة. (١٧٩)

مؤرخو الموسوعات:

إذا كانت الموسوعات التاريخية بالمعنى الصحيح لم تظهر إلا في العصر المملوكي، إلا أن تلك الموسوعات قد سبقتها حركة شبيهة بحركة التأليف الموسوعي في العصر العباسي، ومن الأسباب الهامة التي دعت إلى ظهور الكتابات الموسوعية، هو سقوط بغداد (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) في أيدي التتار، ثم مجئ تيمورلنك في أواخر القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي مما قضى عليها قضاء مبرماً سياسياً وأدبياً وعلمياً وفرار الكثيرين من علمائها وأدبائها إلى مصر. وفي أحدث أولئك العلماء حركة علمية كبيرة أثرت في العلماء المصريين تأثيراً كبيراً ودعتهم إلى التفكير في إنقاذ الثقافة الإسلامية ألا وهى جمع المواد التي تتألف منها هذه الثقافة في كتب كبيرة على شكل (موسوعات) أو دوائر معارف لا تدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها، يضاف إلى ذلك ديوان الإنشاء، الذي كان له فضل كبير في

---

[179] أحمد عبد الرازق، دراسات في المصادر المملوكية، ص ٤٢ – ٤٣.

تشجيع العلماء والأدباء وكتاب الموسوعات على هذا الاتجاه[١٨٠] ومن أشـــهر الموســـوعات التاريخية.

النويري "٦٧٧ – ٧٣٢ هـ / ١٢٧٨ – ١٣٢٣م:

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بـــن عبـــد الـــدائم المعـــروف بالنويري، المولود بقرية (نويرة) ببني سويف، درس بالقاهرة، وتخصص في دراسة الحديث والتاريخ والأدب ما يؤهله ليكون من موظفي ديوان الخاص كأبيه، ويبدو أنه عمل أولاً فـــي نسخ الكتب وكان أنيق الخط يكتب النسخة من صحيح البخاري بألف درهم، اتـــصل بـــبلاط الملك الناصر محمد بن قلاوون، ونال عطفه وحظوته، فوكله ببعض الأمور المالية والإدارية ظهرت فيها جميعاً تفوقه، واشتغل بالكتابة وبسط الخرائط، وتولى أعمال الحسبة، والمقايسات والمحاسبة والتحصيلات، وفي عهد الناصر أيضاً باشر نظر الجيش بطرابلس وهى وظيفـــة عسكرية هامة. [١٨١] لا شك أن هذه الوظائف كان لها أكبر الأثر في تكوين النويري، وتوسيع معارفه العامة وثقافته النظامية والإدارية والمالية، والتي وضـــحت فـــي موســـوعته "نهايـــة الأرب". فقد مكنته أيضاً من الإطلاع على خبايا الأمور، كما مكنته من توطيد صلاته بـــذوي الوظائف الهامة في الدولة المملوكية الذين استقى منهم غالبية مادته العلمية التاريخيـــة مثـــل المؤرخ ابن الدلوداري. [١٨٢]

استمر النويري في هذه الأعمال حتى عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م وهـــو تـــاريخ تـــرك الناصر محمد للسلطنة وما صاحبه من اضطرابات فترك النويري الحياة الإدارية إلـــى الأدب وانقطع له، كما عكف على الدرس والمطالعة الواسعة، حتى أتته فكـــرة إخـــراج موســـوعته الضخمة، وبدأ العمل في عام ٧١٤هـ/١٣١٤م وخرج المجلد الأول إلى النـــور فـــي عـــام

---

(180) أحمد رمضان أحمد، تطور علم التاريخ الإسلامي حتى نهاية العـــصور الوســـطى، القـــاهرة ١٩٨٩م، ص ٢١٩ – ٢٢٠.

(181) Lindas, *From Slave to Sultan*, pp. 46 – 47.

محمد عبد الله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، ٦٢، ٦٣ ؛ أحمـــد رمـــضان أحمـــد، تطور علم التاريخ الإسلامي حتى نهاية العصور الوسطى، القاهرة ١٩٨٩م، ص ٢١٩ وما بعدها ؛

Little, *An Introduction to Mamluk*, p. 24; Amitai, .R., *Al-Nuwayri As Historian of the Mongols (In the Historiography of Islamic Egypt* (Leiden, 2001), pp. 23 - 24.

(182) أحمد عبد الرازق، دراسات في المصادر المملوكية، ص ٣٤ – ٣٥ ؛

Little, *An Introduction to Mamluk*, p. 24 – 25.

٧٢١هـ/١٣٢١م وسماه "نهاية الأرب في فنون الأدب"[١٨٣] أنهى النويري مشروعه الذي ملأ ٣١ مجلداً باعها بخطه بألفي درهم، ثم توفي في العام التالي.

"ونهاية الأرب في فنون الأدب" موسوعة ضخمة تحوي المعارف اللازمة من حيث المبدأ لكاتب ناجح في الديوان، ولكنها جاءت من السعة والتنوع والغزارة بحيث استوعبت معارف العصر كله. وكلمة الأدب التي وردت في العنوان كانت تعني لدى النويري أوسع معانيها وتشمل مع الأدب المحض من نثر وشعر، الجغرافيا والفلك والقضاء والسياسة والإدارة وحديث الحيوان والأقوام والنبات، كما تعني إلى كل ذلك التاريخ.[١٨٤] وقد قسم النويري موسوعته إلى خمسة أقسام، وقسم كل قسم إلى عدة أبواب.[١٨٥]

منهج الكتابة التاريخية عند النويري

نظم النويري موسوعته "نهاية الأرب" على أساس الأقاليم الجغرافية أولاً، ثم على الأساس الزمني من الأسرات الحاكمة، وتوسع خاصة في السيرة النبوية وتاريخ مصر والشام وخاصة الجزء الخاص بالعصر المملوكي الأول متضمناً عصر الناصر محمد بن قلاوون، وهكذا نرى أن النويري لم يتبع "النظام الحولي" عن طريق ترتيب الوقائع والأحداث على حساب السنين والشهور والأيام، وإنما رتب مادته التاريخية على أساس الأقاليم كما سبق وأن ذكرنا.

المرجعية التاريخية عند النويري

يمكن تقسيم المصادر التي رجع إليها النويري في جمع مادته العلمية إلى مصادر شفهية ومشاهدات استمدها من خلال مشاركته بنفسه في أحداث عصره، أو عن طريق أشخاص كانوا مشاركين في تلك الأحداث عن طريق السماع والمسائلة:

١- المشافهة والمشاهدة العينية

لعبت الظروف التي عاشها النويري دوراً كبيراً في تكوينه الفكري وفي أن يصبح من كبار موظفي ديوان الخاص إلى جانب تدرجه في الوظائف. الأمر الذي ساعده على الاطلاع على خبايا الأمور، كما ساعده أيضاً على توطيد صلاته بأصحاب الوظائف الهامة

---

(183) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٣، ص ١١٩ – ١٢٠ ؛
Little, *An Introduction to Mamluk*, p. 24 – 25.

(184) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٣، ص ١٢٠.

(185) لمزيد من التفاصيل انظر النويري، نهاية الأرب.

في الدولة الذين أخذ منهم غالبية مادته التاريخية وكما ذكرنا مثل صلته بالمؤرخ ابن أيبك، والأمير ركن الدين بيبرس والقاضي شمس الدين ابن عدلان والأمير سيف الدين بلبان الجوكندار المنصوري والأمير علاء الدين مغلطاي البيسرى، والأمير جمال الدين أقوش الأفرم.(١٨٦) وكما رأينا استمد النويري مصادره الشفهية من كبار الأمراء والشخصيات البارزة في الدولة الذين شاركوا في الأحداث السياسية أو التجريدات الحربية. أما المشاهدات فقد لعبت دوراً كبيراً في جمع مادته العلمية فقد ذهب إلى الشام عام ٧٠١هـ/١٣٠١م وهناك عمل بمثابة ناظر لأملاك السلطان، ثم عاد إلى مصر عام ٧٠٥هـ/١٣٠٥م وتولى نظارة ديوان الخاص والإشراف على المجموعة المعمارية التي شيدها السلطان المنصور قلاوون.

٢- المصادر المكتوبة :

انتشرت ظاهرة النقل والاقتباس كما ذكرنا طوال القرن السابع الهجري لدى المؤرخين من قبل أسلافهم، من خلال الإطلاع على مؤلفاتهم السابقة، فبعد أن كانت الروايات تنقل شفاها أو سماعا عن طريق الرواة في العصور الإسلامية المبكرة، ثم تدوينها في وثائق ورسائل وكتب ومجلدات، ومنذ ذلك أصبح النقل هو السمة الأساسية لمن يتعرض لتاريخ أحداث ووقائع العصور السالفة، ورغم ذلك ظهرت بعض المؤلفات التي تميزت بالأصالة والتفرد في معلوماتها، مما جعلها أشبه بالمصادر الأمهات التي لا يستغنى عنها مؤلف بعدها، ولكونها تغذى المؤلفات التالية لها. (١٨٧)

وقد استقى النويري مادته من مختلف المؤرخين الكبار، وحفظ لنا أحياناً كثيرة بعضاً مما ضاع من آثارهم، فقد نقل من ابن ميسر والجزرى وابن الساعي وابن الأثير عند حديثه عن القرن السادس، وسبط ابن الجوزى وابن واصل وابن خلكان وابن عبد الظاهر عند حديثه عن القرن السابع والعهد الأيوبي، وعند الحديث عن العصر المملوكي اقتبس مع بعض التصرف من مؤلف معاصر له هو محمد بن إبراهيم الكتبي المعروف بالوطواط ت ٧١٨هـ/١٣١٨م الذي وضع موسوعة صغيرة عنوانها "مباهج الفكر ومناهج العبر" فالفنون الأربعة الأولى هي فنون المباهج نفسها مع أبوابها، كما اقتبس النويري من بيبرس الدوادار وابن ايبك. (١٨٨)

---

(186) أحمد عبد الرازق، دراسات في المصادر، ص ٣٤ – ٣٥.

(187) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون مجـ٣، ص ٣٤-٣٦.

(188) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون مجـ٣، ص ١٢٠ – ١٢١.

Little, *An Introduction to Mamluk*, pp. 24 – 25.

يحسب للنويري انه أضاف الفن الخامس "التاريخ" وانتقل به من ميدان التعليم الديواني إلى ميدان المؤرخين وهناك نجد المؤرخ الحقيقي لأنه لا يكتفي بما يأخذه من المؤرخين الآخرين، ولكن يضيف إلى الأحداث رأيه وخبراته ومعلوماته الذاتية الخاصة.[189]

نستطيع القول أن النويري في الأجزاء الأخيرة من موسوعته كان شاهد عيان لأحداث عصره، مما يضفي على معلوماته طابع الدقة والصدق والأصالة، على اعتبار أن المعاصرة تمكن المؤرخ من الاستفادة بما لديه من وثائق رسمية ورسائل والتحقيق بما يجنبانه الوقوع في الأخطاء في حالة اعتماده على النقل والاقتباس فقط.[190]

وبالنظر إلى "نهاية الأرب" وفي الجزء الذي يتحدث فيه عن أخبار عصره نجده يروى بعض أعماله في نظارة ديوان الخاص وديوان الجيش في طرابلس، أو في نظارة الديوان بالإقليم الشرقي للدقهلية. [191]

مجمل القول: أن النويري إلى جانب نقله واقتباسه من بعض المؤلفات السابقة والمعاصرة، أضاف الكثير من المادة التاريخية في موسوعته، وكان شاهد عيان للعصر الذي عاش فيه مما يجعله في مقدمة المؤرخين الذين امتازوا بالأصالة والمعاصرة وعليه فإن "نهاية الأرب" يقف مع المصادر الأساسية لدولة المماليك الأولى، ولا غنى للباحث في التاريخ الإسلامي بعامة والمملوكي بخاصة في الرجوع إليه.

ابن فضل العمري ٧٠٠ – ٧٤٩هـ / ١٣٠٠ – ١٣٤٨م:

هو شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله أحمد بن يحيى العمري، ولد بدمشق، ونشأ وترعرع فيها وتلقى علومه الدينية والعربية على أكابر شيوخها، ويقال أن نسبه ينتهي إلى عمر بن الخطاب. [192] وفد على القاهرة حدثاً ودرس بها، واتخذها وطناً، وتخصص في علوم الفقه واللغة وبرع في الكتابة والإنشاء، تولى بعض الوظائف الإدارية في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وخاصة في تنظيم شئون البريد، كما تولى القضاء قبل

---

(189) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون ،ج٣، ص ١٢٠ – ١٢١.

(190) لمزيد من التفاصيل انظر السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ١٢٤ وما بعدها، شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٣، ص ٤٦ وما بعدها.

(191) النويري، نهاية الأرب، جـ٣٠، ص

(192) الصفدي، الوافي بالوفيات (عدة أجزاء، فيسبادن ١٩٨٠م ؛ جـ، ص، ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص ٣٣١ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١، ص ٩٧ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص ٢٣٤ ؛ المنهل الصافي، جـ٧، ص ٣٨٧ ؛ محمد عبد الله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ص ٦٨.

أن يتولى الكتابة في ديوان الإنشاء بمصر ودمشق. ولما تولى والده وظيفة كاتباً للسر على عصر السلطان الناصر، عهد إلى ابن فضل الله وإلى شقيقه قراءة الرسائل على السلطان الناصر محمد. (١٩٣)

كان ابن فضل الله حاد الطبع عنيد مكابرا مما أثار عليه حاشية السلطان وبطانته فأوغروا صدر السلطان عليه فأمر باعتقاله ومصادرته ولما لم يبد اهتماماً بهذه العقوبة حكم عليه بقطع يده، على أن الزمان تجهم له أكثر من مرة، فقد غضب عليه السلطان في مناسبات كثيرة، فقد زج به في السجن بعد قطع يده ونسيه مدة طويلة حتى رفع له ابن فضل الله قصته، فأفرج عنه وذلك عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م، وعاد إلى خدمة السلطان، ثم عاد إلى دمشق، ومات بحمى أصابته عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. (١٩٤)

مؤلفاته:

كتب العمري العديد من المؤلفات الأدبية والجغرافية إلى جانب المؤلفات المتعلقة بديوان الإنشاء. (١٩٥) ويأتي على رأس هذه المؤلفات اثنان :-

١- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار". (١٩٦)

٢- "التعريف بالمصطلح الشريف" وقد اختصره في كتاب آخر سماه: "عرف التعريف" وقد ذكر العمري أنه ألف هذا الكتاب لمطالبة البعض أن يكون هناك كتاباً في فن الإنشاء، وقد رفض في البداية بقوله: "ثم لم أجد لي راحة من دوام مطالبته إلا بأن أضع له دستوراً، وأحرق خاطري له في التذكر لما فات، وإن كنت لا أجد إلا فتوراً، وسألته عن أربه لأعمل على مقتضى إرادته، وآداب فيما يحصل به قدر إفادته، فاقترح أن أجعله لما يحتاج إليه في ذلك الديوان المباشر، ويكون له كالمعلم الحاضر والجليس المباشر، وقد أتيت به على وفق اقتراحه، وملأته سروراً به وقت

---

(193) Little, *An Introduction to Mamluk*, p. 40; Salibi, K., *Ibn Fadl Allah Al-'Umari,EI,* (Leiden, London, 1986), III, pp. 758-759;

أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة، ص ٢١٠ – ٢١١.

(194) أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة، ص ٢١٠ – ٢١١.

(195) لمزيد من التفاصيل انظر ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، بيروت ١٩٨٨م، ص ٦ وما بعدها.

(196) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٤، ص ٧٠،

Little, *An Introduction to Mamluk*, p. 40

راحة، واتيت بزيادات على ما في الأول أين تلك منها وإعادات في تلك العـــادات.(١٩٧)

وقد قسم العمري كتابه إلى مقدمة وسبعة أقسام :

المقدمة: وضع العمري منهجه في تأليف الكتاب.

القسم الأول: في رتب المكاتبات.

القسم الثاني: في عادات العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم والمناشير

القسم الثالث: في نسخ الإيمان.

القسم الرابع: في الأمانات والدفن والهدن والمواصفات والمفاسخات.

القسم الخامس: في نطاق كل مملكة وما هو مضاف إليها من المدن والقلاع.

القسم السادس: في مراكز البريد والحمام وهجن الثلج والمراكب المـسفرة بـه فـي البحـر والمناور والمحرقات.

القسم السابع: في أوصاف ما تدعو الحاجة إلى وصفه مما يكثر ذكره في المكاتبات.(١٩٨)

المرجعية التاريخية عند العمري

اعتمد العمري في وضع مادته العلمية على خبرته الشخصية وتمرسه فـي الكتابـة أثناء عمله ككاتب للسر، ويمكن تقسيم المصادر التي اعتمد عليها العمري في جمـع مادتـه العلمية إلى مصادر شفهية ومشاهدات عينية استمدها من خلال مشاركته بنفسه فـي أحـداث عصره، أو عن طريق أشخاص شاركوا في الأحداث عن طريق الـسماع، بالإضـافة إلـى الوثائق المتبادلة بين السلاطين ونوابهم في مختلف الولايات، وعن طريق النقل من المصادر المكتوبة.

١- المشاهدة والمشافهة العينية :

تتمثل في إطلاع العمري بنفسه على الوثائق والمراسلات والمكاتبات المتبادلة بـين السلاطين ونوابهم، وعن طريق معاصرته للأحداث، وبالتالي تسجلها مما مكنه مـن كتابـة كتابه"التعريف".

---

(197) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٤.

(198) لمزيد من التفاصيل انظر العمري، التعريف بالمصطلح الشريف.

وأما المشافهة فتتمثل فيما يرويه عن أحد خارج نطاق المكاتبات، حينما يستدعي السياق التاريخي أن يتحدث عن ملك دولة ما أو عن شخص له اعتبار في المكاتبات، أو لعب دور شخص فيما يرويه، ومن ذلك عندما يتحدث عن ملك الهند نجده يقول: حدثنا عبد الله دفتر خوان والافتخار، وهما الرسولان الواصلان فيما تقدم منه". (١٩٩)

وعند حديثه عن الأذفونش ملك الأندلس: حدثني رسول الأذفونش بتعريف ترجمان موثوق به من أهل العدالة يسمى صلاح الدين الترجمان الناصري، أن الأذفونش من ولد هرقل المفتتح منه الشام". (٢٠٠)

وتتمثل المشافهة أيضاً فيما ذكرها العمري عن البريد وتنظيمه، وأنه كان على يد عمه بقوله "وكان عمي الصاحب شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب هو كاتب الإنشاء" وكان ذلك على لسان جمال الدين الدواداري البريدي المعروف بابن الشديد". (٢٠١)

أما عن الخبرة الذاتية فتتمثل في مقدمة الكتاب حين يقول: وأحرق خاطري له في التذكر لما فات". (٢٠٢)

وجدير بالذكر أن كتاب "التعريف بالمصطلح" عبارة عن نقل للخبرة الذاتية للمؤلف من خلال ما كتبه العمري بنفسه أو ما رآه من أعمال المؤرخين السابقين له فمثلاً يذكر العمري عن مكاتبة بعض أمراء الأكراد "ولقد كتبنا إلى كل من الجملوك والغرس بالو بالسامي بالياء، وجهزت إليهما الخلع وأتحفا بالتحف". (٢٠٣)

---

(199) العمري، التعريف بالمصطلح، ص ٧٢؛ لمزيد من التفاصيل انظر، أشرف محمد أنس، كتب الدساتير في عصر المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنصورة، ٢٠٠٣، ص ٣٨.

(200) العمري، التعريف بالمصطلح، ص ٩١ ؛ أشرف محمد أنس، كتب الدساتير في عصر المماليك، ص ٣٩.

(201) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٢٤٢؛ أشرف محمد أنس، كتب الدساتير في عصر المماليك، ص ٣٩.

(202) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٤؛ أشرف محمد أنس، كتب الدساتير في عصر المماليك، ص ٣٨.

(203) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٦٠ ؛ أشرف محمد أنس، كتاب الدساتير في عصر المماليك، ص ٣٧.

وأما ما رآه من المكاتبات يتمثل في "وأما النائب الكافل، فقد رأيت بعض الكتاب قد كتب في تعريفه: "نائب السلطنة المعظمة وكافل الممالك الشريفة الإسلامية".(٢٠٤)

وفيما يتعلق بالمصادر المكتوبة فتتمثل في :

١- كتاب "حسن التوسل إلى صناعة الترسل"(٢٠٥) ومؤلفه شهاب الدين الحلبي، وقد ذكـره العمري عند اختلافه معه فيما رتبه في كتابه التقاليد.

٢- تمائم الحمائم لابن عبد الظاهر عند حديثه عن مراكز الحمام. (٢٠٦)

خلاصة القول يعتبر كتاب "التعريف بالمصطلح الشريف" للعمري من أهم المصادر الأساسية والضرورية، بل من أهم كتب الدساتير التي نظمت مصطلح الكتابة في عصر دولة المماليك البحرية، والقانون الذي ظل معمولاً به في ديوان الإنشاء طوال عـصر المماليـك، فضلاً عن تميزه بالأصالة والمعاصرة للأحداث الجارية.

القلقشندي ٧٥٦-٨٢١هـ / ١٣٥٥ - ١٤١٨م

ولد شهاب الدين احمد بن على القلقشندي في بلدة قلقشندة إحدى قرى قليوب، وتلقى تعليمه في حدود الإطار التقليدي للتعليم في ذلك العصر، ثم درس العلوم الشرعية علـى يـد مشاهير علماء عصره، ورحل إلى الإسكندرية فترة من الزمان، وقد حصل القلقشندي علـى إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الشافعي وهو في سن الثانية والعشرين، كما نـال إجـازة برواية الحديث. وبعد ذلك مارس التدريس بحيث صار هو يمنح الإجازات في الفقه والأصول وعلوم اللغة العربية. (٢٠٧) وقد لفتت براعته في الإنشاء أنظار رجال البلاط والتحق بـديوان الإنشاء في عام ٧٩١هـ / ١٣٨٨م في سلطنة الظاهر برقوق، ويبدو أنه لم يترك العمل فـي هذا الديوان حتى وفاته عام ٨٢١هـ / ١٤١٨م. (٢٠٨)

---

(204) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٩٥ ؛ أشرف محمد، كتب الدساتير في عـصر المماليـك، ص ٣٧.

(205) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٢٤.

(206) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٢٥٤.

(207) قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية للتاريخ قراءة في التراث التاريخي العربي، ط٢، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٥٥؛ Ayman Fuad, *L 'evolution de la composition*, pp. 78-84.

(208) عبد الله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ٧٦.

مؤلفاته :

- "الكواكب الدرية في المناقب البدرية".
- "صبح الأعشى في صناعة الإنشا".
- "نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب".
- "قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان".
- "مآثر الإنافة في معالم الخلافة".
- "ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر".
- "نظم سيرة المؤيد شعراً".

ويهمنا كتابه "صبح الأعشى" لكونه أشهر مؤلفاته، والذي يعد بحق موسوعة كبرى، وقد استرشد القلقشندى بما كتبه العمري من قبل في كتابه "التعريف بالمصطلح الشريف" وكان العمري قد سبقه إلى ديوان الإنشا قبل نصف قرن. (٢٠٩)

ويعتبر كتاب "صبح الأعشى" سجلاً ضخماً للحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في مصر في عصر سلاطين المماليك وما قبله ويبدو أن القلقشندى قد استغرق عشرة أعوام في تأليف كتابه الموسوعي الضخم، (٢١٠) وقد نظم القلقشندى مادته العلمية كلها في مقدمة وعشر مقالات يمكن أن تكون كل واحدة منها كتاباً قائماً بذاته. (٢١١)

منهج الكتابة التاريخية عند القلقشندى

اتخذ القلقشندى منهجاً جديداً، عن طريق جمع كل ما تحتاجه صناعة الإنشاء من قدرة أدبية إلى الشروط الواجب توافرها بالكاتب وكاتم السر وقوانين المصطلح، وقد أوضح ذلك المنهج في مقدمة كتابه بقوله " والمؤلفون في هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم في التصنيف، وتباينت مواردهم في الجمع والتأليف، ففرقة أخذت في بيان أصول الصنعة وذكر شواهدها، وأخرى جنحت إلى ذكر المصطلحات وبيان مقاصدها، وطائفة اهتمت بتدوين

---

(209) لمزيد من التفاصيل انظر شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون ، ج٣، ص ١٣٥ – ١٣٦.

(210) قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية للتاريخ، ص ١٥٦.

(211) انظر شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ص ١٣٤ – ١٣٥ ؛ أحمد رمضان، تطور علم التاريخ الإسلامي، ص ٣٢٢ – ٣٢٣.

الرسائل ليقتبس من معانيها ويتمسك بأذيالها وتكون أنموذجاً لمن بعدهم يسلك سبيلها من أراد أن ينسج على منوالها، ولم يكن فيها تصنيف جامع لمقاصدها ولا تأليف كافل بمصادرها الجليلة ومواردها، بل أكثر الكتب المصنفة في بابها والتأليف الدائرة بين أربابها لا يخرج عن علم البلاغة المرجوع فيها إليه". (٢١٢)

ويتضح منهج القلقشندى في التجديد الذي أدخله لمعالجة كتب الدساتير بحيث شمل كل نواحي أعمال الديوان وضع القلقشندى في منهجه كل ما يخص صناعة الإنشاء من بلاغة ومصطلح وتدريب على أساليب الكتابة، وقد اتبع القلقشندى المنهج التاريخي لجمع مادته العلمية بحيث بدأها بما كان سالفاً حتى يصل إلى ما هو أصبح عليه في زمنه، مما يعد تجديداً للمنهج المتبع في معالجة هذا الموضوع أي كتابة "صبح الأعشى"، يضاف إلى ذلك أن القلقشندى عمل على وصف مسهب لما عند العمري وابن ناظر الجيش بحيث اشتمل كتابه على الكتابين موفقاً فيما بينهما مقارناً بين اختلافاتهما بما جد في عهد كل منهما. (٢١٣)

المرجعية التاريخية عند القلقشندى

يمكن تقسيم المصادر التي اعتمد عليها القلقشندى في جمع مادته العلمية إلى :

١- الوثائق :

استند القلقشندى في كتابه إلى محفوظات ديوان الإنشاء الرسمية فاستخرج من الديوان الوثائق والكتب والمراسلات الخلافية والسلطانية وأضاف المكاتبات الرسمية والدبلوماسية حتى اجتمعت له منها مادة غزيرة تكدست في الديوان خلال العصور السابقة. (٢١٤) وذلك بفضل عمله في هذا الديوان.

٢- المصادر المكتوبة

(أ) مصادر ما قبل عصر القلقشندى وكانت معيناً له في التأصيل لصناعة الإنشا مثل كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكري، وأدب الكتاب للصولي، أدب الكاتب لابن قتيبة، ورسوم دار الخلافة لأبى هلال الصابىء، مواد البيان لعلى بن خلف، ومعالم الكتابة لابن شيث، ذخيرة الكتاب لابن حاجب النعمان، المثل السائر لابن الأثير، العلم والدواة لمحمد بن على، صناعة الكتابة لأبى جعفر النحاس وقوانين الدواوين لابن مماتي، بالإضافة إلى الكتب الثقافية

---

(212) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١، ص ٧.

(213) لمزيد من التفاصيل انظر أشرف محمد، كتب الدساتير في عصر المماليك، ص ٥٤.

(214) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٣، ص ١٣٤ – ١٣٥.

المساعدة كالشهرستاني والجاحظ وابن عبد ربه والدميري والماوردي وغيرها من كتب الجغرافيا والتاريخ والأنساب والأدب والفقه والسير. [٢١٥]

(ب) مصادر عصر القلقشندي :

اعتمد على "التعريف بالمصطلح الشريف" و"عرف بالتعريف" لابن فضل الله العمري، وحسن التوسل للشهاب الحلبي، و"قانون الترسل للصفدي"، وتثقيف التعريف بالمصطلح الشريف لابن ناظر الجيش، والتذكرة لابن المكرم. [٢١٦]

٣- الخبرة الذاتية :

• تمثلت الخبرة الذاتية للقلقشندى في المكاتبات التي كتبها بنفسه في مناسبات عديدة فقد ضمها إلى مؤلفه "صبح الأعشى".

مجمل القول، يعتبر كتاب "صبح الأعشى" للقلقشندى مصدراً هاماً من مصادر تاريخ دولة المماليك، تميز بالأصالة، فالقلقشندى بحكم وظيفته اهتم بايراد أمور لا يهتم بها المؤرخون ممن لا يدخلون ضمن إطار الإداري – المؤرخ ذلك أن الوظيفة قد أتاحت للمؤلف أن يمدنا بتفاصيل هامة تتعلق بالنظام الإداري، وأنواع الاقطاعات والنقود والمكاييل، والمقاييس، والدواوين، فضلا عن الوثائق كما سبق وأن ذكرنا، كذلك تضمن كتاب "صبح الأعشى" معلومات هامة عن تطور نظام الحكم والإدارة في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى عصر المماليك الجراكسة، ولم يقصر اهتمامه على مصر فقط، وإنما اهتم أيضاً ببلاد الشام والتنظيمات والأقسام الإدارية بها. [٢١٧]

تقي الدين المقريزي:

أما المقريزي فيعتبر من أكثر المؤرخين الذين تناولتهم أقلام العديد من الباحثين الحديثين وسنكتفي بالإشارة إليها في الهامش[٢١٨] وجدول مؤرخي دولة المماليك الأولى.

---

[215] شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٣، ص ١٣٤.

[216] أشرف محمد، كتب الدساتير في عصر المماليك، ص ٥٥ – ٥٦.

[217] قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية، ص ١٥٦ – ١٥٧. لمزيد من التفاصيل عن الدراسات الحديثة التي تناولت عصر القلقشندي، انظر، www.lib.uchicago.edu/mamluk/Qalqashandi

[218] من الدراسات الحديثة نذكر : محمد مصطفى زيادة، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي، القاهرة ١٩٤٩م ؛ مجموعة دراسات وأبحاث المجلس الأعلى لرعاية الفنون، القاهرة ١٩٦٨م ؛ محمد عبد الله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري ١٩٦٩م ؛ أحمد عبد الرازق، دراسات في

ثبت بمؤرخي دولة المماليك الأولى

٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م

١-المصادر المعاصرة:

اسم المؤرخ	تاريخ مولده	تاريخ وفاته	مؤلفاته
ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد ابن إبراهيم	٦٠٨هـ / ١٢١١	٦٨١هـ / ١٢٨٢م	- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (عدة أجزاء) من أهم المصادر في التراجم والتاريخ الأدبي
ابن شداد	٦١٣هـ / ١٢١٧م	٦٨٤هـ / ١٢٨٥م	- سيرة الظاهر بيبرس - الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - جني الجنتين في أخبار الدولتين - ذيل تاريخ ابن الأثير - كروم التهاني لتفسير السبع المثانى
ابن عبد الظاهر	٦٢٠هـ / ١٢٢٣م	٦٩٢هـ / ١٢٩٣م	- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور
الصقاعى	٦٢٦هـ /	٧٢٦هـ /	- تالي كتاب وفيات الأعيان

المصادر المملوكية المبكرة، القاهرة ١٩٨١م ؛ شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، ط ١، بيروت ١٩٩٠ – ٩٩٣ حمد كمال الدين عز الدين علي، أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ؛ سلسلة تاريخ المصريين العدد ٥٣، ١٩٩٢م ؛
Little, An Introduction to Mamluk Historiography, Wieabaden, 1970; Hugh Kennedy, The Historiography of Islamic Egypt, Leiden, 2001; Lindus (N), From Slave to Sultan, Franz Steiner Verlag Stuttgart, 1998; www. Lib.uchicago.edu/mamluk/Maqrizi.html.

	١٣٢٦م	١٢٢٨م	
- ذيل مرآة الزمان	٧٢٦هـ / ١٣٢٦م	٦٤٠هـ / ١٢٤٢م	اليونيني
- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة - "التحفة الملوكية في الدولة التركية" - مختار الأخبار	٧٢٥هـ / ١٣٢٥م	٦٤٥هـ / ١٢٤٧م	بيبرس المنصوري الدواداري
- حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية - أما كتب شافع الأخرى انظر شاكر مصطفي، التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٣، ص ١١٨	٧٣٠هـ / ١٣٣١م	٦٤٩هـ / ١٢٥٢م	شافع بن علي
- حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه	٧٣٩هـ / ١٣٣٩م	٦٥٨هـ / ١٢٥٩م	الجزرى
- المقتفى في التاريخ - معجم الشيوخ والسماعات - المنتقى من كتاب البخلاء - مشيخة بدر الدين محمد بن جماعة - مشيخة المسند الكبير أحمد بن عبد الدائم المقسى	٧٣٩هـ / ١٣٧٩م	٦٦٥هـ / ١٢٦٦م	البرزالى
- سير أعلام النبلاء ثلاث وعشرون جزءاً - العبر في خبر من غبر (عدة أجزاء)	٧٤٨هـ / ١٣٤٧م	٦٧٣هـ / ١٢٧٤م	الذهبي
-نهاية الأرب في فنون الأدب	٧٣٢هـ / ١٣٣٣م	٦٧٧هـ / ١٢٧٨م	النويري

ابن شاكر الكتبي	٦٨١هـ / ١٢٨٢م	٧٦٤هـ / ١٣٦٣م	- عيون التواريخ - فوات الوفيات
اليوسفي	٦٨٣هـ / ١٢٨٤م	٧٥٩هـ / ١٣٥٧م	- نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر محمد بن قلاوون
ابن الوردي	٦٨٨هـ / ١٢٨٩م	٧٤٩هـ / ١٣٤٨م	- تتمة المختصر في أخبار البشر
مؤلف مجهول	-	-	- تاريخ سلاطين المماليك
الصفدي	٦٩٦هـ / ١٢٩٦م	٧٦٣هـ / ١٣٦٢م	- أعيان العصر وأعوان النصر - الوافي بالوفيات
أبو الفداء	٦٧٢هـ / ١٢٧٣م	٧٣٢هـ / ١٣٣١م	- المختصر في أخبار البشر - مختصرة اللطائف السنية في التواريخ الإسلامية. - التبر المسبوك في تواريخ الملوك. - تقويم البلدان.
العمري	٧٠٠هـ / ١٣٠٠م	٧٤٩هـ / ١٣٤٩م	- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار
ابن كثير	٧٠١هـ / ١٣٠١م	٧٧٥هـ / ١٣٧٤م	- البداية والنهاية
ابن حبيب	٧١٠هـ / ١٣١٠م	٧٧٩هـ / ١٣٧٧م	- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه - درة الأسلاك في دولة الأتراك
مفضل بن أبي الفضائل		بعد عام ٧٤١هـ/١٣٤١م	- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد
ابن ايبك	كان حياً سنة	بعد عام	- انظر ابن أيبك من هذا البحث

الدواداري	٧٣٦هـ / ١٣٣٥م	٧٣٦هـ / ١٣٣٥م	
الشجاعي	-	-	- تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده يختص بالسنوات الأخيرة (٧٣٧ – ٧٤١هـ / ١٣٣٧ – ١٣٤١م) من حكم السلطان الناصر محمد

٢- المصادر المتأخرة:

اسم المؤرخ	تاريخ مولده	تاريخ وفاته	مؤلفاته
ابن الفرات	٧٣٥هـ / ١٣٣٥م	٨٠٧هـ / ١٤٠٥م	- تاريخ الدول والملوك
ابن خلدون	٧٣٢هـ / ١٣٣٢م	٨٠٨هـ / ١٤٠٥م	- المقدمة - العبر وديوان المبتدأ والخبر
المقريزي	٧٦٦هـ / ١٣٦٥م	٨٤٥هـ / ١٤٤١م	- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - السلوك لمعرفة دول الملوك - اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا - كتاب المقفي في تراجم أهل مصر والواردين إليها. - شذور العقود في ذكر النقود - إغاثة الأمة بكشف الغمة لمزيد من التفاصيل انظر شاكر مصطفي، التاريخ العربي والمؤرخون،

			جـ٣، ص ١٤٥ وما بعدها.
القلقشندى	٧٥٦هـــــ / ١٣٥٥م	٨٢١هــــــ / ١٤١٨م	- الكواكب الدرية في المناقب البدرية - صبح الأعشى في صناعة الإنشا - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب - قلائد الجمان في معرفة عرب الزمان - مآثر الإنافة في معالم الخلافة. - ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر. - نظم سيرة المؤيد شعراً.
العينى	٧٦٢ هـــ / ١٣٦٢م	٨٥٥ هـــــ / ١٤٥١م	- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - طبقات الحنفية - طبقات الشعراء - مختصر وفيات الأعيان - سير الأنبياء - تاريخ البدر في أوصاف أهل العصر - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - سيرة الأشرف برسباي - شرح سيرة مغلطاي - سيرة الملك الظاهر ططر. - مغاني الأخبار في أسماء الرجال بمعاني الآثار - كشف القناع المرئي من مهمات

			الأسامي والكنى - جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور في أخبار الديار المصرية
ابن حجر	٧٧٣هـ / ١٣٦١م	٨٥٠هـ / ١٤٤٨م	- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. - ذيل الدرر الكامنة - إنباء الغمر بأنباء العمر - رفع الأمر عن قضاة مصر - الإصابة في تمييز الصحابة. - تهذيب التهذيب - تقريب التهذيب. - لسان الميزان. - تحرير الميزان. - تقويم اللسان. - ذيل الميزان. - تبصير المنتبه بتحرير المشتبه - تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس - المرحمة الغيثية في الترجمة الليثية - توالى التأسيس بمعالي ابن ادريس

التكوين البشري للمدينة الإسلامية:

مدينة القاهرة نموذجاً

د. محمد حسام الدين إسماعيل

كلية الآداب-جامعة عين شمس

تناول كثير من الباحثين موضوع نشأة المدينة الإسلامية بالدراسة من حيث تخطيطها العمراني وأسوارها وأبوابها، وسنتناولها هنا من زاوية أخرى وهي التكوين البشري، الذي يعتبر العنصر الأساسي في عمران المدينة بعد بنائها، وسنأخذ هنا مدينة القاهرة -التي تكونت عبر العصور- كمثال لهذا التكوين البشري للمدينة الإسلامية.

فقد أسست مدينة القاهرة التي نراها اليوم كرابع عاصمة للمسلمين في مصر، بعد مدينة الفسطاط ومدينة العسكر ومدينة القطائع، ومنذ نشأة مدينة الفسطاط سنة ٢١هـ/٦٤١م بدأ الامتداد البشري خارجها جهة الشمال الشرقي، فأصبح هناك امتداد عمراني إلى جهة جبل يشكر -الحمراء-[١] مما سهل بعد ذلك على العباسيين إقامة مدينة العسكر سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م في هذا الامتداد الشمالي الشرقي، وحينما قدم أحمد بن طولون إلى مصر أسس مدينة القطائع سنة ٢٥٦هـ/٨٧٠م في نفس الامتداد السابق، وحينما جاء الفاطميون بنوا عاصمتهم القاهرة في نفس الامتداد سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م[٢]، ويجب الإشارة إلى انه كان هناك فراغ فاصل بين هذه المدينة والمدن الثلاثة السابقة، مليء بحارات جديدة منذ عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢٠م)[٣]، ومنذ تأسيس تلك المدن الواحدة تلو الأخرى جرت العادة أن تكون كل منهم سكناً خاصاً لمؤسسها وحكومته وجيشه، وسكن العامة حول تلك المدن، ومن هنا كان امتداد المدن حتى التصقت وتداخلت في بعضها البعض، وجاء صلاح الدين الأيوبي

---

[١] - المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار "الخطط"، بولاق سنة ١٨٥٤م، ج١، ص٢٨٦، ٢٩٨-٢٩٩.

[٢] - سعاد ماهر محمد، القاهرة القديمة وأحياؤها، القاهرة سنة ١٩٦٢م، ص٥-١٩ ؛ عبد الرحمن زكي، القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ، القاهرة ١٩٦٩م، ص١-٨ ؛ محمد عبد الله عنان، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة ١٩٦٩م، ص١٠-١٨.

[٣] - المقريزي، الخطط، ج٢، ص١١٠.

وبنى السور الكبير الذي امتد حول القاهرة وباقي العواصم السابقة سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م[٤] مما كون مدينة جديدة أطلق عليها مدينة "مصر القاهرة".

وقد تكونت تلك المناطق التي بين المدن من طوائف الجيش ومن النازحين إلى مصر عبر العصور المختلفة، وإذا تتبعنا تكوين هذه المدينة نجد أنها تبدأ من مدينة الفسطاط جنوباً وحتى نهاية مدينة القاهرة عند باب الفتوح وباب النصر شمالاً، مكونة من مدينة الفسطاط ومدينة العسكر ومدينة القطائع والظاهر الجنوبي لقاهرة الفاطميين الممتد من شارع الصليبة وميدان القلعة حتى باب زويلة -الباب الجنوبي لقاهرة الفاطميين- ومنطقة غرب الخليج الممتدة إلى شاطئ النيل غرباً، أما منطقتي الحسينية والريدانية في شمال القاهرة فلم تدخل في هذا السور[٥].

يحدثنا المقريزي كذلك عن حد القاهرة الشمالي خارج أسوار صلاح الدين وكيف عمر منذ العصر الفاطمي، فقال "وكانت جهة القاهرة البحرية من ظاهرها فضاء ينتهي إلى بركة الجب وإلى منية الأصبغ التي عرفت بالخندق وإلى منية مطر التي تعرف بالمطرية وإلى عين شمس وما وراء ذلك .. إلا أنه كان تجاه القاهرة بستان ريدان، ويعرف اليوم بالريدانية، وعند مصلى العيد خارج باب النصر حيث يصلى الآن على الأموات كان ينزل هناك من يسافر إلى الشام، فلما كان قبل سنة خمسمائة ومات أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة سبع وثمانين وأربعمائة بنى خارج باب النصر له تربة[٦] دفن فيها، وبنى أيضاً خارج باب الفتوح منظرة .. وصار أيضاً فيما بين باب الفتوح والمطرية بساتين .. ثم عمرت الطائفة الحسينية بعد سنة خمسمائة خارج باب الفتوح عدة منازل اتصلت بالخندق، وصار خارج باب النصر مقبرة إلى ما بعد سنة سبعمائة فعمر الناس به حتى اتصلت العمائر من باب النصر إلى الريدانية وبلغت الغاية من العمارة .."[٧].

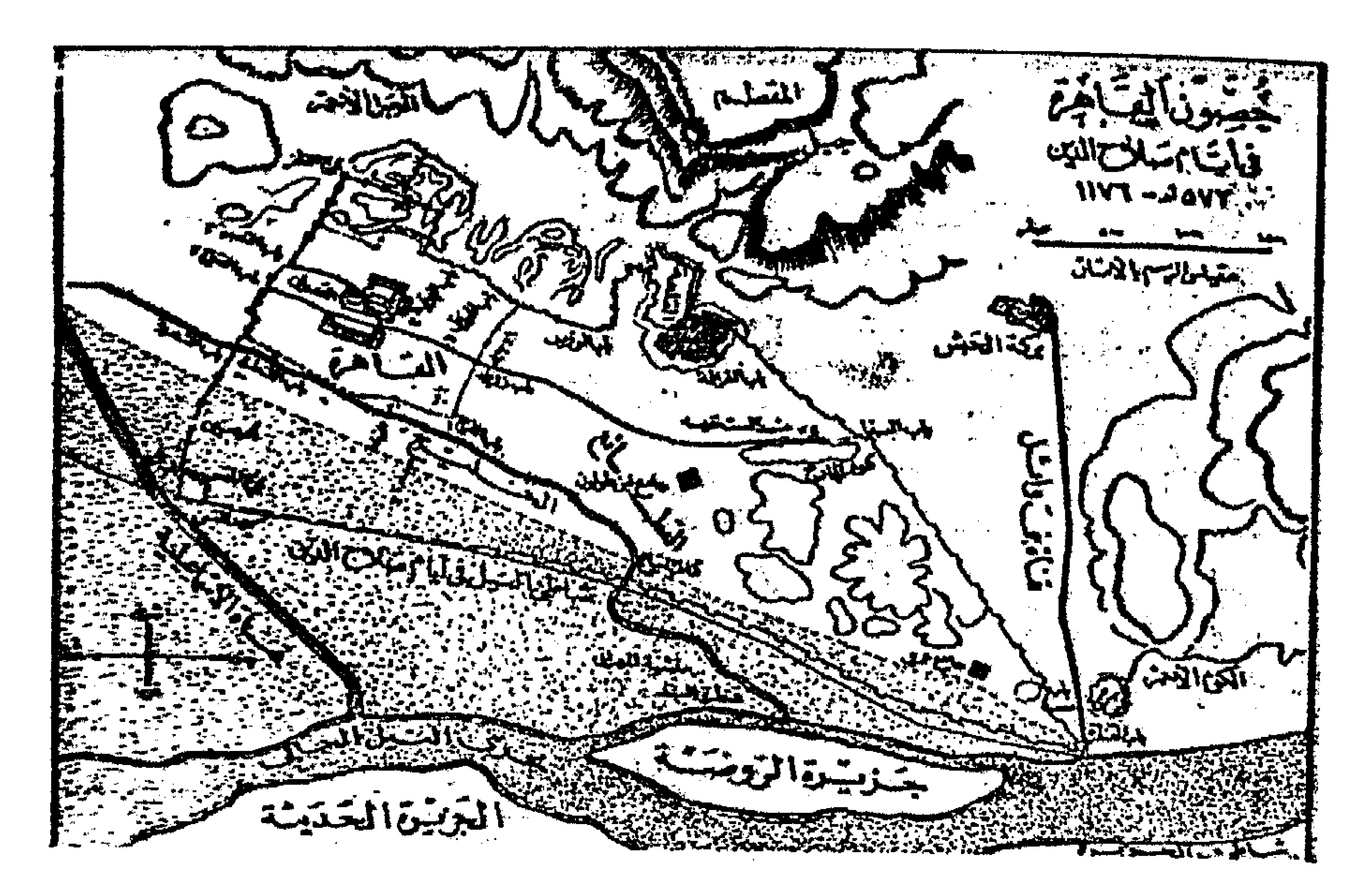
---

٤ – المقريزي، الخطط ، ج١، ص٣٨٠.

٥ – عن هذا السور أنظر، المقريزي، الخطط ج١، ص٣٨٠ ؛ القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ١٤ جزء، القاهرة ١٩١٩-١٩٢٢م، ج٣، ص٣٥٠.

٦ – أثر رقم ٥١١.

٧ – المقريزي، الخطط، ج٢، ص١١١،١١٠. – عن منطقة شمال القاهرة أنظر، المقريزي، الخطط ج٢، ص ١٣٦-١٣٩.



يستفاد من هذا النص أن امتداد القاهرة من الجهة الشمالية كان إلى منطقــة المطريــة وعين شمس في نهاية القرن ٩هـ/١٥م.

ذكر المقريزي بعد ذلك أن حد القاهرة الشرقي كان يمتد "من سور القاهرة الذي فيــه الآن باب البرقية والباب الجديد والباب المحروق، وتنتهي هذه الجهة إلى الجبل المقطم"[٨]، ثم قال "وقد كانت هذه الجهة الشرقية عندما وضعت القاهرة فضاء فيما بين السور وبين الجبل لا بنيان فيه البتة، ومازال على هذا إلى أن كانت الدولة التركية فقيل لهذا الفضاء الميدان الأسود وميدان القبق[٩] .. فلما كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون عمل هذا الميدان مقبــرة لأموات المسلمين، وبنيت فيه الترب الموجودة الآن .."[١٠].

أي أن هذه الجهة حالياً هي صحراء قايتباي التي تمتد من خلف قلعة صلاح الدين إلى جبل المقطم شرقاً فالجبل الأحمر شمالاً فميدان السيدة عائشة جنوباً.

---

٨ – المقريزي، الخطط ،ج٢، ص ١٠٨– ١٠٩.

٩ – القبق هو الهدف، وهى لعبة انتشرت في الأقطار الإسلامية اهتم بها هواة الرماية والفروسية. حسن عبـد الوهاب، خانقاة فرج بن برقوق وما حولها، دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربيـة للتربيـة والثقافـة والعلوم، القاهرة سنة ١٩٧٩م، ص٢١٥.

١٠ – المقريزي، الخطط، ج٢، ص ١٠٩. عن ميدان القبق أنظر، المقريزي، الخطط ج٢، ص ١١١–١١٣.

حدد لنا المقريزي أيضاً الحد الغربي للقاهرة الفاطمية الذي كان يمتد من سور القاهرة الغربي إلى الخليج وحتى شاطئ النيل غرباً، ومن مصر القديمة جنوباً إلى شبرا شمالاً، ووصف الجزء الممتد من سور القاهرة الغربي إلى الخليج بأنه "*وبنيت على هذا الخليج مناظر، وهي منظرة اللؤلؤة ومنظرة دار الذهب ومنظرة غزالة*"، ثم يتجه جنوباً في هذه الجهة حيث بركة الفيل وبركة قارون "*ويشرف على بركة قارون الدور التي كانت متصلة بالعسكر ظاهر مدينة فسطاط مصر*". ويحدد بعد ذلك الجهة الغربية من الخليج المتصلة بنهر النيل، فنجده يقول "*وأما بر الخليج الغربي فان أوله الآن من موردة الخلفاء فيما بين خط الجامع الجديد خارج مصر وبين منشأة المهراني، وأخره أرض التاج والخمس وجوه وما بعدها من بحري القاهرة*"[11]، ويصل المقريزي في وصفه لهذه الجهة جنوباً حيث ما يعرف حالياً بمنطقة مصر القديمة، حيث منظرة السكرة وما حولها من بستان المريس، وكان هذا البستان يمتد إلى الشمال حتى يصل إلى منطقة ميدان رمسيس الحالية، وقد وصف المقريزي هذه المواقع فقال "*ويتصل ببسان منظرة السكرة جنان الزهري، وهي من خط قناطر السباع الموجودة الآن بحذاء خط السبع سقايات إلى أراضي اللوق*[12] *ويتصل بالزهري عدة بساتين إلى المقس وقد صار موضع الزهري وما كان بجواره على بر الخليج من البساتين يعرف بالحكورة من أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى وقتنا هذا .. وكان الزهري وما بجواره من البساتين التي على بر الخليج الغربي والمقس كل ذلك مطل على النيل*"[13].

ويصف بعد ذلك امتداد النيل غرباً حتى القرن ٨هـ/١٤م في هذا الجزء من القاهرة فقال "يمر النيل في غربي البساتين على الموضع الذي يعرف اليوم باللوق إلى المقس فيصير المقس هو ساحل القاهرة، وتنتهي المراكب إلى موضع جامع المقس .. ولم يزل الأمر على ذلك إلى ما بعد سنة سبعمائة، إلا أنه كان قد انحسر ماء النيل بعد الخمسمائة من سني الهجرة عن أرض بالقرب من الزهري عرفت بمنشأة الفاضل وبستان الخشاب، وهذه المنشأة اليوم يعرف بعضها بالمريس مما يلي منشأة المهراني، وانحسر أيضاً عن أرض تجاه البعل الذي

---

[11] – المقريزي، الخطط، ج٢، ص ١٠٩.

[12] – كان ممتداً من منطقة جاردن سيتي الحالية إلى منطقة ميدان رمسيس الآن، وقد بدأ البناء في تلك المنطقة في عهد السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري في ذي الحجة سنة ٦٦٠هـ/أكتوبر-نوفمبر ١٢٦٢م، عندما بنى مساكن لطائفة من التتار حضروا إلى مصر هاربين من هولاكو. المقريزي، الخطط، ج٢، ص ١١٧-١١٨، ١٩٨.

[13] – المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٠٩.

في بحري القاهرة عرفت هذه الأرض بجزيرة الفيل، وما برح ماء النيل ينحسر عن شيء بعد شيء إلى ما بعد سنة سبعمائة فبقيت عدة رمال فيما بين منشأة المهراني وبين جزيرة الفيل، وفيما بين المقس وساحل النيل عمر الناس فيها الأملاك والمناظر والبساتين من بعد سنة اثنتى عشرة وسبعمائة، وحفر الملك الناصر محمد بن قلاوون فيها الخليج المعروف اليوم بالخليج الناصري، فصار بر الخليج الغربي بعد ذلك أضعاف ما كان أولاً من أجل انطراد ماء النيل عن بر مصر الشرقي، وعرف هذا البر اليوم بعدة مواضع، وهي في الجملة خط منشأة المهراني وخط المريس وخط منشأة الكتبة وخط قناطر السباع وخط ميدان السلطان وخط البركة الناصرية وخط الحكورة وخط الجامع الطيبرسي وربع بكتمر وزريبة السلطان وخط باب اللوق وقنطرة الخرق وخط بستان العدة وخط زريبة قوصون وخط حكر ابن الأثير وفم الخور وخط الخليج الناصري وخط بولاق وخط جزيرة الفيل وخط الدكة وخط المقس وخط بركة قرموط وخط أرض الطبالة وخط الجرف وأرض البعل وكوم الريش وميدان القمح وخط باب القنطرة وخط باب الشعرية وخط باب البحر وغير ذلك"[14].

كانت هذه امتدادات مدينة القاهرة حتى منتصف القرن ٩هـ/١٥م، وقد حدد لنا المقريزي حدودها كما رآها في ذلك الوقت كما يلي "*وأما حد القاهرة فان طولها من قناطر السباع إلى الريدانية، وعرضها من شاطئ النيل ببولاق إلى الجبل الأحمر*"[15]، أي أن حدود مدينة القاهرة وظواهرها -الطبيعية والبشرية- كانت من ميدان السيدة زينب (قناطر السباع) في الجنوب، وتمتد جهة الشمال حتى العباسية (الريدانية)، ومن الغرب حيث كان نهر النيل، وتمتد شرقاً حتى الجبل الأحمر، أي أن الحد الفاصل بين مصر والقاهرة كان الخط الممتد من القلعة إلى جامع أحمد بن طولون ممتداً إلى ميدان السيدة زينب الحالي، وقد ظل هذا التحديد معمولاً به حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي.

وقد ظهر في النصف الثاني من القرن ٩هـ/١٥م وما بعده -سواء في عهد المماليك الجراكسة أو في العصر العثماني من بعده- حركة تعمير في ظواهر القاهرة وخاصة في شمالي منطقة الريدانية ومنطقة غربي الخليج على النيل، وعلى سبيل المثال لا الحصر، نجد

---

١٤ - المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٠٩، ١١٠. عن الجهة الغربية للقاهرة أنظر، المقريزي، الخطط، ج١، ص ٤٦٧-٤٦٩، ج٢، ص ١١٣-١٢٦، ١٢٩، ١٦٢-١٦٥، ١٩٥، ٢٨٣.

١٥ - المقريزي،الخطط،ج١، ص ٣٦٠.

الأمير أزبك من ططخ الظاهري يعمر منطقة بركة الأزبكية[16] حوالي سنة ٨٨٠-٨٨٢هـ/٧٥-١٤٧٧م، حيث أنشأ قصراً له وعدة منشآت أخرى حولها وأعاد حفرها وأجرى إليها الماء من الخليج الناصري وبنى حولها رصيفاً[17]، كما بنى الأمير يشبك من مهدي الدوادار قبتين وعمر حولهما عدة مباني، إحداهما بالمطرية (أثر رقم ٤، أمام قصر القبة) في سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م[18]، والأخرى -القبة الفداوية- بالريدانية (العباسية) (أثر رقم ٥) انتهى بنائها سنة ٨٨٤-٨٨٦هـ/٧٩-١٤٨١م[19]، كما بنى المحمدي الدمرداش قبة له في قرية الخندق قبل سنة ٩٠١هـ/١٤٩٦م (العباسية، وقد سجلت ضمن الآثار سنة ١٩٨٣م) في عهد السلطان قايتباي أيضاً[20]، وبني حول هذه القباب عدة منشآت، حيث كان يخرج السلطان قايتباي ومن بعده من السلاطين للتنزه عند قبة يشبك بالمطرية[21]، كما بنى الشهابي أحمد بن العيني قصراً له في القرن ٩هـ/١٥م في المنطقة المعروفة به إلى الوقت الحالي "القصر العيني"[22].

أما في العصر العثماني فقد وجدنا في المصادر التاريخية عدة قصور بنيت في منطقة شمال القاهرة بالعباسية، وعلى سبيل المثال وجدنا أن إبراهيم كتخدا القازدغلي المتوفى سنة

---

[16] - بركة الأزبكية كان أسمها بركة بطن البقرة، كان مكانها بستان المقسي، ثم أمر الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بحفرها حوالي سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م لتصبح بركة أمام منظرة اللؤلؤة، وأوصل اليها ماء النيل من خليج الذكر، وعرفت هذه البركة بعد ذلك بالأزبكية نسبة إلى الأمير أزبك من ططخ الظاهري. المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٦٣. البكري، محمد بن أبي السرور، ت ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م، قطف الأزهار من الخطط والآثار، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٤٥٧ جغرافيا، ورقة ١٥٦، ١٥٧. علي مبارك، الخطط، ج٣، ص٢، ٣، ٦٦، ٦٧.

[17] - ابن اياس، محمد بن أحمد الحنفي، ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ٥ أجزاء، القاهرة سنة ١٩٨٢-١٩٨٤،ج٣، ص ١١٦-١٣٤،١١٨ ؛

Doris Behrens Abouseif, Azbakiyya and its Environs from Azbak to Isma'il 1476-1879, Le Caire 1985, pp. 9-53.

[18] - ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١٣٤.

[19] - ابن اياس، بدائع الزهور ، ج٣، ص١٦٠.

[20] - Doris Behrens-Abouseif, "An Unlisted Monument of the Fifteenth Century, the Dome of Zawiyat Al-Damirdas," *Annales Islamologiques*, Tom. XVIII, 1982, p. 105-115.

[21] - ابن اياس، بدائع الزهور ، ج٣، ص١٣٤.

[22] - ابن اياس، بدائع الزهور ، ج٢، ص٤٤٩.

١١٦٨هـ/١٧٥٥م بنى القصر الذي عند سبيل قيماز بالعادلية، وكان مراد بك يقيم بقصر قايماز جهة العادلية[٢٣]، مما يدل على أنه كان هناك مباني سابقة لهذا العصر في هذه الجهة، كما أنشأ محمد بك الألفي قصراً فيما بين باب النصر والدمرداش بالقرب من زاوية الدمرداش[٢٤].

وقد امتلأت كل هذه المناطق عبر العصور بسكان القاهرة التي ضاقت بهم، وكذلك بالوافدين عليها عبر العصور حتى انه عند قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م[٢٥] كانت منطقة شمال القاهرة الممتدة من بركة الأزبكية جنوباً إلى الحسنية الريدانية شمالاً – على سبيل المثال– مليئة بالمباني السكنية لمختلف الطبقات، بل وبالمقابر التي بنيت لسكانها، فهدموا الكثير من تلك المباني لفتح الطرقات التي تساعدهم على سرعة الحركة إلى داخل المدينة وخارجها، واستغلوا مساكن منطقة الأزبكية –والأرستقراطية منها على وجه الخصوص– لسكن قادتها[٢٦]، بل وحاولوا هدم مقابر الرويعي والأزبكية لاستغلال أراضيها في فتح الشوارع لربط الميدان الذي أرادوا إحلاله مكان بركة الأزبكية بباقي أجزاء مدينة القاهرة، وليس بسبب الخوف من انتشار الطاعون كما ادعوا[٢٧].

---

[٢٣] – ذكر ابن تغري بردي أن "الفراغ من تجديد سبيل ابن قايماز خارج القاهرة" كان سنة ٨٥٣هـ/١٤٤٩م ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج١، ص ٢٢٨.

[٢٤] – الجبرتي، عجائب الآثار، ج٦، ص ٣١٩، ٣٤٣.

[٢٥] – الجبرتي، عجائب الآثار ، ج٤، ص ٢٨٥.

[٢٦] – الجبرتي، مظهر التقديس، ص٥٠، ٦٢، ٨٨ ؛ الجبرتي، عجائب الآثار، ج٤، ص٣٠٦، ٣١٥، ٣١٦، ٣٣٩، ٣٤٦، ٣٤٧، ج٥، ص٢١ ؛ أمين سامي، تقويم النيل، مقدمة وثلاث مجلدات وملحق، القاهرة سنة ١٩٣٦، ج٢، ص١٢١ ؛ علي مبارك، الخطط، ج٣، ص٧٠ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل عبد الفتاح، مدينة القاهرة من ولاية محمد علي حتى نهاية حكم إسماعيل، ١٨٠٥–١٨٧٩م، ١٩٩٧م، ص١٧–٢٠.

[٢٧] – الجبرتي،مظهر التقديس، ص ٦٩–٧٠ ؛ الجبرتي،عجائب الآثار، ج٤، ص ٣٢١، ٣٢٢.

المؤسسات التعليمية ودورها فى الحياة العلمية
فى بلاد الشام خلال العصر الأموى

د. محمد نصر عبد الرحمن*
كلية الآداب - جامعة عين شمس

شهدت بلاد الشام خلال العصر الأموى نهضة علمية ومعرفية كبيرة، ولم تكن تلك النهضة قاصرة على رواية الشعر أو حفظ الأمثال أو معرفة القرآن والحديث فقط، بل إمتدت لتشمل جوانب شتى من العلوم النظرية والطبيعية على السواء. وصاحب هذه النهضة ظهور عدد من المؤسسات التعليمية التى لعبت دوراً هاماً فى إثراء الحياة العلمية فى بلاد الشام خلال العصر الأموى. ورغم قلة عدد هذه المؤسسات واقتصارها على المكاتب والمساجد لعدم ظهور المدارس خلال تلك الفترة فإن ذلك لم يمنع أن تلك المؤسسات قامت بدور فاعل فى الحياة العلمية خلال تلك الفترة، وكانت توطئة لظهور العديد من المؤسسات الأخرى فى فترات لاحقة.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع فقد اختصه الباحثين ببعض الدراسات، لكنها جاءت دراسات عامة شملت الحياة العلمية كلها فى بلاد الشام مثل دراسة خليل الزور[1]، أو شملت مناطق أخرى مع بلاد الشام وفترات تسبق العصر الأموى مثل دراسة عماد على[2]. وهذه الدراسات نظراً لطول فترتها النسبية سواء قبيل العصر الأموى أو امتداداً للعصر العباسى جعلت نصيب العصر الأموى منها قليل للغاية، خاصة فى حال الحديث عن الحياة العلمية فى مناطق أخرى بجانب بلاد الشام.

وتهدف هذه الأطروحة إلى دراسة المؤسسات التعليمية خلال العصر لأموى من حيث طبيعتها وأهدافها ونظام التدريس بها، والقائمين على التدريس فيها، وعلاقة السلطة المركزية بهذه المؤسسات. وتبدو صعوبة هذا الأمر فى قلة المادة التاريخية التى وصلتنا بهذا الصدد، لقلة الكتابات التاريخية عن تلك الفترة قياساً على العصر العباسى، وندرة الرحلات

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

1 انظر، خليل الزور، الحياة العلمية فى الشام فى القرن الأول والثانى الهجرى، بيروت ١٩٧٢.

2 انظر، عماد على، الحياة العلمية فى الحجاز وبلاد الشام منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموى، القاهرة ١٩٨٦.

الجغرافية التى تعد شاهد عيان غاية فى الأهمية، ناهيك عن ندرة الآثار الباقية لهذه المؤسسات، ولا شك أن تلك الصعوبات تمثل عائقاً للحصول على دراسة تفصيلية وافية عن هذه المؤسسات، لكن الأطروحة ستحاول ذلك فى ضوء المصادر المتاحة.

والواقع إن ظهور تلك المؤسسات العلمية كان وليد الحاجة لتلبية التطورات التى شهدتها الحياة الثقافية والعلمية خلال العصر الأموى، والحاجة لدراسة العلوم الدينية وغيرها من العلوم الأخرى التى جرت ترجمة كتبها خلال تلك الفترة. وخلال هذا العصر لم يكن ثمة مراحل معينة للتعليم يتدرج فيها التلميذ بشكل نظامي، بل كان التعليم يعتمد على مرحلة واحدة غالباً ما تبتدئ بالكُتّاب، أو بالمؤدِّب، وهي تعتبر مرحلة التعليم الأساسي – آنذاك – بمفهومنا المعاصر، ثم ينتقل الطالب بعدها إلى حلقات المساجد ليطور من علمه ويتجه رويداً رويداً نحو التخصص فى علم واحد أو عدة علوم فى آن واحد.

المكاتب أو الكتاتيب :

تعد المكاتب أو الكتاتيب التى عرفت أيضاً باسم مجالس الأدب أو الحوانيت من أهم المنشآت التعليمية، لأنها اختصت بتعليم الصبيان، الذى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتنزيه المساجد منهم، لأنهم يسودون حيطانها، وينجسون أرضها، ويمشون على البول وسائر النجاسات[3].

ويبدو أن ظهور الكتاتيب بشكل موسع فى العالم الإسلامى وبلاد الشام كان فى العصر الأموى، وليس قبل ذلك كما افترض البعض[4]. ونستدل على ذلك بقول أحد المؤرخين[5] : " إن أئمة المسلمين فى صدر هذه الأمة ما منهم إلا قد نظر فى جميع أمور المسلمين بما يصلحهم فى الخاصة والعامة فلم يبلغنا أن أحداً منهم أقام معلمين يعلمون للناس أولادهم من صغرهم فى الكتاتيب، ويجعلون لهم على ذلك نصيباً من مال الله عز وجل ".

وقد وجدت بعض هذه الكتاتيب بمدينة دمشق خلال العصر الأموى، وكان منها كتاتيب خاصة مثل الكتاب الذى فتحته أم الدرداء فى دمشق لتعليم القرآن والكتابة[6] وكتاتيب أخرى تخصصها الدولة لغير القادرين وتتولى الإنفاق على هذه الكتاتيب وتقديم الرواتب

---

3 أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، ج٢، القاهرة ١٩٩١، ص٢٠.

4 رأى بعض الباحثين أن ظهور الكتاتيب ربما بدأ فى عصر الخلفاء الراشدين ..عن هذا الرأى انظر، أحمد عبد الرازق، المرجع السابق، ص١٨.

5 انظر، القابسى، الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين، القاهرة (ب.ت)، ص٢٩١.

6 أبو زرعة، تاريخ أبو زرعة الدمشقى، ج١، دمشق ١٩٨٠، ص٣٣٤.

للمعلمين، كما حدث فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك الذى كان يرتب المؤدبين لأولاد العامة من المحتاجين[7].

ولا تعطى المصادر المتوفرة وصفاً للكتاب سوى ما أورده ابن سحنون فى كتاب (آداب المعلمين)، ولا نرى ما يحول دون إيراد هذا الوصف واعتباره صورة من الكتاتيب التى كانت قائمة فى بلاد الشام فى العصر الأموى، كان الكتاب بناء بسيط فى الغالب على هيئة بيت مربع أو مستطيل لم تزخرف جدرانه أو قاعته بأدنى تنميق من زخرفة البناء، ولم يكن تأثيثه بأكثر عناية من ذلك، وكان مفروشاً بحصر بلدية عادية يجلس عليها الصبيان متربعين حول المعلم الذى يختص بسرير أو كرسى مرتفع، وربما عوض الكرسى بمصطبة مبنية ليس عليها من الرياش سوى بساط بسيط[8].

وكان القرآن الكريم هو المحور الأساسى الذى تدور حوله الدراسة فى الكتاب، لكن ذلك لم يمنع من وجود مواد دراسية أخرى مثل الشعر والنحو والحساب والخطب والأدب والقصص. ولكى تتم دراسة القرآن دراسة صحيحة كان معلم الكتاب يعلم تلاميذه القراءة والكتابة لأن حفظ القرآن لا يسهل إلا بتعليمهما، وينبغى له أن يعلمهم إعراب القرآن والشكل والهجاء والقراءة الحسنة والتوقيف والترتيل ولا ينقلهم من سورة إلى سورة حتى يحفظوها بإعرابها وكتابتها[9].

وكان أسلوب تعليم القراءة والكتابة يتم عن طريق نسخ الحكم والأمثال أو كتابة الآيات القرآنية على الألواح الخاصة بالتلاميذ . وكان لكل صبى لوحاً خاصاً به وكان المعلم يطلب إلى الأولاد كتابة الآيات المراد حفظها فى ألواحهم، فإذا حفظوها قاموا بمسحها من ألواحهم[10]. أما أسلوب تعليم القرآن فيتم عن طريق التلقين والحفظ غيباً، ويورد لنا ابن عساكر رواية طريفة تؤكد على وجود هذا الأسلوب فى الكتاتيب لتعليم القرآن فذكر أن أحد المعلمين كان يعلم صبياً فيطلب منه أن يتلو الآية (والعاديات ضبحاً)، فيلفظها الصبى " دبحاً " مع أن المعلم كررها مرات عدة، ولما نفد صبر معلمه ضربه بأسفل لوحه فى نحر الصبى فصرخ متألماً : يا معلمى ضبحتنى!، فرد المعلم : فأين هذا الكلام من تلك الساعة؟[11].

---

7 السيوطى، تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم الرفاعى، بيروت ١٩٨٦، ص٢٢٣.

8 ابن سحنون، آداب المعلمين، القاهرة (ب-ت)، ص٥٥.

9 ابن سحنون، آداب المعلمين، ص٣٥٨ – ٣٥٩.

10 ابن سحنون، المصدر نفسه، ص٨٦ – ٨٩.

11 ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين أبى سعيد، ج١١ بيروت (ب-ت)، ص١٩٦.

وفيما يخص سن دخول التلاميذ إلى الكُتّاب وتخرجهم منه فلا نعلم عن ذلك شيئاً مؤكداً، لكن الشواهد التاريخية تؤكد أن الإمام البخاري غادر الكتاب وهو ابن عشر سنوات، ويؤكد ابن سينا أن الصبي " إذا أتى عليه من أحواله ست سنين فيجب أن يُقدّم إلى المعلم أو المؤدب "[١٢].

وبوجه عام كان الكتاب يمثل بداية مراحل التعليم، ينتقل منه الصبي إلى إكمال تعليمه في المسجد، حيث يروى عن الشافعي قوله " كنت يتيماً في حجر أمي فدفعتني في الكتاب، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد لطلب العلم والتوسع في الثقافة الدينية "[١٣].

وكانت هذه الكتاتيب تخضع عادة لإشراف الدولة، لذا كان يشترط في المؤدب أو الفقيه الذي يتصدى لتعليم الصغار بعض الشروط الخلقية والاجتماعية والعلمية، كأن يكون متزوجاً صحيح العقيدة متديناً عاقلاً " من حملة كتاب الله العزيز عالماً بالقراءات السبع ورواياتها وأحكامها، صالح لتعليم القرآن والحديث والخط والآداب، وأن يكون ممن اشتغل بالحديث والعلوم الشرعية "[١٤]. بسبب عدم أهلية بعض معلمي المكاتب الذين وصفتهم بعض المصادر بالحمق والبلادة حتى قيل في المثل " أحمق من معلم كتاب "[١٥].

وكان الصبي إذا أتم حفظ القرآن، احتفل به احتفالاً كبيراً، حيث تزين أرض المكتب وسقفه بالحرير، ويقوم أهل الصبي بزينته فيحلونه بقلائد الذهب والعنبر، ثم يركبونه على فرس أو بغلة مزينة، ويحملون أمامه أطباقاً فيها ثياب من الحرير وعمائم، ويسير بين يديه بقية صبيان المكتب، وينشدون طوال الطريق إلى أ، يوصلونه إلى بيته وعندئذ يدخل المؤدب ويعطى اللوح لأم الصبي، فتعطيه ما تقدر عليه من مال[١٦].

وقد صاحب انتشار المكاتب لتعليم الصغار في العالم الإسلامي ظاهرة أخرى تمثلت في التعليم الخاص، حيث كانت بعض الأسر الغنية تلجأ إلى الاستعانة بمؤدب خاص ليقوم بتعليم أبنائهم في منازلهم في مقابل أجر شهري[١٧]. ويمكننا أن نستشف ما كان المؤدبين يعلمونه للأطفال من خلال وصية الخليفة عبد الملك بن مروان لمؤدب أولاده : " علمهم كتاب الله عز وجل حتى يحفظوه، وقفهم على ما بين الله فيه من حلال وحرام حتى يعقلوه، وخذهم

١٠ ابن سينا، القانون في الطب، تحقيق جبران جبور، ج١، بيروت ١٩٨٤، ص١٥٧.

13 ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله ،ج١، بيروت ١٩٧٨ ص٩٨.

14 أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ج٢، ص١٩.

15 الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، تحقيق عبد السلام هارون، بغداد ١٩٦٠، ص١٧٣.

16 ابن الحاج، مدخل الشرع الشريف على المذاهب، ج٢، القاهرة ١٩٢٩، ص٣٣١ – ٣٣٣.

17 أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ج٢، ص٢٠.

من الأخلاق بأحسنها ومن الآداب بأجمعها ورّوهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أصدقه، وجنبهم محادثة النساء، ومجالسة الأظناء، ومخالطة السفهاء، وخوفهم بي، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يفهموه .. "[18].

ومن أشهر مؤدبي الشام في العصر الأموي الذين عملوا بقصور الخلفاء وبالكتاتيب أيضاً ؛ أبو معبد الجهني وعامر الشعبي، وكانا يعلمان أولاد الخليفة عبد الملك بن مروان. وعبد الصمد بن عبد الأعلى، وكان مؤدباً للوليد بن يزيد وابنه عتبة بن أبي سفيان[19]. وصالح بن كيسان الذي أدب عمر بن عبد العزيز [20]، وسليمان بن سليم ومحمد بن شهاب اللذان كانا يعلمان هشام بن عبد الملك، وغيرهم من المؤدبين مثل عبد الحميد الكاتب وعبد الواحد بن قيس السلمي[21].

المساجد :

قامت المساجد والجوامع بوظيفتها كمؤسسات تعليمية منذ نشوئها، إلى جانب وظيفتها الأساسية كأماكن عبادة، وكان من الطبيعي أن تختص هذه المؤسسات بالدراسات الدينية وما يتصل بها من علوم اللغة العربية لصلتها الوثيقة بأمور العبادة مثل علوم القرآن والسُنّة، وفي بلاد الشام برز العديد من المساجد التي ساهمت بدور كبير في الحياة العلمية ومن أهمها :

المسجد الأموي بدمشق :

كان للمسجد الأموي دوره التعليمي كواحد من أهم وأبرز المؤسسات التعليمية في العصر الأموي، حيث ازدهر في هذا العصر واتسعت الحلقات العلمية فيه، فأمه العلماء والطلاب من كل مكان، حيث يتجمعون حول ساريات المسجد، ويتلقون العلوم والمعارف المختلفة. وقد نقل ابن عساكر[22] عن شيخ من القرن الأول الهجري قوله " عهدت المسجد الجامع بدمشق وان عند كل عمود شيخاً وعليه الناس يكتبون العلم ".

وقد تنوعت العلوم والمعارف التي كان يتم تدارسها في المسجد، ومن أهمها القرآن الكريم وعلومه، ولا شك أن اعتناء الخلفاء الأمويين بتعليم القرآن، كان له أثره البالغ في تشجيع هذه الدراسة، فقد حرص الخلفاء على تعليم أولادهم القرآن، وأوصوا أهل الشام بقراءة

---

18 المبرد، الكامل، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة (ب.ت)، ص٧٧.

19 الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص١٧١.

20 ابن الجوزي، مناقب عمر بن عبد العزيز، تحقيق السيد الجميل، القاهرة ١٩٨٥، ص٢٥.

21 ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٢، القاهرة ١٩٢٥، ص١٦١، ٥٤٧.

22 ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١، ص٣١٥.

القرآن وحفظه[23]. وبلغ اهتمام أهل الشام بقراءة القرآن الذروة في خلافة عمر بن عبد العزيز وأصبح شغلهم الشاغل، بحيث كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل : ما وردك الليلة، وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم؟[24]

وكان من أهم علوم القرآن علم القراءات، الذي كان يبحث في كيفية قـراءة ألفـاظ القرآن، وأصبحت القراءات علماً مدوناً توضع فيه المصنفات، واختلف في عـدد القـراءات، وتراوحت ما بين سبع وأربع عشرة قراءة، وإن اشتهرت سـبع قـراءات وأصـبح يعـرف أصحابها بأصحاب القراءات[25]. وزادت أهمية هذا العلم نتيجة تباين لهجات العرب والمسلمين من الشعوب المفتوحة في الشام وغيرها مما أوجد اختلافاً في النطق بحروف القرآن[26].

وقد انتشرت حول ساريات المسجد حلقات تدريس القرآن وعلومـه خاصـة علـم القراءات ومن أشهرها حلقة أبو إدريس الخولاني (ت.٨٠هـ/٧٠٣م)، الذي بلغت مكانته في علم القراءات، أنه حال تواجده في المسجد وكلما مرت حلقة من حلقات تدريس القرآن بآيـة سجدة بعثوا إليه يقرأ بها فأنصتوا له وسجد بهم وسجدوا جميعاً بسجوده[27]. وكذلك حلقة يحيى بـن الحـارث (ت. ١٤٠هـ/٧٦٧م)[28]. وحلقـة عبـد الله بـن عـامر اليحـصبي (ت.١١٨هـ/٧٣٦م)[29]، أحد القراء السبعة، والذي نسبت إليه قراءة بلاد الشام، نتيجة تميـز قراءته بمميزات متعددة، حيث لم " لم يبعد فيما ذهب إليه الأثر، ولم يقل قولاً يخـالف فيـه الخبر "[30].

أما عن طريقة تدريس قراءة القرآن في المسجد، فقد كان المعلمون مـن الـصحابة والتابعين الشاميين يقسمون تلاميذهم عشرات في مسجد دمشق، ويجعلون على كـل عـشرة عريفاً، وكان العريف يقرأ القرآن لتلاميذه سورة سورة، وهم يعيـدون مـا سـمعوا منـه، ويحفظون عنه، فإذا أخطأ أحدهم سأل عريفه، وإذا أخطأ عريفهم سأل شيخه. وكان العريـف

---

23 ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩، القاهرة ١٩٥٠، ص٣٤٠.

24 ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٨٤.

25 والقراءات السبع هي : نافع من المدينة، ابن كثير من مكة، ابن عامر من الشام، أبي عمـر مـن البـصرة، عاصم وحمزة والكسائي من الكوفة. انظر، أبو عمر المدائني، التيسير فـي القـراءات الـسبع، القـاهرة (ب.ت)، ص١٠.

26 ابن أبي داود، كتاب المصاحف، تحقيق جيفري، ليدن ١٩٣٧، ص٣٦.

27 الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج٣، تحقيق عمر عبد السلام، بيروت ١٩٨٨، ص٢١٦.

28 الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، القاهرة (ب.ت)، ص٥٦.

29 ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٧، بيروت ١٩٥٨، ص٤٤٩.

30 الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج١، القاهرة ١٩٣٢، ص٤٢٥.

يمتحن تلاميذه بعد أن يختموا القرآن، فإذا أيقن أن احدهم أتقن القرآن قدمه إلى الشيخ، فأجازه وأصبح عريفا فى حلقته، وقد يفارقه ويتولى تعليم القرآن بنفسه[31].

وبجانب علم القراءات وتدريسه كان هناك علم تفسير القرآن الذى تولاه خلال العصر الأموى التابعين الذين تتلمذوا على أيدى الصحابة الذين استقروا ببلاد الشام، ونقلوا عنهم ما سمعوه من تفسير عن الرسول صلى الله عليه وسلم. واشتهر من علماء التفسير فى المسجد الأموى محمد بن شهاب الزهرى (ت.١٣٤هـ/٧٤٦م) الذى قيل عنه : ما رأينا عالماً قط أجمع من الزهرى يحث فى التغريب فتقول لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن العرب والأنساب قلت لا يحسن إلا هذا، وإن حدث فى القرآن والسنة فكذلك[32].

وكانت المميزات الواضحة للتفسير فى بلاد الشام هى عدم التشدد فى تفسير القرآن، هذا إلى جانب عدم الخوض فى مسائل علم الكلام أو التفسير القائم على الجدل، إذ أن العمل كان أهم لديهم من الجدل[33].

وقد اختلفت طريقة التدريس باختلاف صاحب الحلقة، فهناك مثلا من اتبع طريقة القصص حين تعرض لدراسة القرآن وقراءاته وأحكامه وتفسيره، مثل أبو إدريس الخولانى، أو طريقة التفسير والتأويل فى تعليم القرآن، وتدبر معانيه والتفكر فى آياته ومعجزاته، مثل يحيى بن الحارث[34]. أو تعليم قراءة القرآن مثل عبد الله بن عامر الذى تصدى للإقراء بمسجد دمشق حتى أصبح من أعلامها، وتعتبر قراءته من القراءات السبع المتواترة، وظل أهل الشام يقرأون بقراءته إلى نهاية القرن الخامس الهجرى ؛ أما خصائص قراءته فسميت " المصحف الشامى "[35].

ويبدو أن تدريس القرآن الكريم وعلومه لم يكن منتشراً فى بلاد الشام بشكل كبير قبيل العصر الأموى، فلدينا رواية لأحد الطلاب الذين كانوا يدرسون القرآن فى حلقت المسجد يقول فيها : كنا ندرس فى مجلس يحيى بن الحارث فى مسجد دمشق فى خلافة يزيد بن عبد الملك، إذ خرج علينا أمير دمشق الضحاك بن عبد الرحمن الأشعرى فأقبل علينا ينكر ما

---

31 ابن الجزرى، المصدر نفسه، ج١، ص٦٠٦.

32 الذهبى، تذكرة الحفاظ، ج١، ص١٠٩.

33 سعيد اسماعيل على، معاهد التربية الإسلامية، القاهرة ١٩٨٦، ص٢٧٣.

34 الذهبى، تذكرة الحفاظ، ج١، ص٥٦.

35 ابن عساكر، تاريخ دمشق، ص٤٧٠.

نصنع فقال : ما هذا وما أنتم؟ فقلنا ندرس كتاب الله تعالى فقال : أتدرسون كتاب الله تعالى إن هذا شئ ما سمعت ولا رأيته ولا سمعت أنه كان قبل ذلك[٣٦].

وبجانب القرآن وعلومه كانت هناك بعض المعارف الأخرى التي تدرس في المسجد كعلوم الفقه والحديث والمغازى والسير، فكانت هناك مجالس للقصص والأخبار الخاصة بتاريخ الرسل الذين ورد ذكرهم بالقرآن، ومغازى الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته، وكان الغرض من تلك المجالس العظة والاستفادة من أحداثه، وممن اشتهر في هذا المجال أبو إدريس الخولانى[٣٧]. ونظراً لأهمية دور القاص في وعظ الناس جعل الخلفاء الأمويين القصص من الوظائف الرسمية، واختاروا لهذه الوظيفة القصاص الذين كانوا يثقون بهم[٣٨].

وزادت أهمية حلقات تدريس الحديث النبوى الشريف بعد أن أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بتدوينه، حيث نظر عمر بثاقب نظره إلى الحديث النبوى، فوجد من الواجب عليه كتابته وتدوينه بعد أن كاد القرن الأول أن ينتهي ويختفى معه حملة الحديث من الصحابة والتابعين، لذلك أمر بجمع الحديث في سجل واحد، وكلف محمد بن شهاب الزهرى بذلك، فصنفه في كتاب وأرسله عمر لكل الأقطار[٣٩].

وكان محمد بن شهاب الزهرى في حلقات تدريسه للحديث بالمسجد الأموى إلى ضرورة إسناد الحديث خاصة بعد أن انتشر الوضع، حيث كان أهل الشام يروون حديثهم دون سند، فكان يقول : " يا أهل الشام مالى أرى أحاديثكم ليس لها أزمة ولا خطم "، وحمل تلاميذه على التزام نقل الأحاديث بأسانيدها[٤٠].

أما عن أسلوب تدريس الحديث في المسجد الأموى، فكانت هناك طرائق عديدة لتلقى علم الحديث عن الشيوخ وهى :

١- السماع : عن طريق قراءة الشيخ لكتاب يحمله أو يروى من ذاكرته في حين يسمع طلبته ولا يكتبون[٤١].

٢- العرض : وفيها يعرض الطالب على شيخه النصوص التى كتبها فيصححها له أو يتأكد من صحتها[٤٢].

---

36 الذهبى، تذكرة الحفاظ، ج١، ص٥٦.

37 الذهبى، المصدر نفسه، ج١، ص٥٦.

38 المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، القاهرة ١٣٢٦هـ، ص٢٥٣.

39 ابن عبد البر، جامع بيان العلم، ج١، ص٧٦.

40 الحاكم النيسابورى، معرفة علوم الحديث، القاهرة (ب.ت)، ص٦.

41 ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج٤، بيروت ١٩٩٦، ص١٧٣٤.

٣- الإجازة : وفيها يجيز المحدث عنه شفاهة أو تحريراً لطالب ممن يأنس فيهم المقدرة على الرواية عنه[43].

٤- المناولة : وهى أن يسلم الشيخ لتلميذه كتاباً بخط يده ويسمح له بروايتها دون أن يسمع منه أو يقرأها عليه[44].

٥- المراسلة : وفيها يرسل الشيخ إلى تلميذه أجزاء من كتابه ويسمح له بروايته عنه.

٦- الوصية : وهى أن يوصى الشيخ بكتبه إلى شخص آخر بعد وفاته[45].

٧- الوجادة : وهى أن يعثر الشيخ على كتاب فيروى ما فيه[46].

ولم تكن الدراسة بمسجد دمشق قاصرة على العلوم الدينية فقط، بل كانت هناك بعض المعارف الأخرى، فقد ذكر ابن عساكر[47] أن نوفل بن الفرات (ت.١٤٢هـ/٧٦٠م) كانت له حلقة لتدريس الأدب بمسجد دمشق.

ولم يكن كل الطلاب فى المسجد من الرجال، بل كانت هناك حلقات للنساء أيضاً يتعلمن فيها القرآن والحديث والفقه[48]. ولم يكن المعلمين كلهم من الرجال، حيث وجدت بعض الفقيهات من النساء وأشهرهن هجيمة بنت حيى (ت. بعد عام ٨١هـ/٧٠٠م) المعروفة باسم أم الدرداء الصغرى، وكانت فقيهة ومحدثه، وكانت لها حلقاتها بالمسجد الأموى للرجال والنساء، وبلغ من علمها أن الخليفة عبد الملك بن مروان كان يحضر حلقاتها بنفسه[49].

مسجد حمص :

لم تقتصر الدراسة فى بلاد الشام على المسجد الأموى فقط، لكن كانت هناك بعض المساجد الأخرى التى وجدت بها بعض حلقات التدريس لكنها لم تحظ بالاهتمام والعناية من قبل المؤرخين مثلما حظى به المسجد الأموى ربما للفرق فى الأهمية وحجم الدراسة والتأثير فى الحياة العلمية . ومن هذه المساجد مسجد حمص الذى كان له هو الآخر حلقاته التدريسية، فكان به حلقات لتدريس القراءات وأشهرها حلقة شهر بن حوشب (ت. ١١٣هـ / ٧٣٤م)،

---

42 أبو زرعة، تاريخ دمشق، ج١، ص٣٦١.

43 السمعانى، الأنساب، تحقيق عبد الله عمر البارودى، بيروت ١٩٨٨، ص١٠.

44 أبو زرعة، تاريخ دمشق، ج١، ص٣٦٤.

45 ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٣، ص١٧٣.

46 ابن عساكر، المصدر نفسه، ج١٦، ص٣٩٣.

47 ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة نوفل بن الفرات.

48 الذهبى، سير أعلام النبلاء، ج٤، تحقيق محمد سعد أطلس، القاهرة ١٩٦٢، ص٢٧٧.

49 ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤، ص٥٧٤.

الذى كان من التابعين الذين اشتهروا بعلم القراءة، حيث أخذ القراءة عرضاً على عبد الله بن عباس[50].

كذلك كانت هناك حلقات لتدريس الحديث الشريف مثل حلقة خالد بن معدان الكلاعى (ت.١٠٣هـ/٧٣٥م) الذى كان محدثاً وفقيهاً مشهوراً، وحظى بعدد وافر من الطلاب نتيجة غزارة علمه، وكان متواضعاً فكان إذا عظمت حلقته قام مخافة الشهرة حتى قيل عنه " لم يكن أحد أكرم للعلم من خالد بن معدان "[51].

وبوجه عام كان التعليم فى المساجد غير مقيد بحدود، فالمتعلم حر فى أن يجلس إلى أية حلقة شاء، فإذا أحس أنه أخذ حاجته منها انتقل إلى حلقة غيرها فأخذ العلم عن شيخها وهكذا، لذلك لم تكن مدة الدراسة محددة ؛ فطلبة الحديث مثلاً كانوا يقضون السنين في جمع الحديث، ثم يأخذون في تدقيق متونه وأسانيده وتصنيفه وتبويبه، وقد يستغرق هذا حياتهم كلها، أما دارسو علم النحو أو علم اللغة فهم يتركون أساتذتهم بعد استيعاب ما عندهم، وأما التفسير فقد يستغرق الأمر ست سنوات حتى يفرغ الأستاذ من إملاء مصنفاته، وهذه هي المدة المطلوبة للتخرج في علم التفسير، وكان طلبة الفقه يلازمون شيوخهم مدداً طويلة قد تصل إلى سبع عشرة سنة، وكما كانت مدة تحصيل العلم غير محددة فقد كان عدد الشيوخ المأخوذ عنهم العلم أيضاً غير محدد، وكان المتفق عليه هو ضرورة الأخذ على أكبر عدد ممكن من الشيوخ خصوصاً في العلوم الشرعية، حيث دأب كل طالب على تدوين كشف بمشايخه يسمى "معجم الشيوخ"، وكان هذا الكشف بمثابة شهادة جامعية مؤهلة لتبوء مقاعد التدريس[52] .

ويبدو أن الدولة كانت تتدخل بالإشراف على الدراسة في المساجد، خاصة فى بعض النواحى الهامة مثل القصص، فاعتبرت القصاص موظفين فى الدولة كما ذكرنا آنفاً. كما كانت تخصص رواتب للمعلمين الذين يعملون فى مسجد دمشق وغيره من المساجد مقابل جهدهم فى التعليم والتفسير[53].

وهكذا كانت المكاتب والمساجد هى أهم المؤسسات العلمية التى وجدت فى بلاد الشام خلال العصر الأموى، لأنه لم يكن هناك مدارس بالمعنى الحقيقى، لأن أول مدرسة تم

---

50 الذهبى، تاريخ الإسلام، ج٤، ص١٣.

51 الذهبى، تذكرة الحفاظ، ج١، ص٩٣.

52 ابن جماعة، تذكره السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم، بيروت ١٩٩٨، ص٦٠ -٦٤ ؛ منير الدين أحمد: تاريخ العلم عند المسلمين، ص٦٢.

53 ابن الجوزى، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٨٤.

افتتاحها فى دمشق كانت عام ٤٩١هـ / ١٠٩٨م[٥٤]. وإن كانت هناك إشارات محدودة عن وجود نوع من المؤسسات التعليمية الأخرى لتعليم بعض العلوم العقلية مثل الطب، فكما نعرف أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أمر بنقل معاهد الطب من الإسكندرية – حيث ازدهر الطب اليونانى – إلى بلاد الشام فى أنطاكية وحران، واستقدم لذلك الطبيب عبد الملك بن سعيد بن أبجر الكنانى[٥٥] من مصر ليمارس الطب ويعلمه فى أنطاكية[٥٦].

ولكن من سوء الحظ ليس لدينا مادة كافية تتحدث بالتفصيل عن هذه المدارس أو طريقة التدريس فيها، وأغلب الظن أن تدريس الطب كان يتم فى البيمارستان الذى بناه الخليفة الوليد بن عبد الملك عام ٨٨هـ / ٧٠٧م فى دمشق، خاصة مع وجود عدد من كبار أطباء هذا العصر فى بلاد الشام أمثال ابن أثال[٥٧]، وعائلة أبى الحكم الدمشقى[٥٨] وغيرهم ممن اشتهروا بعلمهم ووفرة كتبهم، وحرص الكثير من الطلاب على تعلم الطب منهم.

---

54 ابن شداد، الاعلاق الخطيره فى ذكر امراء الشام والجزيره، تحقيق سامى الدهان، دمشق ١٩٦٢، ص١٩٩.

55 كان طبيباً بارعاً، وعمل كطبيب خاص للخليفة عمر بن عبد العزيز(٩٩– ١٠١هـ). وكانت لـه نظـرات علاجية صائبة، ومن أقواله " دع الدواء ما احتمل بدنك الداء ". وقد شبه المعدة كحوض الجسد، والعروق الدموية كالأوعية التى تشرع فيه : فما ورد فيها بصحة صدر بصحة، وما ورد بسقم صدر بسقم ". انظر، القفطى، أخبار الحكماء، بغداد ١٩٠٣، ص١٦٤.

56 فيليب حتى، تاريخ سوريا، ترجمة كمال اليازجى، ج٢، بيروت ١٩٧٢، ص١١٣.

57 كان طبيباً متميزاً لذلك اصطفاه الخليفة معاوية بن أبى سفيان (٤١–٦٠هـ) ليكون طبيب البلاط المقرب والخاص له، فأكرم وفادته وأحسن إليه، ووثق بسله وعلمه، وأخلص بنصحه فى كل مشورة. وقد اشتهر ابن أثال بخبرته فى الأدوية المفردة والمركبة وقواها، ومعرفة السموم والترياقات، لاسيما فى وسط كثرت فيه الفتن والدسائس، حتى أن جماعة كثيرة من أكابر الناس والأمراء لقوا حتفهم بالسم. انظر، ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ج١، تحقيق نزار رضا، بيروت ١٩٦٥، ص ١١٦ –١٢٣.

58 وعميدها أبو الحكم الدمشقى الذى كان أهم الأطباء وأكثرهم شهرة فى عهد الأمويين، وعمل فى أول شبابه طبيبا للخليفة معاوية بن أبى سفيان وأولاده، وكان رفيقاً طبيباً للأمير يزيد بن معاوية فى حجته الأخيرة عام ٦٠هـ وكانت له معرفة واسعة فى الأدوية والمعالجات، وقد عمر طويلاً أيضاً، وقيل أنه كان متمتعاً بصحة جيدة فى نظره وسمعه، وبرونق وجهه حتى الوفاة. انظر، سامى خلف حمارنه، تاريخ تراث العلوم الطبية عند العرب والمسلمين، ج١، عمان ١٩٨٦، ص١٢١.

المصادر والمراجع

* أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، ج٢، القاهرة ١٩٩١
* ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ج١، تحقيق نزار رضا، بيروت ١٩٦٥.
* الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، تحقيق عبد السلام هارون، بغداد ١٩٦٠.
* الجزرى، غاية النهاية فى طبقات القراء، ج١، القاهرة ١٩٣٢.
* ابن جماعة، تذكره السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم، بيروت ١٩٩٨.
* ابن الجوزى، مناقب عمر بن عبد العزيز، تحقيق السيد الجميل، القاهرة ١٩٨٥.
* ابن الحاج، مدخل الشرع الشريف على المذاهب، ج٢، القاهرة ١٩٢٩.
* الحاكم النيسابورى، معرفة علوم الحديث، القاهرة (ب.ت).
* ابن أبى داود، كتاب المصاحف، تحقيق جيفرى، ليدن ١٩٣٧.
* الذهبى، سير أعلام النبلاء، ج٤، تحقيق محمد سعد أطلس، القاهرة ١٩٦٢.
* الذهبى، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج٣، تحقيق عمر عبد السلام، بيروت ١٩٨٨.
* الذهبى، تذكرة الحفاظ، ج١، القاهرة (ب.ت).
* أبو زرعة، تاريخ أبو زرعة الدمشقى، ج١، دمشق ١٩٨٠.
* ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله ،ج١، بيروت ١٩٧٨.
* ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج٤، بيروت ١٩٩٦.
* ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين أبى سعيد، ج١١ بيروت (ب.ت).
* أبو عمر المدائنى، التيسير فى القراءات السبع، القاهرة (ب.ت).
* سامى خلف حمارنه، تاريخ تراث العلوم الطبية عند العرب والمسلمين، ج١، عمان ١٩٨٦.
* ابن سحنون، آداب المعلمين، القاهرة (ب.ت).
* ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٧، بيروت ١٩٥٨.
* سعيد اسماعيل على، معاهد التربية الإسلامية، القاهرة ١٩٨٦.
* السمعانى، الأنساب، تحقيق عبد الله عمر البارودى، بيروت ١٩٨٨.
* ابن سينا، القانون فى الطب ، تحقيق جبران حبور، ج١، بيروت ١٩٨٤.

* السيوطى، تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم الرفاعى، بيروت ١٩٨٦.
* ابن شداد، الاعلاق الخطيره فى ذكر امراء الشام والجزيره، تحقيق سامى الدهان، دمـــشق ١٩٦٢ .
* فيليب حتى، تاريخ سوريا، ترجمة كمال اليازجى، ج٢، بيروت ١٩٧٢.
* القابسى، الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين، القاهرة (ب.ت).
* ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٢، القاهرة ١٩٢٥.
* القفطى، أخبار الحكماء، بغداد ١٩٠٣.
* ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩، القاهرة ١٩٥٠، ص٣٤٠.
* المبرد، الكامل، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة (ب.ت).
* المقريزى، الخطط المقريزية، ج٢، القاهرة ١٣٢٦هـــ.

الأزمات البيئية فى مصر الفاطمية:
دراسة فى الجغرافية التاريخية

د. ناجا عبد الحميد أبو النيل

كلية الآداب – جامعة عين شمس

يعطي عنوان الأزمات البيئية إيحاءًا بحداثتها، وأن مصر فى العصور الوسطى لا ينطوى تاريخها على مثل هذا المصطلح، ولكن المتفحص فى أحداث العصور الوسطى يستدل على تعرضها للعديد من الأزمات البيئية والتي لم تأخذ هذه التسمية فى كتابات هذه الفترة.

وهكذا فإن تعرضها لأزمات البيئة الطبيعية التى تمثلت بصفة أساسية فى تغيرات فيضان النيل وما يترتب عليها من مجاعات وأوبئة، بل وإلى هجرة خارجية من فلاحيها فى أشد هذه الأزمات مما يندرج تحت مفهوم الأزمة البيئية في صفاتها الموضوعية والمنهجية. ومن هنا تم اختيار هذا العنوان الذى يعد غريبًا عن عصره إنما لكى يحيط بما تعرضت له مصر من اختلالات بين السكان والموارد، وبين السكان والغذاء، بما يربط ماضيها بحاضر الدراسات البيئية وبما يتعرض له أيضاً من أزمات مما يحقق هدف الجغرافية التاريخية فى إلقاء الضوء على الماضي بغرض إنارة الحاضر.

والتعرف على الأزمات التى تعرضت لها مصر بوتيرة متكررة وأهمها:

- أزمات الفيضان.
- ما يترتب على أزمات الفيضان من أوبئة ومجاعات.
- ما قد تؤدى إليه من هجرة للأراضى المزروعة من قبل وإلى بوارها، ومن ثم اتساع براريها فى أوقات الأزمة.

وليس اختيار العصر الفاطمي من باب الصدفة ولكن تم اختياره للأسباب التالية:

- وفرة المصادر التاريخية التى كتبت عن تلك الأزمات.
- شدة بعض هذه الأزمات إلى الحد الذى يمكنها أن تمثل الأزمات فى الفترات السابقة عن هذه المرحلة ومنها "الشدة المستنصرية" على سبيل المثال" بما يجعلها تمثل أيضا ما ورد على شاكلتها فى العصور التالية الأيوبي والمملوكي والعثماني وأخيرًا العصر الحديث.
- انطباق شروط الأزمة البيئية والتى تعكس اختلالاً بين الموارد والسكان أو بين الإدارة والحكم واحتياجات السكان أو قد تأتى مباشرة من النهر كعامل بيئي رئيسي متحكم فى أرض مصر وسكانها.

• من بين الأزمات الواردة فى الجدول (١) سوف يتم التركيز على "الشدة المستنصرية" ليس فقط من باب استخلاص العبر والتعبير عن فداحة الأزمات البيئية، وإنما لربطها بما قد يتكرر فى الوقت الحاضر حسب التعريف البيئي المذكور بما قد يمكن من إضاءة الحاضر بمصباح الماضي من ناحية، وباقتراح توصيات قد تعين على تجاوز الأزمات البيئية فى المستقبل وذلك حسب المنهج التالى؛

- المتابعة التاريخية للأزمات.
- استخلاص العوامل الجغرافية المتكررة لحدوثها.
- خصائص الأزمة البيئية وما تعرض له المجتمع المصرى أثناءها من مجاعات .
- اقتباس ما يعبر عن إحساس المصريين من كتابات المرحلة الفاطمية عن الأزمة وطرق علاجها، وعن نجاح سياسة المعالجة التالية للأزمة في تجنب تكرار حدوثها أو تفادى أعراضها الفادحة.

ويتمثل المنهج المتبع فى تحديد خصائص أزمة فيضان نهر النيل -ارتفاعًا وانخفاضًا- بصفة عامة، ثم التركيز على أزمة "الشدة المستنصرية" مع إيراد ما ورد عنها ، وأخيرًا النتائج التي تجعل من الماضي نبراسًا للحاضر كشروط للجغرافية التاريخية وذلك على النحو التالى:

أولاً:الأزمات البيئية فى العصر الفاطمى.

ثانياً:التحليل التفصيلى للأزمات والمجاعات فى عهد المستنصر بالله (الشدة المستنصرية).

ثالثاً: الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية للأزمات البيئية.

رابعاً: سياسة الفاطميين إزاء احتواء الأزمات البيئية.

الخاتمة.

يعد فيضان النيل من أهم الأسباب البيئية التى كان لها تأثيرها الواضح على أزمات هذا العصر، فالفيضان المنخفض معناه استحالة رى جميع الأراضـى ممـا يعقبـه نقـص المحاصيل الزراعية وعجز الحكومة عن جباية الخراج، ولهذا تناقص الخراج فى أيام الأزمة الكبرى التى حدثت فى خلافة "المستنصر بالله" كما يتضح من مراجعة مقادير الخراج فى هذا الوقت[1]. أما الفيضان المرتفع فكان يؤدى إلى إغراق الأراضى وإتلاف الزرع، وفى كلا من الحالتين تصبح البلاد مهددة بالقحط الذى كثيرًا ما صحبه انتشار الأوبئة والأمراض.

وقد اختلف المؤرخون فى بيان الحد اللازم لرى الأراضى حتـى لا تقحـط فعنـد المسعودى كان ستة عشر ذراعاً تمام الخراج بخصب البلاد، وفى سبعة عشر وثمانية عـشر استبحر من أرض مصر الربع وفى ذلك ضرر لبعض الضياع، أما إذا زاد عن ثمانية عـشر ذراعًا حدث بالبلاد الوباء[2].

بينما أشار ناصر خسرو إلى أن سبعة عشر ذراعًا هى المستوى العادي، فإذا نقص الفيضان عنها عجز السلطان عن الحصول على الخراج كاملاً [3].

كما أورد "عبد اللطيف البغدادي" أن ستة عشر ذراعًا تمثل الحد الضروري للخراج ويسمح بري نصف البلاد، وإذا زاد ارتفاع الفيضان إلى ثمانية عشر غلت الأرض وإذا نقص عن ستة عشر ذراعًا تعذر الحال وتوقفت البلاد[4].

وكثيرًا ما نقص فيضان النيل عن المستوى اللازم لري الأراضى، فمن بـين ٨٢٠ فيضانًا تم تسجيل ارتفاعاتها بمقياس الروضة بين القرن السابع والثامن الميلادي كـان ٧٢% عاديًا، أى أن كمية الفيضان كانت كافية لري الأراضي الزراعية وإغراق حياضها وتغـذيتها بالطمي، ولم تزد أعداد الفيضانات المنخفضة عن ٢٢%، وبلغت نسبة الفيضانات العالية ٥% من جملتها المذكورة من قبل، ومتوسط عدد أيام الفيضان ١١٠ يومًا... قد تقل إلى ٧٥ يومًا، وقد تزيد إلى ١٢٥ يوم.. ونظرًا لعدم وجود نظام للري الثابت يرتكز على قواعد علمية دقيقة كانوا يعجزون عن تلافى النتائج الخطيرة المترتبة على هذه الظاهرة الطبيعية[5]. وأحيانًا كان

---

[1] راشد النبراوى، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، القاهرة، ١٩٤٨، ص٦٣.

[2] المقريزى، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار"، القاهرة، ١٣٧٠هـ، جـ١، ص٥٩.

[3] ناصر خسرو، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، الألف كتاب الثاني، العدد ١٢٢، القاهرة، ١٩٩٣، ص٨٩.

[4] راشد النبراوي، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، ص١١٨.

[5] عمر الفاروق السيد رجب، "فصول في جغرافية مصر التاريخية في العصور الوسـطى"، المنـار، القـاهرة، ٢٠٠٠م، ص٧٧.

النيل يصل إلى حد الوفاء، ثم يعقب ذلك هبوط سريع مفاجئ قبل أن يتم رى جميع الأراضى، أما الفيضان العالى فلم يكن يقل خطرًا عن الفيضان المنخفض وبرغم أنه كان قليل الحدوث إلا أن أثره كان خطيراً، إذ معناه إغراق الأراضى وإفساد المراعى ودمار الدور وهلاك الماشية اللازمة للزراعة. وفى مختلف هذه الحالات كانت الزراعة تتعذر فى كثير من الجهات، ويترتب على ذلك قلة العرض من المواد الغذائية بالنسبة إلى الطلب، وترتفع الأسعار، ولا تحصل الحكومة على الخراج كاملاً، ويتبقى لدى المقطعين والمتقبلين والملاك جانب منه كثيرًا ما كان يتراكم عامًا بعد أخر حتى يصبح مبلغا ضخمًا تجد الحكومة نفسها مضطرة إلى المسامحة به.

ومن الأسباب الطبيعية انتشار الأوبئة الذى كان يؤدى إلى هلاك عدد كبير من الماشية مما يترتب عليه عجز الفلاح عن مواصلة العمل، حيث كانت الحيوانات فى هذا العصر أكبر عون للفلاح المصرى فى النشاط الزراعى.

وقد أشار المؤرخون إلى أن أكبر الأخطار التى كانت تتعرض لها البلاد من جراء هذه الأزمات كانت الأوبئة التى كانت تنتشر فتفتك بالسكان. والذى لوحظ على مجاعات ذلك العصر أنها كانت مصحوبة بانتشار الوباء وهو الطاعون بصفة خاصة إذ كان أحد الأسباب الداعية إلى تلك المجاعة وموت الكثيرين.

ونظرًا لاستواء السطح وصعوبة الصرف وبقاء الماء زمنًا طويلاً على سطح الأرض كان يحدث بعض التعفن للمياه وبذلك تصبح المياه الراكدة بيئة صالحة وملائمة لأن تعيش فيها الميكروبات والجراثيم التي تسبب الأمراض.

مما سبق اتضح لنا أن المتغيرات الطبيعية المؤدية إلى الأزمات والمجاعات فى مصر الفاطمية لم تكن هى الوحيدة المتسببة فى تلك الأزمات، حيث أن هناك متغيرات بيئية أخرى كان لها تأثيرها ودورها الفاعل فى العديد من الأزمات والتى نقصد بها البيئة الإنسانية بأقسامها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتى يعزى لها العديد من الأزمات فى هذا العصر.

والبيئة الإنسانية تشكل الجانب الأخر المساهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة فى بروز العديد من الأزمات بقصد أو بدون قصد لذلك لابد من تناول تلك البيئة الإنسانية المعقدة بمكوناتها وأنظمتها المختلفة والتى تتمثل فى:

عدم ارتقاء الطب الوقائي واستخدام الوسائل الدقيقة فى مقاومة الوباء والقضاء على جرثومته، حيث كانت الأزمة تنتهي إلا أن الميكروب يظل كامنًا في البلاد، فإذا حدثت مجاعة جديدة صحبها المرض. وفضلاً عن هذا فإن الوباء كان يبدأ غالبًا في المدن المزدحمة بالسكان وبخاصة الفسطاط، وترجع هده الظاهرة إلى سوء الحالة الاجتماعية والصحية، وقد أمدنا "ابن سعيد" الذي زار مصر بعد سقوط الفاطميين بوصف لأكبر بلدان القطر المصرى، ومنه يتضح تمامًا كيف كانت ظروفها ملائمة لانتشار الأمراض، وقد أورد "المقريزي" الكثير مما قيل فيها، ومنه نعلم عادة إلقاء جثث الميت من الحيوان فى الشوارع والأزقة، ورمى الفضلات والأقذار فى النيل فى الأماكن التى اعتادوا الحصول منها على ماء الشرب، وكان السمك يحمل إلى مدينتى مصر والقاهرة، وقد أصابه العطب ولم يمتنع الناس عن أكله، أما الدور فكانت كثيرة بسكانها حيث بلغ عدد سكان الواحدة منها فى بعض الأحيان نحو المائتين من الناس، وحول أبوابها من التراب والأزبال ما يقض نفس النظيف، وحتى المسجد الجامع لم يخل من إلقاء فضلات الطعام فى صحنه وقد دهش "ابن سعيد" من ضيق الشوارع والأسواق[1].

- العامل النفسي وأثره في حدوث الأزمات والمجاعات ويحسب له حساب عند دراسة أسبابها ومظاهرها، ولذلك فإقبال البعض على الاختزان إما احتياطًا من وقوع الطوارئ وإما طمعًا في كسب منتظر كفيل بإحداث رجة واضطراب ويتهافت الكل علي هذا العمل فيقل القمح فى الأسواق وينقص العرض بالقياس إلى الطلب. وقد ذكر "ابن زولاق" أنه في شوال من سنة ٣٦٢هـ منع "المعز لدين الله" النداء بزيادة النيل وأن لا يكتب بذلك إلا إليه وإلى "القائد جوهر" فلما تم أبلغ النداء[2]. ومعنى هذا أنه إذا كان الفيضان دون المستوى العادى أو أعلى منه تخفى الحكومة الأمر عن الناس بل ولعلها تعمد بعد ذلك إلى النداء بوفاء الفيضان ولو لم يكن كذلك حتى لا تثير أى قلق فى النفوس.

ويلاحظ أن الخوف من المستقبل المجهول من العوامل السيكولوجيه التى تساعد على تفاقم الأزمات الاقتصادية. وكانت عادة الناس فى مصر إذا توقف النيل أيام زيادته أو ارتفع قليلاً انتابهم القلق وساورهم الخوف وحدثوا أنفسهم بعدم ارتفاع الفيضان إلى المستوى المطلوب، ويدفعهم هذا الشعور إلى قبض أيديهم على الغلال وخزنها والامتناع عن عرضها

---

[1] المقريزى، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جـ ١، ص١٦-١٨.

[2] المقريزى، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جـ١، ص١٨.

فى الأسواق رجاء ارتفاع الأسعار، أو الحاجة إلى ادخار المقادير اللازمة من القــوت لهــم ولأسرهم.

كما أن الأسباب المفتعلة من جانب التجار وسماسرة الغلال وطوائــف المحتكــرين والمرابين، فقد اتبع هؤلاء فى الفسطاط عادة شراء المحصول مــن المــزارعين قبــل أوان الحصاد فإذا جمع المحصول كلفوا وكلائهم فى الأرياف بنقلها إلى المخــازن المعــدة لهــذا الغرض. وهؤلاء القوم كانوا ينتهزون أتفه الأسباب وأوهى الحوادث فيحجزون الغلال عــن السوق حتى يرتفع سعرها تبعًا لقانون العرض والطلب ويرغمــوا الحكومــة علــى تعديلــه لصالحهم.

كما أن الفتن والثورات الداخلية تعد من أهم الأسباب السياسية التى لعبت دورًا بارزًا في ظهور العديد من الأزمات حيث تسود الفوضى والاضطراب، فيفقد الفلاح عناصر الثقــة والاطمئنان، ويخرب الثوار المزروعات، وتهمل الحكومة المركزيــة والهيئــات المحليــة أو تعجز عن اتخاذ التدابير السنوية المعتادة لتطهير الترع وإقامة الجسور وصيانتها حتى تظــل فى حالة صالحة لأداء وظيفتها. زد على هذا أن الوباء الذي يصحب مثل هذه الحالة يقلل من الأيدى العاملة ويدفع الفلاحين إلى هجرة القرى والهرب بعيدًا عن مــواطن الــداء وتــصبح الأرض وقد أهملها أهلها ورحلوا عنها قفارا.

أولاً: الأزمات والمجاعات فى مصر الفاطمية:

واجه الفاطميون منذ استيلائهم على مصر، المجاعة التي انتابت البلاد فــي عهــد "كافور الإخشيدي" وبدأت سنة ٣٥١هـــ واستمرت فى حكم الفاطميين الى سنة ٣٦٠هـــ. ولذا عمل "جوهر الصقلي" على تخفيف ذلك القحط بأن أنشأ مخزنًا للحبوب عهــد برقابتــه إلــى المحتسب الذى جعلت مهمته منع احتكار الحبوب. وعلى مدار حكم الفاطميين لمصر والــذى امتد منذ عام ٣٥٨هـــ (٩٦٩م) إلى سنة ٥٦٧هـــ (١٢٧٨م) أمكن رصد العديد من الأزمات، وسنشرح فيما يلي الأزمات التي حدثت في مصر خلال العصر الفــاطمي، وقــد استقــصينا أخبارها وأسبابها ومظاهرها من المصادر المتعددة.

جدول (١) : الأزمات البيئية التي حدثت في مصر خلال العصر الفاطمى

السنة الهجرية	اسم الخليفة الذى حدثت الأزمة في عهده	أسباب الأزمة وأهم أحداثها
٣٧٢ - ٣٧٣هـ	العزيز	توقف النيل واضطربت الأحوال واشتد الغلاء عام ٣٧٣هـ وبلغ ثمن حملة الدقيق أحد عشر دينارًا[(١)] واقترن بهذا وباء عظيم هلك فيه عالم من البشر.
٣٨٧هـ	الحاكم بأمر الله	قصر النيل وقل القمح وانتهى سعر الخبز إلى أربعة أرطال بدرهم[(٢)].
٣٩٥هـ	الحاكم بأمر الله	توقف النيل حتى كسر الخليج آخر مسرى والماء على خمسة عشر ذراعًا وسبع أصابع وانتهت الزيادة إلى ستة عشر ذراعًا وارتفعت الأسعار وصحب ذلك ظهور أزمة نقدية سد بها انخفاض سعر الدراهم الفضية ورغبة الناس فى تجنب التعامل بها[(٣)].
٣٩٦هـ	الحاكم بأمر الله	بعد انتصار أتباع الثائر "أبى ركوة" ساروا إلى الفيوم فاشتد الاضطراب فى مصر وانتشر الذعر فى النفوس وتأثرت الأسواق وارتفعت الأسعار. إلا أن الغلاء لم يدم طويلاً بسبب ما اتخذته الحكومة من إجراءات سريعة حاسمة مع التجار، كما أن ابتعاد خطر الثوار ولد الثقة فى النفوس وهدأت الخواطر[(*)].

---

(١) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٤٠، جـ ١، ص٣٠ - ٣١.

(٢) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، جـ١، ص ١٤ .

(٣) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، جـ١، ص١٤. لهذا الحادث أهمية فالحقيقة أن الحياة الاقتصادية أشبه بمقياس الحرارة الشديد الحساسية لأنها تتأثر بأقل الأحداث السياسية التى تحدث ذعرًا في النفوس تكون له أسوأ النتائج وفى حياتنا الاقتصادية اليوم تتأثر بورصات الأوراق المالية وغيرها بأقل الهزات السياسية.

٣٩٧هـ	الحاكم بأمر الله	زاد انحطاط سعر الدراهم ورفض الناس قبولها فارتفعت أسعار السلع بالنسبة إليها، ثم قصر النيل حتى انتهت الزيادة إلى ثلاثة عشر ذراعًا وأصابع، الأمر الذي ساعد على اشتداد موجة الغلاء حتى بلغ الدقيق كل حملة بدينار ونصف والخبز ستة أرطال بدرهم. ثم توقف النيل عن الزيادة فارتفع سعر الحملة إلى ست دنانير والتليس من القمح أربع دنانير والأرز كل ويبة بدينار ولحم البقر كل رطل ونصف بدرهم والضأن كل رطل بدرهم والبصل عشرة أرطال بدرهم والجبن ثمان أواق بدرهم وزيت الأكل ثمان أواق بدرهم وزيت الوقود رطل بدرهم[1].
٣٩٨هـ – ٣٩٩هـ	الحاكم بأمر الله	بلغ النيل أربعة عشر ذراعًا وكسر الخليج سنة ٣٩٩هـ والماء على خمسة عشر ذراعًا[2].وقال يحيى بن سعيد إن ماء النيل نقص حتى إنقطع سير المراكب فى البحر الشرقى من
		تنيس ومن المحلة وصار مخائض وحدثت مجاعة اقترنت بوباء أتلف خلقًا كثيرًا من الناس[3].
٤٠٣هـ	الحاكم بأمر الله	ارتفع السعر وازدحم الناس على الخبز[4].
٤٠٨هـ		زاد النيل زيادة كثيرة وغرق من الضياع كثير بأهلها ودخل الماء القاهرة وكان الناس يفرون منها[5].
٤١٤هـ –	الظاهر	ارتفع السعر وتعزر وجود القوت واشتد الغلاء وكثر نقص النيل وقلت البهائم كلها حتى بيع الرأس من البقر

---

[1] المقريزى، إغاثة الأمة بكشف الغمة، جـ ١، ص١٥ – ١٧.

[2] يحيى بن سعيد، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت، طبعة ١٩٥٩، ص١٩٣.

[3] ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ ١، طبعة بولاق، القاهرة، ١٣١١هـ، ص٥٥.

[4] المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جـ ١، ص٢٠٧.

[5] يحيى بن سعيد، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ص ٢٢٣ .

١٥هـ		بخمسين دينار وفشت الأمراض وكثر الموت وعـرض الناس أمتعتهم فلم يوجد من يشتر بهـا وكثـر ضـجيج العسكر وتحدث الوزراء وغيـرهم بمـصادرة التجـار وخرج الحاج فقطع عليهم الطريق[1] علـى مـا ذكـر "المقريزى" في كتابه (الخطط جـ١، ص ٣٥٥) .
٤٤٤هـ	المستنصر	قصر "النيل ولم يكن بالمخازن شئ بسبب مـا سـبق أن عمله الوزير اليازورى من بيع ما فيها من الغلال وقـد وصل سعر التليس من القمح ثمانية دنانير[2].
٤٤٥هـ - ٤٤٧هـ	المستنصر	روى بن أبى أصيبعة أن الغلاء بدأ عام ٤٤٥هـ ونقص النيل فى السنة التالية وتبعه وبـاء عظـيم اشـتد عـام ٤٤٧هـ حتى قيل إن السلطان (يقصد الخليفة المستنصر بالله) كفن من ماله ثمانين ألـف نفـس وحـصل مـن المواريث مال جزيل[3].
٤٤٨هـ	المستنصر	حدث فى هذه السنة قحط وغلاء[4].
٤٥٧هـ	المستنصر	وهذا ما أطلق عليه الكتاب عبارة "الـشدة العظمـى" أو "الغلاء الكبير" وقد دامت هذه الأزمـة الطاحنـة سـبع سنوات، وقد آثرنا أن نتحدث عنها فيما بعد بالتفصيل لما لها من أهمية وخطر.
٤٨١هـ	المستنصر	هلك الزرع والغلات والمخازن من كثرة الماء[1].

(١) المقريزى، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جـ١، ص٣٥٤ ويجعل أبو المحاسن هذا الحادث عام ٤١٧هـ ، ويظهر أن السبب الأكبر فيه كان فناء ذوات الأربع كما يدل على ذلك تحريم ذبح الأنواع السليمة من الماشية (انظر النجوم الزاهرة جـ٤ ، ص ٢٥٢ فى حوادث هذه السنة).

(٢) المقريزى، إغاثة الأمة بكشف الغمة، جـ ١، ص ١٨ - ٢٠.

(٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأبناء في أخبار الأطباء، جزءان، القاهرة، ١٩٤٠

(٤) أمين سامى باشا، تقويم النيل، القاهرة، ١٩٣٨، ص٢٨.

٤٩٠هـ	المستعلى	كان بمصر غلاء وجوع[٢] ودام الأمر ستة أشهر وسبب ذلك أن النيل بلغ في الزيادة خمسة عشر ذراعًا وتسع أصابع ثم هبط فشرقت البلاد[٣] أى لم تتمكن الأراضى كلها من أن تروى إلى الحد الكافي.
٤٩٢هـ	المستعلى	عم جميع البلاد وباء ومات بمصر خلق عظيم[٤] . إلا أن المقريزى يذكر أنه حدثت فى عهد الآمر وفى وزارة الأفضل أزمة وبيع القمح كل مائة أردب بمئة وثلاثين دينارًا[٥] ومعنى هذا أن الأزمة حدثت بعد عام ٤٩٥هـ إذ امتدت خلافة الآمر من سنة ٤٩٥هـ إلى ٥٢٤هـ.
٥٣٦هـ	الحافظ	غلت الأسعار وعدم القمح والشعير فى شعبان وبلغ القمح ٩٠ درهمًا للأردب والشعير سبع دراهم للأوقية والدقيق ١٥٠ درهمًا للحملة والزيت الطيب ثلاثة دراهم للرطل وكثر الوباء والموت[٦].
٥٣٧هـ	الحافظ	قال ابن القلانسى "وردت الأخبار من مصر يعظم الوباء فى الإسكندرية والديار المصرية بحيث هلك هناك الخلق العظيم[٧].
٥٤٣هـ	الحافظ	بلغت زيادة النيل تسعة عشر ذراعًا وأربع أصابع[١]

[١] أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، ١٩٣٥، ص ١٢٤.

[٢] السيوطي، "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"، القاهرة، جزءان، ١٣٢٧هـ ص٣٧.

[٣] ابن إياس . "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، مرجع سبق ذكره، ص٦٣.

[٤] السيوطي، "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"، مرجع سبق، ص٣٩.

[٥] المقريزي، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، مرجع سبق ذكره جـ ١، ص ٢٧.

[٦] السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ص ٨٥.

[٧] أمين سامى باشا، تقويم النيل، جـ١، ص ٢٨.

وهذا ما ذكره المقريزى نقلاً عن "ابن ميسر" إلا أن السيوطي فى "حسن المحاضرة" جعل ذلك فى سنة ٥٤٤هـ[٢].		
ذكر "ابن القلانسي" فقال أنه وردت الأخبار بفناء عظيم فى دمياط لا مثيل له بحيث أحصى المفقود منهم فى السنتين بأربعة عشر ألفا[٣] ويظهر أن الوباء كان محليًا أي في هذه الجهة وحدها.	الظافر	٥٤٥ - ٥٤٦هـ
وكان ذلك فى وزارة الصالح طلائع بن زريك لقصور ماء النيل عن الوفاء وبلغ ثمن أردب القمح خمسة دنانير[٤]. ولم يحدثنا المقريزى عن السنة التى حدث فيها هذا الغلاء ونرجح أنها ٥٥٤هـ إذ فيها بلغت زيادة النيل خمسة عشر ذراعاً وأصبع[٥].	الفائز	٥٥٤هـ
عظمت زيادة النيل وبلغ ثمانية عشر ذراعًا وثلاثة عشر أصبعًا فسقطت الجدران وغرقت البساتين وفارت الآبار[٦].	العاضد	٥٥٩هـ

لعل من أبرز الأزمات التى لم تر مصر الفاطمية مثيلا لها من حيث قوتها وطول مدتها هى "الشدة العظمى" التي لقبت بهذا المسمى لهذا السبب والتى سوف نتناولها بالعرض التفصيلي نظرًا لما تمثله من دراسة حالة لإحدى الأزمات المدوية والمؤثرة تأثيرًا بالغًا فى أحوال هذا العصر والتى نعرض لأهم أسبابها البيئية سواء الطبيعية أو البشرية والتى تضافرت معًا لتشكل سويًا التركيبة الرئيسية لهذه الأزمة والتى نادرًا ما نجد لها مثيل من حيث الترابط

---

(١) المقريزى، إغاثة الأمة بكشف الغمة، جـ ١، ص٩٧.

(٢) أمين سامى باشا، تقويم النيل، جـ١، ص ٢٨.

(٣) أمين سامى باشا، تقويم النيل، جـ١، ص٢٨.

(٤) المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٢٩.

(٥) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، ص٢٣١.

(٦) أمين سامى باشا، تقويم النيل، جـ١، ص ٢٨ نقلاً عن كوكب الروضة.

القوى والتشابك الواضح من بين عناصرها المختلفة وهو الأمر الذى أدى إلى تضخم هذه الأزمة وطول مدتها وعظم تأثيرها مقارنة بالأزمات الأخرى حيث أطلق عليها "الشدة العظمى" أو "الشدة المستنصرية".

ثانيًا: التحليل التفصيلي للأزمات والمجاعات فى عهد المستنصر بالله (الشدة المستنصرية):

وصف المؤرخون هذه الأزمة بأنها من أعنف الأزمات التي لم تر لها البلاد مثيلاً فى العصر الفاطمى كله، وروعت الناس وجثمت على صدورهم ككابوس مخيف وراعت أخبارها كل من كتب عنها من المؤرخين، حتى أطلق عليها الكثيرون اسم "الشدة العظمى" وأفاضوا فى وصفها وبيان أسبابها. وقد بدأت هذه الأزمة بقصور النيل وكان فى الإمكان أن تمر كغيرها دون أن يصحبها ذلك البلاء العظيم الذي ينم عن قسوتها وعنفها برغم ما قد يبدو على أوصاف الكتاب من طابع المبالغة. إلا أن فساد الأحوال السياسية والانقسامات والفتن الداخلية كان العامل الأكبر فى تفاقم الأزمة واتساع نطاق خطرها وطول مدتها.

فى ظل الحكومات المطلقة حيث يتوقف كل شئ على إرادة الحاكم يصبح البلاط مركز النشاط ويتهافت كل فرد على نيل رضاء الحاكم بشتى الوسائل - مهما ابتعدت عن مبادئ الخلق القويم وطريق الشرف والكرامة - ولهذا كان قصر "المستنصر" جوًا من الدسائس يحيكها الأمراء والقواد ورجال البلاط والخصيان وأهل الخليفة من الرجال والنساء وغير هؤلاء، ولم يكن لهذا الخليفة من الحزم وقوة الشخصية ما يجعله قادرًا على كبح جماح أصحاب الأطماع ومدبرى الفتن. وليس هناك أدل على الفوضى واختلال الأمر وضعف الحكومة المركزية من أنه ولى الوزارة أربعون وزيرًا في تسع سنوات[١] وكان البعض منهم يصرف بعد أيام قلائل بل بعد يوم واحد من تقليده هذا المنصب[٢].

كما أحاط "المستنصر" نفسه بحرس أسود كبير العدد وزاد عدد هؤلاء العبيد وتوافرت أسباب النزاع بينهم وبين الجند الأتراك، وتطور النزاع إلى حروب علنية بين الفريقين دامت سنوات وأصبحت البلاد من أقصاها إلى أقصاها مسرحًا للفتن وانقلب تطاحن هؤلاء المرتزقة من العناصر الأجنبية وبالاً على البلاد. وعجز الخليفة عن أن يحول دون اندلاع لهيب الفتنة بل لعل سوء سياسته ساعد على استفحال نارها، فتارة يميل إلى جانب أمه

---

[١] حسن ابراهيم حسن، الفاطميون فى مصر، القاهرة، ١٩٣٥، ص٢٩١.

[٢] ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن أبى حامد واستقرت له الوزارة يومًا واحدًا وصرف بعده.

وعبيدها السودان وأخرى يهادن الأتراك ثم ينقلب عليهم. ولا شك أن الضعف الذي كان يبديه حين اشتداد الأمور أطمع المغامرين فيه.

وبرز في وسط هذا الجو الفاسد شخصيتان لهما أثـر كبيـر فـى إحـداث الفتنـة وتطورها، ونقصد بذلك "أم المستنصر" وكانت فى الأصل جارية من عبيد الـشراء، "وابـن حمدان" الذي تزعم الأتراك. وقد دفع حب الجنس والتماس العون هذه السيدة إلى الإكثار مـن شراء الجنود السود حتى صارت عدتهم خمسين ألفًا وأولتهم عطفها وتأييدها وتشجيعها ولـم يكن لابنها من بعد النظر القدر الذى يسمح له بإدراك العواقب التي تترتب على هذه السياسة. وما لبث زعماء السود أن علا نفوذهم وتحكموا فى الأمور معتمدين على تشجيع أم المستنصر لهم. ولا ريب أن أمرًا كهذا أساء إلى الجند الأتراك واعتقدوا أن الخليفة وأمه يرميـان إلـى إضعاف شوكتهم ثم القضاء عليهم، ورأى زعماؤهم أن نفوذهم يتضاءل تدريجيًا فنشأ الحقـد بين فريقى الجند وتوافرت عوامل الشقاق وأصبحت البلاد أشبه بمخزن بارود كمـا يقولـون تكفى شرارة صغيرة لاحداث الانفجار الهائل

ويبدأ اضطراب الأحوال منذ سنة ٤٤٦هـ حين ارتفع السعر وعم الغلاء وانتـشر الوباء وأخفقت محاولات الحكومة الفاطمية فى الحصول على الغلال من الدولـة البيزنطيـة وتوترت العلاقات بين الدولتين. وظلت الأمور فى ارتباك حتى عام ٤٥٤هـ وهنـا حـدثت الشرارة اللازمة. وقد حدثنا المقريزى[1] أن أحد الأتراك اعتدى وهو سكران على أحد العبيد فحدثت معركة بين جنود الطائفتين انتهت بهزيمة السود، فـشق ذلـك علـى أم المستنـصر واعتبرت الحادث هزيمة سياسية ومقدمة للقضاء على سلطانها، وعزمت على الانتقام وأخذت تمد بنى جنسها بالمال والسلاح سرًا فنمى خبر ذلك إلى الأتراك وتأكدوا مـن صـدقه حـين ضبطوا بعض ما كان يرسل فثارت ثائرتهم، وظنوا أن للخليفة يداً فى الأمر وأغلظوا له القول فأنكر وجود أى تواطئ بينه وبين الجنود السود وكذلك أنكرت أمه ولكن لم يقف الأمر عنـد هذا الحد فتجدد النزاع المسلح بين الفريقين وخرج السود إلى سد ودمنهـور وجـاء عـام ٤٥٦هـ والعداوة شديدة بين الطرفين[2]

ولكن انتصار الأتراك زادهم غرورًا واستهانوا بالسلطة الخليفية في البلاد وطـالبوا بزيادة أرزاقهم. واشتد الضر بخصومهم، وهنا قررت أم المستنـصر أن تـضرب ضـربتها

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جـ١، ص ٣٥١.

(2) راشد النبراوي، حالة مصر الاقتصادية في العصر الفاطمي، ص١٣٥.

وخرج زعماء العبيد فدارت الفتن مرة أخرى وهزم السود وفروا إلى الصعيد، وعاد زعيم الأترك وهو "ناصر الدين حسين بن حمدان" إلى القاهرة وقد عظم أمره وزاد نفوذه فأخذت الأطماع الكامنة فى النفس تتحرك. لذلك يسعى إلى أن يكون صاحب الأمر الفعلي في البلاد ولكن وجد أمامه عقبتين هما أم الخليفة وطائفة السود فرأى أن يتغلب عليهما بأن يستخدم أتباعه حتى يقضى على دولة العبيد ثم ينقلب على سيدتهم فيسلبها سلطانها ويتخلص منها، فإذا تم له ذلك سهل الأمر عليه إذ لن يستطيع الخليفة أن يقف فى وجهه[1].

أما خصومه فلم يقلوا عنه نشاطًا فتجمع من السود خمسة عشر ألفًا في الوجه القبلي وتحصن فريق آخر في الإسكندرية، وبقى قوم فى القاهرة أغرتهم أم الخليفة فوثبوا على الأتراك وقتلوا بعضًا فرأى "ابن حمدان" ألا بد له من أن يقضى على خصومه قبل أن يضربوا ضربة أخرى قد تصيب منه مقتلاً، فنظم أمره وجمع رجاله وطارد السود من القاهرة وأرغم من منهم بالإسكندرية على طلب الأمان وأصبحت السلطة فى الوجه البحرى فى يده ثم عاد إلى القاهرة حيث وجد المستنصر على استعداد لقبول شروطه[2].

وكان لابد له أن يدفع بالخليفة إلى صراع مع الجند أنفسهم فحرضهم على أن يطالبوا بزيادة رواتبهم وارتفع مقررهم من ٤٨٠٠٠ دينار إلى ٤٠٠٠٠٠ دينار، ولكنه يعلم تمام العلم أن الحكومة لن تستطيع مواصلة الدفع على هذا القدر، وقد سادت الفوضى وعم المرض وتعطلت الزراعة بسبب الحرب الأهلية المتواصلة وقل إيراد الحكومة تبعًا لذلك. وقد تحقق ظنه فطلب الجند إلى المستنصر أن يحصل لهم على المال بأى سبيل فاضطر الرجل الضعيف إلى أن يخرج ما فى خزائنه من تحف نادرة وثياب وفرش وسروج وأوان ذهبية وفضية وجواهر وحتى الكتب، وكل هذا بيع بأبخس الأثمان. أما "ابن حمدان" فنظنه فرحًا إذ كل إذلال للخليفة كسب شخصي له وتمهيد الطريق لتحقيق الأطماع. ولكن خطر العبيد ما زال قائمًا في الصعيد فسار إليهم وقتل كثيرًا منهم وزالت دولتهم وتحقق الشطر الأول من سياسة الزعيم المغامر وعاد إلى القاهرة واستبد بالأمر، ودخلت سنة ٤٦١هـ والحال على ما سبقت الإشارة إليه.

ولكن أطماعه نفرت بعض أتباعه منه فانحازوا إلى الخليفة وأنى له أن يتخلص من عدوه، ولكن هناك شيئاً اسمه شجاعة اليأس فاستمد منها "المستنصر" قدرًا وأمر "ابن حمدان"

---

[1] حسن ابراهيم حسن، الفاطميون فى مصر، ص٢٩١.

[2] المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ص٣٧١.

أن يخرج من القاهرة ففعل، إذ رأى التيار يكاد يجرفه ثم جمع من ظل على الولاء له وصمم أن يحارب الخليفة نفسه فقبل "المستنصر" التحدي وتقابل الجمعان وانجلى الأمر عن هزيمة "ابن حمدان" أما كيف حدث ذلك فتفسيره تغير قلوب فريق من الأتراك، كما أن الرجل قد عم أذاه الجميع وفضل الناس والعامة منهم القضاء عليه إذ فى ذلك قطع دابر الفتنة وانتظام الأمور وتيسر سبل المعاش[1].

إلا أن الرجل واسع الحيلة ففر إلى البحيرة وتزوج منهم واستعان بهم وعظمت شوكته ومنع إرسال الأقوات إلى القاهرة. أما الحالة العامة فسيئة بطبيعة الحال فهناك فوضى شاملة والفلاحون يهملون الأرض وقطاع الطريق صاروا رعبًا للجميع، فبدأ الوباء العظيم وانتقل سراعا يساعده عدم توافر العناية والشروط الصحية، فاضطر "المستنصر" أن يصالح "ابن حمدان" فى سبيل الحصول على بعض الأقوات لأهل القاهرة ومصر. ثم فسد الحال وحاصر مقدم الأتراك القاهرة حتى يجيع أهلها ويثأر من انحيازهم قبل ذلك إلى الخليفة ولكن رجال "المستنصر" هزموه فرأى "ابن حمدان" ن يقدم على أمر خطير. لقد عجز حتى الآن عن إقرار الأمور فى يده بصفه ثابتة، إذن فلا مفر له من القضاء على الدولة الفاطمية، وفعلاً خاطب "القائم بأمر الله" في العمل على عودة الديار المصرية إلى حظيرة الخلافة العباسية حتى يكون له من اعتراف "القائم" بهذا الفضل دعامة تضمن له ولاية مصر كلها. ثم توجه إلى القاهرة ودخلها حيث وجد رسوله الخليفة جالسًا على حصير وليس معه سوى ثلاثة من الخدم وقد هزلت أجسام الجميع من الجوع[2] وفى هذه الساعة التى علا فيها نجم مقدم الأتراك لم ينس خصومة أم الخليفة له فقبض عليها وعاقبها أشد عقوبة واستصفى أموالها وكانت هذه الأحداث الأخيرة كلها فى سنة ٤٦٤هـ[3].

وقد رسم "المقريزى" صورة قاتمة لحالة البلاد أمامه تكفى وحدها أن تظهر لنا بعض الأسباب التى أدت إلى هذه النكبة، فقال "لم تر الدولة صلاحًا ولا استقام لها أمر وتناقضت عليها أمورها ولم يستقر لها وزير تحمد طريقته ولا يرضى تدبيره وكثرت السعاية، فيها فما

---

[1] المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ص٣٧٢.

[2] راشد النبراوي، حالة مصر الاقتصادية في عصر الفاطميين، ص١٣٦.

[3] راجع المصادر الآتية عن الأزمة المستنصرية الكبرى: ابن منجب الصيرفى، الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة، ١٩٢٤، ص٥٠ - ٥٣؛ النويرى، نهاية الإرب في فنون الأدب، الجزء ٢٦، ص٦٩؛ المقريزى، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، جـ ١، ص٢٢؛ المقريزى، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جـ ١، ص ٣٣٥-٣٣٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ١، ص٦١.

هو إلا أن يستخدم الوزير حتى يجعلوه سوقهم ويقعوا به الظن حتى ينصرف ولم تطل مدتــه وخالط السلطان الناس وداخلوه بكثرة المكاتبة فكان لا ينكر على أحد مكاتبته. فتقدم منهم كل سفاف وحظى عنده عدة أوغاد وكثروا حتى كانت رقاعهم أرفع من رقاع الرؤســاء والجلــة وتنقلوا فى المكاتبة إلى كل فن حتى أنه كان يصل إلى السلطان كــل يــوم ثمانمائــة رقعــة فتشبهت عليه الأمور وانتقضت الأحوال. ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة وضــعفت قــوى الوزراء عن تدبيرهم لقصر مدتهم وإن الوزير منذ يخلع عليه إلى أن ينصرف لا يضيق من التحرز ممن يسعى إليه عند السلطان وتقف عليه الرجال، فما يكون فيه فضل عن الدفاع عن نفسه فخربت أعمال الدولة وقل ارتفاعها وتغلب الرجال على معظمها. وتجرأوا على الوزراء واستخفوا بهم وجعلوهم خوضا لسهامهم ... فتلاشت الأمور واضمحل الملك[1].

ودامت الأزمة من سنة ٤٥٧هـ إلى ٤٦٤هـ وكانت هذه السنين السبع يمد النيــل فيها ويطلع وينزل فلا يجد من يزرع أراضى مصر من اختلاف العسكر وانقطاع الطرقــات فى البر والبحر إلا بالخفارة الثقيلة، ويرجع هذا الغلاء الشديد في معظمه إلى قــصور مــاء النيل واختلاف الكلمة وانعدام الأمن والحروب الناشئة بين طوائف الجند "وصارت أراضــى الناحية بائرة لم تزرع من عدم الرجال فكان الجندى يخرج بنفسه هــو وجماعتــه يحرثــون ويزرعون في البلاد لعدم وجود الفلاحين"[2].

وهكذا خرج الجند عن تقاليدهم بدافع الحاجة والجوع. وقــد لخــص ابــن منجــب الصيرفى وهو من موظفى الدولة الفاطمية أسباب هذه الأزمة فأوجزها فى هذه العبارة المتزنة المعتدلة "أما العزائم فقد وهنت وأسباب الفساد قد بلغت الغاية وانتهت والمراقبة قــد تــزرت وقلت والمهابة قد تلاشت واضمحلت"[3] ولا ريب أن الرجل أصدق الوصــف ولــم يحــاول المبالغة.

وأن الأسباب التى أوردها الكتاب بصدد هذه الأزمة لتبين لنا مدى العلاقة الوثيقــة بين الحالتين السياسية والاقتصادية وفى الحقيقة لقد أثبت تاريخ مصر فى كافة عــصورها أن فترات القوة والرخاء هى نفسها الفترات التى شاهدت البلاد فيها تقدم الزراعة ونموها.

---

[1] المقريزى، إغاثة الأمة بكشف الغمة، جـ ١، ص٢١ – ٢٣.

[2] ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ١ ، ص ٦١.

[3] بن منجب الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، ص٥٠.

١- مظاهر أزمة الشدة المستنصرية :

كان من أول مظاهر الأزمة ارتفاع أسعار الحبوب والمواد الغذائية ارتفاعًا شديداً . فقد ذكر "النويري" أن رغيف الخبز بيع بأربعة عشر دينارًا أو درهمًا وبيع أردب القمح بمئتي دينار[١] وقال "ابن الزيات" إن ثمن الأردب بلغ إحدى وسبعين دينارًا[٢].

وتجدر الإشارة إلى أن هناك فوارق كبيرة بين التقديرات التى أوردها المؤرخون فالبعض يجعل الدرهم دينارًا، وعلى كل فيجب الأخذ بهذه الأرقام بكثير من التحفظ على حد تعبير الاقتصاديين المعاصرين، كما أن تناقل الروايات واختلاف وجهات نظر الرواة وأخطاء النساخين، كل هذا يفسر لنا تضارب الأرقام واختلاف الأوضاع.

واشتد الارتفاع حتى بيعت البيضة بعشرة دراهم[٣] وأكل الناس الجيف[٤] ووقف الناس فى الطرقات يقتلون من يظفرون به وأكل القوم بعضهم بعضا[٥]. ولسنا نعجب لأمر كهذا فى وقت القحط الشديد. وترجع قلة الأقوات إلى موت عدد كبير من الفلاحين وفرارهم من الحقول بسبب الحروب بين طوائف الجند وصعوبة إرسال الغلال بسبب الفوضى وأخطار الطريق وإهمال الحكومة أمر الترع والجسور، بل نعتقد أن الجند السود حين كانوا بالصعيد منعوا إرسال الغلال إلى القاهرة حتى لا يتقوى خصومهم، وكذلك فعل "ابن حمدان" حين كان له الأمر فى الوجه البحري حتى يجيع أهل مدينتي القاهرة ومصر ويرغم الخليفة على الرضوخ له. وصحب المجاعة وباء أو طاعون قيل إنه أفنى ثلثي أهل مدينة مصر[٦]. حتى أنه كان يموت الواحد من أهل البيت فلا يمضى يوم وليلة من موته حتى يموت سائر من فى

---

(١) النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب"، ص٥٠.

(٢) ابن الزيات، الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى، القاهرة، ١٣٢٥هـ ص ١٧٧.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ص٩١.

(٤) ابن ميسر، أخبار مصر، ص١٩.

(٥) ابن الزيات، الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى، ص١٧٧؛ المقريزى، المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار، جـ١ ، ص ٣٣٧ (راجع قصة امرأة قضي عليها ولدخلت إلى منزل فيه سكاكين وآثار الدماء وقطع أهله شرائح من أفخاذها وكانت على جانب من السمنة ....).

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ٢ ص ٦١ ويبدو من كلامه أن الفسطاط كانت أشد الجهات تأثرًا بالمرض بسبب شدة الازدحام بها، ويحسن أن نشير إلى ما تقول بعض مصادر العصور الوسطى بأوروبا إن الوباء المسمى بالموت الأسود (١٣٤٩ – ١٣٥٠) أودى بحياة نحو نصف سكان انجلترا.

ذلك البيت ولا يوجد من يستولى عليه[1]. وانتشر الجدري بين الأطفال فأهلك منهم نحو ٢١,٠٠٠ فى أقل من شهر واحد[2]، وأخذ بعض من لم تصبه العدوى فى الفرار إلى البلاد الشامية والعراقية[3]، حتى ينجو من موت محتوم ولعل بعض الأغنياء هم الذين عرفوا استغلال هذه الفرصة وكانت نساء القصر تخرجن ناشرات شعورهن تصحن "الجوع ! الجوع!" تردن المسير إلى العراق فتسقطن عند المصلى بسبب الهزال الشديد وتمتن جوعاً[4].

أما الأمن فقد اختل إلى حد كبير ومدت الأجناد أيديها إلى النهب والسلب وتهيأت الفرصة أمام الأشرار وقطاع الطرق وفقراء البدو، ولم يتورع أحد عن الاعتداء على غيره. أما السبل وطرق المواصلات بالبر والنيل فانقطعت بسبب تعرض المسافرين وغيرهم لاعتداء الجند واللصوص، وخربت أحياء بأكملها فى الفسطاط وحرقت دور كثيرة بها وتعطلت التجارة والصناعة.

٢- مواجهة الفاطميين للأزمات البيئية:

وأخيرًا ارتفع النيل وروى الأرض وانحل السعر وزال الكابوس الذى خيم على أنفاس البلاد فى تلك السنوات السبع العجاف وقتل "ابن حمدان" على يد بعض خصومه ولابد أن هذا حدث بعد أن انتهت موجة الوباء. وقد دفع اليأس وسوء الحال بالخليفة "المستنصر بالله" فاستدعى "بدر الجمالى" من فلسطين ولم يمض زمن طويل على وصوله وتوليه الوزارة حتى عاد الرخاء تدريجيًا، إذ ضرب الوزير الجديد على أيدى دعاة الفتنة وعناصر الشر والفساد بيد من حديد وأعمل القتل فى قادتهم والتشتيت فى عامتهم وخلص الوجه البحرى من العرب والصعيد من السودان. وراعى الفلاحين وخفف من أعبائهم فهدأت الحال واستقرت الأمور وعاد الفلاح المصرى الذى خرج سالمًا من الأحداث الماضية إلى استئناف العمل بالحقل ومزاولة الزراعة. وأخذت البلاد من جديد تستقبل عهداً من الرخاء دام نصف قرن، وقيض "للمستنصر" أن تكون العشرون سنة الباقية من عمره وخلافته الطويلتين سنوات هدوء وسلام بعد العواصف والأنواء السابقة.

---

[1] المقريزى، الوقائع والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جـ ١، ص ٣٣٦ – ٣٣٧ .

[2] Abu Saleh: (1959) *Churches and Monasteries of Egypt*, Oxford, p. 232.

[3] السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ص٩٢.

[4] المقريزى، إغاثة الأمة بكشف الغمة، جـ ١، ص ٢٥.

وهنا يثار تساؤل لماذا لم يقم الشعب بالثورة للتخلص من الفتن والمنازعات بين الزعماء؟ ويمكن إرجاع ذلك إلى قوة النظام الذى يقرب من الاسترقاق، وحرص سكان المناطق الزراعية السهلة على الهدوء فى غالب الأحيان، والرعب الذي أثاره في نفوسهم، والضعف الشديد المترتب على الأمة ونكباتها وكذلك العقيدة فى الأحداث القدرية، فضلا عن أن تلك الأزمات والنكبات كانت شيئًا شبه عادى مألوف فى هذا العصر والذى شهد أزمة بمعدل كل تسع سنوات.

ثالثًا: الآثار السياسية والاجتماعية والاقتصادية للأزمات البيئية (الشدة المستنصرية):

كان لهذه الأزمة الطاحنة آثار سياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها، وإن هذه الآثار كانت بعيدة الغور متشعبة النواحى ويمكن إيجازها فى الآتي:

- عجز الخليفة "المستنصر" ألجأه إلى الاستعانة "ببدر الجمالي" ثم أطلق يده فى تدبير الأمور، وبذلك بدأ عصر جديد يعرف باسم "عصر الوزراء العظام" الذين أصبح بيدهم الأمر كله ولم يدعوا للخلافة فى أغلب الأوقات إلا اسمها، حتى أن الأفضل بن بدر الجمالى اختار للخلافة طفلاً يكون ألعوبه بين يديه[1]. ولا ريب أن انتقال السلطة الفعلية إلى أيدى الوزراء أدى إلى التكالب على هذا المنصب، وأوجد المنافسات والمؤامرات والدسائس حتى انتهى الأمر بالاستعانة بالأجانب. وكان من أثر هذا التدخل أن تمكن "صلاح الدين الأيوبي" من السلطة فقطع الخطبة للفاطميين. ولما مات الخليفة "العاضد" ختم بموته حكم الفاطميين فى مصر. كما أن الضعف الذي انتاب قوى البلاد المادية والحربية والذى جاهد "بدر الجمالي" وابنه من بعده فى علاجه دون نجاح كبير كما كانا يرجوان أضعف قبضة مصر على البلاد الشامية وأهمل الجيش والأسطول فلما بدأت العاصفة الصليبية تهب على الشرق كانت قوة الفاطميين وعظمتهم وهيبتهم الأولى على وشك المغيب وما استطاعوا للنكبة دفعًا، وإن كان لانتصار الصليبيين فى حملتهم الأولى لأسباب أخرى.
- أودى وباء الطعون بحياة الألوف من الأهلين في ريف مصر ومدنها وكان لابد من انقضاء وقت طويل حتى تعود الحياة فى البلاد سيرتها الأولى. وقد انتقلت ملكية مساحات واسعة من أراضى المالكين إلى بيت المال لهلاك أربابها وانعدام ورثتهم فزادت مساحة أراضى الحوز على الملكية الخاصة، وحدث تعديل فى نظام إقطاع هذه الأراضي فأصبحت ابتداء

---

[1] حسن إبراهيم، الفاطميون في مصر، ص٦٣.

من أيام الوزير "المأمون البطائحي" تمنح لمدة ثلاثين سنة بعد أن كان الأمر قاصرًا على أربع سنوات. وأصبح أغلب المقطعين من الأمراء والأجناء وكبار الموظفين من أصحاب الرواتب الثابتة[١]

- تضاءلت إيرادات الحكومة خلال سنوات الأزمة ولما انتهت كانت هناك مبالغ طائلة لم تدفع إلى بيت المال. يضاف إلى هذا أن النكبة التى أصابت الزراعة واستمرت آثارها زمناً طويلاً كان لابد أن تؤدى إلى نقص إيراد الضرائب العقارية ولهذا نعتقد أن حكام مصر فى العصر الفاطمي الأخير أخذوا يزيدون من الضرائب غير المباشرة أى المكوس بلغة ذلك العصر[٢].

وقد بدأ خراب مدينة الفسطاط منذ ذلك الوقت بسبب ما تعرضت له من الحصار أيام ثورة "ابن حمدان" ومات عدد كبير من أهلها وخربت أجزاء منها كالقطائع وخط جامع ابن طولون[٣] وتقهقر نشاطها التجاري واضمحلت كثير من صناعاتها، ومنذ ذلك الوقت أخذت القاهرة تجتذب النشاط إليها وتستعد للدور الذي أصبحت فيه فيما بعد العاصمة السياسية والتجارية والصناعية للديار المصرية.

منيت مصر بأكبر الخسائر أثناء "الشدة العظمى" وهى تلك النفائس التي أخرجت من قصور "المستنصر" مما رواه مؤلف "كتاب الذخائر" وحفظه لنا "المقريزى" حتى يكاد العقل يقف حائرًا أمام جسامة ما نهب من القصور على يد الجنود الأتراك وزعيمهم "ناصر الدولة" حتى عجز الرواه عن إحصاء ما نهب أو بيع صوريًا من خزائن الكسوات والفرش والأمتعة والطيب والجوهر والسروج.

ولنضرب لذلك مثلاً ذكره "المقريزى" في "كتاب الذخائر" وحدثني من أثق به عن "ابن عبد العزيز الأنماصى" قال قومنا "أخرج من خزائن القصر من سائر الخسروانى ما يزيد على خمسين ألف قطعة أكثرها مذهب وسالت "ابن عبد العزيز" فقال أخرج من الخزائن ما حررت قيمته على يدى ويحضرنى أكثر من مائة ألف قطعة وأخرج مرتبة خسروانى حمراء بيعت بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار ومرتبة قلمونى بيعت بألفين وأربعمائة دينار ونيف وعشرين ألف قطعة خسروانى، وكانت قيمة العرض المبيع بأقل القيم وأبخس الأثمان فى مدة

---

[١] حسن إبراهيم، الفاطميون في مصر، ص ٦٤.

[٢] المقريزى، المصدر السابق، جـ١ ، ص ٨٣.

[٣] ابن الزيات، الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى، ص ١٧٧.

خمسة عشر يومًا من صفر سنة ستين وأربعمائة سوى ما نهب وسرق ثلاثون ألف ألف دينار قبض جميعها الجند الأتراك ليس لأحد منهم درهم واحد قبضه عن استحقاق[1]، وفقدت آلاف القطع من البلور والخزف والزجاج والحلى والأوانى الذهبية والفضية.

وبغض النظر عن عنصر المبالغة فقد فقدت البلاد ثروة ضخمة أهم ما فيها الناحية الفنية التى كانت كفيلة أن تلقى الضوء على عظمة البلاد الصناعية ومهارة الفنانين المصريين فى ذلك العصر ، أما من الناحية العلمية فالخسارة أكبر من أن تعوض وفقدت مصادر قيمة من المؤلفات والسجلات الرسمية مما كان يصبح مادة لا تنفد لمن يكتب عن هذا العصر . إذ استولى الجند والأمراء على نفائس ما فى خزانة الكتب فتفرقت أكثر محتوياتها وكان بعض العبيد يتخذون من جلودها نعالاً يلبسونها في أرجلهم، كما كانوا يحرقون ورقها قائلين إن فيها كلام المشارقة الذى يخالف مذهبهم وأهمل من الكتب عدد كبير سفت عليه الرياح التراب فصار تلالا كانت باقية فى زمن "المقريزى" وكانت تسمى تلال الكتب؛ وهذا أبلغ تعليق على هذه الخسارة الفادحة أو أفصح رثاء لها.

رابعًا: سياسة الفاطميين إزاء احتواء الأزمات البيئية:

لم تقف الحكومة الفاطمية ساكنة أمام الأزمات بل كانت تتخذ أشد الإجراءات وأجداها نفعًا ووقف موجة الغلاء وتوفير الأقوات حتى لا ينتشر القحط والوباء.

ويظهر أنها كانت تعتقد أن تجار الغلال وسماسرتها هم الطبقة المسئولة إلى حد كبير عن ارتفاع الأسعار، وبعبارة أخرى كانت تعد أسباب الغلاء فى كثير من الحالات غير طبيعية بل من فعل المختزنين والمحتكرين، ولذا لم تتوان من أخذهم بما كانوا يستحقون من العقاب الصارم فقد ضرب "جوهر الصقلي" جماعة من الطحانين وأمر أن يطاف بهم[2] فى أسواق المدينة للتشهير بهم. وفعل الخليفة "الحاكم بأمر الله" الشئ نفسه مع الطحانين والخبازين[3] وحذا حذوه غيره من الخلفاء والوزراء. ولم يقف الأمر عند الضرب والتشهير بل إن الحاكم بأمر الله توجه إليه الناس يشكون من اختفاء الأقوات فأعلن أنه متوجه فى الغد إلى جامع راشدة، فإذا لم تخرج الغلال من مخازنها ضرب عنق من كان لديه شئ منها فأنفذ

---

[1] المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جـ ١، ص٤١٦.

[2] المقريزى، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، جـ١، ص١٣-١٤.

[3] المقريزى، إغاثة الأمة بكشف الغمة، جـ١، ص١٦.

الوعيد وسارع التجار والسماسرة إلى خراج ما لديهم وهبطت الأسعار وانتهب المحنة بسلام[1]

ومن الوسائل التى اتخذتها الحكومة الفاطمية لمكافحة الغلاء تسعير الاقوات والسلع الضرورية وتحتيم بيعها في بعض أوقات الأزمات في مكان معين تحت الإشراف الدقيق من جانب المحتسب وأعوانه[2]. وكثيراً ما لجأ الفاطميون إلى المصادرة وتنظيم بيع الغلال، ففي أزمة سنة ٣١٧هـ برزت الأوامر "لمسعود الصقلي" متولى الستر فجمع مخزون الغلال وصادر ما في الساحل منها وأمر ألا تباع إلا للطحانين وسعر القمح كل تليس بدينار إلا قيراط والشعير عشر ويبات والحطب عشر حملات بدينار وسعر سائر الحبوب والمبيعات[3]. وكانت مصادرة الغلال إجراءً سليمًا لا غبار عليه في سبيل راحة المستهلكين وقد هدد بها الوزير "المأمون البطائحي" في خلافة الآمر أن لم يهبط السعر إلى كل مائة أردب بمائة وثلاثين دينارًا.

وفي عهد الخليفة المستنصر بالله أخرج اليازوري ما في الأهراء من الغلال وأمر ببيعها بسعر منخفض مما أدى إلى هبوط الأسعار في السوق. وكان هذا العمل خطأ من جانب "اليازوري" فلما حدث القحط لم يكن بالمخازن إلا جرايات من في القصور ومطبخ السلطان أي الخليفة وحواشيه[4] فلجأ إلى الإمبراطور قسطنطين مونوماخوس "Constantine Monamachos" واتفق معه على أن تصدر الدولة البيزنطية إلى مصر مليوني بوشل[5] من القمح لمواجهة هذه الأزمة التي دامت حتى مات الإمبراطور عام ٤٤٧هـ ، وخلفته الإمبراطورة "تيودورا" التي اشترطت اشتراك مصر وبيزنطة في معاهدة دفاعية هجومية فأبى اليازوري بأن يرتبط بعهد كهذا[6] يعرض مركز البلاد لارتباكات خطيرة، كما أن حاجة مصر إلى القمح ليست دائمة بل متعلقة بالسنة التي كان فيها هبوط النيل دون المستوى العادي. وإزاء هذا الرفض أوقفت الامبراطورة تصدير الغلال إلى مصر.

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ١، ص ٥٥.

(2) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، جـ١، ص ١٣- ١٦.

(3) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، جـ ١، ص ١٦ – ٢٧.

(4) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، جـ ١، ص١٨.

(5) البوشل يساوى ٢,٢ كيلة.

(6) O'Leary: (1978) *A Short History of the Fatimi Caliphate*, London, p. 197.

ويظهر أن "اليازوري" أراد استئصال جذور الشر فاتخذ إجراءً جديدًا بقصد سد الطريق على المحتكرين والمضاربين من التجار والسماسرة الذين كانوا ينتهزون فرصة إعسار المعاملين من الزراع والفلاحين وضيق الحال عليهم فى القيام للديوان بما عليهم من الخراج فيشترون منهم غلاتهم قبل أوان الحصول بسعر فيه ربح لهم فإذا صارت الغلال فى البيادر حملها التجار إلى مخازنهم فأصدر الوزير الأوامر بمنع ذلك. وكتب إلى عمال النواحى باستعراض روزنامجات الجهابذة وتحرير ما قام به التجار عن المتعاملين وغير هذا ثم بعث المراكب لإحضار الغلال إلى مصر ووضعها فى المخازن السلطانية[1] لأنه يعلم من تجاربه الماضية ضرورة الاحتياط ضد الطوارئ المستقبلة. وقد اتخذ إجراء آخر لعله سابقة لتقييد الاستهلاك وتنظيم هذه العملية حتى لا يتلاعب بها البعض فخصص سبعمائة تليس من القمح يوميًا لمدينة مصر وثلاثمائة تليس للقاهرة[2] وبذا تمكن من التغلب على الأزمة التى نشبت ودامت حتى أوان ظهور المحصول الجديد. وكانت الأهراء الحكومية عاملاً من عوامل مكافحة الأزمات، ففي أيام الخليفة الفائز أخرجت منها مقادير لا تحصى من الغلال وفرقت على الطحانين ورخصت أسعارها ومنع الاحتكار[3].

وعمل الفاطميون أيضًا على حماية الماشية فقد ذكر "أبو المحاسن"[4] أنه لما وقع الفناء فى ذوات الأربع سنة ٤١٧هـ منع الخليفة "الظاهر لإعزاز دين الله" ذبح الأبقار السليمة من العيوب التى تصلح للحرث وغيره والمخصوصة لعمارة الأراضى والمذللة لمصالح الخلق فإن فى ذبحها غاية الفساد وإضرارًا للعباد والبلاد وأباح ذبح مالا يصلح للعمل ولا يحصل به النفع.

وإذا استثنينا حوادث الغلاء وكان السبب الأكبر فى كثير منها قصور النيل عن الوفاء أو ارتفاع الفيضان إلى حد الإفراط وهى ظروف ما كان لهم فى ذلك العصر أن يتنبأوا بها أو يدفعوها، ألفينا السياسة الفاطمية بوجه عام اتجهت إلى العناية بالرى والزراعة.

بعد أن استقر الأمر "لجوهر الصقلي" ونجح في القضاء على فلول المقاومة ومكافحة الغلاء الذي طغى على البلاد بعد موت "كافور الاخشيدي" أخذت الأحوال فى الانتظام. ولما

---

[1] المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة، جـ ١، ص٢٠ – ٢١.

[2] المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، جـ ١، ص٢٢.

[3] المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، جـ ١، ص٢٥١.

[4] أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، ص٢٥٢.

انتقل "المعز لدين الله" إلى قاعدة الملك الجديد نظم الإدارة المالية أو جباية الخـراج بمعنـى أوضح، وعنى هو ومن بعده بعمارة الجسور وتطهير الترع وتأمين الـزراع. ولا ريـب أن انتشار الأمن كان سببًا هامًا في تقدم الزراعة، ويشهد بذلك أن الخراج حتى نهايـة عـصر "الحاكم بأمر الله" تراوح بين ثلاثة وأربعة ملايين دينار[1].ونفذت حكومة الخليفة "الحاكم بأمر الله" مشروعًا كان له الأثر العظيم فى تسهيل الرى والمواصلات، ذلك أنه فى عام ٤٠٤هـ طهر خليج الإسكندرية بعد أن طمس تقريبًا خاصة في قسمه الأول عند خروجه مـن فـرع رشيد وبلغ ما أنفقته الحكومة على هذا العمل خمسة عشر ألف دينار[2] واستفادت مـن هـذا العمل منطقة كبيرة في مديرية البحيرة إذ كان الخليج يغذي عددًا كبيرًا من الترع أورد "ابـن مماتي" أسماؤها في كتابه "قوانين الدواوين". وكانت حالة البلاد كذلك في رخاء وسعة عـيش في صدر خلافة "المستنصر" كما يدل على ذلك الوصف الذي خلفه لنا "ناصر خسرو" الـذي زار مصر عام ٤٣٩هـ حتى كان كل امرئ مطمئنًا على حياته وماله.

تدل عبارته على نظرة الحكومة إلى الفلاحين، فيقول "ناصر خسرو" "ولمـا انتهـى إلينا حال العاملين والضمناء والمتصرفين وما فى جهاتهم من بقايا معاملاتهم أمرنا بما تضمنه هذا السجل من المسامحة قصدًا في استخلاص ضامن طالت غفلته وخربت ذمته وإنقاذ عامل أجحف به من الديوان طلبته وتوفر الرغبة على عمارتها وجريها فيها على قديم عادتها، ولما كان ذلك من جميل الأحدوثة التى لم نسبق إليها ولا شاركنا ملك فيها اقتضت الحال إيرادهـا فى هذا الكتاب وإيداعها في هذا الباب لما أطلعنا عليه مما انتهـت إليـه أحـوال الـضمناء والعاملين بالمملكة من الاختلال وتجمد البقايا فى جهاتهم والأمـوال عطفنـا علـيهم برأفـة ورحمة، وطالعنا المقام الأشرف النبوى بالتفصيل من أمورهم والجملة واسـتخرجنا الأمـر العالى بوضع ذلك فى الحال وإنشاء السجلات الكريمة مقصورة على ذكر هـذا الإحـسان، وتنفيذها إلى جميع البلدان ليقرأ على رؤوس الاشهاد بسائر البلاد ومبلـغ مـا انتهـت إليـه المسامحة إلى حين ختم هذا السجل من العين ألفا ألف وسبعمائة ألف وعشرون ألفا وسبعمائة وسبعة وستون دينارًا ونصف وثلث وثلثان وربع قيراط ومس الفضة النقرة أربعة دراهم ومس

---

[1] أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، ص ٢٥٣.

[2] ناصر خسرو، سفر نامة، ص ١٥٥-١٥٦.

الورق سبعة وستون ألف وخمسة دراهم ونصف وسدس درهم ومن الغلة ثلاثة آلاف ألف وثمان مائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وتسعة وثلاثون أردبًا .. الخ[1].

وقد امتدح الكتاب الأوروبيون سياسة الفاطميين إزاء الفلاحين فقال البعض أن التسامح كان طابع حكمهم[2] وإن معاملة الشعب على أيديهم كانت خيرًا منها على أيدى سواهم[3] من الحاكمين.

وأخيرًا فقد كان الفلاح المصري في عهد الفاطميين يستطيع أن يتصرف في الأرض[4]، ويغير موطن إقامته حسبما شاء. وهنا تبدو أهمية هذا إذ ذكرت حالته في العصرين المملوكي والعثماني فهى رق وعبودية إلى الحد الأقصى، وقد شهد "المقريزى" و"ابن إياس" و"الجبرتي" أن حالة الفلاح المصري كانت دون مستوى العبيد فكان فى استطاعة سيده قانونًا أن يضربه بالسياط أو يحبسه وأكثر من هذا أن يقتله كما كان الحال في ظل حكومة المماليك[5].

الخاتمة:

من العرض السابق يمكن أن نخرج بمجموعة من النتائج الهامة والتى يمكن حصرها في الاتى:

- إن العصر الفاطمى من أكثر العصور تأثيرًا في مصر والذي شهد تحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية كان لها أثرها البارز فى حدوث الأزمات والتى بلغت قرابة ٢٠ أزمة على مدار ١٨٠ عام من عمر الدولة الفاطمية بمصر.
- إن أشد أزمات هذا العصر هى "الشدة المستنصرية" والتي كان من أسبابها الرئيسية فيضان النهر. بالإضافة إلى الفتن والصراعات السياسية، وتردى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وهو ما أسهم فى طول عمر الأزمة واتساع نطاقها وقوة تأثيرها.

---

(1) المقريزى، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جـ١ ، ص٨٣-٨٤.

(2) Stanley Lane-Poole: (1964) *Egypt in the MIddle Ages*, London, p. 157.

(3) R.L. Devonshire: (1960) *L'Egypte Musulmane et les fondateurs de ses monuments*, Paris, p. 48.

(4) A. N. Poliak, "La Feodalite Islamique", *Revue des Etudes Islamiques* (1936), pp. 261-262.

(5) راجع المقريزى، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جـ١، ص١٨٥؛ ابن إياس ، بدائع الزهور جـ٥، ص ٣٧٢ - ٣٧٣؛ الجبرتي عجائب الآثار، جـ٤ ، ص ٦٨.

لم تخلو مصر من الأزمات المختلفة التى يمكن إرجاعها إلى العوامل الطبيعية مثل الفيضانات – الأمطار الغزيرة وما ينتج عنها من سيول– العواصف الريحية والرملية– الزلازل– الأوبئة. ولكن أشدها على الإطلاق الأزمات المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمشكلة الغذاء، وهى أزمات المجاعات نتيجة للأوضاع الاقتصادية والطبيعية التى مر بها المجتمع.

- استطاعت الحكومات الفاطمية أن تحتوى معظم الأزمات البيئية التى تعرضت لها مصر خلال ذلك العصر وذلك عن طريق تسهيل طرق الرى أو العناية بالزراعة أو عن طريق استيراد القمح من الدول المجاورة والتى اعتمدت فى إنتاجها على مياه الأمطار وليست فيضان النهر (الدولة البيزنطية– سوريا).
- استحدثت الأزمات التي مرت بها الحكومات الفاطمية العديد من المناصب الحكومية والتطورات الإدارية وقد تمثل ذلك في بروز منصب المحتسب.
- كانت سياسة الفاطميين ترمى إلى العناية بالفلاحين وعدم إرهاقهم بالضرائب ومعاملتهم معاملة تنطوى على العطف حيث تمتعوا بحرية التصرف فى الأرض وتغيير موطن الأقامة وهو مالم نجده في أي عصر من العصور التالية.
- كانت لأزمة "الشدة المستنصرية" أثرها في بروز نجم الوزراء واستئثارهم بالنفوذ والسلطان، حيث بدأ عصر الوزراء العظام فى الدولة الفاطمية بدءًا من "أبو محمد الحسن الباروديِ" وتبعه "بدر الجمالي" والذي أورث ابنه الوزارة في أول سابقة من نوعها في عصر الدولة الإسلامية.
- لابد من احتواء الأزمات وذلك من خلال إدارة واعية للخروج من الأزمة ويجب الاعتماد على مجموعة من الحلول في مواجهة الأزمات واحتوائها.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر والمراجع العربية:

١- ابن أبي أصيبعة، "عيون الأنباء في أخبار الأطباء"، جزءان، القاهرة، ط٣، ١٩٤٠.

٢- ابن الزيات، "الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى"، القاهرة، ١٣٢٥هـ.

٣- ابن إياس، "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، بولاق، القاهرة، ١٣١١هـ.

٤- ابن منجب الصيرفي، "الإشارة إلى من نال الوزارة"، القاهرة، ١٩٢٤.

٥- ابن ميسر، "أخبار مصر".

٦- أمين سامي باشا، "تقويم النيل"، القاهرة، ١٩٣٨.

٧- السيوطي، "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"، القاهرة، جزءان، ١٣٢٧هـ.

٨- المقدسي، "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، ليدن، ١٩٠٦.

٩- المقريزي، "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار"، لقاهرة، ١٣٧٠هـ.

١٠- المقريزي، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، طبعة مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٤٠.

١١- النويري، "نهاية الإرب في فنون الأدب"، دار الكتب المصرية، الجزء ٢٦، ص٦٩.

١٢- حسن ابراهيم حسن، "الفاطميون في مصر"، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٣٥.

١٣- راشد النبراوي، "حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين"، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٤٨.

١٤- عمر الفاروق السيد رجب، "فصول في جغرافية مصر التاريخية في العصور الوسطى"، جـ١، القاهرة، المنار، ط ٥ ، ٢٠٠٠.

١٥- ناصر خسرو، "سفرنامة" ترجمة يحيى الخشاب، الألف كتاب الثانية، رقم ١٢٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.

١٦- يحيى بن سعيد، "التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق"، بيروت، طبعة ١٩٥٩.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

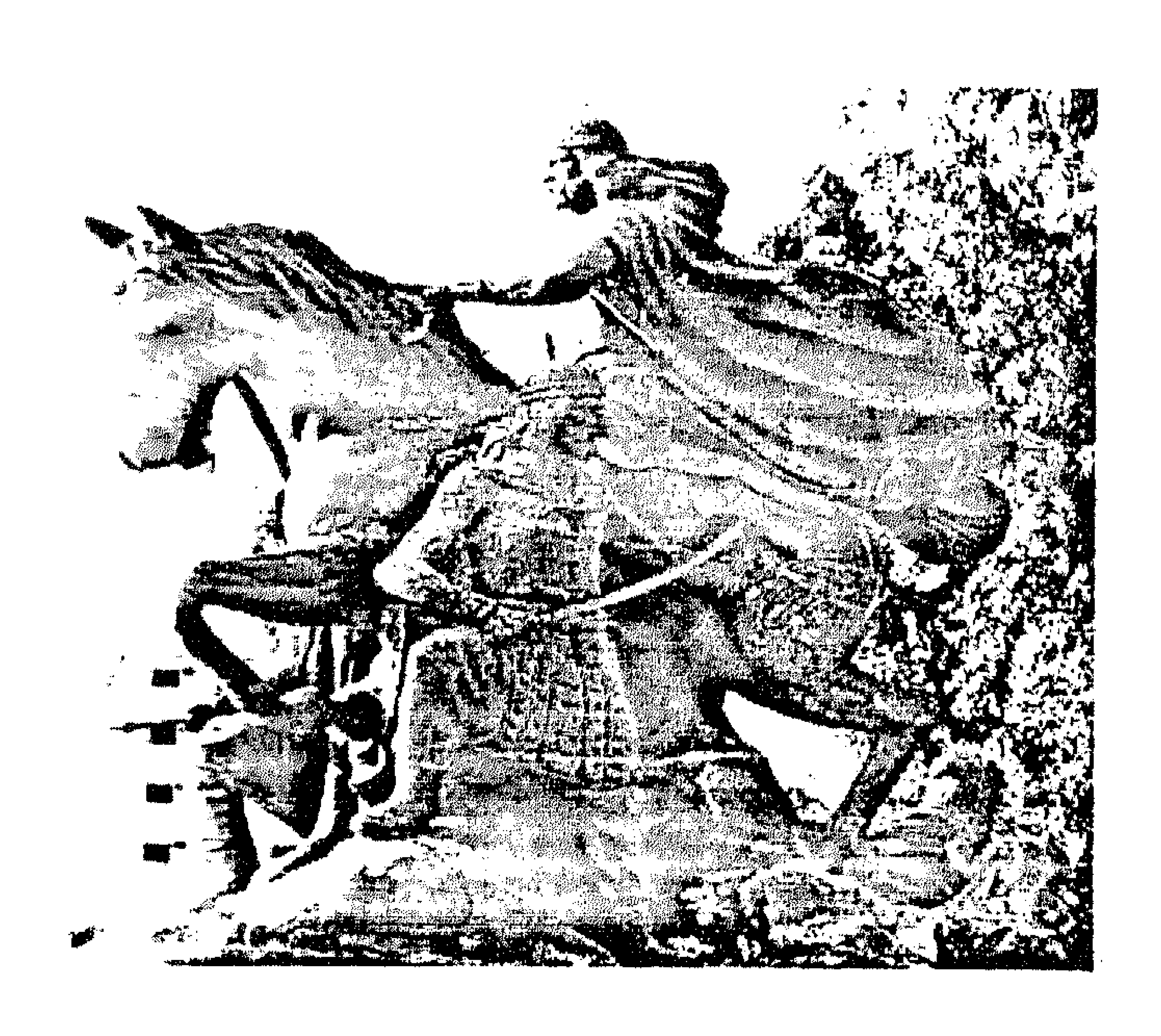
1- Abu Saleh: (1959) *Churches and Monasteries of Egypt*,Oxford.

2- A.N. Poliak:(1986) "La Feodalite Islamique", *Revue des Etudes Islamiques*, Paris.

3- O'Leary: (1978) A *Short History of the Fatimi Caliphate*, London, p. 197.

4- R.L. Devonshire: (1960) *L'Egypte Musulmane et les fondateurs de ses monuments*, Paris.

5- Stanley Lane-Poole: (1964) *Egypt in the Middle Ages*, London, p.157.



الدراسات غير العربية

used as an attribute of saint Gregory the Great, for the dove of the holy spirit perched upon saint Gregory's shoulder while he was writing.[14]

Seven doves surrounding a circle which contains the letter " SS " standing for *spiritu sancti latino* for Holy Spirit represents the seven gifts of the Holy Spirit given in revelation 5 : 12. They are power, wealth, wisdom, strength, honor, glory and praise. A different list of seven gifts from Isaiah 11 : 2, 3 mentions wisdom, understanding, council, might, knowledge, fear of god, and delight of god .

[14] Ferguson , *Signs and symbols*, pp.11-12.

the great basilicas in the fourth and succeeding centuries, it was never found represented without the tower as its complement. [8]

According to Ferguson, the dove in Ancient and Christian art has been the symbol of purity and peace, in the story of the flood the dove was sent out from the ark by Noah brought back an olive branch to show that the water had receded and that god had made peace with man.[9]

In the law of Moses, the dove was declared to be pure, and for this reason it was used as an offering for purification after the birth of a child. Often Joseph carries two white doves in a basket in scenes of the presentation of Christ in the temple: "*And when the days of her purification according to the law of Moses were accomplished, they brought him to Jerusalem to present him to the lord and to offer a sacrifice according to that which is said in the law of the lord, a pair of turtledoves or two young pigeons*". [10]

As an emblem for purity, the dove sometimes appears on the top of Joseph's rod to show that he was chosen to be the husband of the virgin Mary. The dove was also seen by the fathers of saint Catherine of Sinai above her head while she was in prayer.[11]

However, the most important use of the dove in the Christian art, is as the symbol of the holy Ghost which appeared first in the baptism of Christ: "*And John bare record, saying I saw the spirit descending from heaven like a dove and it abode upon him.*" [12]

Seven doves are used to represent the seven spirits of god or the holy spirit in its sevenfold gifts of grace, which refers to the prophesy of *Isaiah*. "*And there shall come forth a rod out of the stem of Jesse and a branch shall grow out of his roots and the spirit of the lord shall rest upon him, the spirit of wisdom and understanding.*"[13]

The dove is also connected with the lives of different saints. It is the attribute of saint Benedict because he saw the soul of the dead sister Scholastic fly up to heaven in the shape of a white dove. The dove is also

---

[8] Arthur, S., Barnes, Transcribed by Michael C. Tinkler, *The Catholic Encyclopedia*, Vol. V Online Edition 1999 by Kevin Knight.
[9] Genesis VIII.
[10] Luke, 2; 22; 24.
[11] Ferguson, G., *Signs and Symbols*, New York, 1954, pp.10-11.
[12] John, 1; 32.
[13] Isaiah, 11, 1.

Occasionally funeral lamps were made in the shape of a dove. Two doves on a funeral monument sometimes signify the conjugal love and affection of the parties buried there.[6]

The dove in flight is the symbol of the ascension of Christ or that of the entry into glory of the martyrs and saints. In the same manner the caged dove signifies the human soul, yet imprisoned in the flesh and held captive during the period of mortal life. In general, the dove as a Christian emblem signifies the Holy Spirit either personally or in His works. It signifies also the Christian soul, not the human.[7]

The Dove as an Eucharistic Vessel:

The reservation of the Holy Eucharist for the use of the sick was certainly since early medieval times, affected in many parts of Europe by means of a vessel in the form of a dove, suspended by chains to the baldachin and thus hung above the altar.

Mention may be made here of the (two) doves occasionally represented in the Roman catacombs, as drinking from an Eucharistic chalice. The idea of the Eucharistic vessel was probably taken from the dove-like receptacle used at an early period in the baptisteries and often suspended above the fonts. These vessels were usually made of gold or silver. No doubt that was always the case, if the vessel was designed to be the immediate holder of the Blessed Sacrament. Since the principle that no base material ought to be used for this purpose is early and general. But when the dove was only the outer vessel, enshrining the pix which itself contained the Blessed Sacrament, it came about that any material might be used which was itself suitable and dignified.

The general and certainly the earliest custom, in the East and West, was to suspend the dove from the Ciborium or baldachin. At a later period in some parts of the West, especially in Rome, a custom grew up of placing a tower of precious material upon the altar and enclosing the dove with the Blessed Sacrament within this tower. Thus, in *Liber Pontificalis* which contains ample records of the principal gifts made to

---

[6] Atalla, N. S., *The Coptic Art*, Spain, 1989, Vol II , p. 5.

[7] Arthur, S., Barnes, Transcribed by Michael C. Tinkler, *The Catholic Encyclopedia,* Vol. V Online Edition 1999 by Kevin Knight.

The Dove in the Baptism of Jesus Christ:

The baptism of Christ was inscribed by all four Evangelists[4] as follows: Jesus came from Nazareth to associate himself in baptism with those who because of preaching of John are ready to share in the promises of the Messianic times. He was baptized by John in Jordan river, traditionally near its entrance into the dead sea where John was baptizing.

Christ leaves the water immediately after his baptism. The Holy Spirit then descended in the form of a dove. The opening of the heavens and the descent are reminiscent of the spirit of god brooding over the primeval waters. And, as a Christian symbol, it is of very frequent occurrence in ancient ecclesiastical art.

- As a symbol of the Holy Spirit, it appears especially in representations of the baptism of Jesus[5] and of Pentecost. Saint Gregory the great (590-604 A.D.) is generally shown with a dove on his shoulder, symbolizing inspiration or rather divine guidance.
- In the ancient times a dove-like vessel was frequently suspended over the baptismal font as a symbol of martyrdom. It indicated the action of the Holy Spirit in bestowal of the fortitude necessary for the endurance of suffering.
- As a symbol of the Church, the agent through which the Holy Spirit works on earth. When two doves appear the symbolism may represent according to Macarius, the Church of the circumcision and that of the Gentiles.

On a sarcophagus or on other funeral monuments the dove signifies:

- The peace of the departed soul, especially if it bears an olive branch in its beak.
- The hope of the Resurrection.

In each case the symbolism is derived from the story of Noah and the Flood. Such is the meaning of the dove (columbula, palumba sine felle) in numerous epitaphs of the Roman catacombs.

---

[4] Mt 3.13-17; MK 1.9-12; Lk 3.21-22; Jn 1.29-34.

[5] Matt., iii, 16.

The Using of the Dove as a Coptic Symbol (Latin : Columba)

Marwa M. Kabeel
Ain Shams University, Egypt

The sweetness and brightness of the white color dove were the main reasons for being chosen as a symbol of Jesus Christ or the Holy Spirit. Its good virtues and qualities with its peaceful color always symbolize the innocent souls. On the contrary the dark colors, like that of the crow, and its attitude led him to be an emblem for evil spirit.[1] Its weird to find that such bird carries a double controversy meanings in Coptic art and Christianity. The dove that appears carrying the carriage of Goddess Venus was the emblem of love by the Greeks, too.

While in the Coptic art the dove stands for virtue, fidelity, purity and chastity, it usually reminds us with Noah's ark, also with the Holy Spirit, which came above the holy virgin for annunciation. That's why offerings placed in front of the alter are usually deformed in the shape of a dove, even with flowers of " *Pyxide* ", taking the shape of a dove.

Sometimes over some mosaics, twelve doves are represented referring to the twelve disciplies. It became as well an emblem for the church, where the legs of the dove were found painted in red, which is the color of the Martyr's blood. In the christian antiquity the dove appears as a symbolic meaning and as an Eucharistic vessel.[2]

In Genesis, the story of the dove and the ark of Noah were mentioned as follows:

" *After Forty days , Noah opened a window and sent out a raven , it did not come back , but kept flying around until the water was completely gone , meanwhile Noah sent out a dove to see if the water had gone down , but since the water still covered all lan,d the dove did not find a place to alight , it flew back to the boat and Noah reached out and took it in , he waited another seven days and sent out the dove again, it returned to him in the evening with a fres olive leaf in its beak, so Noah knew that the water had gone away , then he waited another seven days and sent out the dove once more , this time it did not come back* ." [3]

---

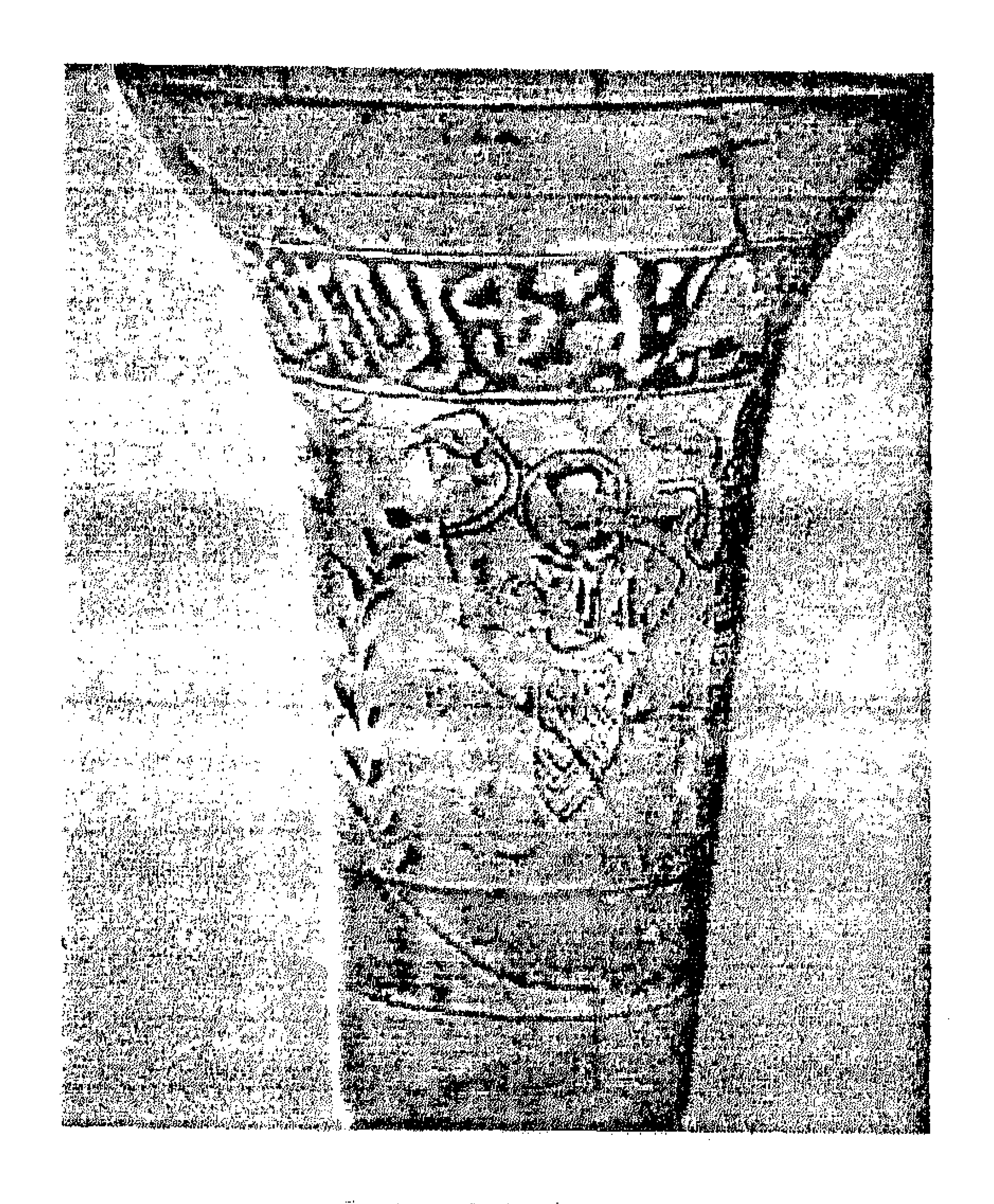
[1] Réau , L., *Iconographie de l'art chreitien*, Paris, 1955, tome I, p. 80.
[2] Réau , *Iconographie de l'art chreitien*, p. 81.
[3] Genesis, 8:6-12.

- Misiḥa (Hišmat), *Madḫal ilā al- aṯār al-qibṭiya*, (Le Caire, 1994) .
- Mitz (Adam), *al-Hadāra al-islāmiya fi'l qarn al-rābi' al-hiğri*, Traduit par Muḥammad 'Abd al-Hādi Abū Rayda, (Le Caire, 1999).
- Qāsim (ʿAbdu), *Ahl al-dimma fi miṣr fi'l ʿuṣur al-wusṭā*, (Le Caire, 1977).
- Rice, (D.S.), "Studies in Islamic Metalwork, 1", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 14, no. 3, (1952), pp. 564-578.
- Sālim ('Abd al-'Aziz Salāḥ), *al-Funūn al-islāmiya fi'l 'aṣr ayyūbi*, (Le Caire, 1999).
- Schneider (Laura T.), "The Freer Canteen", *Ars Orientalis*, 9, (1973).
- Van Berchem (Max), "Notes sur les croisades", *Journal Asiatique*, 9e série, XIX, (Paris, 1902).
- Ward (Rachel), *Islamic Metalwork*, British Museum Press, (London, 1993).

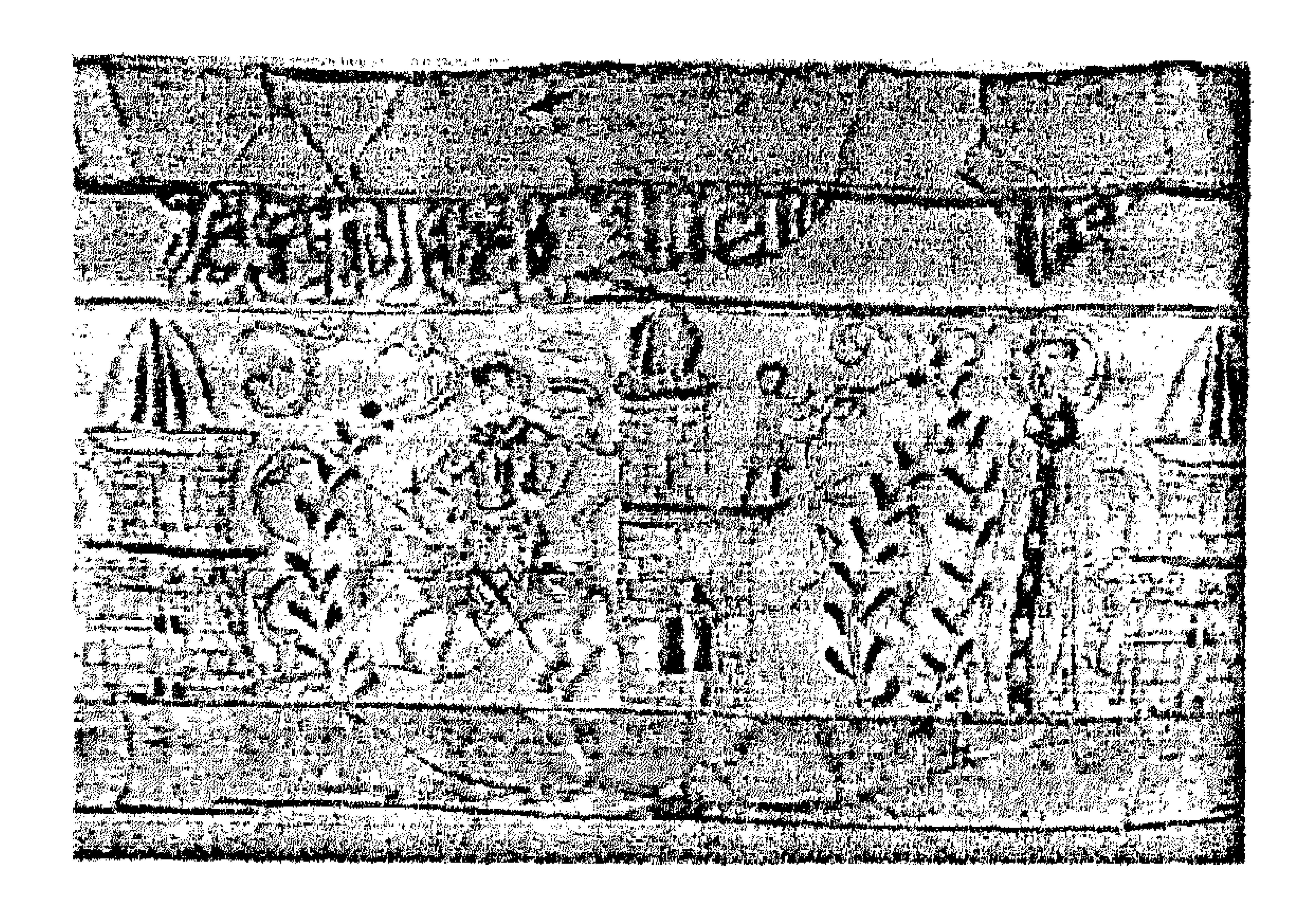
- *Encyclopédie de l'Islam,* Nouvelle Edition (Paris 1954-2005).
- Ettinghausen (R.), *The Arab Painting,* Traduit en arabe par Issa Salman et Saleem Taha al-Tekriti (Bagdad, 1973).
- Ettinghausen (R.), Grabar (O.), Madina (Marilyn Jenkins), *Medieval Islamic Art and Architecture, 650-1250,* Yale University Press and (New Haven, London, 2001).
- Gabra (Gawdat) – avec la contribution d'Alcock (Antony), *Le Caire, Le musée copte, les anciennes églises,* (Le Caire, 1996).
- Grabar (Oleg), "Two Pieces of Islamic Metalwork", *Ars Orientalis,* 4, (1961).
- Griveau (Robert), *Les fêtes coptes par al-Maqrizi, Patrologia Orientalis,* X, (Paris, 1915).
- Ghunaym (Ismat), *al-Dawla al-ayyūbiya wa'l ṣalibiyyūne,* (Alexandrie, 1987).
- Ibn Ǧubayr, *Riḥlat Ibn Ǧubayr,* (Bayrūt s.d.).
- Ibn Qayim al-Ǧawziyah, *Aḥkām ahl al-dimma, Réalisé par Subḥi al-Sāliḥ,* (Bayrūt,1994).
- Ibn Taġribirdi, *al-Nuǧūm al-zāhira fi mulūk miṣr wa'l qāhira,* (Le Caire, 1930-1972).
- Kamil (Jill), *Christianity in the Land of the Pharoahs,* The Coptic Orthodox Churches, AUC Press, (Le Caire, 2002).
- Katzenstein (Ranee E.) and Lowry (Glend D.), *Christian Themes in Thirteenth Century Islamic Metalwork,* Muqarnas, I, Yale University Press, (New Haven, London, 1983).
- *L'art copte en Egypte,* 2000 ans de christianisme, Exposition présentée à l'Institut du monde arabe, IMA, 2000, *La Sainte Bible,* traduit en français sous la direction de l'Ecole Biblique de Jérusalem, L'Evangile selon Saint Marc, traduit par le R.P.P. Benoit, O.P., Les Editions du Ce Wardrf, (Paris, 1950).
- *L'Orient au temps des Croisades,* Présentation, traductions et notes par Anne Marie Eddé et Françoise Micheau, Flammarion, (Paris, 2002).
- *L'Orient de Saladin, l'art des Ayyoubides,* Exposition présentée à l'Institut du monde arabe, Paris, du 23 Octobre 2001 au 10 Mars 2002, IMA, (Paris, 2001).
- Maḥmūd (Sallām Sāfi'i), *Ahl al-dimma fi Miṣr fi'l 'aṣr al-fāṭimi al-tāni wa'l 'aṣr al-ayyūbi,* (Le Caire, 1982).
- Mazahéri (Ali), *La vie quotidienne des Musulmans au Moyen Age,* X^e^ au XIII^e^ siècle, (Paris, 1951).
- Migeon (Gaston), *Manuel d'art musulman, Arts plastiques et industriels,* (Paris, 1927).

Bibliographie

- 'Abbās (Ǧaylān), *al-A'iyād wa'l iḥtifālāt fi miṣr al-islāmiya wa ǧudurahā al- tāriḫiya, mundu al-fatḥ al-'arabi ḥatā nihāyat 'aṣr al-mamālik al-ǧarākisa,*21-923 H. / 642-1517, Thèse de doctorat dactylographiée, Faculté de Tourisme et d'Hôtellerie, Université de Hilwān, (Le Caire, 1996).
- ʿAbd al-Rāziq (Aḥmad), *al-Funūn al-islāmiya fi'l 'aṣrayn al-ayyūbi wa'l mamlūki,* (Le Caire, 2003).
- al-Maqdisi (Sihāb al-Din) connu par Abi *Sāmah, Kitāb al-rawdatayn fi ahbār al-dawlatayn al-nūriya wa'l ṣalāḥiya,* Réalisé par Ibrāhim al-Zaybaq, (Bayrūt,1997).
- al-Maqrizi, *al-Mawā'iz wa'l i'tibār bi dikr al-ḫiṭaṭ wa'l aṯār,* (Būlāq, Le Caire,1853).
- al-Maqrizi, *al-Sulūk lima'rifat duwal al-mulūk,* Réalisé par Muṣṭafā Ziyāda, (Le Caire, 1936).
- *Arab Historians of the Crusaders,* Selected and translated from the Arabic Sources by Francesco Gabrielli, Translated from the Italian by E. J. Costello, (London, 1957).
- 'Asūr (Sa'id), *al-Haraka al-ṣalibiya,* (Le Caire, 1963).
- Atil (Esin), *Renaissance of Islam, Art of the Mamluks,* Smithsonian Institute Press, (Washington, D.C., 1981).
- Atil (Esin), Chase (W.T.), Jett (Paul), *Metalwork in the Freer Gallery of Art,* Freer Gallery of Art, Smithsonian Institution (Washington, D.C., 1985).
- Attiya (Aziz); *The Coptic Encyclopedia,* 4 (1991).
- Baer (Eva), *Metalwork in Medieval Islamic Art,* University of New York Press, (Albany, 1983).
- Baer (Eva), *Ayyubide Metalwork with Christian Images,* E. J. Brill, (Leiden, New York, 1989).
- Cahen (Claude), *Orient et Occident au temps des Croisades,* Aubier Montaigne, (Paris, 1983).
- *Croisades et pèlerinages,* Récits, chroniques et voyages en Terre Sainte XII^{e}-XVI^{e} siècle, Edition établie sous la direction de Danielle Régnier Bohler, Robert Laffon, (Paris, 1997).
- Demombynes (Mme Gaudefroy) et Platonov, *Le monde musulman et byzantin jusqu'aux croisades,* S. R. d'Etudes Historiques, (Paris, 1931).
- Devonshire (R. L.), *L'Egypte musulmane,* (Le Caire, 1982).
- Dozy (R.) *Supplément aux dictionnaires arabes,* (Leyde, 1881).
- Du Bourguet (Pierre), S. J., *L'art copte,* Albin Michel, (Paris, 1968).



Pl . VIII / a



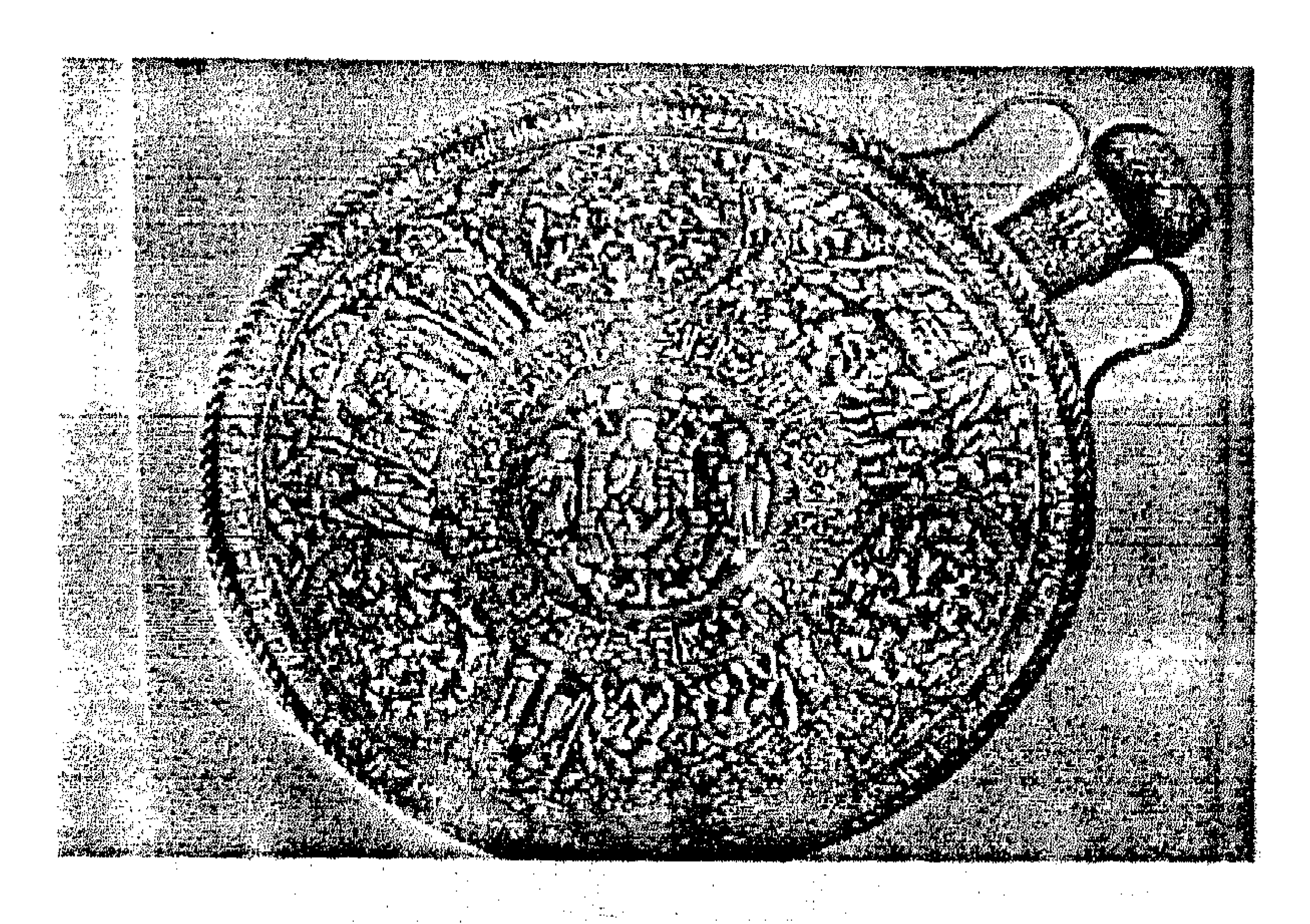
Pl . VIII / b



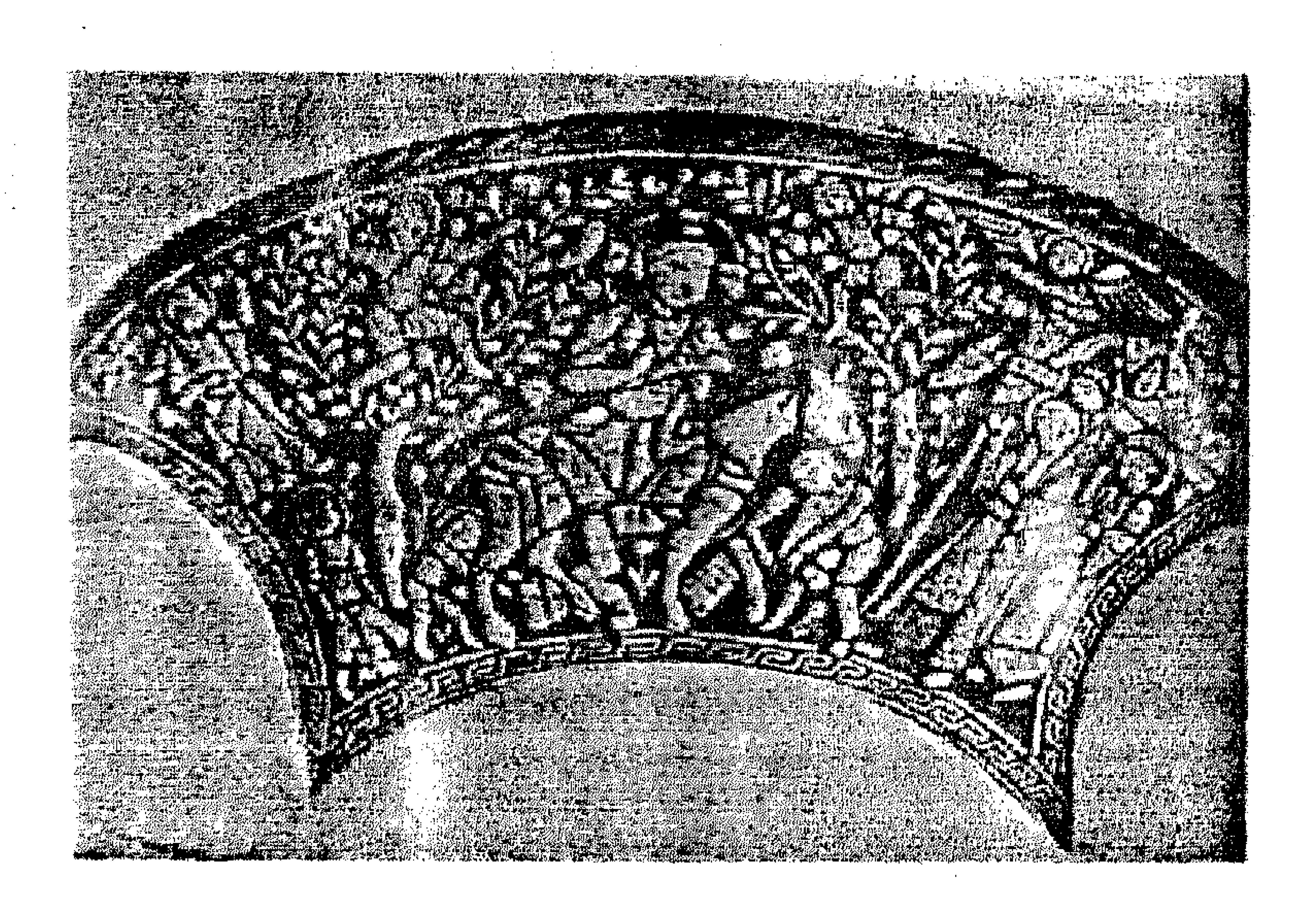
Pl . VII / a



Pl . VII / b



Pl . VI / a



Pl . VI / b



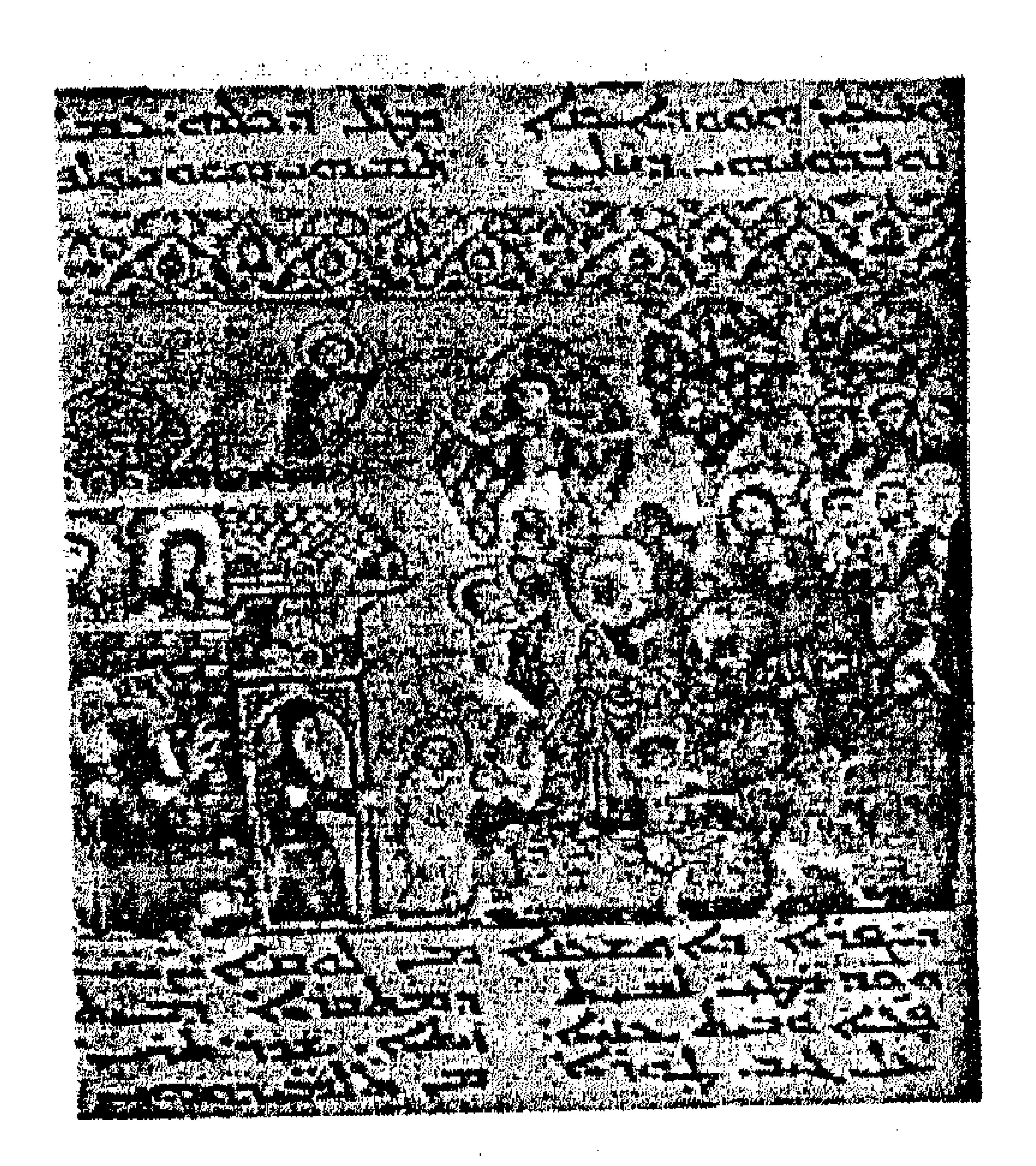
Pl. V/a



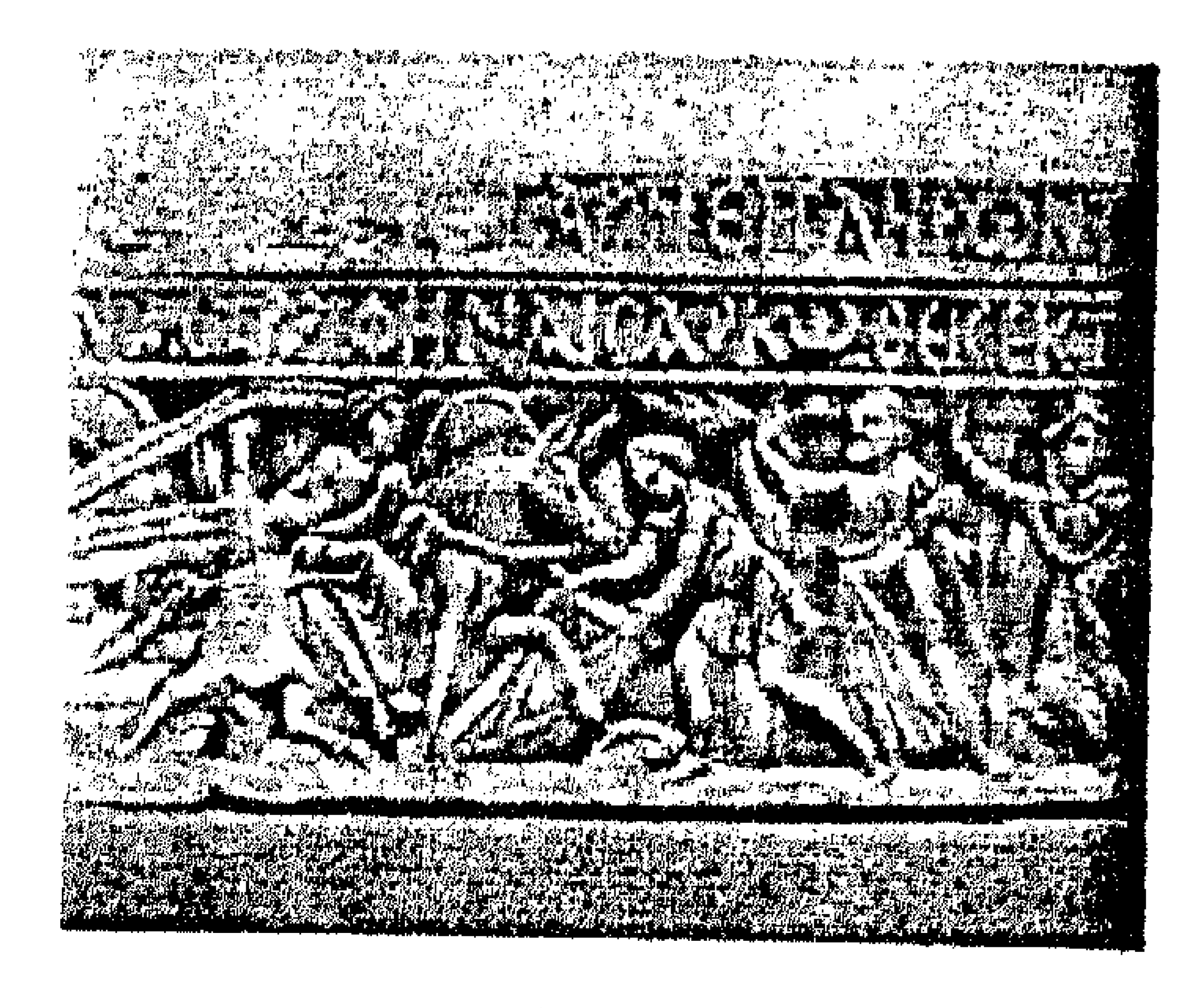
Pl. V/b



Pl . III



Pl . IV



Pl . I



Pl . II

Enfin, nous avons constaté la disparition graduelle des scènes chrétiennes vers le début de l'époque mamlūke et l'apparition de nouvelles traditions artistiques qui vont marquer le répertoire décoratif d'alors.

Liste des planches

- **Pl. I :** Un linteau de grandes dimensions en bois de sycomore provenant de l'église al-Muʻallaqa au Vieux Caire, du Ve-VIe siècle- conservé au musée copte d'après le Musée copte.
- **Pl. II:** Un manuscrit copte provenant du monastère de Saint Mercurius, représentant l'entrée du Christ à Jérusalem- conservé dans la librairie patriarcale d'après Christianity in the Land of the Pharoas.
- **Pl. III:** Un panneau en bois de cèdre, de porte de l'église al-Muʿallaqa, orné de sculpture représentant l'entrée du Christ à Jérusalem- du VIIe / XIIIe siècle - conservé au British Museum d'après l'art copte.
- **Pl. IV:** Une miniature du lectionnaire jacobite, provenant de l'Iraq, Mossoul, monastère de Mār Mattā, vers 617 H. / 1220 – Conservée au Biblioteca Apostolica Vaticana d'après Arab Painting.
- **Pl. V / a:** Une pyxide en cuivre gravé, incrusté d'argent, datée vers 622-648H. / 1225-1250- conservée au Metropolitan Museum d'après l'orient de Saladin.
- **Pl. V / b:** Détail de la pyxide - L'entrée du Christ à Jérusalem d'après Christian Themes.
- **Pl. VI / a:** Une gourde en cuivre incrustée d'argent et de nielle, datée vers 628-638 H. / 1230-1240, conservée au Freer Gallery of Art d'après l'orient de Saladin.
- **Pl. VI / b:** Détail de la gourde – L'entrée à Jérusalem d'après Ayyubid Metalwork.
- **Pl. VII / a: Un bassin en cuivre incrusté d'argent,** au nom du sultan al-Sāliḥ Naǧm al-Din Ayyūb, dit bassin d'Arenberg, daté vers 628-638 H. / 1230-1240 – conservé au freer Gallery of Art d'après lL'orient de Saladin.
- **Pl. VII / b:** Détail du Bassin – l'entrée du Christ à Jérusalem d'après Ayybid Metalwork.
- **Pl. VIII / a:** Un gobelet en verre émaillé, attribué à l'époque mamlūke, vers 659 H. / 1260 – conservé à Baltimore, The Walters Art Gallery d'après Art of the Mamluks.
- **Pl. VIII / b:** Détail du gobelet – l'entrée à Jérusalem d'après Art of the Mamluks.

des édifices, un enfant, portant une tunique blanche, lève ses deux bras pour saluer le Christ.

Dans les intervalles, nous distinguons des arbres munis de feuilles et de bourgeons ainsi que des branches et des rinceaux spiralés.
Comme dans le bassin d'Arenberg, l'image est très simplifiée. Ces scènes marquent, en effet, la disparition graduelle des scènes chrétiennes sur les objets d'art islamique, qui vont recevoir, dorénavant, une iconographie très variée.

Qu'il nous soit permis de déduire que la production artistique du VII^{e} / XIII^{e} siècle marque la diffusion des scènes chrétiennes dans le répertoire décoratif de l'art musulman. Elles étaient le plus souvent mêlées avec une iconographie musulmane, mais pouvaient également en constituer l'unique décor.

Cette iconographie illustre, en effet, les échanges commerciaux et diplomates entre communautés musulmane et chrétienne à cette époque marquée par les royaumes francs d'Orient ainsi que les rapports étroits entre les princes musulmans et les princes chrétiens de Syrie.

C'est ainsi que nous distinguons, parmi tant d'autres, les représentations des saints sous les arcades, les scènes de l'Ancien Testament tout aussi bien que les scènes du Nouveau Testament et les épisodes de la vie du Christ, dont le thème "l'entrée à Jérusalem", formant l'objet de notre étude.

Cet évènement qui occupa une place importante dans la vie religieuse, sociale et artistique de l'époque, continue, encore, à marquer l'une des fêtes les plus solennelles dans le monde chrétien: "Pâques fleuries", ou "Dimanches des rameaux".

Ce sujet eut son influence sur la production artistique à travers les époques et inspira les artistes chrétiens tout aussi bien que les artistes musulmans. Ainsi, nous trouvons bon nombre d'objets d'art chrétien et copte, représentant l'entrée du Christ à Jérusalem. Le thème s'est conservé dans l'iconographie musulmane du VII^{e} / XIII^{e} siècle, et se distingue sur un nombre d'objet, dont une miniature de la lectionnaire jacobite de Mossoul datée du 617H. / 1220; une pyxide en cuivre incrusté vers 622-648 H. / 1225-1250; une gourde en cuivre incrustée vers 628-638 H. / 1230-1240; un bassin en cuivre incrusté au nom d'al- Ṣāliḥ Naǧm al-Din Ayyūb, dit bassin d'Arenberg, vers 638 H. / 1240; et un gobelet en verre émaillé vers 659 H. / 1260.

L'étude des objets signalés, quoique de matières diverses, démontre l'influence des peintres arabo-musulmans, plus précisément ceux de Mossoul.

traditionnelles surtout en ce qui concerne les traits des personnages aux cheveux courts et barbus[59].

En revanche, Katzenstein relève des erreurs dans la sélection des scènes: or dans les cinq médaillons renfermant les scènes de la vie de Christ, il souligne une manque de cohérence du cycle chrétien. En outre, il note que l'ordre des scènes est également incorrecte: la scène de l'entrée à Jérusalem devrait succéder à celle de la résurrection du Lazare[60]. Ceci est peut-être du à l'incompréhension de l'iconographie qui a servi de modèle[61]. Il serait probable, d'autre part, que l'artiste musulman ignorait la séquence correcte des ces évènements.

*Un gobelet en verre émaillé[62] (Pl. VIII/a), attribué à l'époque mamlūke, vers 659 H. / 1260:

Ce gobelet possède le profil et les dimensions caractéristiques des verres généralement attribués au milieu du VII^e^ / XIII^e^ siècle, sans doute utilisés pour les boissons, et réalisés sous les Ayyūbides et les Mamlūks Il présente une forme à bords droits à la base puis s'évasant au tiers supérieur et repose sur une base circulaire rapportée[63].

Le bandeau décoratif est ceint de deux rubans à décor épigraphique: le bandeau supérieur renferme les restes d'une inscription en caractère nashī; celle du bandeau inférieur a disparu.

Le décor principal (Pl. VIII/b), représente un homme nimbé assis à dos d'âne, faisant allusion à l'entrée du Christ à Jérusalem.

Dans l'arrière plan, les éléments architecturaux, personnifiant (probablement) Jérusalem, consistent en maisons à deux étages, munies de portes d'entrées et de fenêtres, et couvertes de dômes lobés. Deux individuels, faisant peut-être partie de la population de Jérusalem (mais probablement aussi deux disciples), également nimbés (mais très allongés), se tiennent debout pour accueillir le Sauveur. Sur le toit d'une

---

[59] Selon Baer, ces figures rappellent les représentations de St. Thomas qui, dans l'iconographie chrétienne, apparaît souvent derrière le sauveur dans cette scène, voir Eva Baer, *Ayyubid Metalwork*, p. 28

[60] Katzenstein, *Christian Themes in Thirteenth Century*, p. 56

[61] Voir L'orient de Saladin, p. 130

[62] Conservé à Baltimore, *The Walters Art Gallery*, 47.18, (Purchased, 1947), Voir Esin Atil, *Renaissance of Islam, Art of the Mamluks*, Smithsonian Institute Press, (Washington, D.C., 1981), p. 127, no. 45; Aḥmad ʿAbd al-Rāziq, *al-Funūn al-islāmiya*, p. 255

[63] Des verres de ce type apparaissent souvent dans les représentations de la vie de la cour au temps des Ayyubides et des Mamluks. Les souverains et leurs courtisans les tiennent à la main lors des banquets et autres miniatures princiers figurant sur les divers matériaux. Ces gobelets avaient probablement une fonction cérémonielle, car on en voit souvent dans les mains des souverains représentés sur leur trône, voir *L'orient de Saladin*, p. 190.

Un vrai chef-d'œuvre du travail de métal de l'époque ayyūbide: ce bassin impérial appartient à une série de bassins larges, exécutés au nom du même souverain[56].

Ce bassin se distingue parmi les autres pour avoir été une œuvre fort luxueuse et originale au sein de la production de cette période. Par ailleurs, la forme arrondie, à la paroi s'évasant sous une lèvre aplatie, est typiquement ayyubide. Il est richement décoré à l'extérieur tout aussi bien qu'à l'intérieur.

L'extérieur de la paroi est divisé en trois bandeaux circulaires (inégales), interrompus, chacun, par cinq médaillons polylobés.

Le répertoire décoratif est très dense, et nous distinguons parmi tant d'autres, des inscriptions en caractère coufique et nashī, des arabesques touffues (d'où jaillissent des têtes humaines et animalières[57], des séries d'animaux se poursuivant, le jeu de polo, des scènes de musique et de divertissement, de plus des scènes chrétiennes représentant les épisodes de la vie du Christ.

Le bandeau supérieur renferme une inscription en caractère coufique tressé, au nom et titulature du commanditaire de l'objet. Il est coupé à cinq reprises, par cinq médaillons polylobés renfermant des scènes de la vie du Christ, dont l'annonciation, l'adoration, la résurrection du Lazare, l'entrée à Jérusalem et la Cène[58]. Notons que les scènes chrétiennes jouent un rôle relativement secondaire, vis-à-vis des objets déjà signalés.

Dans la scène de l'entrée à Jérusalem (Pl.VII/b), le Christ est représenté, selon la tradition, assis à dos d'âne, flanqué de deux figures, représentant probablement deux de ses disciples. Ils lèvent leur main pour saluer le Christ qui lève, lui aussi, la main droite pour les bénir. Les personnages sont tous nimbés, et la scène repose sur un fond de rinceaux et de branches.

D'après Eva Baer, cette version brève de l'entrée à Jérusalem est très proche du model chrétien: l'artiste a adopté les caractéristiques

---

p. 283; Aḥmad ʿAbd al-Rāziq, *al-Funūn al-islāmiya*, pp. 115-116; Ettinghausen, *Islamic Art and Architecture*, p. 248.

[56] Deux autres bassins ont été réalisés par ordre du Sultan al-Ṣāliḥ Naǧm al-Din Ayyūb: le premier est conservé au musée d'art islamique du Caire, no. 15043 – le deuxième est conservé au Kilsey Museum of Ancient and Medieval Archeology at the University of Michigan. Voir Oleg Grabar, "Two Pieces of Islamic Metalwork", *Ars Orientalis*, 4, (1961), pp. 360-366; Eva Baer, *Ayybīd Metalwork*, p. 18; *L'orient de Saladin*, p. 144, no. 199; Aḥmad ʿAbd al-Rāziq, *al-Funūn al-islāmiya*, pp. 115-116.

[57] Du type waq-waq, comme nous avons déjà remarqué sur la gourde, infra

[58] Voir Esin Atil, *Metalwork in the Freer Gallery of Art*, pp. 138-139.

oiseaux et des créatures fantastiques[52]), gravitent autour d'un médaillon central représentant la Sainte Vierge et l'Enfant Jésus.

Dans l'iconographie de l'entrée à Jérusalem (Pl. VI/b), le Christ, nimbé, est assis –tourné de face- à dos d'âne, occupant le centre de la scène: il est flanqué, à droite et à gauche par un grand arbre. Entre les branches des arbres nous constatons des petits personnages, faisant face au Christ pour le saluer, rappelant la scène du lectionnaire jacobite; d'ailleurs les arbres ici sont moins stylisés que ceux du manuscrit.

Devant et derrière le Christ, deux enfants jettent leurs vêtements sous les pattes de l'âne. Comme dans le manuscrit syriaque, les éléments architecturaux personnifiant probablement Jérusalem, sont rejetés sur le côté et couverts d'un dôme. A l'entrée de la ville, et faisant face au Christ, deux femmes (aux longues robes et tuniques richement ornés) sont représentées debout, en levant la main droite pour saluer le sauveur. La femme, à gauche, porte son enfant sur l'épaule, et nous rappelle également de la scène du lectionnaire jacobite. Au dessus de la coupole, nous distinguons, deux anges tenant dais.

Dans l'extrémité gauche de la scène, deux individuels, faisant peut-être partie de la population de Jérusalem (mais probablement aussi deux disciples), sont en train de saluer le Christ. Là aussi, comme dans le manuscrit déjà signalé, les personnages sont presque tous nimbés. Quant aux traits des visages, ils reflètent à leur tour les influences de la peinture arabes de l'époque.

Si Baer met en valeur l'ordre et la symétrie de la scène[53]; Katzenstein, en revanche, attire l'attention sur une erreur de détail. Il s'agit des deux enfants qui jettent les vêtements sous les pattes de l'âne: au lieu d'étaler les vêtements devant l'âne à l'arrivée du Christ à Jérusalem, ils sont ici représentés, devant et derrière le Christ, de sorte que les vêtement sont étalés, en conséquence, devant et derrière les pattes de l'animal[54].

*Un bassin en cuivre incrusté d'argent[55] (Pl. VII/a), au nom du sultan al-Sāliḥ Nağm al-Din Ayyūb, dit bassin d'Arenberg, vers 628-638 H. / 1230-1240:

---

[52] Ce type d'ornement est connu sous le nom de wāq-wāq, voir Eva Baer, *Metalwork in Medieval Islamic Art*, University of New York Press, (Albany, 1983).

[53] Eva Baer, *Ayyubid Metalwork*, p. 20.

[54] Katzenstein, *Christian Themes in Thirteenth Century*, p. 61.

[55] Conservé au Freer Gallery of Art, voir Rice, "Studies in Islamic Metalwork, 1", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 14, no. 3, (1952), pp. 564-578; Esin Atil, Metalwork in the Freer Gallery of Art, pp. 137-147; Eva Baer, Ayyubid Metalwork, p. 18; ʿAbd al-ʿAziz Salāḥ Sālim, *al-Funūn al-islāmiya fi'l ʿaṣr al-ayyūbi*,

l'un représente l'entrée du Christ à Jérusalem et les sept autres renferment des moines et des personnages chrétiens auréolés[47].

Dans la scène de l'entrée à Jérusalem (Pl. V/b), Jésus est assis à dos d'âne accompagné de trois paires de personnages, dont deux anges tenant dais au-dessus du lui. Il est suivi de deux porteurs de rameaux, tandis qu'en dessous de la scène, deux personnes s'apprêtent à jeter leurs vêtements sous les pattes de l'âne[48]. Seul le Christ et les deux anges sont nimbés.

Certains auteurs trouvent que la représentation de deux anges au-dessus du Christ, suit un arrangement comparable aux images de souverains sur leur trône, présents sur les objets d'art et les manuscrits islamiques exécutés à la même époque[49]. Sur le côté du médaillon et face au Christ, se distingue un grand olivier aux larges feuilles.

Il va sans dire que le médaillon susdit, forme le point d'attraction de l'objet: la plupart des personnages sont dirigés vers la scène de l'entrée à Jérusalem, mettant ainsi l'accent sur son importance.

*Une gourde en cuivre incrustée d'argent et de nielle[50] (Pl. VI/a), vers 628-638 H. / 1230-1240:

Cette gourde remarquable au décor exceptionnel, constitue le plus grand exemple connu de gourde en cuivre. Le corps, en forme de tambour, se compose d'un sommet convexe et d'une obverse plate, soudés ensemble à l'épaule[51]. Le col cylindrique est muni de deux anses permettant ainsi la suspension de l'objet et un rendement d'usage facile. Plusieurs thèmes cohabitent sur la gourde et en font une œuvre très originale.

Ainsi nous distinguons des inscriptions en caractère coufique et nashī, des motifs géométriques, des oiseaux, des créatures fantastiques, des guerriers, des scènes de chasse, des scènes de musique et des personnages chrétiens sous des arcades.

Les scènes de la vie du Christ, dont la Nativité, la Présentation dans le Temple et l'entrée du Christ à Jérusalem (séparés par des médaillons circulaires renfermant des arabesques d'où jaillissent des

---

[47] Eva Baer, *Ayyubid Metalwork*, p. 14.

[48] D'après Katzenstein, la représentation de ces deux personnages est assez intrigante: au lieu de jeter leurs vêtement sous les pattes de l'animal, ils se tiennent, l'un en face de l'autre, en étalant le manteau entre eux, ce qui a entraîné une mauvaise interprétation concernant leur présence, Christian Themes in Thirteenth Century, p. 61.

[49] *L'orient de Saladin*, p. 114.

[50] Conservée au Freer Gallery of Art, voir Laura T. Schneider, "The Freer Canteen", *Ars Orientalis*, 9, (1973), p. 150, Fig. 26; Esin Atil, W. T. Chase, Paul Jett, *Metalwork in the Freer Gallery of Art, Freer Gallery of Art, Smithsonian Institution* (Washington, D.C., 1985), pp. 125-136

[51] Esin Atil, *Metalwork in the Freer Gallery of Art*, p. 125.

Le Christ barbus et nimbé, est assis à dos d'âne bénit la population de Jérusalem; trois hommes (à moitié nus) jettent des vêtements sous les pattes de l'âne, tandis que derrière lui on voit la foule réunie pour lui chanter ses louanges. Dans l'arrière plan, nous constatons les enfants (moitié nus) qui grimpent les oliviers (stylisés) pour y couper des branches et joncher de verdure les rues de la ville. Les éléments architecturaux, personnifiant Jérusalem, sont rejetés sur le côté et couverts d'un dôme. Quelques personnages, sur les toits des maisons et dans les fenêtres, sont en train de saluer le Christ, dont une femme portant son enfant sur l'épaule.

Nous devrions rappeler, à cet égard, que les scriptorias des monastères de Mésopotamie ont produit, au cours de la première moitié du VII^e^ / XIII^e^ siècle, des manuscrits de grande qualité dont il reste quelques exemplaires. Ils reflètent, en effet, les contaminations réciproques entre l'iconographie chrétienne orientale et celle issue du monde islamique[41]: quoiqu'il s'agisse de scènes évangéliques, les caractéristiques comme les costumes et le décor sont presque entièrement ceux de l'art musulman[42].

Or dans la miniature de l'entrée du Christ à Jérusalem, nous constatons l'influence des peintres arabo-musulmans, plus précisément ceux de Mossoul: les personnages ressemblent à ceux des manuscrits arabes, surtout en ce qui concerne les costumes, les turbans, les traits asiatiques aux yeux bridés, les nez aquilins et bien évidemment dans la vivacité des mouvements. Ceci est très distinct dans la représentation de la population de Jérusalem. Cette influence se distingue aussi dans le bandeau supérieur au décor floral et arabesques ainsi que dans la stylisation des arbres ornant l'arrière plan[43].

*Une pyxide[44] en cuivre gravé, incrusté d'argent[45] (Pl. V/a), vers 622-648H. / 1225-1250:

Elle est façonnée dans une seule feuille de métal enroulée, puis incrustée d'argent. Le couvercle et la base, réalisés séparément, sont chacun d'un seul tenant[46]. La paroi cylindrique, entièrement couverte d'arabesques et de rinceaux, est divisée en huit médaillons trilobés, dont

---

[41] *L'Orient de Saladin*, p. 110.

[42] *Du Bourguet, L'art copte*, p. 191.

[43] Ettinghausen, *Arab Painting*, Traduit en arabe par Issa Salman et Saleem Ṭaha al-Tekriti, (Bagdad, 1973), p. 96.

[44] Les pyxides, petites boîtes cylindriques à couvercle, servaient sans doute de récipients à usnan (soude utilisée pour la lessive), voir L'orient de Saladin, p. 114; Aḥmad ʿAbd al-Rāziq, *al-Funūn al-islāmiya*, p. 119.

[45] *Conservée au Metrpolitan Museum of Art, Rogers Fund*, 1971.39.

[46] *L'orient de Saladin*, p. 114.

Signalons en outre un fragment de frise en calcaire, daté du V[e] siècle, représentant une croix au dessus d'un ânon: la croix symbolise le Christ entrant à Jérusalem[35].

La librairie patriarcale conserve à son tour un manuscrit copte provenant du monastère, de Saint Mercurius, renfermant une miniature représentant l'entrée à Jérusalem (Pl. II): le Christ nimbé, est assis à dos d'âne et lève la main droite pour saluer et bénir la foule. Devant lui deux hommes jettent un vêtement sous les pattes de l'âne, tandis que derrière lui, nous voyons trois de ses disciples. A l'arrière plan, la foule agite des palmes[36]. L'inscription arabe, mêlée avec l'inscription copte, démontre sa réalisation durant l'époque musulmane.

Le British Museum renferme parmi sa collection dix panneaux en bois de cèdre, de porte de l'église al-Mu'allaqa datés du VII[e] / XIII[e] siècle[37]. Quatre d'entre eux sont décorés d'une grande croix centrale. Les six autres sont ornés de sculptures représentant les scènes de la vie du Christ, y compris l'entrée à Jérusalem (Pl. III): dans la moitié supérieure, la figure nimbée du Christ (tournée de face) sur son âne bénit les habitants de Jérusalem[38]. Derrière lui, nous distinguons quatre enfants qui grimpent les oliviers pour y couper des branches. Dans la moitié inférieure, la population de Jérusalem accueillit le sauveur.

Ces panneaux comptant également parmi les productions artistiques chrétiennes réalisées à l'époque musulmane, pourraient peut-être suggérer un style influencé par le milieu musulman[39].

Quoiqu'il en soit, il est indéniable que le thème s'est conservé dans l'iconographie musulmane du VII[e] / XIII[e] siècle, et se distingue sur un nombre d'objet, dont une miniature de la lectionnaire jacobite de Mossoul datée du 617H. / 1220; une pyxide en cuivre incrusté vers 622-648 H. / 1225-1250; une gourde en cuivre incrustée vers 628-638 H. / 1230-1240; un bassin en cuivre incrusté au nom d'al-Ṣāliḥ Naǧm al-Din Ayyūb, dit bassin d'Arenberg, vers 638 H. / 1240; et un gobelet en verre émaillé vers 659 H. / 1260.

*La miniature du lectionnaire jacobite (Pl. IV), provenant de l'Iraq, Mossoul, monastère de Mār Mattā, vers 617 H. / 1220[40]:

---

[35] Conservé au musée copte, voir Hismat Misiḥa, *Madhal ilā al-atār al-qibṭiya*, p. 81.

[36] Jill Kamil, *Christianity in the Land of Paharoas*, p. 246, fig. 9.15.

[37] *L'art copte en Egypte*, p. 176.

[38] *L'art copte en Egypte*, pp. 176-177.

[39] Du Bourguet, *L'art copte*, p. 191.

[40] Conservé au Vatican, Biblioteca Apostolica Vaticana, MS. Siriaco 559, voir R. Ettinghausen, *Arab Painting*, Traduit en arabe par Issa Salman et Saleem Taha al-Tekriti, (Bagdad, 1973), p. 96; *L'orient de Saladin*, pp. 110-111.

ses louanges pendant qu'il recommandait la charité, engageait à faire de bonnes œuvres, défendait de faire le mal et mettait en garde contre lui"[30]. Signalons que la fête des Rameaux était une des fêtes dans lesquelles les chrétiens de l'Egypte décoraient leurs églises[31]

Quant aux chrétiens de Jérusalem, ils avaient l'habitude, au cours du IVe /Xe siècle, de porter un olivier à l'église de la Résurrection, tout en longeant les rues de la ville. Ils étaient entourés d'hymnes et de prières, tout en tenant, haut, la croix[32].

De tout ce qui précède, il nous est permis de déduire que ce sujet eut son influence sur la production artistique à travers les époques et inspira les artistes chrétiens tout aussi bien que les artistes musulmans.

Ainsi, nous trouvons bon nombre d'objets d'art chrétien et copte, représentant l'entrée du Christ à Jérusalem. Nous signalons à titre d'exemple un linteau de grands dimensions en bois de sycomore provenant de l'église al-Mu'allaqa au Vieux Caire, du V^e^-VI^e^ siècle[33] (Pl. I). Le décor est exécuté en haut relief et montre deux scènes du Nouveau Testament, dont à gauche l'entrée à Jérusalem: le Christ imberbe et sans auréole est assis à dos d'âne; un homme jette un vêtement sous les pattes de l'âne, tandis que derrière lui un autre agite une palme. Les personnages bien proportionnés, sont exécutés dans un style dur avec des gestes rigides et des contours anguleux. En haut, quatre lignes d'inscription grecque incomplète appartiennent à un hymne de prières adressées au Christ[34].

---

[30] al-Maqrizi, *Hitat*, I, p. 264; Robert Griveau, *Les fêtes des coptes*, pp. 317-318; Aziz Attiya, *The Coptic Encyclopedia*, 4, (1991), pp. 1103-1104.
Qu'il nous soit permis de signaler que les musulmans considérèrent les fêtes chrétiennes comme des cérémonies purement folkloriques et y participèrent avec joie, voir Ali Mazahéri, *La vie quotidienne des Musulmans au Moyen Age, X^e^ au XIII^e^ siècle*, (Paris, 1951), p. 184.

[31] Par ailleurs, al-Maqrizi signale que le 10^e^ jour du mois de Rağab, de l'année 378 H. / Octobre 989, où avait lieu la fête des Rameaux, le calife al-Hākim défendit aux chrétiens d'orner leurs églises et de porter des branches de palmiers selon leur coutume; il fit arrêter un grand nombre de chrétiens qui en portaient; confisque les biens d'églises au profit du trésor public, ordonna qu'on fit autant dans toutes les provinces, Hiṭaṭ, I, p. 264.

[32] Adam Mitz, *al-Hadāra al-islāmiya fi'l qarn al-rābi' al-hiğri*, Traduit par Muhammad 'Abd al-Hadi Abu Rayda, II, (Le Caire, 1999), p. 193

[33] *Conservé au Musée Copte*, no. 738.

[34] Hismat Misiḥa, *Madhal ilā al-āṯār al-qibṭiya* (Le Caire, 1994), p. 80; Gawdat Gabra –avec la contribution d'Antony Alcock- , Le Caire, *Le musée copte, les anciennes églises*, (Le Caire, 1996), no. 41, pp. 96-97; Jill Kamil, *Christianity in the Land of Paharoas*, p. 238, fig. 9.11.

répondirent comme Jésus leur avait dit, et on les laissa faire. Ils amènent l'ânon à Jésus et ils mettent sur lui leurs manteaux et il s'assit dessus. Et beaucoup de gens étendirent leurs manteaux sur le chemin; d'autres, des jonchés de verdure qu'ils coupaient dans les champs. Ceux qui marchaient en tête et ceux qui suivaient en arrière criaient: "Hosanna"! Béni soit celui qui vient au nom du Seigneur! Béni soit le Royaume qui vient de notre père David! Hosanna au plus haut des cieux!" Jésus entra à Jérusalem dans temple et après avoir tout regardé autour de lui comme il était déjà tard, il sortit pour gagner Béthanie avec les douze".

Il s'agit donc là de l'accueil triomphal de Jésus aux portes de Jérusalem: la terre sainte[27]. Vis-à-vis des chrétiens, ce fut un évènement exceptionnel dans la vie du Christ, une raison pour laquelle, il est encore célébré, avec la plus grande solennité.

En Egypte, cette fête est connue par plusieurs noms: 'id al-ša'ānin; 'id al-zaytūna, pâques fleuries[28] ou ḥad al-sa'af, qui signifie dimanche des rameaux, et compte parmi les grandes fêtes de la communauté copte[29].

D'après al-Maqrizi:" 'Id al-Zaytūna, fête de l'Olivier, est appelée par les chrétiens la fête de Ša'ānin, mot dont le sens est: louange. Elle a lieu le dernier dimanche de leur jêune. C'est la règle chez eux, le jour des Rameaux, de sortir de l'église en portant des branches de palmier. Ils racontent que c'est en ce jour que le Christ monté sur l'ânon, entra à Jérusalem et monta ainsi à Sion. La foule l'entourait en chantant

---

[27] *Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle Edition, V, article "al-Quds", pp. 321-345.
Il est tout de même étonnant, et sans doute unique, dans l'histoire de l'humanité, qu'un lieu, un pays, une ville aient exercé une aussi grande fascination pendant de si nombreux siècles, et, sans doute, jusqu'à la fin du monde, sur des civilisations et des courants spirituels aussi différents que le monde musulman, le monde chrétien et le monde juif. Voir *Croisades et pèlerinages, Récits, chroniques et voyages en Terre Sainte XII^e-XVI^e siècle*, Edition établie sous la direction de Danielle Régnier Bohler, Robert Laffon, (Paris, 1997), p. VII.

[28] Dozy, *Supplément aux dictionnaires arabes*, I, (Leyde, 1881), p. 617.

[29] Le calendrier des fêtes chrétiennes en Egypte comprend quatorze fêtes que le peuple célèbre au cours de chaque année copte, sept d'entre elles sont appelées grandes fêtes et les sept autres sont les petites fêtes. Ils ont également des fêtes non canonique établies par l'usage. Concernant ces fêtes, voir al-Maqrizi, *al-Mawā'iz wa'l i'tibār bi dikr al-hi ṭaṭ wa'l atār*, I, (Būlāq, Le Caire, 1853), p. 264; Sallām Šāfi'i, *Ahl al-dimma*, p. 218; Robert Griveau, *Les fêtes coptes par al-Maqrizi, Patrologia Orientalis*, X, (Paris), pp. 316-317; Ğaylān 'Abbās, *al-A'iyād wa'l iḥtifālāt fi miṣr al-islāmiya wa ğudurahā al-tārihiya, mundu al-fatḥ al-'arabi ḥatā nihāyat 'aṣr al-mamālik al-ğarākisa, 21-923 H. / 642-1517*, Thèse de doctorat dactylographiée, Faculté de Tourisme et d'Hôtellerie, Université de Hilwān, (Le Caire, 1996), p. 107.

Fait remarquable, cette imagerie fut le plus souvent mêlée avec une iconographie musulmane, profane et princière: ainsi nous constatons des sujets chrétiens mêlés avec les scènes du souverain trônant, des scènes de chasse, des scènes de divertissement...etc. Des frises épigraphiques en caractère coufique ou nashī, s'ajoutent parfois pour combler le décor.

L'étude des objets à iconographie chrétienne[21] permet de distinguer toute une série de scènes, groupant des saints personnages sous des arcades, des scènes monastiques, les scènes de l'Ancien Testament et, bien évidemment les scènes du Nouveau Testament et les épisodes de la vie du Christ. C'est ainsi que nous constatons, parmi tant d'autres, les scènes de la nativité, l'annonciation, le baptême, l'entrée du Christ à Jérusalem, la noce de Cène, la crucifixion, l'ascension...etc.[22].

Nous allons accorder les pages suivantes au thème de " L'entrée du Christ à Jérusalem" qui occupa une place importante dans la vie religieuse, sociale et artistique de l'époque et continue, encore, à marquer l'une des fêtes les plus solennelles dans le monde chrétien: "Pâques fleuries", ou "Dimanches des rameaux"[23].

Cette scène qui commémore, en réalité, une triomphe manifeste dans la vie du Christ, est parfaitement décrite dans le Nouveau Testament. En voici le texte:

Entrée triomphale à Jérusalem[24]

Quand ils approchent de Jérusalem, aux abords de Bethpagé[25] et de Béthanie, près du mont des Oliviers, Jésus envoie deux de ses disciples, en leur disant: "allez au village qui est en face de vous, et aussitôt que vous y serez entrés, vous y un ânon attaché[26]; détachez-le et amenez-le. Et si l'on vous ; que faites-vous là? Répondez: "Le Seigneur en a besoin, et aussitôt après il va le renvoyer ici".

Ils s'en allèrent et trouvèrent un ânon attaché près d'une porte, dehors, sur la rue et ils le détachèrent. Quelques-uns de ceux qui se tenaient là, leur dirent: "qu'avez-vous à détacher cet ânon ?". Ils

---

'Abd al-Rāziq, *al-Funūn al-islāmiya fi'l 'aṣrayn al-ayyūbi wa'l mamlūki*, (Le Caire, 2003), p. 120.

[21] Voir Ranee A. Katzenstein and Glenn D. Lowry, *Christian Themes*, pp. 53-66; Eva Ber, *Ayyubid Metalwork*, pp. 2-39.

[22] Ettinghausen R., Grabar O., Marilyn Jenkins Madina, *Medieval Islamic Art and Architecture, 650-1250*, Yale University Press and New Haven, (London, 2001), p. 248.

[23] Voir supra.

[24] *La Sainte Bible*, traduit en français sous la direction de l'Ecole Biblique de Jérusalem, L'Evangile selon Saint Marc, traduit par le R.P.P. Benoit, O.P. , Les Editions du Cerf, (Paris, 1950), chap. 11, 1-10.

[25] Dans la version arabe nous lisons بيت فاجي, la maison de Fāği.

[26] Selon Saint Mathieu, il s'agissait d'un ânon et d'une ânesse, chap. 21, 1-11 – Selon Luc il s'agissait d'un ânon, chap. 19, 28-38.

croisades venues d'Occident; dans les intervalles (durant les trêves), un état de paix quasi-totale régna[16].

La liberté des pèlerinages, à Jérusalem pour les chrétiens, à la Mecque, pour les musulmans, fut en revanche garantie[17]. Les pèlerins occidentaux, désirant emporter des souvenirs commémorant leur visite de la terre sainte, cherchaient à obtenir des objets d'art de fabrication locale, renfermant, le plus souvent, des scènes religieuses. Ainsi, on trouva sur le marché, une variation d'objets au décor chrétien.

D'autre part, il est assez évident, que la guerre entre les Ayyūbides et les Francs ne fut pas un obstacle au commerce et à l'échange des biens matériels, qui revêt une importance croissante[18]. A cet égard, on devrait rappeler les cadeaux de luxe qui furent échangés entre les souverains orientaux et occidentaux, tels les cadeaux échangés entre l'empereur Frédéric II et le sultan al-Kāmil en 626 H. / 1228[19]. Peut-être de luxueux objets à décor chrétien en faisaient-ils partie ?

Les données précédentes, nous permettraient de mieux envisager la diffusion des scènes chrétiennes sur les objets d'art islamique durant le règne des Ayyūbides et des premiers Mamlūks. Cette diffusion, qui marque la production artistique de l'époque, est remarquable sur les métaux (incrustés), les verres émaillés, les céramiques et les manuscrits illustrés: elle reflète, dans l'ensemble, l'influence de l'environnement.

L'imagerie chrétienne devint donc un élément manifeste dans le répertoire décoratif islamique, et, les thèmes chrétiens furent adoptés, voir absorbés par les artistes musulmans, et furent entièrement intégrés dans leurs traditions artistiques[20].

---

[16] Sa'id 'Asūr, *al-Haraka al-ṣalibiya*, I, (Le Caire, 1963), pp. 448-459; 'Abd al-'Aziz Salāḥ Sālim, *al-Funūn al-islāmiya fi'l 'aṣr ayyūbi*, I, (Le Caire, 1999), pp. 277-280; *L'Orient de Saladin*, p. 64.

[17] *L'Orient de Saladin*, p. 66.

[18] Pour une documentation plus détaillée concernant les échanges commerciaux entre Orient-Occident, voir Ibn Ğubayr, *Riḥlat Ibn Ğubayr* (Bayrūt, s. d.), pp.260-261; Ibn Tağribirdi, *al-Nuğūm al-zāhira fi mulūk miṣr wa'l qāhira*, VI, (Le Caire, 1930-1972), p. 48; Claude Cahen, *Orient et Occident au temps des croisades*, pp. 85-117; *L'Orient de Saladin*, p. 66.

[19] al-Maqrizi, *al-Sulūk lima'rifat duwal al-mulūk*, réalisé par Muṣṭafā Ziyāda (Le Caire, 1936), I, p. 223; al-Maqdisi, *Kitāb al-rawdatayn fi ahbār al-dawlatayn al-nūriya wa'l ṣalāḥiya*, Réalisé par Ibrahim al-Zaybaq, IV, (Bayrūt, 1997), pp. 134, 218-220; Arab Historians of the Crusaders, Selected and translated from the Arabic sources by Francesco Gabrielli, Italian trans. by E. J. Costello, (London, 1957), pp. 267-275; Ismat Gunaym, *al-Dawla al-ayyūbiya wa'l ṣalibiyyūn*, pp. 87-94.

[20] Eva Baer, *Ayyubid Metalwork*, p. 6. Nous devrions quand même noter à cet égard que l'artiste musulman entreprenait ces thèmes chrétiens de la façon qui convenait à ses croyances religieuses (concernant le christianisme), basées sur le Coran, Voir Aḥmad

renforcement de l'implantation chrétienne en Mésopotamie et dans la haute vallée de l'Euphrate, au détriment de la Syrie du Nord[10].

Dès son arrivée au pouvoir en Egypte, Saladin prit des mesures pour rétablir une observation plus stricte des règles imposées aux dimmis[11]. Il fit de même à Alep après s'être emparé de la ville en 579 H. / 1183. Mais après la reconquête de Jérusalem en 583 H. / 1187, la politique du souverain s'adoucit[12].

Il fit même rédiger pour Alep un décret, témoignant ainsi de sa volonté de bien traiter les dimmis: une politique poursuivie généralement par ses successeurs[13], qui permit à un grand nombre de juifs et de chrétiens de conserver leurs fonctions dans l'administration et leur place dans la vie culturelle et scientifique, durant la majeure partie de la période ayyūbide[14]. Ainsi, nous pouvons dire que la société des états ayyūbides, comme bien d'autres sociétés des pays d'Islam à cette époque, était composée d'une mosaïque de communautés où se côtoyaient des hommes et des femmes d'origine ethnique, d'appartenance religieuse et statut juridique très divers[15].

Cette époque, coïncidant également avec les croisades, marqua les relations entre les Ayyūbides et les Francs des Etats latins d'Orient aussi bien que d'Occident, se développant simultanément sur les plans de la confrontation politique et militaire et des échanges. Sous Saladin, les guerres étaient pratiquement permanentes; sous ses successeurs, alors que les Etats latins d'Orient furent réduits au rang de puissance subalterne, le rôle de la diplomatie s'affirma, et les conflits militaires, pour violents qu'ils soient, devinrent épisodique: ils se réduisirent aux entretiens des

---

[10] *L'Orient au temps des croisades*, p. 337.

[11] Sallām Sāfi'i, *Ahl al-dimma*, pp. 216-217.

[12] *L'Orient au temps des Croisades*, p. 344; *L'art copte en Egypte*, p. 32.

[13] Plus précisément sous le règne du sultan al-Kāmil qui passe pour avoir été le plus favorable qui fut pour l'église. Il fit preuve d'un esprit de tolérance et de diplomatie bien en avance de son époque et fut même accusé par ses contemporains d'un défaut de ferveur religieuse, voir Qasim 'Abdu, *Ahl al-dimma*, pp. 58-59; Sallām Sāfi'i, *Ahl al-dimma*, p. 217; R. L. Devonshire, *L'Egypte musulmane*, (Le Caire, 1982), pp. 59-60; Ismat Gunaym, *al-Dawla al-ayyūbiya wa'l ṣalibiyyūne*, (Alexandrie, 1987), pp. 94-95; L'art copte en Egypte, p. 32.

[14] L'Orient au temps des croisades, pp. 344-345 ; voir aussi Jill Kamil, *Christianity in the Land of Pharoas*, p. 247.

[15] Eva Baer, Ayyubide *Metalwork with Christian Images*, E. J. Brill, (Leiden, New York, 1989), pp. 2-3; *L'Orient de Saladin*, p. 21.

Rappelons que la conquête musulmane du I^er – II^e siècle de l'Hégire / VII^e – VIII^e siècle Ap. J., avait rassemblé, sous la conduite des califes, un vaste empire s'étendant sur deux mondes anciens: le monde iranien aux riches cultures orientales, et le monde méditerranéen, né de la Grèce et de Rome. Face à ces vieilles civilisations, l'empire califal constitué par les Ummayades de Damas et porté à son apogée par les Abbassides de Bagdad, avait affirmé son originalité et sa force. Les conquérants arabes et leurs descendants avaient réussi à assurer leur domination politique, sociale et religieuse sur les pays conquis, tout en respectant les richesses, les cultures et les religions des populations indigènes[6]

Quant aux califes fatimides, plus tolérants sur le plan religieux et désireux de faire toutes les forces de la nation à la prospérité du pays, à laquelle ils sont eux-mêmes intéressés, ils associent les chrétiens[7] aux tâches des l'administration comme aux réalisations artistiques[8]. D'une manière générale, on pourrait dire que les califes fatimides se sont montrés d'une bienveillance assez exceptionnelle envers leurs sujets chrétiens, leur confiant même de postes de très haute responsabilité[9]. Notons également que durant la deuxième moitié du califat fatimide, les juifs et surtout les chrétiens vivaient encore en assez grand nombre dans les états musulmans du Proche-Orient. Ainsi, les listes épiscopales du patriarche jacobite Michel le syrien (V^e / XI^e siècle), témoignent d'un

---

[6] Pierre du Bourguet, S.J., *L'art copte*, Albin Michel, (Paris, 1968), p. 183; L'Orient au temps des Croisades, Présentation, traductions et notes par Anne Marie Eddé et Françoise Micheau, Flammarion, (Paris, 2002), p. 1. Il faudra rappeler que les juifs et les chrétiens étaient considérés comme ahl al-kitāb, gens de livre et étaient soumis dans tous les pays de l'Islam à la dimma, convention par laquelle les musulmans leur accordaient protection pour leur personne et leurs biens, d'où leur nom de dimmi, protégés. Ils étaient astreints à payer la ğiziyah, impôt personnel, et le ḫarāğ, impôt foncier, dont étaient exemptés les femmes, les enfants, les esclaves, les infirmes, les déments et parfois les moines. Pour mieux de détails concernant les droits accordés aux tributaires et aux mesures qui leur étaient imposés voir Sallām Šāfi'i Maḥmūd, *Ahl al-dimma fi Miṣr fi'l'aṣr al-fāṭimi al-tāni wa'l'aṣr al-ayyūbi*, (Le Caire, 1982); Claude Cahen, Orient et Occident au temps des Croisades, Aubier Montaigne, (Paris, 1983), pp. 16-20; voir Ibn Qayim al-Ğawziyah, *Aḥkām ahl al-dimma*, Réalisé par Subḥi al-Sāliḥ, (Bayrūt, 1994); *L'art copte en Egypte, 2000 ans de christianisme*, Exposition présentée à l'Institut du monde arabe, IMA, (Paris, 2000), pp. 30-31; *L'Orient au temps des croisades*, pp. 338-339; Jill Kamil, *Christianity in the Land of the Pharoahs, The Coptic Orthodox Churches*, AUC Press, (Le Caire, 2002), pp. 224, 226, 235-239, 246-247.

[7] Sauf exception, par exemple sous le calife al-Hākim, voir Qāsim 'Abdu, *Ahl al-dimma fi miṣr fi'l 'uṣūr al-wusṭā* (Le Caire, 1977), pp. 55-56.

[8] Du Bourguet, *L'art copte*, p. 183.

[9] *L'art copte en Egypte*, p. 31-32.

L'entrée du Christ à Jérusalem d'après les objets d'art islamique

Hiba Yūsuf
Faculté de Tourisme et d'Hôtellerie
Université de Hilwān

La présence récurrente de thèmes chrétiens sur les objets d'art islamique datés de l'époque ayyūbide et le début d'époque mamlūke, constituent une élaboration remarquable à la règle de modération et d'austérité qui caractérise la production artistique d'alors. Le contexte est à la fois curieux et intrigant, et, la raison d'être de telles représentations ne nous apparaît pas clairement[1]. Certains auteurs y voient des symboles de domination religieuse : quelques objets auraient été commandés par des chrétiens; de même, l'iconographie n'exclut pas de commanditaires musulmans. S'agirait il donc ici d'un symbole affirmé de supériorité religieuse sur les croisés[2] ?

Il est difficile de les considérer ainsi, surtout que ces images ne représentent que des clercs, des scènes monastiques et des épisodes de la vie du Christ. Elles semblent plutôt témoigner une tranquille cohabitation d'ordres religieux et de petites communautés chrétiennes dans un environnement musulman[3].

Cette iconographie illustre, d'autre part, les échanges entre communautés musulmane et chrétienne à cette époque marquée par les royaumes francs d'Orient[4]. Comme l'a déjà remarqué Max Van Berchem: " Si ce fait curieux ne prouve pas que tous ces (cuivres) soient l'ouvrage d'artistes chrétiens, il trahit du moins l'éclectisme de ces princes, en matière d'art. On peut rappeler à ce propos les rapports étroits entre les princes musulmans et les princes chrétiens de Syrie, et les tendances très marquées de plusieurs princes ayyūbides [5] ".

En abordant ce sujet, il nous parait utile de mettre, d'abord, l'accent sur la situation des communautés chrétiennes en Egypte et en Syrie, vis-à-vis de la souveraineté musulmane.

---

[1] Ranee E. Katzenstein and Glend D. Lowry, *Christian Themes in Thirteenth Century Islamic Metalwork, Muqarnas*, Yale University Press (New Haven, London, 1983), I, p. 53; *L'Orient de Saladin, l'art des Ayyoubides*, Exposition présentée à l'Institut du monde arabe, Paris, du 23 Octobre 2001au 10 Mars 2002, *IMA*, (Paris, 2001), p. 30.
[2] Rachel Ward, *Islamic Metalwork*, British Museum Press, (London, 1993), p. 85.
[3] *L'Orient de Saladin*, p. 30.
[4] *L'Orient de Saladin*, p. 127.
[5] Voir Max Van Berchem, "Notes sur les croisades," *Journal Asiatique*, 9e série, XIX, (Paris, 1902), pp. 387-393, 439; Migeon, *Manuel d'art musulman, Arts plastiques et industriels*, II, (Paris, 1927), p. 52.

Studies on the Islamic History and Monuments

Collection of Studies dedicated to Prof. Ahmad Abdel Raziq Ahmad

Edited by
Tarek M. Muhammad & Mahasen M. al-Wakkad

Cairo 2010









مصر العربية للنشر والتوزيع
تليفاكس 22562268 / ت 24505863
masrelarabia@hotmail.com